من كنوز القرآن
٩

القصص القرآني

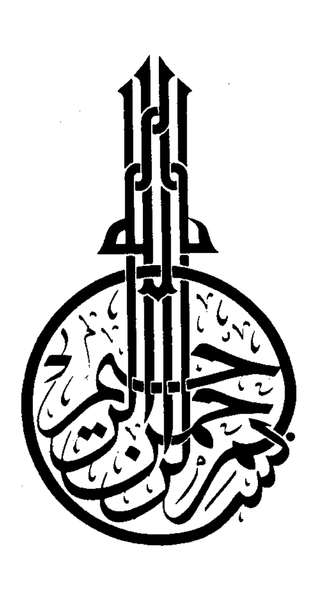
عرض وقائع وتحليل أحداث

تأليف
الدكتور صلاح الخالدي

الجزء الرابع

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

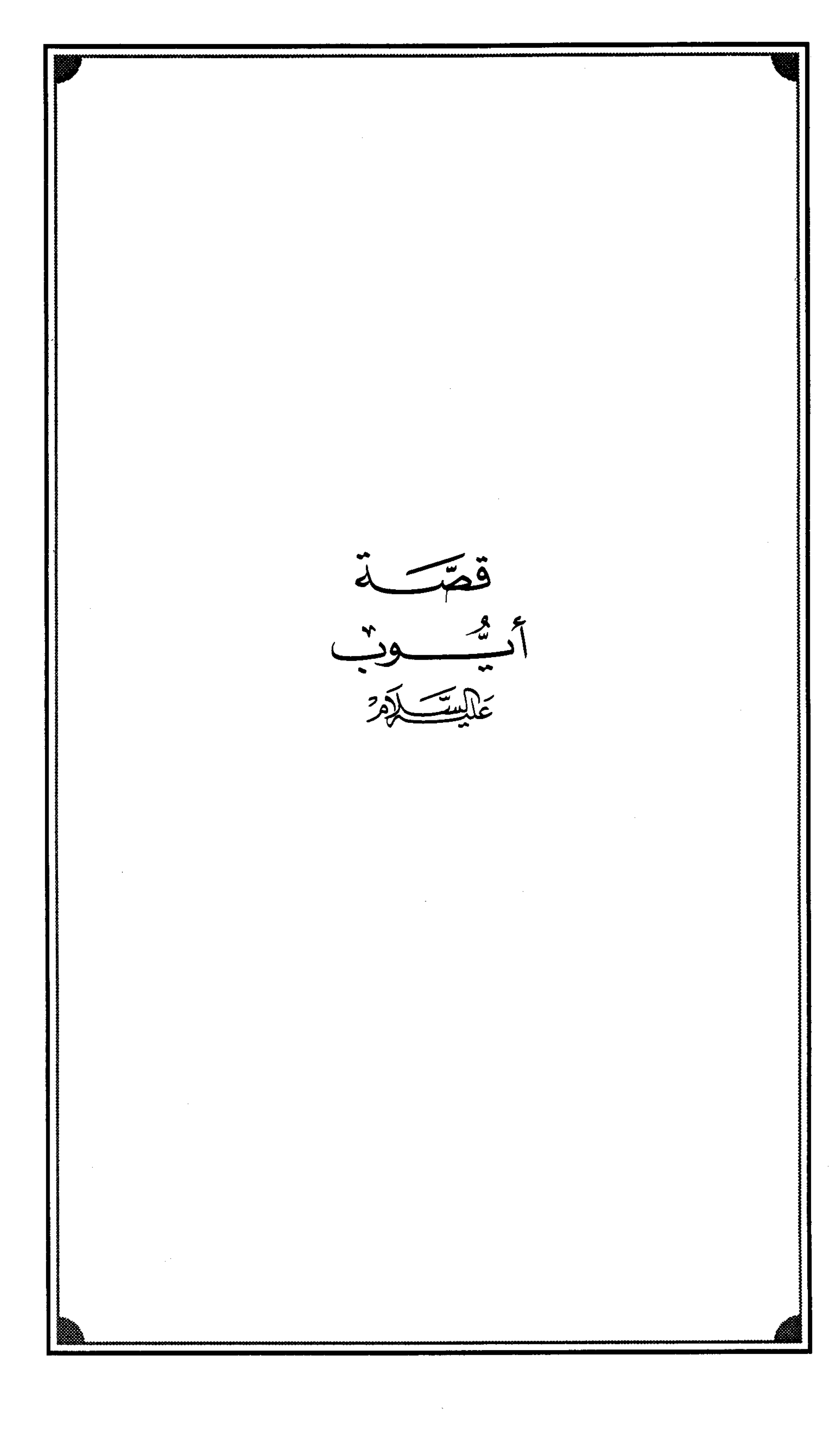



القصص القرآني

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



قصّة أيُّوبْ

عليه السلام



[١]

ذكر أيوب عليه السلام في القرآن

وردَ اسمُ أَيوبَ عليه السلام أربعَ مرات في القرآن: في سور النساء، والأنعام، والأنبياء، وص.

حديث سورتي النساء والأنعام عن أيوب:

في سورةِ النساء وردَ اسمُه ضمنَ مجموعةٍ من الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

ونصَّت الآيةُ بأنَّ اللَّهَ أَوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الوحي، ومعلومٌ أنَّ جبريلَ عليه السلام هو أمينُ الوحي، وأنَّ اللَّهَ كان يرسلُه إلى مَنْ يتخذه نبياً، ليبلِّغَه النبوة.

فأيوب عليه السلام نبيٌّ من أنبياءِ الله، أَوحى اللَّهُ إليه، بنصِّ هذه الآية.

وفي سورةِ الأنعام وردَ اسمُ أيوب أيضاً ضمنَ مجموعةٍ من الأنبياء عليهم السلام، وذلك في ختام الحديثِ عن مشهدٍ من مشاهدِ قصةِ إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٤].

الكلامُ في الآيةِ عن إبراهيمَ عليه السلام، لأنَّ الآياتِ السابقةَ تتحدثُ عنه، فالضميرُ في «له» يعودُ على إبراهيم عليه السلام. أي: أنَّ اللَّهَ وهبَ لإبراهيم إسحاقَ ويعقوبَ عليهم السلام.

والراجحُ أنَّ الهاءَ في «ذريته» تعودُ على إبراهيم أيضاً عليه السلام، فالأنبياءُ المذكورون بعدَها هم من ذريةِ إبراهيم، وهم: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وإسماعيل واليسع ويونس ولوط، عليهم السلام.

وهذا يدلُّ على أنَّ أيوبَ عليه السلام كان من ذريةِ إبراهيم أَبي الأنبياءِ عليه الصلاة والسلام.

وحديث سورتي الأنبياء وص عن أيوب:

وتحدثتْ سورةُ الأنبياءِ عن أيوبَ عليه السلام في آيتين من آياتها [٨٣ ـ ٨٤]، وموضوعُ الآيتين هو الإشارةُ السريعةُ إلى ابتلاءِ أيوب عليه السلام، حيث تضرعَ إلى ربه، طالباً منه كشفَ الضر، فاستجابَ اللّهُ له ورحمَه، فكشفَ ضُرَّه وعَوَّضَه من أهله مثلهم معهم.

وجاءتْ هذه الإشارةُ عن أيوب، بعد الإشارةِ إلى لقطاتٍ من قصةِ داود وسليمان عليهم السلام.

وتحدثَتْ سورةُ ص عن أيوبَ عليه السلام في ثلاثٍ من آياتها: [٤١ ـ ٤٤]، وموضوعُ الآيات هو نفسُ موضوعِ آياتِ سورةِ الأنبياء، ابتلاءُ أيوبَ بالضر، لكن فيها بعضَ التفصيل والإضافة، وإنْ جاءَ هذا التفصيلُ المجملُ بصورةِ إشارةٍ سريعة أيضاً.

تتحدثُ الآياتُ عن تضرعِ أيوبَ إلى ربه، طالباً منه رفعَ الضرِّ عنه، وتشيرُ الآياتُ إلى أنَّ اللّهَ عافاه من المرضِ والضر، بأنْ دعاهُ إلى ماءٍ بارد، ليغتسلَ فيه ويشربَ منه. كما تشيرُ الآياتُ إلى تكفيرهِ عن يمينٍ أقسمه بأنْ يأخذَ غُصْناً من شجرة، فيضربَ به مَنْ حلفَ أنْ يضربَه.

ويَشهدُ اللّهُ لنبيِّه أيوب عليه السلام بأنَّه وجَده صابراً، وأَنه كان نعمَ العبد للّهِ، الأوابِ إلى الله.

وجاءَ الحديثُ عن أيوب بعدَ الحديثِ عن داود وسليمان، عليهم الصلاة والسلام.

وحديثُ القرآن عن أيوبَ بعد الحديث عن داود وسليمان عليهم

السلام في سورتي الأنبياء وص، يوحي بأنَّ أيوبَ عاشَ بعد داودَ وسليمان، وبعثَه الله نبياً إلى قوم بعدهما، وهذه إشارةٌ بالإيحاءِ والاستئناس، نذكُرُها من باب الاحتمال، والله تعالى أعلم.

هذه هي مواضعُ الحديثِ عن أيوب عليه السلام في القرآن، وحديثُ القرآن عنه هو إشاراتٌ سريعةٌ عن نبوتِه وابتلائِه وتضرعِه إلى الله، ثم استجابةِ الله له ورفع الضرِّ والعذاب عنه، وشهادةِ له بالصبر والإنابة إلى الله.

مبهمات في قصة أيوب:

ونلاحظُ أنَّ الحديثَ القرآنيَّ القصيرَ الموجزَ عن قصة أيوب عليه السلام، كان بهدفِ العبرةِ والعظة، ليقتديَ أصحابُ الابتلاء بأيوب عليه السلام في ابتلائه، ليصبروا كما صبر، ويتحمَّلوا كما تحمل، ويرضوا بقدرِ الله كما رضي هو، ويُقبلوا على الله كما أَقبل هو، ويتضرَّعوا إلى الله كما تضرع هو، وينتظروا الفرجَ من الله كما انتظر هو.

ونلاحظ أنَّ هناكَ مبهماتٍ كثيرةً في حديثِ القرآن عن أيوب عليه السلام، وهذه المبهماتُ لم يرِدْ لها بيانٌ في الأحاديثِ الصحيحة.

من هذه المبهماتِ التي لن نُتعبَ أَنفسنَا في بيانِها، لعدمِ وجودِ دليل عليها في الأحاديث والآيات: نَسَبُ أيوبَ عليه السلام، وتحديدُ الزمان الذي بُعث فيه، هل هو بعدَ إبراهيم أم بعدَ سليمان عليهم السلام، وتحديدُ القوم الذين بعثَهُ اللّهُ إليهم، وتحديدُ المدينةِ أو المنطقةِ التي عاشَ فيها، وتحديدُ عمرِه عند النبوة، وعمرِه الذي مات عنه، وعددِ أهله منِ الأولاد والبنات، وأسماءِ زوجِه وأولادِه وبناته، وعددِ أمواله من الأنعام والماشية، وتحديدُ سببِ ابتلائه، وأَنواعِ الأمراضِ التي أصابتْه، وتفاصيلُ هلاك أمواله وأهله، وتفاصيلُ الحوارِ بينه وبين أصدقائه، ومظاهرُ مرضه وتطوراته عليه، وتفاصيلُ الخلاف بينه وبين امرأته، ثم تفاصيلُ شفائِه من الأمراض، وتفاصيلُ عودةِ أهله وأمواله.

كلُّ هذه الموضوعات والمسائل من «مبهمات القرآن» التي لم يَرِدْ

بيانٌ لها في الآيات والأحاديث الصحيحة المرفوعة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فلا نحاولُ بيانَها، ولا نَخوضُ في الحديثِ عنها.

التحذير من سفر أيوب في العهد القديم:

هذا وقد وردَ الحديثُ عن أيوبَ عليه السلام في العهدِ القديم، وخَصَّصَ مؤلفو العهدِ القديم له سَفْراً خاصاً، هو السِّفْرُ الثامن عشر من أَسفارِ العهد القديم، وتحدَّثوا عنه في اثنين وأربعين إصحاحاً، وفصَّلوا الكلامَ عن سيرتِه وأمراضِه، وتسليطِ الشيطان عليه، وإهلاكِه لأمواله وأولاده، ثم إصابتهِ بالأمراض العديدة المنفرة، كما فصَّلوا الكلامَ في الحواراتِ بينه وبين أصدقائه الذين كانوا يزورونه، ويؤنِّبونَهُ على كلامه.

وقد صوَّرَ مؤلفو «سَفْرِ أيوب» في العهد القديم أيوبَ عليه السلام بصورةِ الإنسانِ المحبطِ الجزعِ اليائس، مما أصابه من الابتلاء والأمراض، الإنسانِ الكارهِ للحياة، الذي يتمنّى الموت، الإنسانِ الساخطِ على الله، المحتجِّ عليه، المعترضِ على قدره، الذي يكلِّمُه بعباراتٍ كلُّها وقاحة وشكوى واعتراض ولومٌ وتأنيب، عبارات نجزمُ جَزْماً أَنها لم تصدرْ عن نبيِّ الله أيوب عليه السلام.

وقد استهوَتْ هذه التفصيلاتُ عن أيوبَ عليه السلام في التراث الإسرائيلي بعضَ المؤرخين والمفسرين من المسلمين، فأَوردوها في تواريخهم وتفاسيرهم، وفسَّروا بها كلامَ الله سبحانه.

ونحنُ على منهجِنا في بحثِ القصص القرآني سنتجاوزُ هذه التفصيلات، ولا نلتفتُ إِليها، وسنبقى مع حديثِ القرآن عن ابتلاء أيوب عليه السلام.

[٢]

حديث سورة الأنبياء عن ابتلاء أيوب

كان الحديثُ عن ابتلاءِ أيوبَ عليه السلام في سورةِ الأنبياء مجْمَلاً موجَزاً، على شكلِ إِشارةٍ سريعة.

نداء أيوب لربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾:

قال الله عز وجل: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

«أيوبَ» في الآية منصوب، على أنه مفعولٌ به لفعلٍ مقدَّر، تقديرُه: اذكُرْ أيوبَ.

هذا هو الراجحُ في إعرابه، لأن الفعلَ الذي قَدَّرْناه هنا مذكورٌ صراحةً في سورة ص. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ . . .﴾ [ص: ٤١].

والخطابُ في الآيةِ لرسولِنا محمدٍ ﷺ، ولكلِّ مسلم متذكِّرٍ من بعده، يَدعوه اللّهُ إِلى أنْ يتذكَّرَ قصةَ أيوب عليه السلام وابتلائه، ليأخذَ منها العبرةَ والعظة والفائدة.

و«إذْ» ظرفُ زمان بمعنى «وَقْت». والجملةُ بعده ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ في محلِّ جرٍّ مضافٍ إِليه. أي: وقْتَ ندائِه لربه.

فالقرآنُ يدعونا إِلى تذكُّرِ هذه اللقطةِ الإِيمانيةِ العباديةِ من قصة أيوب عليه السلام: واذكُرْ أيوبَ وقْتَ ندائِه لربِّه.

متى نادى أيوبُ ربَّه؟ ومتى تضرَّعَ إِليه واستغاثَ به؟

بعد أَن ابتلاهُ اللّهُ بالضرِّ الذي أَصابَه، والذي سيطرَ عليه، وبعدَ أنْ واجَهَ هذا الضرَّ والابتلاء بالصبرِ والاحتساب، وبعد أنْ رضيَ بقضاءِ الله وقَدَرِه، وطلبَ بذلك الأجرَ والثواب منه.

ونداءُ أيوبَ لربِّه ليكشفَ عنه ضرَّه، وكان نداؤه قولَه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أَطْلَعَ أيوبُ في ندائِه ربَّه على حالِه وابتلائه ومرضِه، وهو يعلمُ

أنَّ ربَّه مطّلعٌ عليه، عالمٌ بحاله، لكنه يريدُ أنْ يسألَه ويتضرَّعَ إليه ويدعوه لكشفِ هذا الضر.

ومعنى «مسني»: أَصابني وَوَقَعَ عليّ.

و«الضرّ» هو الأَذى والمرضُ الذي أَوقعه اللّهُ على جسمه، والذي مسَّ وأَصابَ بدنَه.

الفرق بين الضُّر بالضم والضَّر بالفتح:

والضُّرّ مشتقٌ من «ضَرَرَ». يقال: ضَرَّه ضُرّاً وضَرَراً. إِذا أَلحقَ به مكروهاً أَو أَذى.

والضُّرُّ هو: ما كان من سوءِ حالٍ أَو فقرٍ أَو شدةٍ في البدن[1].

وقد جعلَ الإمامُ الراغبُ الضُّرَّ على ثلاثةِ أَوجه. قال: «الضُّرّ: سوءُ الحال. إِمّا في نفسه: لقلةِ العلمِ والفضلِ والعفة. وإمّا في بدنِه: لعدم جارحة ونقص، وإِمّا في حالةٍ ظاهرة: من قلةِ مالٍ وجاه.

وقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ محتملٌ لهذه الثلاثة..»[2].

وقد وَرَدَ في القرآن مصدران: الضَّرُّ بالفتح. والضُّرُّ بالضمّ. وليسا بمعنى واحد، لأَنه لا ترادفَ في القرآن.

الضَّرُّ ـ بفتحِ الضاد ـ وَرَدَ عشرَ مرات، وهو في هذه المراتِ كلِّها مذكورٌ في مقابلةِ النفع. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا..﴾ [المائدة: ٧٦]. وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ..﴾ [الحج: ١٣].

أمّا الضُّرُّ ـ بضم الضاد ـ فقد وَرَدَ تسعَ عشرةَ مرة. وهو في هذه

---

(١) انظر المعجم الوسيط: ٥٣٧ ـ ٥٣٨.

(٢) المفردات: ٥٠٣.

المرات كلِّها مطلق، لم يُذكَرْ مقابلهُ النفع. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]. وكما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦].

وبما أَنه بالفتح مقرونٌ بالنفع، وبالضمِّ مطلق، فيبدو أَنَّ «الضُّرَّ» أعمُّ، لأنه لم يُذكر ما يقابلُه في القرآن. أمّا «الضَّرُّ» بالفتح فهو أَخَص.

ويدلُّ قولُ أيوبَ عليه السلام: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ على أنَّ اللَّهَ ابتلاه ابتلاءً عاماً، فأَوْقَعَ به ضُرّاً مطلقاً، شاملاً لعدةِ أَنواعٍ من المكروه والأذى.

مَسَّهُ الضرُّ في نفسِه وبدنِه، حيث أَصابه المرضُ والضعف. ومَسَّهُ الضُّرُّ في أهلِه وأولاده، ولا نعرفُ كيف، ومَسَّهُ الضُّرُّ في أمواله وممتلكاته، ولا نعرفُ كيف.

وعدمُ تقييدِ المجال الذي أَصابه الضرُّ في الآية: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ يدلُّ على العمومِ والشمولِ واستغراقِ كل المجالات والجوانب.

أدب أيوب مع الله في دعائه له:

وبعدما ذكرَ أَيوبُ عليه السلام حالَتَه بهذه الجملة الموجزة: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾، ذكَرَ رحمةَ الله الغامرة، فقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وهذه الجملةُ الاسمية ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ في محلِّ نصبِ حال. لأنَّ «الواو» فيها هي واوُ الحال. أي: أنا مسني الضر، والحالُ أنك أرحمُ الراحمين.

ومعنى هذه الجملة أنَّ أيوبَ عليه السلام يتوسَّلُ إلى الله برحمتِه أنْ يكشفَ عنه ضرَّه، فاللّهُ رحمنٌ رحيم، وهو أرحمُ الراحمين، ومن مظاهرِ رحمته أنْ يكشفَ الضرَّ عن عباده، وبخاصةٍ إذا كانوا عباداً صالحين كأيوب عليه السلام.

وعندما ننظرُ في دعاءِ أيوب عليه السلام لربِّه، فسوف نرى أَنه كان في غايةِ الأَدبِ مع الله، والرضا بقدر الله، والرغبة في كشف ابتلاء الله.

إِنه لم يفصِّلْ في الضرّ الذي مسَّه، ولم يسترسلْ في الكلامِ عنه، فقطْ أشارَ إلى أنَّ هذا الضرّ مسَّه. ليس في دعائِه شكوى أو سخط، ولا تبرُّمٌ أو اعتراض. فلم يعترضْ على ابتلاءِ الله له، ولم يسخطْ على قدرِ الله.

أين هذا الخطابُ العفيفُ والدعاءُ الأديب والمناجاةُ الراضية، مما نسبَهُ له اليهودُ المجرمون مؤلِّفو العهدِ القديم، من عباراتٍ كلُّها توقُّحٌ على الله، ولومٌ وتأنيبٌ له، وذمٌّ لقَدَرِه؟ إنَّ أيوبَ الأديبَ مع الله منزَّهٌ عن افتراءاتِ مؤلفي سَفْرِ أيوب في العهدِ القديم.

ودعاءُ أيوبَ عليه السلام لربِّه، وتوسُّلُه برحمتِه ليكشفَ عنه الضر، دليلٌ على أنَّ الأصلَ في المبتلى بالضّرّ أنْ يطلبَ من اللّهِ كشفَ ضره، وأنْ يتضرعَ إليه ويدعوه راغباً في ذلك، على شرطِ أنْ يكونَ دعاؤه وتضرعُه بأدبٍ مع الله، وعدمِ الاعتراض عليه، أو السخطِ على قدره.

وهذا الدعاءُ والتضرعُ من لوازم الإيمانِ بالله، ولا يُنافي تسليمَ الأمرِ لله، والرضا بقدره، وإنّ اللّهَ يريدُ من عباده دعاءَه وطلبَ حاجاتِهم منه.

استجاب الله لدعاء أيوب وكشف ضره:

وبعدما دعا أَيوبُ عليه السلام ربَّه استجابَ اللّهُ له، فكشفَ عنه ضرَّه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ..﴾.

وجملةُ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، وعُطِفَتْ عليها بحرفِ العطفِ «الفاء»، وهذا الحرفُ يدلُّ على الترتيبِ والتعقيب الفوري، أي أنَّ الاستجابةَ كانت فورية، وبعد الدعاءِ مباشرة،

وهذه الاستجابةُ رحمةٌ من الله به، وقَدَّرَ اللّهُ أنْ يجعلَها مترتِّبةً على الدعاء، فالدعاءُ سببٌ في الاستجابة، لكنَّ المسبَّبَ والمقدِّرَ والمريدَ هو الله سبحانه.

وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وجملةُ ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ معطوفة على جملةِ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ بحرفِ العطفِ الفاء، الدالِّ على الفورية، أي أنَّ كشْفَ الضرِّ عنه كان مباشراً للاستجابة، وكان ثمرةً فورية لها.

وكشْفُ الضرِّ الذي مسَّه، وإزالتُه عنه، دليلٌ على رحمةِ الله به، بعدما نجحَ في الابتلاء، وصبرَ على البلاء.

وإنَّ اللّهَ هو الذي يكشفُ الضرَّ عن عباده، ولا يزيلُه أحدٌ غيرُه سبحانه وتعالى. قال عز وجل: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

ولا تبينُ الآيةُ كيفيةَ كشفِ الضرِّ عن أيوب عليه السلام، وإنْ كانَ هناك إشارةٌ خاطفةٌ في آيةِ سورة ص، سنتوقفُ عندها قليلاً عندما نصلُها إنْ شاء الله.

الله رحم أيوب وجعل قصته ذكرى للعابدين:

كشفَ اللّهُ عن أيوبَ الضرَّ الذي مسَّه في بدنه، وعافاه من أمراضه، كما أزالَ الضرَّ الذي أَصابه في أهله، وضاعَفَهم له: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ..﴾.

وهذه الجملةُ مبهمةٌ غيرُ مبينة، وكلُّ ما نأخذُه منها أنَّ اللّهَ آتى أيوبَ عليه السلام أهله، وآتاه مثلَهم معهم أيضاً.

أما تحديدُ هؤلاء الأهل فلا دليلَ عليه. فلا نعرفُ درجةَ قرابةِ

الأهلِ له، وهل هم أولادُه أَم بناته، ولا نعرفُ عَدَدهم، ولا نعرفُ كيفَ آتاهُ الله إياهم، ولا نعرفُ كيف آتاهُ مثلَهم معهم، وهل كان بمضاعفةِ عددِ أولاده أم بوسيلةٍ أخرى.

لا نخوضُ في هذه التفصيلات لعدمِ وجودِ أَحاديثَ صحيحة نعتمدُ عليها، ونَبقى عند بيان القرآن.

وأَخبرَنا اللّهُ أنهُ كشفَ عن أيوب الضرَّ وآتاهُ أهلَه ومثلَهم معهم رحمةً منه: ﴿رَحۡمَةً مِّنَّا﴾. أي: فعلَ ذلك به رحمةً منه له.

فأيوبُ عليه السلام طامعٌ في رحمة الله، حيث قال: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، واللّهُ عند حسنِ ظنِّه، حيث استجابَ له برحمته: ﴿رَحۡمَةً مِّنَّا﴾.

وجعلَ اللّهُ قصةَ أيوبَ عليه السلام ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾.

والعابدون هم المؤمنون بالله، المستسلمون له، الراضون بقضائه، الصابرون على ابتلائه، المتضرعون إليه.

إِذا ابتلاهم اللّهُ بالضرِّ يتذكَّرون ابتلاء أيوب عليه السلام، فيقتدون به في فعلِه، فيصبرون ويحتسبون، ويطلبونَ من اللّهِ كشفَ الضرِّ عنهم برحمته، بدونِ جزعٍ ولا سخط.

[٣]

أيوب المبتلى الصابر الأواب في سورة ص

قلنا إِنَّ ابتلاءَ أيوبَ عليه السلام في سورة الأنبياء، جاءَ على صورةِ إِشارةٍ سريعةٍ خاطفة.

ما أضافته سورة ص على سورة الأنبياء من قصته:

أَما سورةُ ص ففيها بعضُ توضيحِ لذلك، وذلك التوضيحُ لا يخرجُ عن كونه إِشارةً سريعة أيضاً.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٤].

وما أضافَتْه آياتُ سورةِ ص على آيات سورة الأنبياء، أنَّ أيوبَ عليه السلام نسَبَ ما به من نَصَبٍ وعذاب إلى الشيطان، وأنَّ اللّهَ لما أرادَ كشفَ ضرِّه أمره أنْ يركضَ برجله، وأنْ يغتسلَ ويشربَ من الماءِ البارد، وحَلَّلَه من يمينه بأن يضرب الآخر بضغث.

بدأت الآياتُ بأمْرِ رسولِ الله ﷺ بذكْرِ وتذكُّرِ قصةِ أيوبَ عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾. وهذا الخطابُ ليس خاصاً برسول الله ﷺ، وإنما هو عامٌّ يشملُ كلَّ مسلمٍ من بعده.

والهدفُ من ذكْرِ وتذكُّرِ قصةِ أَيوب عليه السلام هو الاقتداءُ به في موقفِه من الابتلاء بالضراء، والاستفادةُ من ذلك في مزيدٍ من الإقبالِ على الله.

لماذا وصف أيوب بالعبد؟:

وقد أَثنى اللّهُ على أيوبَ عليه السلام حيثُ وصفَه بالعبودية، وجاءَ ذلك في بدايةِ الآياتِ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ وفي آخر الآيات: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

كان أيوبُ عليه السلام صادقَ العبوديةِ لله، وكان ما يأتيه من اللّهِ من ابتلاءٍ يزيدُه عبوديةً لله، ورضا بقدره، وخضوعاً واستسلاماً له، كيف لا يكونُ كذلك وهو نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، والأنبياءُ أكثرُ الناسِ عبوديةً وطاعةً وخشيةً لله.

ووصْفُه بالعبوديةِ لله في سياقِ الحديثِ عن الابتلاء يدلُّ على أنَّ مِن حكمةِ ابتلاءِ الله لعبادِه بالبأساء والضراء تعميقَ عبوديتِهم له،

فالمؤمنُ المبتلى بالضر، يزدادُ عبوديةً وخضوعاً لله، عندما يصبرُ ويحتسب، ويُقبلُ على الله داعياً منيباً متضرعاً خاشعاً، وإنَّ اللّهَ يحبُّ العبدَ اللحوحَ في الدعاء.

ولما ابتلى اللّهُ أَيوبَ نادى ربَّه وتضرعَ إليه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

النصب والعذاب الذي أصابه:

وفي قوله: «بِنُصْبٍ» ثلاثُ قراءات:

الأولى: قراءةُ أَبي جعفر المَدني: «بِنُصُب». بضمِّ النون والصاد.

الثانية: قراءةُ يعقوب: «بِنَصَب». بفتحِ النونِ والصاد.

الثالثة: قراءةُ الثمانية الباقين: «بِنُصْب». بضمِّ النون وسكونِ الصاد.

قال الإمامُ الراغب: «النُّصْبُ، والنَّصَبُ: التَّعب. مثل: بُخْل وبَخَل»[(١)].

وقال السمين: «النُّصْبُ والنَّصَبُ: التعب. قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨]، وكذلك هو البُخل والرُّشد. تقول: بُخْلٌ وبَخَلٌ، ورُشْدٌ ورَشَدٌ، وَعُدْمٌ وعَدَمٌ، وحُزْنٌ وحَزَنٌ، وعُرْبٌ وعَرَبٌ. بالضمِّ والفتحِ فيها كلها»[(٢)].

وفرَّقَ الإمامُ الطبريُّ بين الكلماتِ الثلاثة: النُّصْبُ والنَّصَبُ والنُّصُبُ:

«النُّصْبُ ـ بضمِّ النون والسكون ـ العلةُ التي أصابتْه في جسده.

والنَّصَبُ ـ بفتحِ النون والصاد ـ الإعياء.

---

(١) المفردات: ٨٠٧ ـ ٨٠٨.

(٢) عمدة الحفاظ ٤: ٢٠٨.

والنُّصُبُ ـ بضمّ النون والصاد ـ العذاب.

والنَّصْبُ ـ بفتحِ النون وسكون الصاد ـ البلاءُ والشر.

قال قتادة: النُّصْبُ: الضرُّ الذي أَصابَه في جسده. والعذابُ: ذهابُ المال والأهل..»[1].

ونحنُ مع قتادة رحمه الله في التفريقِ بين النُّصْبِ والعذاب، في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. حيثُ حملَ النُّصْبَ على الضرِّ الذي أَصابَه في جسده، والذي سببَ له التعبَ والمشقة والإِعياءَ والمرضَ والأذى والألم، أمّا العذاب، فهو الابتلاءُ الذي صَبَّه اللّهُ على مالِه وأهله، حيثُ أهلَكَ اللّهُ مالَه.

ونسبَ أَيوبُ عليه السلام ما مسَّه من نُصْبٍ وعذابٍ إلى الشيطان: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: وهذا من أَدَبِهِ مع الله. وإلاّ فإنَّ اللّهَ هو الذي قَدَّرَ أنْ يبتليَه، ويوقعَ به الضر، ويُصيبَه النَّصَبُ والعذاب، لأنَّ اللّهَ هو الذي يفعلُ ما يشاء، ويوقعُ بعباده ما يشاء، وكلُّ ما يصيبُهم من ضرٍّ أو نفع، وخيرٍ أو شر، فهو من الله في الحقيقة، لأنَّ الأُمورَ كلَّها بيده، الخلْقُ خلْقُه، والأمْرُ أمْرُه، والفعْلُ فعْلُه سبحانه.

المصائب بين كسب الإنسان وإرادة الله:

لكن ما يصيبُ الناسَ من ضرٍّ أو مصيبةٍ فبسببِ أَفعالِهم: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾..﴾ [الشورى: ٣٠].

إنَّ أفعالَهم سببٌ ماديٌّ ظاهريٌّ لما يصيبهم، أمّا المسبِّبُ والمقدِّرُ والمريدُ فهو اللّهُ سبحانه. فما يصيبُ العبادَ منسوبٌ إليهم كسباً وسعياً، ومنسوبٌ إلى الله خلقاً وإرادة!!

وقد جمعَ القرآنُ بين هاتيْن النِّسبتين: نسبةِ الضرِّ والسيئةِ إلى الله،

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٦:٤٠٥ ـ ٤٠٦.

ونسبتهما إلى الناس، فقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٨ ـ ٧٩].

ومع تأكيدِ هذه الحقيقةِ الإيمانية عند المؤمنين إلاّ أنهم لا ينسبونَ الضرَّ والشرَّ إلى الله، أَدَباً مع الله.

قال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨٠]. فنَسَبَ الهدايةَ والإطعامَ والسقايةَ والشفاءَ إلى الله، ونسبَ المرضَ إليه، أَدَباً مع الله، مع أنه في الحقيقةِ من الله.

وقالَ يوشعُ فتى موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ..﴾ [الكهف: ٦٣]. فصرح بأن الشيطان هو الذي أنساه الحوت.

لا سلطان للشيطان على أيوب:

على هذا الأَساس ينبغي أنْ نفهمَ نسبةَ أيوبَ عليه السلام إيقاعَ الضرِّ به إلى الشيطان: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ حيثُ فعلَ هذا أَدَباً مع الله، وإلاّ فإنَّ الضرَّ والنَّصَبَ قد أصابَه بأمرِ الله وقَدَرِه سبحانه، ابتلاءً واختباراً له عليه السلام.

وفي الحقيقةِ فإنَّه لا سلطانَ للشيطانِ على أيوبَ عليه السلام، لأَنه نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، وعَصَمَ اللّهُ أَنبياءَه من الشيطان، فلم يجعلْ له سلطاناً عليهم.

ونُحذرُ في هذا المقام من أَكاذيبِ «سَفرِ أيوب» في العهد القديم، التي سَجَّلَها أَحبارُ اليهود الكفار، مؤلِّفو أَسفارِ العهدِ القديم، والتي زعموا فيها أنَّ الشيطانَ طلبَ من الله أنْ يسلِّطَه على أيوب، فسلَّطَه

عليه، فأهلكَ أهلَه، وأبادَ أموالَه، وقضى بالمرض على جسده، فشكا وضْعَه إلى الله..

وقد رَدَّدَ معظمُ المفسرين هذه الأكاذيبَ في تفاسيرهم، وفسَّروا بها قولَه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. ولا يَجوزُ أنْ يُفَسَّرَ كلامُ الله بهذه الإسرائيليات المكذوبة المفتراة.

القاضي ابن العربي يرفض الإسرائيليات في ابتلاء أيوب:

ونقلَ الإمامُ القرطبيُّ في تفسيرِه كلاماً جيداً للقاضي أبي بكر بن العربي، في الردِّ على تلك الإسرائيليات، ولوْمِ الذين ردَّدوها من المسلمين.

قال: «والذي جَرَّأَهم على ذلك، وتَذَرَّعوا به إلى ذكر هذا، قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. فلما رأَوه قد شَكا مسَّ الشيطان، أضافوا إليه من رأْيهم ما سبقَ من التفسير في هذه الأقوال.

وليسَ الأمرُ كما زعموا.

والأَفعالُ كلُّها، خيرُها وشرُّها، في إيمانِها وكفرها، وطاعتها ومعصيتها، خالِقُها هو الله، لا شريكَ له في خلْقِه، ولا في خلْقِ شيءٍ غيرِها.

ولكنَّ الشرَّ لا يُنسبُ إليه ذكْراً، وإنْ كان موجوداً منه خَلْقاً، أَدَباً أَدَّبَنا به، وتَحميداً عَلَّمَناهُ. وكانَ من ذكْرِ محمد ﷺ لربِّه به قولُه من جملته: «والخيرُ في يديك، والشَّرُّ ليس إليك..»، على هذا المعنى.

ومنه قولُ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾. وقال الفتى للكليمِ عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ..﴾.

ولم يصحّ عن أَيوبَ عليه السلام في أَمْرِه إلاّ ما أَخبرَنا اللّهُ عنه في كتابه، في آيتين: الأُولى قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ

نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾. والثانيةُ في سورة ص: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

وأمّا النبيُّ ﷺ فلم يصحّ عنه أَنه ذكَرَه بحرفٍ واحد، إلاّ قوله: «بينا أيوب يغتسل إذ خر عليه...» الحديث.

وإذْ لم يصحّ فيه قرآنٌ ولا سنة إلاّ ما ذكرناه، فمَنِ الذي يوصِلُ السامعَ إلى أيوبَ خبرَه؟ أمْ على أيِّ لسانٍ سمعَه؟.

والإسرائيلياتُ مرفوضةٌ عند العلماءِ على البتات، فأَعْرِضْ عن سطورِها بَصَرَك، واضمُمْ عن سماعِها أُذنَيْك، فإنّها لا تُعطي فكرَك إلا خيالاً، ولا تَزيدُ فؤادَك إلاّ خبالا...[1].

والخلاصةُ أنه لا سلطان للشيطان على أيوبَ عليه السلام في الحقيقة، وأنَّ اللّهَ هو الذي ابتلاهُ بالنَّصَبِ في بدنه، والعذابِ في ماله، ولكنه ما نسبَ ذلك إلى الله أدباً في مخاطبته، وفي نسبةِ الأُمورِ إليه.

كيفية شفاء أيوب من الضر:

ولما شكا أَيوبُ عليه السلام أَمْرَه وضرَّه إلى الله، بمنتهى الأدبِ والذوقِ واللطفِ أرشدَه اللّهُ إلى العلاج، فقال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)﴾.

قال الراغب: «الركْضُ: الضَّرْبُ بالرِّجْل. فمتى نُسِبَ إلى الراكبِ فهو إغداءُ مَرْكوب، نحو: رَكَضْتُ الفَرَس. ومتى نُسِبَ إلى الماشي فهو وطءُ الأرض..»[2].

يقال: رَكَضَ ركْضاً: إذا عَدا مسرعاً. ويقال: رَكَضَ منه: إذا هربَ منه. ويقال: ركضَ برجله: إذا ضربَ الأرض برجله[3].

(١) تفسير القرطبي ١٥: ٢١٠.
(٢) المفردات: ٣٦٤.
(٣) القاموس المحيط: ٣٦٩.

ومعنى قولِ الله لأيوب عليه السلام: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾: اضرب الأرضَ برجلك.

ويبدو أنه كان واقِفاً على الأرض، وليس أمامَه عينُ ماء، فلمّا أَمَرَهُ اللّهُ أنْ يضربَ الأرضَ برجله، أرادَ أنْ يحققَ معجزةً من معجزاتِه على يدِ أيوبَ عليه السلام.

فلما ضربَ الأرضَ برجله، أَنبعَ اللّهُ عيناً من الماءِ البارد، وَضَرْبُهُ الأرضَ برجله سببٌ لنبْعِ عينِ الماء، لكنَّ المسبِّبَ والمقدِّرَ هو الله. وهذه معجزةٌ من معجزاتِ الله، تذكِّرُنا بمعجزةِ تفجيرِ العيون من الحجر، لما ضربَه موسى عليه السلام بعصاه، وتذكِّرُنا بمعجزةِ نبْعِ ماءِ زمزم أمامَ الرضيعِ إسماعيل لما ضربَ جبريلُ الأرضَ بجناحه.

وبعدما أَنبعَ اللّهُ لأَيوبَ الماءَ البارد، جعلَ هذا الماءَ الباردَ سبباً لشفائِه من الأمراض، وإزالةِ الضر عنه، فأَمَرَهُ بالاغتسالِ بهذا الماء ثم الشربِ منه: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

و«مُغْتَسَلٌ»: اسمُ مفعول، وهو الماءُ الذي يُغْتَسَلُ به، لأنَّه وَصَفَهُ بأنه بارد، وهو وصفٌ للماء. والمعنى: هذا ماءٌ بارد، قمْ فاغتسِلْ به ليزولَ الضُّرُّ عن بدنك من الخارج، ثم اشرَبْ منه ليزولَ عنك الضرُّ من الداخل.

ونَفَّذَ أَيوبُ عليه السلام أمْرَ الله، فاغتسلَ من عينِ الماء البارد، فذهبَ عنه المرضُ الخارجيُّ الذي أَصابَ بدنَه. ثم شربَ من ذلك الماء البارد فأَذهبَ عنه المرضَ الباطنيَّ الذي أَصابَه.

وكما كان نبعُ الماءِ من تحتِ رجْلِ أيوبَ عليه السلام معجزةً من الله، كذلك كان ذهابُ مرضِه الظاهريِّ لما اغتسلَ منه، وذهابُ مرضِه الباطنيِّ لما شربَ منه، معجزةً من الله أيضاً.

وهكذا شاءَ اللّهُ أنْ يُزيلَ عن أيوبَ عليه السلام النَّصَبَ والعذاب،

وأنْ يكشفَ عنه الضر. فاللّهُ هو الذي ابتلاه، واللّهُ هو الذي عافاه، الفعْلُ فعْلُه في الحالين.

وبعدَما عافى اللّهُ أيوبَ من ضُرِّه ونَصَبه الذي أَصابَه في جسمه، عَوَّضَه أهْلَه الذين تضرروا أَيضاً، ومالَه الذي تأثر أَيضاً، فوهَبَه أهلَه ومثْلَهم معهم، كما قال الله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

نظرة في التعقيب على الحادثة في سورتي الأنبياء وص:

ونلاحظُ أنَّ التعقيبَ في هذه الآية يكادُ يكونُ نفْسَ التعقيبِ في آيةِ سورة الأنبياء.

فقالَ الله في سورة الأنبياء: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

وقالَ الله هنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

يَلتقي التعقيبان في السورتين على تقريرِ حقيقةِ أنَّ اللّهَ هو الذي فَرَّجَ عن أيوبَ عليه السلام، وأَزالَ عنه الضرر، ووهبَه أهْلَه، وآتاهُ إياهم، وعَوَّضَه بأنْ وهَبَه مثلَهم معهم ـ ولا ندري كيف ـ وأَنه فعلَ ذلك رحمةً منه له، لأنه توسَّلَ إلى الله برحمته. وهذه حقيقةٌ إيمانيةٌ ينبغي أنْ لا تُنسى.

كما يلتقي التعقيبان على ما يمكنُ أنْ يستفيدَه المؤمنون من قصةِ أَيوب عليه السلام، وعلى الحكمةِ من إيرادِ مجملها في القرآن، حيثُ جَعَلَها اللّهُ ذكرى للعابدين.

وبينما ذكرتْ آيةُ سورةِ الأنبياء أنَّ اللّهَ جعلَها ذكرى للعابدين، فقد ذكرتْ آيةُ سورةِ ص أنَّ اللّهَ جعلَها ذكرى لأُولي الألباب.

وأُولو الألباب هم أَصحابُ العقول الكبيرة الواعية الحكيمة، هم أَصحابُ الفطنةِ والذكاء، هم الذين يَستفيدون من الابتلاءِ بالسراء

والضراء، فلا يَبطرونَ عند الرخاء، ولا يَجزعون عندَ البلاء، فيشكرونَ الله في الأُولى، ويَصبرونَ على امتحانه في الثانية.

وكان أيوبُ عليه السلام إماماً لأُولي الألباب العابدين، في صبْرِه على البلاء، وتضرُّعِه إلى الله، وهم به مقتدون، وعلى طريقه سائرون. فيعلمونَ أنَّ ما أصابَهم من ابتلاءٍ فهو من الله، فيَصبرون ويَحتسبون، ويَتضرعون إلى الله، ويُوقنون أنَّ اللّهَ سيفرجُ عنهم كما فرَّجَ عن أيوب عليه السلام.

الذهب الذي أفاضه الله على أيوب وهو يغتسل:

وساقَ اللّهُ لأيوبَ عليه السلام معجزةً أخرى، إنعاماً منه عليه حيثُ أَفاضَ عليه المالَ إفاضة.

روى البخاريُّ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «بينا أيوبُ يغتسلُ عرياناً، خَرَّ عليه جَرادٌ من ذَهَب، فجعلَ أَيوب يَحثي في ثوبه، فناداه ربُّه تبارَك وتعالى: «يا أيوب: أَلم أَكنْ أغنيتُك عما ترى؟

قال: بَلى. ولكن لا غِنىٰ لي عن بركتك..»[1].

وروى أحمدُ والحاكم والطيالسي هذا الحديثَ بلفظٍ آخر، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «لما عافى اللّهُ أيوبَ عليه السلام أَمطرَ عليه جَراداً من ذَهَب، فجعل يأخذُ منه بيده، ويجعلُ في ثوبه.

فقيل له: يا أَيوب: أَمَا تشبَعُ؟

قال: يا ربِّ: ومَنْ يشبعُ من رحمتك..»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٧٩. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢:٣٠٤. والحاكم ٢:٥٨٢. والطيالسي ٢:٨٣. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧١.

أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ اللّهَ عَوَّضَ أيوبَ عليه السلام مالَه الذي هلكَ أثناءَ ابتلائه، ويبدو أنَّ هذا كانَ فورَ اغتساله بالماءِ البارد

فلما اغتسلَ بالماءِ البارد ثم شربَ منه عافاه الله، وبينما كان يغتسلُ عرياناً، ليس عندَه أحدٌ، أمطرَ اللّهُ عليه جَراداً من ذهب.

معنى الحديث وبعض دلالاته:

وكان هذا الجرادُ من الذهب كثيراً، سَمّاه الرسولُ ﷺ في روايةٍ أُخرى عند البخاري: رِجْلَ جَراد. فقال عليه الصلاة والسلام: «بينما أَيوبُ يغتسلُ عرياناً، خَرَّ عليه رِجْلُ جَرادٍ من ذهب...»[1].

وشاءَ اللّهُ الحكيم أنْ يرزقَه الذهبَ على صورةِ جراد، وصَبَّ عليه الجرادَ من الذهب صباً أَثناءَ اغتساله، وأَمطرَه عليه، فكأنَّ هذا الذهبَ كان مَطَراً غزيراً نازلاً عليه، وكان هذا معجزةً من الله سبحانه.

فلما رأى أيوبُ هذا الذهبَ مصبوباً عليه تناولَ ثوبَه الذي وضعَه بجانبه أَثناءَ الاغتسال، وصارَ يجمعُ الذهبَ بكلتيْ يديه، ويَحثوه، ويضعُه في ثوبه!!

فعجبَ اللّهُ من صنيعه، وناداه: يا أيوب: ألم أكنْ أغنيتُك عما ترى؟

أي أنَّ اللّهَ أَغناه بما وهبَه من رزق، فلِمَ يجمعُ الذهبَ بثوبه؟

فقال أَيوبُ عليه السلام: بلى. لقد أغنيتَني، ولكن لا غنى لي عن بركتك؟

أي أنَّ هذا الذهبَ بركةٌ منك يا رب، وبركةُ الله لا غِنىٰ عنها، فهي تُبارِكُ مالَ مَنْ كانت عنده. فأيوبُ عليه السلام ليس بحاجةٍ إلى الذهب، وهو زاهدٌ في متاعِ الدنيا، لأنَّ الأنبياءَ هم أئمةُ الزاهدين، وجمْعُه للذهب بثوبِه طلباً للبركة، وليسَ سداداً لحاجة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد برقم: ٧٤٩٣.

وفي الرواية الثانية أنَّ اللّهَ لما عجبَ من فعله قال له: يا أيوب: أَما تشبع؟

فقالَ أيوب عليه السلام: يا رَبِّ ومَنْ يشبعُ من رحمتك؟

لقد اعتبرَ هذا الذهبَ من مظاهرِ رحمةِ الله، ورحمةُ الله لا يَشبعُ منها مؤمن، فجمْعُه للذهبِ بثوبه ليس بسببِ نهمه، بل للتقلبِ برحمةِ الله.

وهذا التصرفُ من أيوبَ عليه السلام دليلٌ على أَنه يجوزُ للمؤمن أنْ يجمعَ المال، وأنْ يستكثرَ منه، وأنْ يحتفظَ به، بشرطِ أنْ يأتيَه من مصدرِ حلال، وأنْ لا تستشرفَهُ نفسُه، ولا يملأَ عليه تفكيره، وأنْ يُخرجَ حقَّ الله فيه.

ويُعتبرُ هذا المالُ بركةً من الله، ولا يَستغني أحدٌ عن بركةِ الله، ورحمةً من الله، ولا يَشبعُ أحدٌ من رحمةِ الله. ويَقتدي في ذلك بأيوبَ عليه السلام.

وهكذا كشفَ اللّهُ عن أيوبَ عليه السلام الضر، وآتاهُ أهْلَه ومثلَهم معهم، وعوَّضَه مالَه الذي هلك، وآتاهُ خيراً منه، وأمطرَ عليه ذهباً على شكْلِ جراد.

وبذلك زالَتْ عن أيوبَ عليه السلام محنتُه، ورَحِمَهُ اللّهُ بالرخاء والسراء، وكما صبرَ في الضراء، فقد شكرَ في السراء.

يمين أيوب والضرب بالضغث:

بقيتْ مسألةٌ في قصةِ أيوبَ عليه السلام، وهي خلافُهُ مع أهله، وحَلْفُه اليمينَ بالله ليعاقبهم. وقد أشارَ إلى هذه الحادثة قولُه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ..﴾.

وكان هذا بعدما عافاه اللّهُ في بدنه، وآتاه أهْلَه، وعَوَّضَه مالَه، حيث قال الله له: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾.

والضِّغْثُ مشتقٌ من: «ضَغَثَ».

وردَ في المعجم الوسيط عنه: «ضَغَثَ الحشيشَ، ضَغْثاً: جَمَعَه وجَعَلَه ضِغْثاً. وضَغَثَ الأشياء: خَلَطَ بعضَها ببعض.

والضِّغث: المضغوث، وكلُّ ما جُمِعَ وقُبضَ عليه بجَمْعِ الكف»[1].

وقال السمينُ الحلبي في تفسيره «الدر المصون» عن الضِّغث: «هو الحُزْمَةُ الصغيرةُ من الحشيشِ والقُضبان. وقيل: الحزمةُ الكبيرة من القضبان وفي المثل: «ضِغْثٌ على إِبّالَة». والإِبّالَةُ هي: الحزمةُ من الحطب.

وأَصْلُ المادة يدلُّ على جمْعِ المختلطات..»[2].

الضِّغْثُ إذنْ هو الغُصْنُ من الشجرةِ فيه عدةُ فروعٍ صغيرة.

أمرَ اللّهُ أيوبَ عليه السلام أنْ يأخذَ هذا الغصنَ الذي عليه مجموعةٌ من الفروعِ والأوراق، وأنْ يضربَ به الشخصَ الذي حلَفَ أنْ يضربَه، وذلك لئلا يحنثَ في يمينه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

مبهمات في قصة اليمين والضرب بالضغث:

وهذا يدلُّ على أنَّ أيوبَ عليه السلام كان قد حلفَ أثناءَ مرضه وابتلائه أن يضربَ أحدَ الأشخاصِ بشيء، لسببٍ ما. فلما عافاهُ اللّهُ دعاهُ إلى أنْ يبرَّ بيمينه، وأنْ يضربَ الشخصَ المحلوفَ عليه بذلك الضِّغْث من الشجر.

ولم تُبين الآيةُ الشخصَ الذي حلفَ عليه، هل هو امرأتُه أمْ غيرُها، كما لم تبين درجةَ قرابةِ هذا الشخص له، ولم تذكُر السببَ

(١) المعجم الوسيط: ٥٤٠.

(٢) الدر المصون ٩: ٣٨١ ـ ٣٨٢.

الذي دعا أيوبَ إلى أنْ يحلفَ أنْ يضربَه، ولا ماذا كان نصُّ يمينه، ولما حلَّلَهُ اللّهُ مِن يَمِينِه لم تبين الآيةُ كيفَ ضربَ بذلك الضغث.

ولم تَرِدْ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسولِ الله ﷺ، تبين هذه المبهماتِ المتعلقةَ باليمين.

وقد ذكَرَ المفسرون أَقوالاً في ذلك، وحاوَلوا أنْ يُقدِّموا فيها إجاباتٍ على الأسئلة السابقة.

وبما أنَّ الأحاديثَ الصحيحة سكتَتْ عن ذلك، فنحنُ نسكتُ عنه، ولا نبحثُ في تفاصيلِ ذلك اليمين، ولا نحاولُ بيانَ تلك المبهمات، وذلكَ على منهجِنا الذي التزمْناهُ في بحثِ قصصِ القرآن.

وخلاصةُ الحادثة كما نفهمُها من قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ..﴾: أَنه حصلَ شيءٌ ما بينَ أيوبَ عليه السلام وبينَ أَحَدِ الأشخاص، أثناءَ مرضه، فحلفَ أنْ يضربَ ذلك الشخص، ولما عافاهُ اللّهُ من مرضه، أَرشدَه اللّهُ إلى التحلُّلِ من يمينه، فأَمَرَه أنْ يأخذَ ضغثاً غصناً من الشجرِ عليه عدةُ فروع، وأنْ يضربَ الشخصَ به، وبذلك لا يَحنثُ في يمينه. ففعلَ أيوبُ عليه السلام ما أَمَرَهُ به الله!

وأَثنى اللّهُ على أيوبَ عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وهذه ثمرةُ قصةِ ابتلاء أَيوبَ عليه السلام، حيثُ نالَ فيها هذه الشهادةَ العظيمةَ من الله سبحانه.

أيوب إمام الصابرين على البلاء:

شهدَ اللّهُ له بأَنه صابر، وصَبْرُه مطلَق، يشملُ الصبرَ على كلِّ ما ابتلاه الله به، صَبَرَ على المحنةِ حتى مضَتْ وانقضَتْ، وأَعقبها الفرجُ والرخاء.

وشهدَ اللّهُ بأَنه نعْمَ العبد، حيثُ حققَ عبوديتَه لله، وزادَه الابتلاءُ

خضوعاً واستسلاماً لله، ورضًى بقدرِ الله، واحتساباً للأجرِ عندَ الله، وإِقبالاً على الله.

وشهدَ اللّهُ له بأَنه أَوّاب، رَجّاعٌ إِلى الله، حريصٌ على رِضاه، كثيرُ الذكرِ له، تضرَّعَ إِليه بأدب، وسأَلَه كشفَ الضرِّ بلطف، لم يُبعدهُ ابتلاءُ اللّهِ له بالضراءِ عن الله، بل زادَهُ إِقبالاً عليه واتصالاً به، ولم يُبْعِدْه ابتلاءُ اللّهِ بعد ذلك بالسراء عَنِ الله، بل زادَه إِقبالاً عليه وصلةً به.

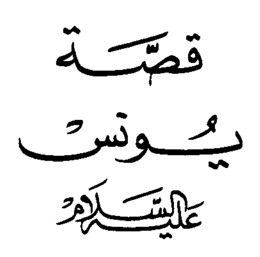
صبرَ في حالةِ الضراء، لأَنّه أَوّاب. وشكرَ في السّرّاء لأَنه أَوّاب.

وتبقى قصةُ أيوبَ عليه السلام كما أَشارَتْ لها آياتُ القرآنِ في سورتي الأنبياء وص، مَعْلَماً واضحاً من معالمِ الابتلاءِ بالضراءِ ثم إِتْباعُه بالسراء.

ويَبقى أَيوبُ عليه السلام قدوةً لأَصحابِ الابتلاء، لأنه صارَ مَضْرَبَ المَثَل في الصبرِ والاحتساب، ثم في التضرعِ والدعاء، ثم في الفرجِ والرخاء.

وكُلَّما ابتُلِيَ أَحَدُ المؤمنين بابتلاء تذكَّرَ موقفَ أيوبَ عليه السلام، فاقتدى به، وعاشَ على أملِ الفرج، وخرجَ من ابتلائِه ومحنته وقد ازدادَ إِيماناً وعبودية ورضا ويقيناً وأجراً وثواباً.




قصة
يونس
عليه السلام



[١]

ذكر يونس في القرآن

ذُكِرَ يونسُ عليه الصلاة والسلام باسمِه الصريح أربعَ مراتٍ في القرآن، وإحدى سورِ القرآن تحملُ اسمَه «سورة يونس» المكية، ووردتْ إشارةٌ إلى قصتِه دونَ التصريحِ باسمِه في سورتين. فيكون ذكْرُه قد وردَ في ستِّ سور.

في سورةِ النساء وردَ اسمُه ضِمْنَ أسماءِ مجموعةٍ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

لقد صَرَّحت الآيةُ بأنَّ اللَّهَ أَوحى إلى يونس عليه السلام، وجعلَه نبياً، كما أَوحى إلى إخوانِه الأنبياء.

وفي سورة الأنعام وردَ اسمُه أيضاً ضمن أَسماءِ أنبياء آخرين، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

والراجحُ أَنَّ الهاءَ في «ومن ذريته» تعودُ على إبراهيمَ عليه السلام. وهذا معناه أنَّ الأنبياءَ المذكورين بعدها هم من ذرية إبراهيم عليه السلام، ولهذا كان هو أَبا الأنبياء.

وفي سورة يونس وردتْ إِشارةٌ سريعةٌ إلى إيمانِ قوم يونس. ورفْع العذابِ عنهم بسببِ إيمانهم، وذلك ضمنَ الكلامِ على سنةِ الله في الإيمان والكفر والهدى والضلال، في آيات: [٩٦ ـ ١٠٠].

وفي سورة الأنبياء وردَتْ إشارةٌ سريعة إلى محنةِ يونس عليه السلام وهو في بطْنِ الحوت، واستغاثتِه بالله واستجابةِ الله له. ولم يَرِدْ اسمُ يونس فيها صريحاً، وإنَّما أُطلقَ عليه لقبُ «ذي النون». وكانت الإشارةُ في الآيتين: [٨٧ ـ ٨٨].

وفي سورةِ الصافات وردتْ إشارةٌ سريعة إلى محنةِ يونس عليه السلام، عندما غادرَ قومه، وأُلقيَ من السفينة، والتقمه الحوت، وسبحَ لله في بطن الحوت، وطرحَهُ الحوتُ على الشاطئ، وأَنبتَ اللَّهُ عليه شجرةَ يقطين، وأعاده إلى قومه فوجَدَهم مؤمنين. وهذه الإشارةُ في الآيات: [١٣٩ ـ ١٤٨].

وفي سورةِ القلم وردَتْ إشارةٌ سريعة إلى محنةِ يونس عليه السلام وذلك في سياقِ توجيهِ رسول الله ﷺ إلى الصبر، ونهيِه عن التصرف كما تصرفَ يونسُ عليه السلام. وهذه الإشارةُ في الآيات: [٤٨ ـ ٥٠].

وبهذا نرى أنَّ ما عرضه القرآنُ من قصةِ يونس عليه السلام هو خلافُه مع قومه الكفار، ومغادرتُه لهم، ثم امتحانُه بالبلاء، وتسبيحُه لله، وإنجاءُ الله له، وإعادتُه إلى قومه، الذين آمنوا أثناء غيابه.

[٢]

دعوة يونس قومه ثم مغادرته لهم

أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ أَبا يونس هو «مَتّى» فيونسُ عليه السلام هو: يونسُ بنُ مَتّى.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «لا يَنبغي لعبدِ أنْ يقول: أنا خيرٌ من يونسَ بنِ مَتّى. ونسَبَه إلى أبيه»[(١)].

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٩٥. ومسلم برقم: ٢٣٧٧. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٤.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ «مَتّى» اسمُ أُمِّه، وأَنه منسوبٌ إلى أمه مثلُ عيسى ابن مريم عليه السلام. لكن هذا كلامٌ مرجوح. فالراجحُ أنَّ «مَتّى» اسمُ أَبيه، بدليلِ تصريحِ ابنِ عباس رضي الله عنهما بذلك.

وقد ذُكِرَتْ قصةُ يونسَ عليه السلام في سورةِ الأنبياء بعد قصةِ أيوب، حيثُ سبقَها ذكْرُ قصصِ إبراهيم ولوط وإسحاق وداود وسليمان وأيوب، وذُكِرَ بعد يونس قصةُ يحيى وزكريا وعيسى، عليهم الصلاة والسلام.

ولعلَّ هذا يدلُّ على أنَّ يونسُ كان بعد داود وسليمان وأيوب، وقبلَ يحيى وزكريا وعيسى. عليهم الصلاة والسلام.

نقولُ هذا من بابِ الاحتمال والاستئناس، وليسَ من بابِ الجزمِ واليقين، لأنَّ ذكْرَ الأنبياءِ في سورةِ الأنبياء على أَساسِ التسلسل التاريخي لأزمانِ وجودهم، كما يوحي سياقُ السورة، والله أعلم.

تكذيب أحبار اليهود في كلامهم عن يونس:

وقد خَصَّصَ مؤلِّفوا أَسفارِ العهد القديم سَفْراً خاصاً ليونس، الذي سَمّوه «يونان». وهو السَّفْرُ الثاني والثلاثون، وجعلوه في أَربعِ إصحاحات.

وإنَّ الأحبارَ الذين كتبوا «سَفْرَ يونان» يهودٌ عنصريون، ومجرمون كفار كاذبون حيث زَعموا أنَّ يونسَ كان إسرائيلياً عبرانياً، وأنَّ اللَّهَ بعثَه نبياً إلى نينوى عاصمةِ الأشوريين.

وقد انتصرَ يونسُ للإسرائيليين، وتعصَّبَ لهم، ولذلك غضبَ على الربِّ لأنه بعثَه نبياً إلى أَعدائهم الأشوريين، غضبَ على الربِّ لأَنه أَرادَ إنقاذَ وهدايةَ الأشوريين، ولذلك تمردَ يونسُ على ربه، ورفضَ الذهابَ إلى أعدائِه الأشوريين، وهربَ من ربه، ولكنَّ الربَّ عاقبه بأنْ طرحَه في البحر، وجعلَه في بطنِ الحوت، ولما عُوفي أمرهُ الربُّ بالذهابِ إلى عاصمةِ الأشوريين، فذهبَ إليها مُرغماً مُكرهاً حانقاً غاضباً.

ونَبرأُ إلى الله من هذا الكفر والكذبِ اليهوديِّ الذي سجلَهُ أحبارُ اليهود الكفار، ونجزمُ ببراءةِ يونسَ عليه السلام من هذه المزاعم اليهودية العنصرية. فما هو إلا نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاة والسلام، حريصٌ على دعوةِ الناسِ إلى الله، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولم يكن يهودياً عنصرياً متعصباً، ولا غاضباً متمرداً على الله، رافضاً تبليغَ دعوته!!

الدليل على بعثة يونس إلى أهل نينوى:

بَعثَ اللَّهُ يونسَ بنَ مَتّى عليه السلام نبياً إلى أَهلِ نينوى.

ونينوى مدينةٌ قديمةٌ تقعُ قريباً من الموصلِ شمالَ العراق، كانت عاصمةَ الأشوريين.

والدليلُ على أنَّ اللَّهَ بعثَهُ إلى أَهل نينوى ما أَخبرَنا عنه رسولُنا ﷺ.

أَخرجَ ابنُ هشام في السيرة عن محمدِ بنِ كعب القُرَظِيِّ رحمه الله، عن رحلةِ رسولِ الله ﷺ إلى الطائف، وسوءِ استقبالِ أهلِها له، وسوءِ ردِّهم عليه، أَنهم ردّدوا دعوَتَه، وأَغْرَوْا به سفهاءَهم وعبيدَهم يسبّونَه ويشْتمونَه ويصيحون به.

فخرجَ عليه الصلاة والسلام من الطائف وهو مَهْمُومٌ مغمومٌ حزين، وعادَ إلى مكة، ومَرَّ على بستانٍ لعتبةَ وشيبةَ ابْنَيْ ربيعة القرشيين.

ووجدَ رسولُ الله ﷺ شجرةً من عنب، فجلسَ رسولُ الله ﷺ في ظلِّ تلك الشجرة، وكان عتبةُ وشيبةُ في البستان ينظران إليه.

فلما اطمأنَّ رسولُ الله ﷺ في جلستِه دعا الله قائلاً: اللهمَّ إليكَ أَشكو ضعْفَ قُوَّتي، وقلةَ حيلتي، وهَواني على الناس. يا أَرحَمَ الراحمين: أنتَ ربُّ المستضعفين، وأنتَ ربي، إلى مَنْ تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمُني؟ أَم إلى عدوٍّ ملَّكْتَه أمرِي؟ إنْ لم يكنْ بك غضبٌ عليَّ

فلا أُبالي، ولكنَّ عافيتَك أَوسعُ لي، أعوذُ بنورِ وجهك الذي أَشرقَتْ له الظلمات، وصلَح عليه أَمْرُ الدنيا والآخرة، مِنْ أنْ تُنْزِلَ عليَّ غضبَك، أَو يحلَّ عليَّ سَخَطُك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله!!.

فلمّا رآه عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة رَقّا له، وَدَعَوَا غلاماً لهما نصرانياً يقال له «عَدّاس»، وقالا له: خذْ قُطفاً من هذا العنب، فضعْهُ في هذا الطبق، ثم اذهبْ به إلى ذلك الرجل.

أخذَ عَدّاس العنب، ووَضَعَهُ بين يديْ رسولِ الله ﷺ، وقالَ له: كُل.

وضعَ رسولُ الله ﷺ يدَه في الطبق، وقال: بسمِ الله، ثم أَكَل!

فنظرَ عَدّاسُ في وجهه ثم قال: واللَّهِ إنَّ هذا الكلامَ ما يقولُه أهلُ هذه البلاد!!

فقالَ له رسولُ الله ﷺ: مِنْ أهلِ أَيِّ البلادِ أنتَ يا عَدّاس؟ وما دينُك؟

قال عدّاس: أَنا نصراني، وأنا رجلٌ من أهلِ نينوى.

فقالَ له رسولُ الله ﷺ: من بلدِ الرجلِ الصالحِ يونسَ بنِ مَتّى!!

فقالَ له عداس: وما يُدريك ما يونسُ بنُ متّى؟

قالَ ﷺ: ذاكَ أخي، كان نبياً، وأَنا نبي!!.

فأكبَّ عَدّاس على رسول الله ﷺ، يُقبلُ رأسَه ويديْه ورجليْه!

فقال ابنا ربيعة أحدُهما لصاحبه: أمّا غلامُك فقد أفسدَه عليك!

ولما عادَ عَدّاس إليهما، قالا له: ويلكَ يا عداس، مالك تُقبلُ رأسَ هذا الرجلِ ويديْه وقدميه؟

قال عداس: يا سيدي: ما في الأرضِ شيءٌ خيرٌ من هذا. لقد أَخبرني بأمرِ ما يعلمُه إلا نبي!

قالا له: ويحكَ يا عداس، لا يصرِفَنَّك عن دينك، فَإِنَّ دينَك خيرٌ من دينه..»[1].

كان عداس الغلامُ النصرانيُّ من أهل نينوى، وبما أَنه نصرانيٌّ فإن عنده علماً بطرفٍ من قصةِ يونس بن متّى عليه السلام، ولذلك فوجىءَ بمعرفةِ رسولِ الله ﷺ قصةَ يُونس. وعلمَ أنه نبيٌّ مثلُه، فأسلم.

وقول رسول الله ﷺ عن نينوى إنها «بلدُ النبيِّ الصالحِ يونس بن متى» يدلُّ على أنَّ يونس عليه السلام كان من أهلِ نينوى أساساً. وُلدَ وعاشَ فيها، وبعثَه اللّهُ نبياً إلى أهلها.

وهل كان أهلُ نينوى زمنَ يونس عليه السلام آشوريّين أم كانوا إسرائيليّين؟ أم كانوا خَليطاً من الآشوريّين والإسرائيليّين؟ فهذا ما لا دليلَ عليه!

قامَ يونسُ عليه السلام بدعوةِ قومِه أَهلِ نينوى إلى الله، ولا ندري المدةَ التي قامَ فيها يَدعوهم، ولكنهم رفضوا دعوتَه، وأَصَرّوا على الكفر. فغضبَ منهم وغادَرَهم، بعد أَنْ أَنذرهم عذابَ الله.

كلام ابن مسعود عما جرى بين يونس وبين قومه:

وأَمامنا حديثٌ موقوفٌ على عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه نستأنسُ به في ما جرى بين يونسَ وبين قومه.

قالَ عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: إنَّ يونس عليه السلام كان وعدَ قومَه العذاب، وأَخبرهم أَنه يأتيهم إلى ثلاثةِ أَيام.

ففرَّقوا بين كلِّ والدةٍ وولدها، ثم خَرجوا، فجأروا إِلى اللّهِ واستَغْفَروه، فكفَّ اللّهُ عنهم العذاب.

وغدا يونسُ عليه السلام ينتظرُ العذاب، فلم يَرَ شيئاً، وكان مَنْ كَذَبَ ولم يكنْ له بينةٌ قُتِل.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٦٠ ـ ٦٣.

فانطلقَ مغاضباً، حتى أَتى قوماً في سفينة، فَحَملوه وعَرَفوه...»[1].

إنَّ يونسَ نبيٌّ كريم عليه السلام، وهو بشيرٌ ونذير، يبشرُ مَن استجابَ له بالجنة. وينذرُ مَنْ كَذَّبه بالعذاب، ولا يتصرفُ في هذا مِن تلقاءِ نفسه، ولكنه يبلغُهم وحيَ الله.

وهذا يَعني أنَّ اللّهَ هو الذي طلبَ منه أنْ يُنذرهم العذاب. فبما أَنهم لم يستجيبوا له، ورَفضوا دعوتَه، وأَصروا على الكفر، فلم يَبْقَ إلاّ وقوعُ العذابِ بهم.

أمرَ اللّهُ يونسَ عليه السلام أنْ يخبرَ قومَه أنَّ العذابَ سيقعُ بهم بعدَ ثلاثة أيام، فأخبرَهم بذلك، وطلبَ منهم أنْ ينتظروا ذلك العذاب.

وعَجبوا من هذا الإنذارِ العنيف، وغَضبوا من يونس، ويبدو أَنهم كَلَّموه كلاماً شديداً، فغضبَ يونسُ عليه السلام منهم، وردَّ عليهم كلامَهم بكلامٍ آخر، وأَغضبهم، وبذلك انتهت الصِّلاتُ بينه وبينهم.

عند ذلك غادرَ يونس عليه السلام قومه، لأنه ظنَّ انتهاءَ مهمتِه عندهم.

[٣]

حل إشكال مغادرة يونس لقومه

أَشارَ القرآنُ إلى مغادرةِ يونسَ عليه السلام لقومه، والمغاضبةِ التي وقعتْ بينَه وبينهم. فقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ...﴾ [الأنبياء: ٨٧].

و«ذا» مفعولٌ به لفعلٍ محذوف، منصوبٍ بالألف لأنَه من الأسماءِ الخمسة. والتقدير: اذكُرْ ذا النون.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر وابن جرير وابن أبي شيبة. وصحح ابن حجر في فتح الباري إسناد ابن أبي حاتم. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٧.

لماذا يونس ذو النون؟:

والخطابُ لرسول الله ﷺ، ولكلِّ مسلم متذكِّرٍ من بعدِه، يدعوه اللّهُ إلى أنْ يتذكَّرَ قصةَ ذي النون عليه السّلام، ليستخرجَ منها الدروسَ والدلالاتِ في الإيمانِ والدعوة والصبر واللجوء إلى الله.

و«النّونُ» هنا يُرادُ به الحوتُ الذي التقمَ يونسَ عليه السلام.

قال السمين الحلبي في «عمدة الحفاظ»: «النّون: الحوت. كما صَرَّحَ به في قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

والمرادُ به نبيُّ الله يونسَ بن مَتّى عليه السلام. وإنما أُضيفَ يونسَ إِلى النّون لابتلاعِه إياه.

ويُجمعُ النُّون على: نِينان، مثل: حوت وحيتان»[(١)].

وسُميَ يونسُ عليه السلام «ذا النون»، كما سُمي «صاحبَ الحوت»، لأنه عاشَ في بطنِ الحوت فترة، وبقيَ فيه حياً بإذن الله.

واللطيفُ أنَّ القرآنَ اعتبرها صحبة، وأنعمْ بها من صحبةٍ بين بشرٍ نبي وبين حوتٍ في البحر، كأنَّ الحوتَ كان صاحباً ليونس، مساعِداً له، حريصاً مشفقاً عليه، يَخافُ أنْ تأكلَه باقي الحيتان والأسماك، ولذلك جاءَ إليه منقذاً، وابتلعَه بهدفِ حمايته، لا بهدفِ أكله! وكان هذا بأمرِ اللّهِ سبحانه وتعالى.

وصارَ «ذو النون» اسماً خاصاً، يُطلقُ على بعضِ الناس، يقال: ذو النون ابن فلان!

يونس غادر قومه مغاضباً لهم:

أَخبرَ اللّهُ أنَّ «ذا النون» عليه السلام قد ذهبَ مغاضباً: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾.

---

(١) عمدة الحفاظ ٤: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

و«مغاضباً» اسمُ فاعل، فِعْلُه الماضي «غاضَبَ»، والألفُ في الفعل ألفُ مفاعلة، تدلُّ على المشاركة.

أي أنَّ الغضبَ كان مشتركاً، فإذا كان يونسُ عليه السلام هو الطرفَ الأولَ في المغاضبة فمن هو الطرفُ الثاني المقابل؟

ذهبَ ناقلو ورواةُ الإسرائيليات إلى أنه اللَّهُ سبحانه. أي أنَّ يونسَ عليه السلام غادرَ قومَه وذهبَ عنهم مغاضِباً لربّه، حيث غضبَ هو من اللَّهِ سبحانه، لأن اللَّهَ لم يوقع العذابَ على قومه خلالَ ثلاثةِ أيام، مما جعلَه يبدو أَمامَهم كاذباً، وغضبَ اللَّهُ منه لأَنه غادرهم بدونِ إذنٍ منه!

وهذا كلامٌ لا يجوزُ أنْ يصدرَ عن مسلم صالح، فكيف يصدرُ عن نبيٍّ كريم عليه السلام؟ المسلمُ الصالحُ لَا يغضبُ من الله، فهل يغضبُ يونسُ من الله؟ إِننا نبرىءُ يونسَ عليه السلام من هذا الضلال!

لقد كانت المغاضبةُ بينَ يونسَ وبين قومِه الكافرين، وهذا أمرٌ مفهومٌ لا شبهة فيه.

غَضِبَ يونسُ من قومه لأنهم رفضوا دعوتَه، وأصرّوا على الكفر، وهذا غضبٌ معقول.

وغضِبَ قومُه الكافرون منه، لأَنه أَنذرهم العذاب، وأَخبرَهم أنه واقعٌ بهم بعد ثلاثةِ أيام، فغضبوا منه.

إذن معنى قوله: «إذ ذهب مغاضباً»: غادرَ قومه مغاضباً، غضبَ من قومِه لكفرهم، وغضبَ قومُه منه لتهديدِهم بالعذاب القادم.

لماذا غادرَ يونسُ عليه السلام قومَه؟ هل كان نَزِقاً ضيقَ الصدر، غيرَ صابرٍ عليهم ولا محتمل لهم؟

كلا. إِنهُ نبيٌّ كريم. واللَّهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالتَه، وما

بعثَ اللّهُ نبياً إلا وهو حليمٌ واسعُ الصدر، صابرٌ على تكاليف الدعوة، محتملٌ لما يلاقيه من قومِه الكافرين المنكرين. ويونسُ واحدٌ من هؤلاء الأنبياء.

غادرَ يونسُ عليه السلام قومَه لأنَّه ظنَّ أنَّ مهمَّته فيهم قد انتهت، وأنَّ الدعوةَ عندهم قد توقفت.

لقد أخبرَه اللّهُ أنَّ العذابَ واقعٌ بهم بعد ثلاثةِ أيام، وهذا معناه في ظنِّه أنَّ الأمرَ قد انتهى. وأنهم لن يؤمنوا! إذنْ لماذا يبقى عندهم؟ عليه أنْ يذهبَ عنهم، وأنْ يبحثَ عن أُناسٍ آخرين يبلِّغُهم الدعوة!

هذا فهمُ مغادرتِهم مغاضباً لهم.

ما معنى: «فظن أن لن نقدر عليه»:

ويؤكِّدُ هذا الفهمَ قولُه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْـهِ﴾.

وقد وقعَ بعضُهم في لبسٍ آخر هنا، حيثُ فهمَ أنَّ الكلامَ في هذه الجملة عن قدرةِ اللّه. وقال: ظنَّ يونسُ أنَّ اللّهَ سيعجزُ عنه، ولن يقدرَ عليه!!

وهذا ظنٌّ لا يجوزُ أنْ يصدرَ عن مسلم صالح، فكيفَ يصدرُ عن يونسَ عليه السلام؟ هل يظنُّ يونسُ أن اللّهَ ليس على كل شيء قدير؟ وأن اللّهَ قد يريدُ أشياء لكنه لا يقدرُ عليها ويعجزُ عنها؟

إنَّ هذا الظنَّ لا يصدرُ إلا عن كُفّار، وحاشا أنْ يظنَّ يونسُ هذا الظن. إنه يؤمنُ بأن اللّهَ على كل شيء قدير، وأن قدرتَه نافذة، وإرادتَه فاعلة، ولا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وأنه يقدرُ على إيجادِ وفعلِ كلِّ شيء شاءَه وأرادَه.

إذن ما معنى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْـهِ﴾.

الفعل: قَدَرَ، يَقْدِرُ.

تقول: قَدَرَ، يَقْدِرُ، قَدْراً، ويأتي بمعنى: ضَيَّق.

تقول: قَدَرَ عليه رزقَه. بمعنى: ضيَّقَ عليه رزقه.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٦]. أي: ضُيّقَ عليه رزقُه.

وقال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]. أي: مَنْ ضُيِّقَ عليه رزقُه فلينفقْ مما آتاهُ الله.

إذن فعل «نَقْدِر عليه» من القَدْر بمعنى التضييق، وليس من القدرةِ بمعنى الاستطاعة والتمكُّن.

معنى: «فظن أن لن نقدر عليه»: ظنَّ يونسُ أنَّ اللّه لن يُضيقَ عليه، بإبقائه عند هؤلاء الكفار، المنتظِرين للعذاب، وإنما سيوجِّهُه إلى قومٍ آخرين يدعوهم إلى الله.

قال السمين الحلبي في «عمدة الحفاظ»: «معنى قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: ظنَّ أن لن نُضيقَ عليه.

والتقدير: التضييق. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] أي: ضَيِّقْ في الدرع، لتكون الفتحةُ على قدرِ المسمار.

عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: أَرسلَ لي معاويةُ بن أبي سفيان رضي الله عنه، فقالَ لي: لقد ضَرَبَتْني أَمواجُ القرآن!

قلت: بماذا؟

قال: في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: أيظنُّ عبدٌ من عَبيدِ الله أن اللّهَ لا يَقْدِرُ عليه، فضْلاً عن نبيٍّ من الأنبياء؟

قلتُ له: ليسَ ذلك من القدرة، إنما هو من التقدير بمعنى التضييق، قال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ...﴾ [الفجر: ١٦].

وقال الهروي: يقال: قَدَرَ وقَدَّرَ بمعنى: ضَيَّق، وهو ليسَ من القدرة..»[1].

---

(١) عمدة الحفاظ ٣:٣٢٧.

ما معنى وصف مغادرة يونس بالإباق؟:

فإذا كانَ هذا هو معنى قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، وهو تصرُّفٌ منه سليم، فلماذا قالَ اللَّهُ عنه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾؟ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٠] ولماذا عَبَّرَ عن مغادرتِه بالإِباق؟

قال السمين الحلبي: «الإِباقُ: هربُ العبدِ من سيده. ولما كان الخلقُ كلُّهم عَبيدَ الله قالَ اللَّهُ في حقِّ عبده يونس عليه السلام: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾. ولِلَّهِ أنْ يقولَ ما يشاء، أما نحنُ فلا يجوزُ لنا أن نقول: أَبَقَ نبي.

يقال: أَبَقَ العبدُ، يَأْبِق، فهو آبِقٌ.

وقال المبرد: أَبَقَ: تباعَدَ. وقيل: خرجَ سرّاً من الناس»[1].

إذن أساسُ معنى «أَبَقَ» هرب، ويُستعملُ في هروبِ العبدِ من خدمةِ سيده.

لكنه قد يستعملُ في الخروجِ سرّاً من الناس، والتباعدِ عنهم، ولو لم يكنْ ذلك الخروجُ هروباً.

ومادة «أَبَق» لم يردْ منها في القرآن إلاّ الفعلُ الماضي «أَبَق»، ولم يردْ إلاّ في هذا الموضعِ من القرآن.

إذن معنى قولِه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ لا يُرادُ به حقيقةُ الهروب، كهروبِ العبد من سيده، لأنَّ هذا تصرفٌ ينزَّهُ عنه يونسُ عليه السلام.

إِنه نبيٌّ رسول، أَمَرَه اللَّهُ بدعوةِ قومه، وهو لا يهربُ من الدعوة، ولا يتخلّى عنها.

---

(١) عمدة الحفاظ ١:٥٠.

إنما شَبَّهَ فعلَه بفعلِ هروبِ العبد من سيده، وأَطلقَ عليه أنه إِباق، لأَنه الْتقىٰ مع إِباقِ العبد، في الخروج سِراً، والابتعادِ عن الناس.

ووجَّهْنا خروجَه بأَنه كان بعدَ أَنْ أنذرَ قومَه وقوعَ العذاب بعد ثلاثةِ أيام، فلا داعي لأنْ يبقىٰ عندهم، ولْيبحثْ عن قومٍ آخرين يَدعوهم إلى الله.

لقد ظنَّ أن اللَّهَ لَنْ يضيقَ عليه بإبقائِه عند هؤلاء، بعد أن انتهتْ مهمتُه فيهم، وسيوجِّهُه إِلى أُناس آخرين، ولذلك غادَرَهم سراً، وخرجَ من بينهم وهم لا يشعرون به، وتباعَدَ عنهم.

وُصِفَ هذا الفعلُ منه بالإِباق، لأنه يشابِهُ إِباقَ العبد في الظاهر، لكنه يخالفُه في الحقيقة، فذاك هروبٌ من الخدمة، وهذا انتقالٌ إِلى آخَرين بدعَوتِهم..

[٤]

يونس عليه السلام يلقى من السفينة

غادرَ يونسُ عليه السلام قومَه بعدَ أَنْ أَنذرَهم العذاب، باحثاً عن قوم آخرين يبلِّغُهم الدعوة. ولكنه لم يغادرهم بإذنٍ من الله سبحانه. وهذا هو سرُّ محنتِه عليه الصلاة والسلام، وسببُ لومِ اللَّهِ له.

يونس في خروجه فعل خلاف الأولى:

لم ينتظرْ يونسُ عليه السلام الإذنَ من الله وهو في قومه، لأنه ظنَّ أنَّ اللَّهَ لنْ «يَقْدِرَ عليه»: لن يُضيقَ عليه بإبقائِه فيهم، وإنما سيوجِّهه إِلى آخرين.

وفي ظنِّه واجتهادِه أَنه لم تبقَ فائدةٌ من بقائِه في قومه، إِنهم لم يؤمنوا به، وإِنَّ العذابَ آتيهم بعدَ ثلاثةِ أيام، لقد انتهى كلُّ شيء بالنسبة لهم! فهل يبقى جالساً بينهم بدونِ دعوة؟

خرجَ من بينهم سِرّاً، دونَ أَنْ يَعلموا به، وتوجَّه نحو شاطئ

البحر، وكلُّه أملٌ ورجاءٌ أنْ يأتيه التوجيهُ من الله في الطريق، أو فيما بعد، يأمرُه فيه بالخطوةِ التالية.

وهو في هذا الاجتهادِ لم يكن مخطئاً عليه السلام، وإنما كان مجتهداً متأَوِّلاً، وكان حريصاً على الدعوة، راغباً في نصحِ الآخرين، وبما أنَّ قومَه رفضوا دعوتَه، وبما أنَّ العذابَ سيقعُ بهم بعد ثلاثة أيام، فلماذا يبقى بينهم قاعداً عن الدعوة؟ فلْيبحثْ عن آخرين يدعوهم.

والإِذنُ من الله، وتوجيهُه إِلى الخطوةِ التالية، يأتيه فيما بعد.

هذا اجتهادٌ مقبولٌ منه، وتصرُّفٌ صواب.

ولكنَّه تَرَكَ ما هو أَولى.

كان عليه أنْ لا يتحركَ إلاّ بتوجيهٍ من الله، وأنْ يبقى في قومِه حتى يأتيه الإذنُ من الله، وأنْ لا يتعجلَ الخروجَ على أنْ يوجِّهه اللَّهُ بعده!

كانَ عليه أنْ يفعلَ ذلك لأنه نبيٌّ رسول، واللَّه هو الذي يوجههُ حيثُ يشاء، ولذلك فعلَ بخروجِه قبلَ التوجيه من الله خلافَ الأَوْلى، مع أنَّ فعْلَه صحيح، ولكن فرقٌ بين الصحيحِ والأصح، وبين الجائزِ والأَوْلى، وبين الصوابِ والأصوب!!

ولأَنَّه تركَ ما هو أَوْلى، ولأنَّه غادرَ قومَه بدون توجيهٍ من الله، فقد عاتبهُ اللَّهُ ولامَه، ووصَفَه بأنه أَبَق، وبأنه مُليم، وأوقعَ به محنةً مريرة.

يونس يركب الفلك المشحون:

فلما غادرَ قومَه توجَّهَ إِلى شاطئ البحر، وهناك وجَدَ سفينةً راسيةً تحملُ ركاباً، فصعد في السفينة، وتوجَّهتْ بركابها إِلى عرضِ البحر، ووسْطَ البحر لم تتمكَّن السفينةُ من متابعةِ السير، بسببِ الحمولةِ الزائدة، ولا بدَّ أنْ يُلقىٰ براكبٍ من ركابها في الماء لينجوَ الآخرون.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٤].

تنصُّ الآياتُ على أنَّ يونسَ عليه السلام كان من المرسلين. وتُخبرُ أنّه أَبَقَ إلى الفلك المشحون.

و«إذْ» في الآية ظرفُ زمان بمعنى «حين». وذِكْرُ الظرفِ هنا له دلالةٌ لطيفة، فهو متعلقٌ بما قبله، وما بعدَه في محلِّ جرٍّ مضافٍ إليه. والتقدير: إن يونسَ لمن المرسلين، حتى حين إِباقِه إلى الفُلْك المشحون.

وهذا معناه أنَّ مغادرتَه قومَه بدونِ إذنٍ من الله، لم يؤثِّرْ في نبوتِه ورسالته، ولم يُلْغِ كونَه من المرسلين.

وفعْلُ «أَبَقَ» تعدّى إلى ما بعدَه بحرف «إلى»، وفَرْقٌ بين قولك: أَبَقَ العبدُ من سيده. وقولك: أَبَقَ الرجلُ إلى أهله.

أَبَقَ من سيده معناه: هربَ من سيده. أما: أَبَقَ إلى أَهله فمعناه: غادرَ وذهبَ إلى أَهله.

و«الفُلْك المشحون» هو: السفينةُ المملوءةُ بالركاب.

ومعنى «أَبَقَ إلى الفلك المشحون»: غادرَ قومَه، وذهبَ إلى السفينة المملوءة بالركاب.

قال الإمام الراغب: «الفُلْك: السفينة. ويُطلقُ على المفردِ والجمعِ. والفَلَكُ: مجرى الكواكبِ في السماء. وفَلْكَةُ المغزل: القطعةُ المستديرةُ منه.

وفَلَكَ ثديُ الفتاة: إذا استدار»[1].

(١) المفردات: ٦٤٥. وانظر المعجم الوسيط: ٧٠١.

وسُميت السفينةُ فُلْكاً لأنَّها مستديرة، ويُشَبَّهُ بها كلُّ شيء مستدير كفَلْكَةِ المغزل وثدي الفتاة.

والمشحونُ المملوء. وهو اسمُ مفعول. ولم تَرِد «المشحون» في القرآن إلاّ وَصْفاً للسفينةِ المملوءةِ بالركاب. كما في هذه الآية: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾.

خروج قرعة يونس وإلقاؤه من السفينة:

لما صعدَ يونسُ عليه السلام إلى السفينةِ كانت مشحونةً مملوءةً بالركاب، وكانتْ حمولتُها زائدة، وتوجَّهتْ نحوَ وسط البحر، وهناك واجَهَتْ مشكلات، وعَجَزَتْ عن متابعةِ السير، وكادَتْ تغرق.

ودعت الحاجةُ إلى التخفيفِ من حمولةِ السفينة، بإلقاءِ أحدِ ركابها في البحر، فلا مانعَ أنْ يهلكَ واحدٌ لينجوَ الآخرون.

ولكن مَن الذي يَرضىٰ أنْ يضحيَ بنفسه؟ وأنْ يلقيَ نفسَه بإرادته واختياره.

لا حَلَّ إلاّ بالقُرعة! أنْ يقترعَ ركابُ السفينة، فمن خرجَت القرعةُ عليه فلا بدَّ أنْ يُلقى في البحر!

واسْتَهَمَ الركابُ على مَنْ يُلقى من السفينة، واقترعوا فيما بينهم، وقَدَّرَ اللَّهُ الحكيمُ أنْ يخرجَ سهمُ أفضلِ الركاب، يونس عليه السلام. قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

قال الإمام الراغب: «السهم: ما يُرمىٰ به. وما يضربُ به من القِداح ونحوه، قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾. واستهموا: اقترعوا»[1].

وفاعلُ «ساهَمَ» يعودُ على يونس عليه السلام. أي: ساهمَ يونسُ

(١) المرجع السابق: ٤٣١.

مع ركابِ السفينة، واقترعوا على مَنْ يُلقى في البحر، فخرجَ سهمُ يونس.

ولم تَردْ كلمةُ «ساهم» ولا مشتقات «سَهْم» إلاّ في هذا الموضع من القرآن.

ولعلَّ ركابَ السفينة فوجئوا حين خرجَ سهمُ يونس، ولعلَّهم يعرفون يونسَ، ويعلمونَ أنه أفضلُهم، ولعلَّهم أَعادُوا القرعةَ والمساهمةَ مرة ثانية، فخرجَ سهمُ يونس، عند ذلك لم يَجدوا بُدّاً من إِلقاءِ يونس من السفينة: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

و«مُدْحَض» اسم مفعول. بمعنى: الملقى من السفينة.

يقال: دحض، يدحض، فهو داحض، أو مدحض.

وهكذا بدأت محنة يونس عليه السلام، بتقدير من الله الحكيم سبحانه. وألقي من السفينة إلى البحر...

[٥]

ماذا فعل يونس في بطن الحوت؟

إنَّ اللَّهَ رحيمٌ بيونس عليه السلام، حتى في ابتلائِه، وهو يريدُ أنْ يبتليَه لا أنْ يقضيَ عليه، ولهذا يَسَّرَ له أَسبابَ النجاة بحكمتِه عندما أُلقي من السفينة، فما أنْ وصلَ الماءَ حتى كان الحوتُ ينتظره، بأمْرٍ من الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢].

مهمة الحوت بشأن يونس:

ونلاحظُ في التعبيرِ القرآنيِّ عن الحادثة سرعةَ وتتابُعَ لقطاتِها: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

فالأفعالُ معطوفةٌ بحرفِ الفاء: «فساهم.. فكان.. فالتقمه..». والفاءُ تدلُّ على الترتيبِ مع التعقيبِ الفوري، فاللقطاتُ كانت متتابعةً سريعة، بمجردِ أنْ ركبَ السفينة كانت القرعةُ والمساهمة، وبمجردِ أنْ خرجَ سهمُه أُلقيَ من السفينة، وبمجردِ أن أُلقيَ من السفينة التقمه الحوت.

وهذا من حكمةِ الله ولطفِ تدبيره، فقد أَمَرَ الحوتَ أنْ يتوجَّه نحو السفينة، وأنْ يفتحَ فمَه، وبمجردِ أنْ يُلقى يونس منها، وفورَ وصولِه للماء عليه أن يلتقمه، لئلا يسبقَ إليه حوتٌ آخر، لا يَعرفُ مَنْ هو، فيجعله وجبةً غذائية له!!

والحوتُ جنديٌّ من جنود الله، وما يعلمُ جنودَ ربك إلا هو، فسارعَ بتنفيذِ أمر الله!

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أَنه عَبَّرَ عن ابتلاعِ الحوت له بفعل «التقم». وهو فعلٌ مقصود. ولم يَرِدْ في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

يقال: لَقِمَ الشيء، يَلْقَمُه: إذا أكلَه بسرعة.

و: الْتَقَمَ الشيء، يلتقمُه: إذا ابتلَعَه[1].

أَمَرَ اللَّهُ الحوتَ أنْ يلتقمَ يونسَ التقاماً، وأنْ يبتلعَه ابتلاعاً، فنفَّذَ أمْرَ الله، ولذلك لم يُطبقْ عليه فكَّيْه، ولم يُغرزْ فيه أَنيابه، ولم يمضَغْه بفمه! ولم يكن فمُه إلاّ طريقاً يمرُّ به يونسُ ليستقرَّ في بطن الحوت!

هذا هو المعنى المصوَّرُ الذي يوحيه فعل: «فالتقمه الحوت».

توجيه عدم مضغ وهضم الحوت ليونس:

ولما استقرَّ يونسُ عليه السلام في بطنِ الحوت، أَجرى اللَّهُ له معجزةً أُخرى، حيثُ أمرَ الجهازَ الهضميَّ للحوتِ أنْ لا يهضمَ يونس،

(١) المعجم الوسيط: ٨٣٥.

وأنْ لا يُفرزَ العصاراتِ الهاضمةِ عليه. فهذا الوافدُ إلى المعدة ليسَ وجبةً غذائية، وهو لا يصلحُ للهضم، وما هو إلاّ مقيمٌ في المعدة إقامةً يسيرة ليغادرها بعدَ ذلك، وهذه المعدةُ أشبهُ ما تكون بقاربِ إنقاذٍ لإنقاذه، ولا يجوزُ لها أنْ تَهضمَه.

وتلقَّت معدةُ الحوتِ أمْرَ الله راضية، ونفَّذَته، فلم تُفرزْ على يونس عصاراتِها الهاضمة، وبقيَ يونسُ حياً فيها!

ولا يستغربَنَّ أحدٌ هذا الأمر، فلو كان الأمْرُ أَمْرَنا نحن البشر لكان مستحيلاً، فلا أحَدَ من البشرِ يستطيعُ أنْ يتحكَّمَ في الحوت، ولا أنْ يأمرَهُ بعدمِ مضغِ فريسته في فمه، وعدم هضمها في معدته، ولو أَمَره أحَدُنا بذلك، فلن يستجيبَ له، لأنه لنْ يفهمَ عليه، ولن يخضعَ له.

ثم إنه لا يمكن لأحدٍ أنْ يبقى حياً في معدةِ حيوان أو حوتٍ بالحسابِ البشري، لأنه حتى لو لم يمضغْهُ الحوتُ ولم يهضمْه فلن يَبقى في بطنِه حياً، لأنه سيموتُ بانقطاعِ الأوكسيجين عنه!!

هذا بالمنطقِ البشري والحسابِ البشري.

أمّا بالنسبةِ لإرادةِ الله وقدرتِه فالأمْرُ هينٌ مفهوم، إنَّ اللّهِ فَعّالٌ لما يُريد، وهو على كل شيء قدير... إنَّ اللّهَ هو الذي أَمَرَ الحوتَ أنْ يتوجَّهَ نحو السفينة ففعل، وأمَرَهُ أنْ يفتحَ فَمَه استقبالاً ليونس ففعل، وأمَرَ فمَه أنْ لا يمضغَ يونسَ ففعل، وأمَرَ معدتَه أنْ لا تهضمَ يونسَ ففعلتْ. واللّهُ هو الذي قَدَّرَ ليونسَ أنْ يعيشَ حياً في بطن الحوت.

إنَّ الأمْرَ كلَّه معجزاتٍ وخوارق، يعجزُ عنها البشر، لكنها مفهومةٌ لأنها من فعلِ الله.

بماذا كان يونس مليماً؟:

وأشارت الآيةُ إلى سببِ هذه المحنةِ التي قَدَّرَ اللّهُ أنْ يمرَّ بها يونسُ عليه السلام: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

«مُليم»: اسمُ مفعول، فعلُه الماضي: أَلام. تقول: أَلام، يُليم، فهو مُليم. أي: ارتكبَ ما يستحقُّ عليه اللوم.

قال الإمام الراغب: «اللَّوْمُ: عَذْلُ الإنسان، بنسبتِه إلى ما فيه لَوم. يقال: لُمْتُه، فهو مَلوم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦].

و: أَلام: استحقَّ اللومَ. قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠][1].

وجملةُ: «وهو مليم» جملةٌ حالية، في محلِّ نصبِ حال.

أي: أَمَرَ اللَّهُ الحوتَ أنْ يلتقمَ يونسَ عليه السلام، ويجعلَه في بطنه، لأنه مُليم، فعلَ ما يستحقُّ أنْ يُلامَ عليه، ومن لومِ اللَّه له أنْ أوقعَ به هذا البلاء.

ما الذي فعلَه يونسُ عليه السلام، واستحقَّ أنْ يُلامَ عليه؟

إنه مغادرتُه لقومِه دونَ إذنٍ من الله، وانتقالُه إلى موقعٍ آخر دونَ توجيهٍ من الله، فرغمَ أنَّ فعلَه صحيحٌ وصواب، لكنه كان خلافَ الأَوْلى والأصح والأصوب، ولذلك لامَه الله، ورتَّبَ له هذه المحنة.

وكونُه مُليماً مستحقّاً للَّوْم، ليس معناهُ أنه مخطىءٌ أومذنبٌ فيما فعل، فما فعلَه صوابٌ صحيحٌ كما قلْنا، ولامَه اللَّهُ لأنه تركَ ما هو أَوْلى، والأصلُ في النبيِّ أنْ يفعلَ دائماً ما هو أَوْلى، فإنْ فعلَ خلافَ الأَوْلى باجتهادِه، فإنَّ اللَّهَ يعاتبُه وينصحُه ويرشدُه، وقد يلومُه كما فعلَ مع يونس عليه السلام.

استقرَّ يونسُ عليه السلام في بطنِ الحوت، وصارَ الحوتُ يتحركُ

---

(١) المفردات: ٧٥١.

تحتَ الماء، وينتقلُ من مكانٍ إلى آخر، وكأنه «غوّاصة» تحملُ يونسَ بأمان، وتَقيه الأَخطارَ والأهوال!

لجوء يونس إلى الله ودلالته:

وتفقَّدَ يونسُ عليه السلام نفسَه، فوجد نفسَه في بطنِ الحوت، والحوتُ يَغوصُ تحتَ الماء، وهو حوتٌ من آلافِ الحيتانِ التي تسبحُ في أَعماقِ البحر.

فماذا يفعلُ يونس؟ هل يمكنُ أنْ يستنجدَ بأَحدٍ من البشر؟ وكيف يفعل؟ هل يملكُ وسيلَة استنجادٍ واستغاثة يرسُلها من بطن الحوت إلى البشر؟ ولو رفعَ صوتَه وصرخَ مستغيثاً فهل يسمعُ بَشَرٌ صَوْتَهُ؟ ولو أَنَّ قوةً من البشر تريدُ أن تُغيثَه وتنجدَه، فهل تعرفُ الحوتَ الذي يَحويه؟ وهل يمكنُ أنْ تميزَه من بينِ آلافِ الحيتانِ المشابهة؟

المخلوقون جميعاً يعجزون عن إِغاثةِ ونجدةِ يونس عليه السلام لو أَرادوا، وإِذا وَصلوا إِليه بعد حين، فسيعجزون عن إِنقاذِه حياً!!.

إنَّ يونسَ عليه السلام نبيٌّ كريم، يدركُ هذه الحقيقة، ويوقنُ أَنه لن ينقذَه إلاّ الله، ولن يُفرجَ كربَه إلاّ الله، ولذلك أَقبلَ على الله واتصلَ به، فذكره وسبحه، وناداه واستغاثَ به وتضرَّعَ إِليه.

وقد سجلتْ آياتُ القرآن هذا اللجوءَ الإيمانيَّ إِلى الله، وجعلَتْه مَعْلَماً هادياً وأسوةً حسنةً، للمؤمنين بعد يونس عليه السلام، يقتدون به عندما يمرون بِضَيْقٍ أو محنةٍ أو غمٍّ أو كرب.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤].

أي: لولا أنَّ يونسَ كان مسبِّحاً لله، لبقيَ في بطنِ الحوت إِلى يوم القيامة، أي سيأمُرُ الله معدةَ الحوتِ أنْ تفرزَ على يونس عصاراتِها الهاضمة، وأنْ تحوِّلَه إِلى وجبةٍ غذائية.

إنَّ تسبيحَه لله سبب، قَدَّرَ اللَّهُ أنْ يُنجيه من أجله، ولو لم يتحقَّق هذا السببُ لما كُتب ليونس النجاة.

تسبيح يونس السابق سبب لنجاته برحمة الله:

متى كان يونسُ مسبِّحاً لله؟ هل في بطنِ الحوت فقط؟ أم كان مسبِّحاً قبلَ ذلك؟

إنّ «مسبِّحاً» اسمُ فاعلٍ من التسبيح، واسمُ الفاعلِ يدلُّ على الثباتِ والاستقرار، أي أنَّ الحالةَ التي عَبَّر عنها اسمُ الفاعل حالةٌ دائمةٌ لصاحبها.

إن التسبيحَ كان صفةً دائمة، ملازمةً ليونسَ عليه السلام، وهذا معناه أنه كان مسبِّحاً لله عندما كان وسط قومِه، يَدعوهم إلى الله، وكان مسبِّحاً لله لما استقرَّ في بطنِ الحوت.

لقد كان له رصيدٌ كبيرٌ من ذكْرِ الله وتسبيحِه، وهذا الرصيدُ سببٌ نافعٌ إيجابي، قَدَّرَ اللَّهُ أنْ يرحمَ به يونس، وأنْ ينقذَه من هذهِ المحنة.

عرفَ اللَّهَ في الرخاء، فعرفَهُ اللَّهُ في الشدة، وذَكَرَ اللَّهَ في الرخاء، فنفعَهُ هذا عندَ الشدة، وفَرَّجَها اللَّهُ عنه بسبب ذلك.

ويَقْتدي المؤمنُ الصالحُ بيونسَ عليه السلام في هذا الجانب، فيحرصُ على الإكثارِ من ذكرِ الله وعبادتِه في حالةِ الرخاء، ليكونَ له رصيدٌ كبيرٌ عند الله، وليرحمهُ اللَّهُ عند الشدةِ والمحنة.

وبعدما سبَّحَ يونسُ عليه السلام ربَّه وهو في بطنِ الحوت، تضرَّعَ إليه ودعاه واستغاثَ به. قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

الفاء في «فنادى» حرفُ عطف، وجملةُ «نادى في الظلمات» معطوفةٌ على جملة ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، باعتبارها تتحدثُ عن

لقطةٍ أخرى من مشاهدِ قصة يونس، وقعتْ بعدَ اللقطةِ السابقة، التي أشارَ لها قولُه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

يونس نادى ربه في الظلمات:

نادى يونسُ عليه السلام ربَّه وهو «في الظلمات» ودعاهُ وتضرَّعَ إليه.

و«الظلمات» جمع، ينطبقُ على عدةِ نماذج حسيةٍ ونفسية. فهو في ظلمةِ بطنِ الحوت، وهو في ظلمةِ ماءِ البحر، وهو في ظلمةِ الليل.

وكان عليه السلام يُعاني ظلمةً نفسيةً شعورية، ظلمةَ الغمِّ والهمِّ والكربِ والضيق، ظلمةَ المحنةِ والشدةِ والبلاء.

عندما مَرَّ يونسُ عليه السلام بالظلماتِ نادى ربَّه، وعندما اعترتْه ظلماتٌ نفسيةٌ شعورية نادى اللَّهَ واستغاثَ به.

وهذا هو الإيمانُ بالله، وهكذا يفعلُ المؤمن بالله، إنه لا يلجأُ إلاَّ إلى الله، ليكشفَ عنه الضرَّ والبلاء: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢].

كان نداءُ ودعاءُ يونسَ عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهو دعاءٌ موجزٌ مجملٌ رقيقٌ لطيف، كله أدبٌ ورقةٌ وتقديرٌ لله، وهو يذكِّرُنا بتضرُّعِ أيوبَ عليه السلام الذي تكلمنا عن قصته من قبل، والذي أشارتْ إليه آياتٌ سابقةٌ من سورة الأنبياء.

قال اللَّهُ عن أيوب عليه السلام: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

وقالَ الله عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ

أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾..

كِلا النبيين الكريمين عليهما السلام ابتلاه اللَّهُ بالضر، وكلاهما نادى ربَّه ودعاه واستغاثَ به، وكلاهما خاطبَ اللَّهَ بِأَدَبٍ ولطف ورقة، وكِلاَهُمَا كان نداؤه وتضرُّعه مجملاً بدون تفصيل، وكِلاَهُمَا استجابَ اللَّهُ له فورَ ندائِه ودعائه، فكشفَ عنه الضر، ونجّاه من الغمّ. وكلاهما قدوةٌ للمؤمنين، يَقتدون بهما في اللجوءِ إلى الله ودعائه، والأدبِ واللطفِ في طلبِ الفرجِ منه!.

ثناؤه على الله واعترافه بظلمه لنفسه واستجابة الله له:

نطقَ يونسُ عليه السلام في دعائِه بالكلمةِ الطيبة: «لا إله إلا أنت». وأعلنَ توحيدَ الألوهيةِ وأكّدَ عليه.

إنه في غمٍّ وضيق، وإنه بعيدٌ عن جميع المؤيِّدين والناصرين من المخلوقين، وإنه يُوقنُ أنَّ أيةَ قوةٍ بشرية عاجزةٌ عن الوصولِ له، وأنه لا يمكنُ أنْ يقدِّمَ له مخلوقٌ مساعدةً أو نفعاً.

إنه يعيشُ حقيقةَ أنه لا إله إلا الله، ويستشعرُ حالةَ أنّهُ لا إله إلا الله، ويدركُ فعلاً أنه لا نافعَ ولا ناصرَ ولا مؤيِّدَ إلاّ الله. ولهذا نطقَ بها بلسانِه، وهو يستحضرُها في قلبه ويعيشُها بكيانه.

ونستفيدُ نحن من هذا الدعاءِ النبويِّ الكريم أنْ نبدأَ دعاءَنا وتضرُّعَنا بالثناءِ على الله، وإعلانِ أَنه لا إله إلا الله، ثم نقومُ بتقديمِ طلباتِنا وحاجاتِنا بعد ذلك.

وبعدما أثنى يونسُ على الله، اعترفَ بتقصيرِه قائلاً: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

أَدركَ يونسُ وهو في بطنِ الحوت الذاهبِ في عرضِ البحر، أَنه تسرَّعَ بالخروجِ من قومه، قبلَ توجيهِ اللَّهِ له، وأن اللَّهَ عتبَ عليه ولامَه من أجل ذلك، وقدَّرَ أنْ يوقعَ به هذا البلاء، ويمتحنَه بهذه المحنة.

ولما أدركَ ذلك انطلقَ لسانُه بالاعترافِ بأنه كان ظالماً في فعلِه وتصرفِه وخروجِه، وطلبَ من اللّهِ أنْ يتجاوزَ عن ظلمه، فيسامحَه ويفرجَ كربه.

ولا يُرادُ بوصفِ يونسَ بالظلمِ هنا حقيقةُ الظلم، لأنه نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاة والسلام، والأنبياءُ معصومون، يَعصمهم اللّهُ من الوقوعِ في الظلمِ والفسقِ والذنب والعصيان.

وَصَفَ يونسُ نفسَه بالظلمِ لشعورِه بالتقصيرِ في حقِّ الله، وحيائِه من الله، وطلبِه تفريجَ الغمِّ والكرب والضيق.

ولما نادى يونسُ عليه السلام ربَّه ودَعاه وتضرعَ إليه، سمعَ اللّهُ دعاءَه واستجابَ له ونجّاه من الغم ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾.

اللّهُ سميعٌ وعى سمْعُه الأصواتَ كلَّها، ولهذا سمعَ نداءَ يونسَ وهو في بطنِ الحوت. واللّهُ بصيرٌ أَحاطَ بصرُه بالمرئياتِ كلِّها، ولهذا رأى يونسَ وهو في بطنِ الحوت واللّهُ عالمٌ بكلِّ شيء، فعلمَ أَحوالَ يونس وهو في بطنِ الحوت. إنه لا يوجد ما هو بعيدٌ عن الله، فكلُّ شيء عندَ الله قريب، فَمَنْ كان عندَ الله في السماءِ السابعة من الملائكة فهو قريبٌ منه، ومَنْ كان على وجهِ الأرض من البشر فهو قريبٌ من الله، ومَنْ كانَ في أَعماقِ البحر فهو قريبٌ من الله. وسعَ اللّهُ الجميعَ بعلمه وسمعه وبصره..

[٦]

«وكذلك نُنجي المؤمنين»

كان يونس مغموماً مكظوماً فنجاه الله:

أَخبرَنا اللّهُ أنه استجابَ ليونسَ عليه السلام لما ناداه، ونجاهُ من الغم: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ..﴾.

وإنَّ اللهَ مع عباده، يستجيبُ لهم عندما يدعونَه. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ..﴾ [غافر: ٦٠].

نجّى اللّهُ يونسَ من الغمِّ الذي كانَ به، وهو المحنةُ التي أصابتْه، والكربُ الذي تغشّاه، وهو في بطنِ الحوت، وكان مهموماً مغموماً مكظوماً.

قال السمينُ الحلبي عن الغَمّ: «الغَمُّ: الحزنُ الذي يَضُمُّ القلب. أي يستره ويُغَشّيه.

والغَمُّ في الأصلِ سَتْرُ كلِّ شيء. ومنه الغَمامُ لأنه يسترُ الضوء والشمس»[1].

ولا شكَّ أنَّ يونسَ كان مكظوماً حزيناً في غايةِ الكرب. وأَخبرَنا اللّهُ أنه نادى ربَّه وهو مكظوم. قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ [القلم: ٤٨ ـ ٤٩].

الخطابُ في هذه الآياتِ لرسولِ الله محمدٍ ﷺ، يطلبُ اللّهُ منه أنْ يصبرَ لحكْمِ ربه، فيصبرَ على تكاليفِ الدعوة، ويصبرَ على ما يواجهه من أذى قومِه، ويَنهاهُ أنْ يفعلَ كما فعلَ يونسُ عليه السلام صاحبُ الحوت، حيث غادرَ قومَه بدونِ إذنٍ وتوجيهٍ منه سبحانه.

وليسَ معنى هذا نفيَ الصبرِ عن يونسَ عليه السلام، فهو نبيٌّ رسولٌ صابر، لكنَّ اللّهَ يريدُ من رسولِه محمدٍ ﷺ أنْ يكونَ أكثرَ صبراً من يونسَ الصابر.

يونسُ صاحبُ الحوت نادى ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ فاستجابَ اللّهُ له.

و﴿مَكْظُومٌ﴾ اسمُ مفعولٍ من الكَظم.

قالَ السمينُ الحلبي عن الكَظْم: قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] أي: الحابِسين غيظَهم، الماسِكين له، مأخوذٌ من قولِك: كَظَمْتُ القِرْبَة: إذا شددْتَ فاها.

(١) عمدة الحفاظ ٣: ٢١٠.

قال ابنُ عرفة: الكاظِم: الممسِكُ على ما في قلبه.

وقوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: مملوءٌ كرباً..»[1].

وكذلك ينجي الله المؤمنين:

كان يونسُ عليه السلام في بطن الحوت مَغموماً يغشاهُ الغمُّ والحزن، وكان مكظوماً مملوءاً كَرْباً وهَمّاً وغَمّاً، فاستجابَ اللّهُ له، وتداركَه برحمتِه، وأوقعَ عليه نعمتَه، فزال عنه الغمُّ والكرب، ونجّاه من المحنة.

والمهمُّ في تعقيبِ القرآنِ على إنجاءِ اللّهِ له في سورةِ الأنبياء، تعميمُ هذا الإنجاءِ ليشملَ المؤمنين: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾. الواوُ في «وكذلك» استئنافية، وما بعدَها جملةٌ جديدة فيها تقريرُ حقيقةٍ إيمانيةٍ مطردة.

و«كذلك» متعلقةٌ بما قبلَها، وهو إِنجاءُ اللّهِ يونسَ عليه السلام. والتقدير: كما أَنجيْنا يونسَ من الغَمّ، وأَنقذْناه من الخطر، وأَخرجْناه سالماً معافى، كذلك نفعلُ بكلِّ مؤمنٍ صالح، فإذا وقعَ مؤمنٌ في غمٍّ وكرب، ثم دَعانا وتضرَّعَ إلينا، فإننا نستجيبُ له كما استجبْنا ليونس، ونُنْجيه كما أَنْجينا يونس.

لقد جعلَ اللّهُ الحديثَ عن إِنجائِه ليونس فرصةً مناسبة لتقريرِ حقيقةِ إِنجائِه للمؤمنين المكروبين. وهذا فَتْحُ بابِ الأملِ والرجاءِ لهؤلاء، ليستشرفوا الفرجَ وينتظروه، وهم في أَشَدِّ حالات الغمِّ والكرب، وما عليهم إلاّ أَنْ يَفعلوا كما فعلَ يونسُ عليه السلام، فيُقبلوا على اللّهِ بتضرُّعٍ وإنابةٍ واستغاثة، ولْيوقِنوا أَنَّ اللّهَ سيُنجيهم ويفرجُ عنهم، كما فعلَ مع يونسَ عليه السلام. هذا وَعْدُه لهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، واللّهُ لا يخلفُ الميعاد!!

---

(١) عمدة الحفاظ ٣:٤٦٩.

الرسول ﷺ يخبر عن شمول الدعاء والنجاة للمؤمنين:

وقد أَخبَرَنا عن هذه الحقيقةِ رسولُ الله ﷺ.

روى الترمذيُّ والنسائيُّ وأحمد عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «ألا أخبِرُكم بشيء إِذا نزلَ برجلٍ منكم كَرْبٌ أَو بلاءٌ من أمْرِ الدنيا، دَعا به، فَفُرِّجَ عنه؟

دعاءُ ذي النون: لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين.

وهناكَ روايةٌ أُخرى لهذا الحديث، فيها تصويرٌ للمستوى الإيمانيِّ الأَخلاقيِّ الرفيع الذي كان يعيشُه الصحابةُ الكرام رضوان الله عليهم.

قالَ سعْدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه: مررْتُ بعثمانَ بن عفان في المسجد، فملأَ عينَيْه منّي، ثم لم يَرُدَّ عَلَيَّ السلام!!

فأتيتُ أميرَ المؤمنين عمرَ بنَ الخطاب، فقلت: يا أميرَ المؤمنين: هل حدثَ في الإسلام شيء؟

قال عمر: لا. وما ذاك؟

قلت: لا. إلاّ أَنّني مررْتُ بعثمانَ آنفاً في المسجد، فسلمتُ عليه، فملأَ عينيه منّي، ثم لم يُرَدَّ عَلَيَّ السلام!

فأرسلَ عمرُ إِلى عثمان، فدعاه، فقال له: ما منَعَك أنْ لا تكون رددْتَ على أَخيك السلام؟

قال عثمان: ما فعلْتُ.

قلتُ: بلى.

حَتّى حلفَ، وحلفْتُ.

ثم إنَّ عثمان ذكَر، فقال: بلى، وأَستغفرُ الله، وأَتوبُ إِليه! إنك

مررْتَ بي آنفاً، وأنا أحدِّثُ نفسي بكلمةٍ سمعْتُها من رسولِ الله ﷺ، لا واللّهِ ما ذكَرْتُها قط إلاّ تغشّى بصري وقلبي غشاوة!!

قلت: أنا أنبئُك بها. إن رسولَ الله ﷺ ذَكَرَ لنا أولَ دعوة، ثم جاءَ أَعرابيٌّ فشَغَله، حتى قامَ رسولُ الله ﷺ، فاتبعْتُه. فلما أَشفقْتُ أنْ يسبقَني إلى منزله، ضربْتُ بقدمي الأرض، فالتفتَ إليَّ رسولُ الله ﷺ.

فقال: مَن هذا؟ أَبو إسحاق؟

قلت: نعمْ يا رسول الله.

قال: فَمَهْ؟

قلت: لا والله، إلاّ أنكَ ذكرْتَ لنا أولَ دعوة، ثم جاءَ هذا الأعرابيُّ فشغلك.

قال: نعم. دعوةُ ذي النون، إذ هو في بطنِ الحوت: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فإنه لم يَدْعُ بها مسلمٌ ربَّه في شيء قط إلاّ استجابَ له..»[1].

والشاهدُ في الحديثِ الجملةُ الأخيرة، حيث يصرحُ رسولُ الله ﷺ بتعميمِ استجابةِ الله لدعاء يونس على كلِّ مسلم. فأيُّ مسلمٍ يدعو اللّهَ بدعوةِ يونس فإنَّ اللّهَ يستجيبُ له دعوتَه.

ويتضمنُ دعاءُ يونسُ عليه السلام اسمَ الله، الذي إذا دُعيَ به أَجاب، وإذا سُئلَ به أَعطى.

روى سعدُ بن أَبي وقاص رضيَ الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: اسمُ اللّهِ الذي إذا دُعيَ به أَجاب، وإذا سُئلَ به أَعطى، دعوةُ يونسَ بن متّى.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٥٠٠. والنسائي في الكبرى برقم: ١٠٤٩١. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٦.

فقلت: يا رسولَ الله: هي ليونسَ بنِ متّى خاصة أمْ للمسلمين عامة؟

قال: هي للمسلمين عامة، ألم تسمعْ قولَ الله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[١].

وروى ابن كثير في تفسيرِه ـ بعدَ أنْ أوردَ الحديثَ السابق عن كثيرِ بن معبد قال: سألتُ الحسنَ البصري، فقلت: يا أَبا سعيد: اسمُ الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أَجاب، وإذا سُئل به أَعطى ما هو؟.

قال الحسن: يا ابن أخي: أَما تقرأُ القرآن؟ إنَّه في قول الله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

يا ابن أخي: هذا اسمُ اللّهِ الأعظم، الذي إذا دُعيَ به أَجاب، وإذا سُئل به أَعطى...»[٢].

فعلى المسلمين أنْ يُكثروا من الدعاءِ بدعوةِ يونس عليه السلام، ليستجيبَ اللّهُ لهم، كما وردَ في صريح القرآن وصحيح الحديث.

[٧]
يونس عليه السلام وشجرة اليقطين

الحوت يلقي يونس على الشاطئ:

لما دَعا يونسُ عليه السلام ربَّه استجابَ له، وتداركَه بنعمتِه، ورحِمَه برحمته، وفرَّجَ عنه كربَه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ

---

(١) هو بنفس معنى الحديث السابق الصحيح.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١٨٨.

إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨ ـ ٥٠].

نادى يونسُ ربَّه وهو في بطن الحوت، وكان مكظوماً مهموماً مغموماً مكروباً، ولولا أنْ تداركَهُ اللّهُ برحمتِه ونعمتِه لكان مذموماً مطروداً.

﴿لَّوْلَآ﴾: حرفُ شرط. وجملةُ: ﴿أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فعلُ الشرط. وجملةُ ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ جوابُ الشرط.

والمعنى: لولا نعمةُ اللّهِ عليه بقَبولِ دعائِه وتوبتِه لأَبعده اللّهُ عن رحمته، ولطرحَه في الأرضِ العراءِ وهو مذمومٌ مطرود.

ولكنَّ اللّهَ رحمه برحمته، وأنعمَ عليه بنعمتِه، وخلَّصه من محنته، فأمرَ الحوتَ أنْ يتوجَّهَ به نحوَ شاطئ البحر، ففعل، ثم أَمره أنْ يخرجَه من بطنِه، ويلقيَه على الشاطئ، ففعل. فما هو إلاّ جنديٌّ منفِّذٌ لأَوامرِ الله.

وقد أَشارَ القرآنُ إلى ما جرى له على شاطئ البحر، وإلى إنعامِ اللّهِ عليه وإكرامِه له. قال تعالى: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات: ١٤٥ ـ ١٤٦].

النَّبْذُ: الطرحُ والإِلقاء. يقال: نبذَ الشيء: إذا طرحَه وأَلقاه.

والعَراء: الأرضُ الفضاء، التي لا شجرَ ولا نباتَ ولا بناءَ عليها.

وهي صفةٌ لشاطئ البحر، الذي يكونُ غالباً رملياً، لا ينبتُ عليه نباتٌ ولا شجر.

وقفَ الحوتُ على شاطئِ البحر بأمْرِ الله، وأَخرجَ يونسَ من بطنه بأمْرِ الله، وأَلْقاه على الشاطئ بأمْرِ الله، وعادَ إلى مياهِ البحر بأمْرِ الله.

وبهذا انتهتْ محنةُ يونسَ في البحر وفي بطن الحوت، بأمْرِ الله، وخرجَ منها بأمانٍ، برعايةِ وتدبيرِ الله.

يونس على الشاطئ سقيماً:

لكنه وقعَ في محنةٍ جديدة، سيرعاهُ اللّهُ فيها، ويدبِّرُ له تجاوزَها والخروجَ منها بأمان.

ألقاهُ الحوتُ على شاطئ البحر وهو مريض: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾..﴾.

والسقيمُ هو المريض. وتخيَّلْ مَعَنا منظَرَ إنسان عاشَ في بطنِ الحوت ساعاتٍ أو أياماً - وجوُّ بطْنِ الحوت معروفٌ بحرارتِه - كيف سيكونُ بدنُه ووضعُه عند خروجه.

لا شكَّ أنه سيكونُ سَقيماً مريضاً في جسمه، وسَقيماً في جلدِه، الذي سيكونُ أشبهَ بالمسلوقِ المسلوخ.

قال ابنُ مسعود: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾: كهيئةِ الفَرْخ، ليس عليه ريش.

وقال ابنُ عباس وابنُ زيد والسدي: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾: كهيئةِ الصبيِّ حين يولَد، منفوسٌ لحمُه نيء[1].

وإذا كان اللّهُ قد أنقذَه من أَخطارِ البحر، عندما سخَّر له الحوتَ فإنَّه سينقذُه من أخطارِ البر!

إنَّ شاطئَ البحر موبوءٌ بالميكروبات والجراثيم، وإنَّ يونسَ سقيمٌ مريض ضعيفُ البدن، مسلوخُ الجلد، فهو عرضةٌ للإصابةِ بالأمراض والآفات، الشمسُ الحارةُ على الشاطئ ستؤذي جسمَه المسلوخ، والذبابُ والبعوضُ سيتكاثرُ على لحمِه المقروح!

واللّهُ حكيمٌ لطيفٌ رحيم، سيرحمُ عبدَه يونسَ على الشاطئ، وييسرُ له وسيلةً خارقةً معجزة، يتجاوزُ بها تلك الأخطار.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤: ٢٣.

معجزة إنبات اليقطين على يونس:

كانت الوسيلةُ المعجزةُ في إِنباتِ شجرةِ اليقطين عليه: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾.

واليَقطينُ هو القرعُ المعروف. فهو يُسمّى يقطيناً، ويُسمّى قَرْعاً، ويُسمّى دُبّاء.

إنها ثلاثةُ أَسماءِ لنباتٍ واحد،، خصائصُه النباتيةُ واحدة، ولكن هناك اختلافٌ في ثمرِه. فالدُّبّاءُ والقرعُ واحد. وثمرُه معروفٌ يكادُ يشبه الشمامَ والبطيخَ الصغير. أمّا اليقطينُ فثمرُه قريبٌ من الكوسا.

والراجحُ أنَّ «يقطين» كلمةٌ أعجميةٌ غيرُ عربية، جعلت اسماً لهذه النبتةِ الزراعية.

واعتبرت الآيةُ اليقطين شجرة: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾، مع أَنه نباتٌ على وجْهِ الأرضِ لا ساقَ له.

وذهبَ بعضُهم إِلى أَنَّ كلَّ نباتٍ على وجه الأرض يسمّى يَقطيناً، كالشمام والبطيخ، ولكن هذا مرجوح. فالراجحُ هو أَنَّ اليقطينَ هو النباتُ المعروف فقط.

كان إِنباتُ شجرةِ اليقطين على يونسَ عليه السلام معجزةً من معجزات الله، ليحميه من حَرِّ الشمس وميكرُوباتِ البعوض والذباب، وليمنحَه الظلَّ الوارف.

لم يكن إِنباتُ اليقطين عليه بطريقةٍ عادية، ولم تمرّ بمراحلِ «دورتِها الزراعية» المعروفة، فلو كان الأمرُ كذلك لضاعت الفائدةُ منها. فبذرةُ «اليقطين» تحتاجُ إِلى أيام تحت الأرض لتنبت، ثم تحتاجُ إِلى أَسابيعَ لتمتد، وإِلى أسابيعَ أُخرى لتكبر، وستفتكُ الأمراضُ بيونسَ الملقى على الشاطئِ مسلوخ الجلد سقيمَ البدن!

كان إِنباتُ شجرةِ اليقطين على يونسَ في لحظاتٍ أَو ساعات، معجزةٌ من معجزاتِ اللهِ الباهرات!

أمرَ اللّهُ بذرةَ اليقطين في باطنِ الأرض فنبتَتْ، وأَمَرَها فظهرت على وجه الأرض، وأَمَرَها أنْ تمدَّ ساقَها على وجْهِ الأرض ففعلَتْ، وأَمَرَها أنْ تُخرجَ أوراقَها الكبيرةَ العريضةَ ففعَلَتْ، وأَمَرَها أنْ ترتفعَ على ساقها عن وجه الأرضِ وكأَنها معروشةٌ ففعلَتْ، وأَمَرَها أنْ تتوجَّهَ إلى يونسَ السقيم، وأنْ تظلِّلَ عليه بأوراقِها الكبيرة، وأنْ تُحيطَ به بحنانٍ ورعايةٍ ففعلَتْ. وسبحانَ اللّهِ القادرِ على كل شيء، الفعّالِ لما يُريد.

وكما كان الحوتُ في البحرِ جُندياً من جنودِ الله، ساقَهُ اللّهُ لحمايةِ يونس في بطنه، كذلكَ شجرةُ اليقطينِ جنديٌّ من جنودِ الله، سخَّرها اللّهُ لحمايةِ يونس على شاطئ البحر، وما يعلمُ جنودَ ربك إلا هو.

لماذا شجرة اليقطين بالذات؟:

لكن لماذا اليقطينُ بالذات؟

قالَ الإمامُ ابنُ كثير عن ذلك: «وذَكَرَ بعضُهم في القرعِ فوائد، منها: سرعةُ نباتِه، وتظليلُ ورقِه لكبره، ونعومتِه، وأنه لا يقربُها الذُّباب، وجودةُ تغذيةِ ثمره، وأنه يؤكَلُ نيئاً ومطبوخاً، وقشرُه أيضاً.

وقد ثبتَ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يحبُّ الدُّبَّاء، ويتتبعُه من نواحي الصحفة»[1].

أرادَ اللّهُ الحكيمُ شجرةَ اليقطين دونَ غيرِه لحِكَم ثلاث:

الأُولى: أوراقُ اليقطينِ عريضةٌ متشابكة، تظلِّلُ بدنَ يونسَ عليه السلام بشكلٍ كامل، وتَقيه حَرَّ أشعةِ الشمس، وبذلكَ تُحفظ قروحُ بدنِه من التضررِ بأشعةِ الشمس المؤذية.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٢٣.

الثانية: أَوراقُ اليقطينِ ناعمةُ الملمس، وبدنُ يونسَ المقروحُ بحاجةٍ إِلى غطاءٍ ناعمٍ لئلا يُؤذىٰ.

الثالثة: لا يَقربُ أوراقَ اليقطينِ الحشراتُ ناقلةُ الأمراض، وبالذاتِ الذباب والبعوض. وهذه ملاحظةٌ يدركُها المزارعون الفلاحون، فيرون الذبابَ لا يقتربُ من نباتِ اليقطين، وكأنَّ بينَهما عداوةٌ متأصلةٌ من آلافِ السنين!!

وكأنَّ أوراقَ اليقطين جعلَها اللّهُ تعقيماً لبدنِ يونسَ المقروح، لئلا تقربَهُ الحشرات، وتنشرَ فيه الجراثيمَ والميكروبات! وسبحان الله الحكيم!!.

و«اليقطين» نبات، فلماذا سَمّاه اللّهُ في الآية شجرة؟

قالَ السمينُ الحلبي عن معنى «الشجر»: «وأصْلُ الشجرِ ما نبتَ على ساق، وكانَ له أَغصانٌ وظلّ، وإلاّ فهو نجم. قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: ٦]. أي: جميعُ النبات. لأنَّ النباتَ لا يخلو منْ أحدِ هذين الوصفيْن.

وسُميت الشجرةُ شجرةً لاختلافِ أَغصانِها وتشعُّبِ أفنانها..»[1].

إنَّ إطلاقَ وصفِ «شجرة» على نبتةِ اليقطين لحكمةٍ لطيفة، وهي تصويرُ نبتةِ اليقطين التي نبتَتْ ونمتْ وامتدتْ وكبرتْ وظللتْ بطريقةٍ سريعةٍ معجزة، تصويرُها على أنها شجرةٌ وليستْ نبتةً.

كأنها شجرةٌ ملتفةُ الأغصان، متشابكةُ الأفنان، متشعبةُ الأوراق، شجرةٌ كبيرة أماطتْ بيونسَ عليه السلام، وجعلَتْه يأنسُ تحتَ ظلِّها الظليل. وهذا التصويرُ والتكبيرُ مقصودٌ مرادٌ في التعبيرِ القرآني، لزيادةِ الشعورِ بإنعامِ الله على يونسَ عليه السلام، ورحمتِه له.

---

(١) عمدة الحفاظ ٢: ٢٩٠.

وبقيَ يونسُ عليه السلام تحتَ شجرةِ اليقطين، مستروحاً ظلُّها الظليل، متلذِّذاً بأوراقِها الناعمة، مستمتِعاً بالحمايةِ التي توفرُها أوراقُها له، بقي هكذا حتى زالَ سقمُه، وعوفيَ من مرضِه.

وهكذا انتهت المحنةُ التي امتحنَ اللّهُ يونسَ عليه السلام بها، وخرجَ منها آمناً سليماً معافى، كما خرجَ من محنةِ البحر، وزادَ يونسُ إقبالاً على الله، وحمداً له، واعترافاً بفضْلِه عليه ورعايتِه له.

[٨]

فرح يونس عليه السلام بإيمان قومه

عدد أهل نينوى مبهم يزيد على المائة ألف:

لما عافى اللّهُ يونسَ عليه السلام تحتَ شجرةِ اليقطين أعادهُ إلى قومِه، الذين غادرهم، لأنهم آمنوا به أثناءَ غيابه عنهم، فأعادَه إليهم ليبلِّغَهم الشريعةَ والأحكام.

قال الله عنهم في سورة الصافات: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧ ـ ١٤٨].

الكلامُ في الآيةِ عن قومِ يونسَ، الذين هم أهلُ نينوى، يخبرُنا اللّهُ أنهم كانوا مائةَ ألف أوَ يزيدون.

وللمفسِّرين عدةُ أقوال في معنى «أوْ» هنا:

فقالَ بعضُهم: هي حرفٌ للإضراب بمعنى «بل». والمعنى: كانوا مائةَ ألفِ شخص، بل يَزيدون على ذلك.

وهذا القولُ منسوبٌ لابنِ عباس رضي الله عنهما، وعليه جمهورُ المفسرين.

وقال آخَرون: هي بمعنى الواو، فتدلُّ على العطف. والمعنى: كانوا مائةَ ألف، ويَزيدون على ذلك. وهذا قريبٌ من القول الأول.

وقال آخرون: هي للتخيير. أي: إذا رآهم الرائي وأَرادَ أنْ يعدَّهم تخيَّرَ بين أنْ يقول: هم مائةُ ألف، أو أكثرُ من ذلك.

وقال آخرون: هي للشك. والشكُّ ليس من الله فإنه عالمٌ بهم، ولكنه من جهةِ الرائي الذي ينظرُ إِليهم، فلا يَدري هل هم مائةُ ألفٍ أو يزيدون.

وقال آخرون: هي للإِبهام. أي أنَّ اللّهَ أَبهم عددَهم علينا، فهم أكثرُ من مائةِ ألف، ولكن لا داعي للبحثِ في عددهم، فهو مبهمٌ لا يمكنُ أنْ نبيِّنَه أو نحدِّدَه[١].

ورغمَ أنَّ معظمَ المفسرين على القولِ الأول، وأَنها بمعنى «بل» إلاّ أَننا نَميلُ إِلى القولِ الأَخير، ونرجحُ أَنها للإِبهام.

إِنَّ «الإِبهامَ» لبعضِ الأَسماء والأَعداد والأَماكن مقصودٌ في القصص القرآني، يبهمُ اللّهُ علينا هذه الأشياء، لئلا نبحثَ فيها، لعدمِ وجودِ دليلٍ نعتمدُ عليه، ولعدمِ ترتُّبِ فائدةٍ علميةٍ منه.

إِنَّ تحديدَ عددِ سكانِ أهلِ نينوى لا فائدةَ منه، ولو قلْنا إِنَّ «أَوْ» بمعنى «بل» فسنختلفُ في تحديدِ الزيادة، كم كانوا يزيدون على المائةِ ألف، وكلُّ ما سنقولُه في تحديدِها لا دليلَ عليه، وهذا ما حصلَ للمفسرين.

ولهذا نرجحُ أَنهم كانوا أكثرَ من مائةِ ألفِ نسمة، ولكنَّ هذه الزيادةَ أَبهمَها اللّهُ علينا، ودَعانا إِلى أنْ نُبقيَها على إِبهامِها، وأنْ لا نحاولَ تحديدَها.

وكونُ أهلِ نينوى في ذلك الزمنِ الماضي أكثرَ من مائةِ ألفِ شخص، له دلالةٌ حضارية، حيث يشيرُ إِلى أنَّ منطقةَ نينوى كانت مأهولةً بالسكان، وكونُهم آمَنوا بالله واتبعوا يونسَ عليه السلام دليلٌ على

---

(١) انظر خلاصة هذه الأقوال في «الجدول في إعراب القرآن» لمحمود صافي ١٢: ٨٨.

كثرةِ عددِ المؤمنين السابقين، فاجتماعُ أكثرَ من مائةِ ألفِ مؤمنٍ في زمانٍ ومكانٍ واحد في الماضي شيءٌ جيدٌ طيبٌ، يسرُّ المؤمنين.

آمنوا في غيبة يونس عنهم:

وأَخبرَنا اللّهُ أنَّ قومَ يونسَ قد آمنوا: فآمنوا ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

لما آمنَ قومُ يونسَ رفعَ اللّهُ عنهم العذاب، الذي كان على وشكِ الوقوعِ بهم، ومَتَّعَهم بحياةٍ طيبةٍ سعيدة، إلى حينِ مجيء آجالِهم، وانتهاءِ أعمارهم.

وكان إيمانُ قومِ يونسَ أثناءَ غيبتِه عنهم ومغادرتِه لهم. قال الإمامُ ابنُ كثير: «إنَّ يونسَ بنَ مَتّى عليه السلام بعثَه اللّهُ إلى أهلِ قريةِ نينوى، وهي قريةٌ من أرضِ الموصل. فدعاهم إلى الله تعالى، فأَبَوا عليه، وتمادوا على كفرهم. فخرجَ من بينِ أَظْهُرِهم، مغاضِباً لهم، ووعدهم بالعذابِ بعدَ ثلاث.. فلما تحققوا منه ذلك، وعَلموا أن النبيَّ لا يكذب، خَرجوا إلى الصحراء، بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرَّقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرَّعوا إلى اللّهِ عز وجل، وجأَروا إليه، ورغتِ الإبلُ وفصلانُها، وخارت البقرُ وأولادُها، وثَغت الغنمُ وسخالُها، فرفعَ اللّهُ عنهم العذاب..»[1].

لماذا آمنَ قومُ يونسَ أثناءَ غيابِه عنهم؟

لما كانَ بينَهم يَدعوهم إلى اللّهِ كَذَّبوه وكَفروا به، فطلبَ اللّهُ منه أنْ يُخبرَهم أنَّ العذابَ سيقعُ بهم بعدَ ثلاثةِ أيام، فأَخبرَهم وغادرهم، على اعتبارِ أنه لا فائدةَ من بقائه بينهم.

فلما غادرَهم، وخلالَ الأيامِ الثلاثة، اجتمعَ الملأُ منهم وفكَّروا في الموضوع: إنَّ يونسَ قد أَنذرهم العذاب، وهو صادقٌ في إنذاره، فما عَهِدوا عليه كَذِباً، وهو الآن ليسَ معهم حتى يناقشوه ويفاوضوه.

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٨٦ ـ ١٨٧.

وهذا معناهُ أنَّ العذابَ قادمٌ إليهم لا محالة، فما أَنْ تنتهيَ الأيامُ الثلاثة حتى يقعَ بهم العذاب! ولا وسيلةَ لدفعِ العذابِ إلاَّ إيمانُهم بالله، وتخلِّيهم عن الكفرِ به!!

وشرحَ اللّهُ صدورَهم للإيمان، واتَّخذوا قرارَهم بالإيمان، وطَلبوا من قومِهم الإيمان، وحَرصوا على الإيمانِ قبلَ انقضاءِ المدة. ووافَقَهم قومُهم، وخَرَجوا إلى العراء متضرِّعين إلى اللّهِ بالدعاء، طالبين منه قَبولَ إيمانهم، ومغفرةَ ذنوبهم، ورفْعَ العذابِ عنهم.

وعلمَ اللّهُ صدقَهم، فعاملَهم بلطفِه ورحمتِه، وقَبِلَ إيمانَهم، ورَفَعَ العذابَ عنهم، ومَتَّعهم إلى حين: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

آمنَ جميعُ سكان نينوى، البالغِ عددُهم أكثرَ من مائةِ ألف، آمَنوا أَثناءَ غيبةِ يونس عليه السلام عنهم. فبينما كان يونسُ يُعاني من المحنةِ والابتلاءِ في عرض البحر وفي بطنِ الحوت وتحتَ شجرةِ اليقطين، كان قومُه يتخلَّون عن الكفر، ويُقبلون على الإيمان!!

قبل الله إيمانهم ورفع العذاب عنهم:

وقد أَخبرَنا اللّهُ عن إيمان قوم يونس، وانتفاعِهم بهذا الإيمان، ورفْع العذاب عنهم. قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ۝٩٨﴾ [يونس: ٩٨].

وللمفسّرين أقوالٌ عديدةٌ في تفسيرِ هذه الآية، وتحليلِ كلماتِها، وإعرابِ مفرداتها، وسنذكرُ الراجح في معناها، دونَ استعراضِ الأقوالِ الواردةِ في ذلك.

«لولا»: حرفُ حثٍّ وحضٍّ بمعنى: «هَلاّ». يَدعو أَهْلَ القُرى إلى الإيمان.

«كانت»: فعلٌ ماضٍ تامٌّ، بمعنى وُجِدَتْ.

«قرية»: فاعل «كانتْ» الماضي التام.

«آمنت»: جملةٌ فعلية، في محلّ رفعِ صفةٍ لكلمةِ «قرية».

«فنفعَها إيمانُها»: جملةٌ فعليةٌ أُخرى، معطوفةٌ على «آمنتْ»، التي قبلَها.

والتقدير: هَلاّ وُجدتْ قريةٌ مؤمنة، منتفعةٌ بإيمانها.

والحثُّ والحضُّ هنا بمعنى التوبيخ، يوبخُ اللّهُ أَصحابَ القرى السابقين لكفرِهم الذي كان سبباً في عذابِهم وهلاكهم، فلو آمَنوا لنفعَهم إيمانُهم، ورفعَ اللّهُ العذابَ عنهم.

و«هَلاّ» بمعنى النفي. والمعنى: لم يؤمنْ أهلُ القرى السابقون جميعاً، ولذلك لم يُرفعْ عنهم العذاب.

و«إلاّ»: حرفُ استثناء.

«قومَ يونس»: مستثنى منصوب.

والاستثناءُ هنا منقطع. فالمستثنى «قومَ يونس» ليسَ من جنسِ المستثنى منه «كانت قريةٌ آمنت». لأنَّ قومَ يونس آمَنوا، فنفعَهم إيمانُهم، ورُفعَ العذابُ عنهم، أمّا الذين قبلهم فلم يؤمنوا، ولم يُرفع العذابُ عنهم.

«لمّا» ظرفُ زمانٍ بمعنى «حين»: يتضمنُ معنى الشرط.

«آمنوا»: فعلُ الشرط.

«كشفنا عنهم عذاب الخزي»: جوابُ الشرط.

والتقدير: كشفْنا عن قومِ يونس عذابَ الخزيِ لما آمنوا ـ حينَ إيمانِهم[1] ـ.

---

(١) انظر «الجدول في إعراب القرآن» لمحمود صافي ٦:١٩٦ ـ ١٩٩.

والمعنى العام للآية: يَذُمُّ اللّهُ الكفارَ السابقين لعدمِ إيمانهم، ويبينُ أنهم لو آمنوا لرفعَ العذاب عنهم، لأنَّ الإيمانَ ينفعُ أصحابَه برفْعِ العذاب.

ويقررُ اللّهُ حقيقةً تاريخية: لم يؤمنْ أهلُ قرية بكاملِهم من قرى الكافرين السابقين، ولو آمَنوا بكاملهم لنفعهم، ورُفِعَ العذابُ عنهم. ولا يُستثنى من هؤلاء إلاّ قومُ يونس، فقد كانوا كفاراً، وهددَهم اللّهُ بالعذاب، ولكنهم آمَنوا بكاملِهم جميعاً قبلَ انتهاءِ المهلة، وقبلَ وقوعِ العذاب، وبذلكَ نفعَهُم إيمانُهم، فرفَعَ اللّهُ العذابَ عنهم في الدنيا والآخرة، وجعلَهم يعيشون حياتهم في سعادة، إلى حين انتهاءِ أعمارهم ومجيءِ آجالهم!

هذا هو الراجحُ في معنى الآية، وهذا ما ذكَرَه المحقِّقون من المفسرين.

فهم الطبري وابن كثير للآية:

من هؤلاء الإمامُ الطبري. وقد أَوردْنا في تهذيبنا لتفسيرِه خلاصةَ ما قاله في تفسير الآية: «ومعنى الآية: ليستْ هناك قريةٌ آمنتْ عند معاينتِها العذاب، ونزولِ سَخَطِ اللّهِ بها، فنفعَها إيمانُها، ورُفِعَ العذابُ عنها، بل يَقَعُ العذابُ بها، ولا يُقبلُ إيمانُها، كما لم ينفعْ فرعونَ إيمانُه عندما أدركَه الغرق.

إلاّ قومَ يونس، فهم مستثنونَ من ذلك، حيث آمَنوا عند نزولِ العذابِ بهم، فنفعَهم إيمانُهم، ورفعَ اللّهُ العذابَ عنهم في الحياةِ الدنيا، ومتَّعهم إلى حين.

قالَ ابنُ عباس: لم تكن قريةٌ آمنتْ، فنفعَها الإيمانُ إذا نزلَ بها بأس الله، إلاّ قريةَ يونس، لما آمنتْ نفعَها إيمانها.

وقالَ سعيدُ بن جبير: لما أرسلَ اللّهُ يونسَ إلى قومه، يَدعوهم إلى الإسلام، وترْكِ ما هم عليه، دعاهم فأَبَوا. فقيل له: أَخْبِرْهم أنَّ العذابَ مصبِّحُهم.

فقالوا: إنّا لم نُجرّبْ عليه كذباً، فانظروا، فإنْ باتَ يونسُ فيكم، فليس بشيء، وإنْ لم يَبِتْ فيكم، فاعلموا أنَّ العذابَ مصبِّحُكم. . .

فلما أَصبحوا تغشّاهم العذاب، ففرَّقوا بين الإنسانِ وولدِه، وبين البهيمةِ وولدها، ثم عَجّوا إلى اللّهِ، فقالوا: آمَنّا وصدَّقْنا بما جاءَ به يونس، فكشفَ اللّهُ عنهم العذاب»[1].

وقد تابعَ ابنُ كثير الإمامَ الطبريَّ على هذا الفهم للآية، فقال: «والغرضُ أنه لم توجد قريةٌ آمنتْ بكمالِها ممن سلفَ من القرى، إلاّ قومَ يونس، وهم أهلُ نينوى، وما كان إيمانُهم إلاّ خوفاً من وصولِ العذاب إليهم، الذي أَنذرهم به رسولُهم، بعدما عايَنوا أسبابَه، وخرجَ رسولهم من بين أظهرهم.

عندها جَأَروا إلى الله، واستغاثوا به، وتضرَّعوا إليه، واستكانوا، وأَحضروا أَطفالَهم ودوابَّهم ومواشيهم، وسألوا اللّهَ أنْ يرفعَ عنهم العذابَ الذي أنذرهم به نبيُّهم، فعندها رحمهم الله، وكشفَ عنهم العذاب. . .»[2].

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنَّ الإخبارَ عن إيمانِ قومِ يونسَ جميعاً قبلَ وقوعِ العذابِ بهم، جاءَ في سياقِ تقريرِ سنةِ الله في الإيمان والكفر، والهدى والضلال، ومتى يُقبَلُ الإيمانُ وينفعُ صاحبَه، ومتى لا يُقبلُ ولا يَنفعُ صاحبَه.

سنة الله في الإيمان:

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٤: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٢: ٤١٤.

ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ١٠٠].

إنَّ الذينَ اختاروا الكفرَ عناداً، قد حقتْ عليهم سنةُ الله، وهؤلاء لا يؤمنونَ مهما جاءهم من آياتٍ ومعجزات، لأنهم اختاروا الكفر، ولو آمَنَ هؤلاء عند وقوعِ العذابِ الأليمِ بهم، فلن ينفعَهم ذلك الإيمان، ولن يَدفعَ عنهم العذاب.

ولم يَحصلْ أنْ آمنَ أهلُ قرية جميعاً قبلَ قوم يونس، ولذلك كان يأتيهم العذابُ والهلاك، أمّا قومُ يونس فقد آمَنوا جميعاً قبيلَ وقوعِ العذاب، ولذلكَ قبلَ اللّهُ إيمانهم.

ولو شاءَ اللّهُ إيمانَ كلِّ مَنْ في الأرض لَفَعل، لأنه فَعَّالٌ لما يريد، ولخلَقَهم مؤمنين بالفطرة، بدون تكليفٍ أو اختيار، كما خلقَ الملائكة. ولكنَّه خلقَهم بإرادةٍ واختيار، فيختارون هم الإيمان إنْ أَرادوا. أمّا إذا عانَدوا واختاروا الكفرَ فهم خاسرون، وأنت لا تستطيعُ إكراهَهم على الإيمان.

وهم عندما يؤمنون يكونُ إيمانُهم بإذنِ الله وعلمِه ومشيئتِه، والكفارُ عندما يكفرون أيضاً يكفرونَ بإذنِ الله وعلمه ومشيئته.

هذه خلاصةُ سنةِ اللّهِ في الإيمانِ والكفر، كما تقررُها هذه الآيات.

سيد قطب يوضح هذه السنة وانطباقها على قوم يونس:

وقد علَّقَ سيدُ قطب على ما تقررُه هذه الآياتُ بقوله:

«.. إنَّ كلمةَ الله وسنتَه قد اقتضتْ أنَّ مَنْ لا يأخذُ بأسبابِ الهدى لا يَهتدي، ومَنْ لا يفتحُ عينيْه على النورِ لا يراه، ومَنْ يعطلُ

مداركَه لا ينتفعُ بوظيفتها، فتكون نهايتُه إِلى الضلال، مهما تكن الآياتُ والبينات. . .

وإِذا آمَنوا عند وقوعِ العذابِ الأليم فلا ينفعُهم الإِيمان، لأَنّه لم يجئ عن اختيار، ولم تَعُدْ هناك فرصةٌ لتحقيقِ مدلولِه في الحياة. وهكذا كانَ مشهدُ فرعون، حيثُ قال عندما أدركَه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فقيل له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾.

وعند هذا الموقفِ الذي تظهرُ فيه حتميةُ سننِ اللّهِ العامة، وانتهاؤُها إِلى نهايتِها المرسومة، متى تعرَّضَ لها الإِنسانُ باختيارِه، تفتحُ نافذةً مضيئةً بآخرِ شعاعٍ من أشعةِ الأمل في النجاة، وهو أنْ يعودَ المكذبون عن تكذيبهم قبيلَ وقوعِ العذاب.

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾.

وهو تحضيضٌ يَنسحبُ على الماضي، فيفيدُ أنَّ مدلولَه لم يقعْ. . ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾ مِن هذه القرى التي مَرَّ ذكرُها، ولكنَّ القرى لم تؤمن، إنما آمنتْ منها قلة، فكانت الصفةُ الغالبةُ هي صفةُ عدمِ الإِيمان.

ذلك فيما عدا قرية واحدة، قرية قوم يونس. . ولا يفصِّلُ السياقُ هنا قصةَ يونس وقومِه، وإِنما يشيرُ إِلى خاتمتها هذه الإِشارة، لأَنَّ الخاتمةَ وحدَها هي المقصودة هنا، فلا نزيدُها نحن تفصيلاً، وحسْبُنا أنْ ندركَ أنَّ قومَ يونس كان عذابُ مخزٍ يتهددُهم، فلما آمنوا في اللحظةِ الأخيرة قبلَ وقوعه، كُشفَ عنهم العذاب، وتُركوا يتمتعونَ بالحياةِ إِلى أَجل، ولو لم يؤمنوا لحلَّ العذابُ بهم، وِفاقاً لسنةِ الله، المترتبةِ آثارُها على تصرفاتِ خلقه.

حسْبُنا هذا لندركَ أمريْن هاميْن:

أولهما: الإهابةُ بالمكذِّبين أنْ يتعلَّقوا بخيوطِ النجاةِ الأخيرة، فلعلَّهم ينجون كما نجا قومُ يونسَ من عذابِ الخزي في الحياة الدنيا.. وهو الغرضُ المباشرُ من سياقةِ القصة هذا المساق.

وثانيهما: أنَّ سنةَ الله لم تَتعطلْ ولم تقف، بكشفِ هذا العذاب، وتَرْكِ قومِ يونس يتمتعونَ فترة أخرى.. بل مضتْ ونفذتْ..

لأنَّ مقتضى سنةِ الله كان أن يحلَّ العذابُ بهم لو أَصروا على تكذيبهم حتى يجيءَ العذاب.. فلما عَدلوا قبلَ مجيئهِ جرت السنةُ بإنجائهم، نتيجةَ هذا العدول، فلا جَبريةَ إذن في تصرُّفاتِ الناس، ولكنَّ الجبريةَ في ترتيبِ آثارِها عليها...»[1].

وهكذا آمنَ قومُ يونسَ عليه السلام جميعاً في غيابه عنهم، وقَبِلَ اللّهُ إيمانَهم، وأَعادَ يونسَ إليهم، ليبلِّغهم الأَحكامَ والتشريعات، ويربّيهم على منهج الله.

وعادَ يونسُ عليه السلام إلى قومه، فوجَدَهم مؤمنين، ففرحَ كثيراً بإيمانهم، وسعدَ كثيراً لنجاتِهم، كما فَرحوا هم كثيراً بعودةِ نبيِّهم إليهم.

وأَقامَ يونسُ عليه السلام في قومه، يُعلمُهم ويُربّيهم، حتى وافاهُ الأجل.

[٩]

رسولنا يدافع عن يونس عليهما السلام

رسولنا يخبر عن مجيء يونس حاجاً البيت الحرام:

أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ يونسَ عليه السلام جاءَ إلى البيتِ الحرام مؤدّياً لمناسكِ الحج.

فقد روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ بوادي الأزرق، فقال: «أيُّ وادٍ هذا؟

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٨٢٠ - ١٨٢١.

قالوا: هذا وادي الأزرق.

قال: كأَنّي أَنظرُ إِلى موسى عليه السلام هابطاً من الثَّنِيَّة، وله جُؤارٌ إِلى اللّهِ بالتلبية.

ثم أَتى على ثنية «هَرْشىٰ» فقال: أيّ ثنيةٍ هذه؟

قالوا: ثنيةُ هَرْشىٰ.

قال: كأَني أَنظرُ إِلى يونسَ بنِ متى عليه السلام على ناقةٍ حمراء، جَعْدَة، عليه جُبَّةٌ من صوف، خُطامُ ناقتِه خُلْبَة، وهو يُلبي..»[١].

و«ثنيةُ هَرْشىٰ»: جبلٌ قربَ الجحفة، بين مكةَ والمدينة.

و«ناقة حمراء جعدة»: ناقةٌ لونُها أحمر، وهي سمينةٌ مكتنزة اللحم.

و«خطام ناقته خلبة»: الحبلُ الذي تُقادُ منه الناقة من ليف[٢].

لما توجَّه رسولُ الله ﷺ للحج، أَخبرَ الصحابةَ بأَنَّ موسى عليه السلام قد أتى البيتَ الحرامَ حاجّاً ملبياً، وأَنَّ يونسَ بنَ متّى عليه السلام قد أَتى البيتَ الحرامَ أيضاً حاجاً ملبياً.

ووصفَ لنا ناقةَ يونس، فهي حمراءُ اللون، سمينةٌ مكتنزةُ اللحم، وأَنَّ الحبلَ الذي تُقادُ به من ليف.

كما وصفَ لنا يونسَ عليه السلام بأنه كان راكباً الناقة، لابساً جبةً من صوف، وهو يُلبي قائلاً: لبيك اللهم لبيك.

ولا غرابةَ في قدومِ يونسَ عليه السلام إلى بيتِ الله الحرام حاجاً ملبياً، فقد كان بعدَ إِبراهيم عليه السلام.

ومعلومٌ أنَّ إبراهيمَ وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان بنيا البيتَ

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٦. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٨.

(٢) انظر هامش محمد فؤاد عبد الباقي على الحديث، في صحيح مسلم ١:١٥٢.

الحرام، وأنَّ إبراهيمَ لمّا أتمَّ البناءَ أَذَّنَ في الناس بالحج، ودَعاهم إلى المجيء حاجين البيت الحرام. وأشارَ القرآنُ إلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧].

وإبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام هما أولُ مَنْ أدّى مناسكَ الحج. وبما أنَّ موسى ويونس نبيّان كريمان عليهما السلام فلا غرابةَ أنْ يأتيَ كلٌّ منهما للحج، موسى عليه السلام يأتي من الأرضِ المقدسة، وبعدَه بقرون يأتي يونسُ عليه السلام من نينوى في شمالِ العراق!.

الرسول ينهى عن تفضيل أحد على يونس:

وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن تفضيلِ أحدٍ على يونسَ بنِ متّى عليه السلام.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما يهوديٌّ يَعرضُ سلعتَه، أُعطيَ بها شيئاً كرهَهُ. فقال: لا. والذي اصطفى موسى على البشر.

فسمعَهُ رجلٌ من الأنصار، فقامَ فلطمَ وجْهَه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى على البشر والنبيُّ ﷺ بين أظهرنا؟

فذهبَ إليه، فقال: أبا القاسم: إنّ لي ذمةً وَعَهداً، فما بالُ فلانٍ لطمَ وجهي؟

فقال: لِمَ لطمْتَ وجْهَه؟

فذكَرَه.

فغضبَ النبيُّ ﷺ، حتى رُؤيَ في وجهه. ثم قال: لا تفضِّلوا بين أولياءِ الله، فإنه يُنفخُ في الصور، فيُصعقُ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض إلاّ مَنْ شاءَ الله، ثم يُنفخُ فيه أخرى، فأكونُ أولَ مَنْ بُعث، فإذا موسى آخذٌ بالعرش، فلا أَدري: أَحوسبَ بصعقتِه يومَ الطور، أم بُعثَ قبلي!

ولا أقولُ إنَّ أَحداً أفضلُ مِن يونسَ بنِ متّى»[1].

والشاهدُ في الحديث الجملةُ الأخيرةُ منه حيث أَخبرَ أنه لا يقول إنَّ أحداً أفضلُ من يونسَ بنِ متى عليه السلام.

قال ذلك لأنَّ سياقَ الحادثةِ يوحي بالتفضيلِ بين رسلِ الله، تفضيلاً قائماً على انتقاصِ رسلٍ آخرين، فاليهوديُّ يرى أنَّ موسى عليه السلام أفضلُ العالمين، أي: أفضلُ من رسول الله محمدٍ ﷺ. وهذا باطل.

فردَّ عليه الأنصاريُّ رداً يفهمُ منه بعضُ انتقاصٍ لموسى عليه السلام، ولذلك غضبَ رسولُ الله ﷺ، وقال: لا تُفضلوا بين أولياءِ الله، وهم الرسلُ الكرامُ عليهم السلام.

وبعد أنْ بيَّنَ فضْلَ موسى عليه السلام، ردَّ التهمةَ عن يونسَ عليه السلام التي قد تثورُ عند بعضهم، فنهى عن تفضيلِ أحدٍ عليه، باعتباره نبياً كريماً.

ونهى رسولُ اللّهِ ﷺ عن انتقاصِ يونسَ عليه السلام نهياً صريحاً، ورفضَ أنْ يَعتبرَ أحدٌ نفسَه أَفضلَ من يونس.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: «لا ينبغي لعبدٍ أنْ يقول: أَنا خيرٌ من يونسَ بنِ متى»[2].

وروى البخاريُّ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لا يقولَنَّ أحدٌ إني خيرٌ من يونس بن متى»[3].

وروى البخاريُّ عن عبدِ الله بنِ عباس رضي الله عنهما قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ما يَنبغي لأحدٍ أنْ يقول: إِني خيرٌ من يونسَ بنِ متّى.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٤. ومسلم برقم: ٢٣٧٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٧٥.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٦. ومسلم برقم: ٢٣٧٦.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٢.

ونسبه إِلى أَبيه»[1].

وروى البخاريُّ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قال: أَنا أفضلُ مِن يونسَ بنِ متّى فقد كَذَب..»[2].

في هذه الأحاديث يدافعُ رسولُ الله ﷺ عن يونسَ بنِ متّى عليه السلام، في مغادرتِه لقومِه باجتهاده، وينهى أيَّ شخصٍ أنْ يعتبرَ نفسَه أفضلَ من يونس، وأَنه أَوسعُ منه صدراً، وأكثرُ منه صبراً.

ومعلومٌ أنَّ الأنبياءَ أفضلُ من جميعِ الخلق، وأنَّ أصلحَ صالحٍ من المؤمنين لا يكونُ أفضلَ عند الله من أيِّ نبي.

وهذا معناه أنَّ نبيَّ الله يونسَ عليه السلام لم يكن مخطِئاً في فعله، وأنَّ ما قامَ منه باجتهاده كان جائزاً، لكنه كان خلافَ الأَوْلى، كما قررنا من قبل.

يونسُ نبيٌّ كريم، ورسولٌ مبلغ، وهو حليمٌ منيب، صبورٌ داعية، عليه الصلاة والسلام.



(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٨٠٥.



أربعة أنبياء كرام
إدريس وذو الكفل وإلياس واليسع
عليهم السلام

[١]

إدريس عليه السلام

إِدريسُ نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاة والسلام.

وقد وردَ اسمُه مرتيْن في القرآن.

ذكر إدريس في سورة الأنبياء:

الأولى: في سورة الأنبياء، مقروناً بإسماعيلَ وذي الكفل. قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦].

وقد أَشارت الآياتُ السابقةُ إِلى قصةِ داود وسليمان وأيوب، وأَشارت الآياتُ اللاحقةُ إِلى قصة يونسَ وزكريا ويحيى، عليهم السلام.

و«إسماعيل» في الآيةِ منصوب، و«إدريسَ وذا الكفل» منصوبان معطوفان عليه. وهو مفعولٌ به لفعلٍ محذوف، تقديرُه: اذكُرْ إِسماعيلَ وإِدريسَ وذا الكفل.

والخطابُ لرسولِ الله ﷺ، ولكلِّ مسلم متذكِّرٍ من بعده، بأنْ يؤمنَ بأنَّ هؤلاء من الأنبياء، وأنْ يقتديَ بهم باعتبارهم أنبياء.

ووصفَ اللّهُ الأنبياءَ الثلاثة بأَنهم صابرون: ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾. كما أَخبرَ أَنه أدخلهم في رحمته، فرحمَهم كما رحمَ الأنبياءَ الذين قبلَهم والذين جاءوا بعدهم: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾.

ووصَفَهم بأنهم صالحون، ومعلومٌ أنَّ الأنبياءَ أصلحُ الناس: ﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ويمكنُ أنْ نستخرجَ من هاتيْن الآيتين ما فيهما من ثناءٍ على إدريسَ عليه السلام لحسنِ صفاته، فنقول: كانَ إِدريسُ عليه السلام صابراً، وصالحاً، ومرحوماً أدخله الله في رحمته.

ذكر إدريس في سورة مريم:

الثانية: في سورة مريم، بعدَ قصةِ عيسى وإبراهيم وموسى وهارون وإسماعيل عليهم السلام. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٦ ـ ٥٧].

والأمرُ هنا صريحٌ لرسولِ الله ﷺ أنْ يذكُرَ إدريسَ عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾. وهذا الأَمْرُ يَنسحبُ على كلِّ مسلمٍ ذاكرٍ متذكرٍ من بعده، كما قلنا.

والمرادُ بالكتاب في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن، كتابُ الله الذي أَنزله على رسولِه محمدٍ ﷺ، والذي أَخبرَه فيه عن قصصِ أنبياء سابقين.

وقد سبقَ هذه الآيات قولُه تعالى في التذكيرِ بإبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١].

وقولُه تعالى في التذكير بموسى عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم: ٥١].

وقولُه تعالى في التذكير بإسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤].

أي أنَّ اللّهَ أَمَرَ نبيَّه محمداً ﷺ أنْ يذكرَ في القرآن كُلاًّ من إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام.

وكان الكلامُ قبل ذلك عن قصةِ ولادةِ ونبوةِ عيسى ابن مريم عليه السلام.

وذِكْرُ هؤلاء الأنبياءِ الخمسةِ في سورة مريم لتقريرِ حقيقةِ نبوةِ محمدٍ ﷺ، ولإقامةِ الحجة على الطوائفِ الموجودة زمنَ النبي عليه الصلاة والسلام. وهم اليهود والنصارى والعرب المشركون.

إبراهيمُ عليه السلام أبو الأنبياء، وكلُّ الطوائفِ الثلاثةِ تَدّعي

الانتسابَ إليه والإيمانَ به، وموسى عليه السلام نبيُّ اليهود، وعيسى عليه السلام نبيُّ النصارى.

وتذكيرُ الطوائفِ الثلاثة بهؤلاءِ الأَنبياء، وذِكْرُ طرفٍ من أَخبارِهم في القرآن دليلٌ على نبوةِ محمد ﷺ، وعلى أنَّ القرآنَ كلامُ الله.

إدريس صديق نبي:

وقد وَصفت الآيةُ إدريسَ عليه السلام بوصفين: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ وهما الوصفان اللذان وُصفَ بهما إبراهيمُ عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾.

فإبراهيمُ صِدّيق نبي، وإدريسُ صِدّيق نبي، عليهما الصلاة والسلام.

ومقامُ «الصِّدِّيقية» مقامٌ عظيمٌ للمقرَّبين عندَ الله.

وَصَفَ الله به نبيَّيْه الكريميْن إبراهيمَ وإدريسَ عليهما السلام.

ووصفَ به يوسفَ عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا . . .﴾ [يوسف: ٤٦].

وهذا مقامٌ قد يصلُ إليه السابقون من المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩].

و«الصِّدِّيق»: مبالغةٌ من الصدقِ والتصديق.

فالصِّدِّيق: صادقٌ أولاً في قولِه وفعله، ثم هو صَديقٌ لكلِّ صادق، بينهما صداقة ومودة، ثم هو صِدّيقٌ، دائمُ الصدقِ والصداقةِ والتصديق.

وكلُّ نبيٍّ صِدّيق، لأَنه صادقٌ وصَديق وصِدِّيق.

ومعلومٌ عندنا أنَّ «الصِّدِّيقَ» لقبٌ شريفٌ مبارك، أجمعَ المسلمون على إطلاقهِ على أفضلِ الناس بعد الأنبياء، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

رفع إدريس إلى السماء الرابعة:

وبعدما أثنى اللّهُ على إدريسَ بأنه صِدّيقٌ نبي، أَخبرَنا بأنه رفعَهُ عنده إِلى مكانٍ عَلِيّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾.

والمكانُ العَلِيُّ هو عالي القدرِ والمنزلة، وكلُّ الأنبياء مكرَّمون عندَ الله، وكلُّهم رفعهم اللّهُ إِلى مقامٍ ومكانٍ عليٍّ عنده سبحانه. ومقامُ النبوة هو أَعلى مقامٍ ومنزلة عنده.

وقد رفعَ اللّهُ إِدريسَ عليه السلام إِلى السماء، بدليلِ إِخبارِ رسولِ الله ﷺ عن رؤيتِه له في السماءِ الرابعة، ليلةَ المعراج.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ حَدَّث، أَنه لما عُرِجَ به إِلى السماء قال: «أَتيتُ على إِدريسَ في السماءِ الرابعة»[1].

وهذه روايةٌ مجملة، نصَّ فيها على أَنه قابلَ إِدريسَ عليه السلام في السماء الرابعة.

وهناكَ روايةٌ تذكُرُ بعضَ ما جرى في السماءِ الرابعة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مالكِ بنِ صعصعة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال في حديثِ المعراج الطويل: «... ثم صَعَدَ بي حتى أَتى السماءَ الرابعة، فاسْتَفْتَحَ.

فقيل: مَنْ هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومَنْ معك؟

قال: محمد ﷺ.

قيل: أَوَ قَدْ أُرسلَ إِليه؟

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٥١٧. ومسلم برقم: ١٦٢.

قال: نعم.

قيل: مرحباً به، فنِعْمَ المجيء جاء!!

ففتح. فلما خلصْتُ فإذا إدريس.

قال: هذا إدريس، فسلِّمْ عليه.

فسلَّمْتُ عليه، فردَّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح...»[1].

هذا، ولم يبين القرآنُ كيفيةَ رفْعِ إدريس إلى المكان العليّ، وإنزالِه في السماءِ الرابعة، فلا نعرفُ تفصيلَ وكيفيةَ ذلك الرفع، ولا نخوضُ فيه.

علماً أنَّ الإسرائيلياتِ قد أوردَتْ تفاصيلَ غريبةً منكرةً باطلة عن ذلك، ونقلَها عنها بعضُ المفسرين، سامحهم الله.

فلا ندري هل رفعَهُ الله بجسمِه وروحِه إلى السماء، كما رفعَ عيسى عليه السلام، أمْ ماتَ إدريسُ موتاً طبيعياً على الأرض، ودُفِنَ فيها كما دُفِنَ باقي الأنبياء، ورَفَعَ اللّهُ روحَه مكاناً علياً؟

الراجح أن رفع إدريس ليس كرفع عيسى عليهما السلام:

وعندما ننظرُ في آياتِ القرآن، فسوف نرى أنها أخبرتْ عن رفْعِ نبيَّيْن كريمينْ هما إدريس وعيسى عليهما السلام.

قالَ اللّهُ عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨].

وخاطبَ اللّهُ عيسى عليه السلام بقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [آل عمران: ٥٥].

وجمهورُ المسلمين على أنَّ اللّهَ رفعَ عيسى عليه السلام إلى

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٧. ومسلم برقم: ١٦٤. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٤٤.

السماء، بروحِه وجسمه، وذلك لما أرادَ اليهودُ والرومانُ صلْبَه، فحماهُ اللّهُ منهم، ورفعَه إلى السماءِ الثانية، وهو هناك حيٌّ بروحِه وجسمِه، وسينزلُ قُبيل قيامِ الساعة.

فهل كانَ رفْعُ إدريس عليه السلام إلى السماء الرابعة هكذا؟

قالَ بهذا القول بعضُ المفسِّرين من التابعين كمجاهد والحسن البصري والضحاك بن مزاحم. بل قالَ بهذا ابنُ عباس، رضي الله عنهما.

أوردَ ابنُ كثير في التفسير: قالَ مجاهد: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾: رفَعَهُ اللّهُ إلى السماءِ الرابعة، فإدريسُ رُفِعَ ولم يمتْ، كما رُفعَ عيسى، عليهما السلام[1].

اللّهُ أعلمُ كيف كانَ رفْعُ إدريسَ عليه السلام، وما المرادُ بالمكانِ العليّ الذي رفعَهُ اللّهُ إليه.

وإنْ كنّا نرى فَرْقاً في التعبيرِ القرآنيّ عن رفْعِ عيسى ورفْعِ إدريس عليهما السلام.

فلما أَخبرَ عن رفْعِ عيسى عليه السلام عَدّى الرفْعَ بحرفِ الجر «إلى»، وذلك في قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾. وفي قوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾.

بينما لم يذكُرْ حرفَ الجرّ «إلى» في رفْعِ إدريس عليه السلام، وإنما ذَكَرَ ظرْفَ المكانِ «مكاناً» ـ وهو مفعولٌ فيه منصوب: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾.

ولعلَّ هذا الفرقَ في الإِخبارِ يوحي بأنَّ رَفْعَ إدريس غيرُ رفْعِ عيسى عليهما السلام!!

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٢٤.

فعيسى رُفِعَ رفعاً حقيقياً مادياً، بروحِه وجسمِه، إلى السماء الثانية ـ على قولِ جمهورِ المسلمين ـ ولهذا عَدّى الفعلَ بحرفِ «إلى»، الذي يدلُّ على مزيدٍ من التخصيصِ والتكريم، ويوحي بالرفعِ المادي الحقيقي.

وإسقاطُ «إلى» من الإخبارِ عن رفْعِ إدريس عليه السلام يوحي بأنَّ رفْعَه ليس كرفْعِ عيسى المادي، وإنما هو رفعٌ معنوي، يقومُ على رفعِ المنزلة والمقام.

ولعلَّ هذا يرجحُ أنَّ إدريسَ عليه السلام ماتَ على الأرض موتاً طبيعياً، كباقي الأنبياء، وهذا ما نرجِّحُه، والله تعالى أعلم.

و«إدريسُ» اسمُ علمٍ أجنبي، وليس عربياً مشتقاً، وهو ممنوعٌ من الصرف، للعلميةِ والعجمةِ.

وقد ناقشَ الإمامُ الزمخشريُّ في الكشاف الذين قالوا بأَنه عربيٌّ مشتق، قال: «قيل: سُمي «إدريس»: لكثرةِ دراستِه كتابَ الله عز وجل. وكان اسمُه «أخنوخ».

وهذا غيرُ صحيح. لأنه لو كان «إفْعيلاً» ـ يعني على وزن «إفْعيل» ـ من الدَّرس، لم يكنْ فيه إلاّ سببٌ واحد، وهو العلمية، فكان مُنصرفاً. فامتناعُه من الصرفِ دليلُ العجمة.

وكذلك «إبليس» أَعجمي. وليسَ مشتقّاً من الإبلاس، كما يزعمون. ولا يعقوبُ من العَقِب. ولا إسرائيلُ بإسرال، كما زعمَ ابنُ السِّكّيت.

ومَن لم يُحَقِّق، ولم يتدربْ بالصناعة كثرتْ منه أمثالُ هذه الهنات..

ويجوزُ أنْ يكونَ معنى «إدريس» في تلك اللغة قريباً من ذلك، فحسِبَه الرائي مشتقّاً من الدرس»[١].

---

(١) تفسير الكشاف ٣:٢٣ ـ ٢٤.

خلاف في زمن نبوة إدريس عليه السلام:

وقد اختلف المفسرون والإِخباريّون في زمانِ بعثةِ إِدريسَ عليه السلام.

فذهبَ جمهورُ العلماء إِلى أنه كانَ بعدَ آدم، وقبلَ نوح. فهو عندهم النبيُّ الثاني من حيثُ الوجودُ التاريخي، وعندما يَعُدّون الأنبياءَ يَعُدّونهم هكذا: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح... وهكذا.

ولا يملكُ هؤلاء دليلاً على أَنه كان بعدَ آدم وقبلَ نوح، لا دليلاً من القرآن صريحاً، ولا حديثاً مرفوعاً صحيحاً، ولو وُجِدَ ذلك الدليلُ لما وقع الخلاف.

وذهبَ آخرون من العلماءِ المحقِّقين إِلى أَنَّ إدريسَ عليه السلام متأخرٌ في الزمان، وأَنه من أنبياءِ بني إسرائيل، وقد يكون بعد داودَ وسليمان عليهما السلام.

وهذا ما نَميلُ إِليه ونرجِّحه واللّهُ أعلم. وهذا ما جَرْينا عليه في حديثنا عن قصصِ الأنبياء، فلم نتحدثْ عن قصةِ إِدريس بعد حديثنا عن قصة آدم، وقبلَ قصة نوح، كما فعلَ كلُّ الذين بَحثوا في قصص الأنبياء في القرآن، وإِنما تحدَّثْنا عنه في هذا الموضع من كتابنا، لأننا نرى أَنه من الأنبياء المتأخرين لبني إِسرائيل، ولعلَّه بعد داودَ وسليمان، وقبلَ زكريا ويحيى، عليهم الصلاة والسلام.

الأدلة على أن بعثة إدريس كانت متأخرة في بني إسرائيل:

ومن الأَدلةِ على هذا الترجيح أَنَّ القرآنَ أَشارَ إِلى قصته في سورة مريم بعدَ إِبراهيم وموسى وإِسماعيل عليهم الصلاة والسلام.

كذلك كانَ الحديثُ عنه في سورةِ الأنبياء متأَخِّراً، بعد الحديثِ عن إبراهيم ولوط وداود وسليمان وأيوب، وبعده كان الحديثُ عن يونسَ وزكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

والآيةُ التي تحدثَتْ عنه قرنَتْه مع إسماعيلَ وذي الكفل، مما يوحي بأنَّهُ كان بعدَ إسماعيل وقبلَ ذي الكفل. والله أعلم.

ومما يدلُّ على أَنه كان متأخراً في التاريخ، وأَنه بُعِثَ إِلى أجيالٍ متأخرةٍ من بني إسرائيل، حديثُ المعراج، الذي سجَّلَ تحيةَ إِدريسَ لرسول الله ﷺ.

فمما جاءَ في الحديثِ الذي رواه البخاري ومسلم عن مالكِ بن صعصعة رضي الله عنه: أَنه لما مَرَّ رسولُ الله ﷺ على آدمَ في السماء الأولى وسلَّمَ عليه، رَدَّ آدمُ عليه السلام، وقال له: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح.

ولما حيّا عيسى عليه السلام في السماءِ الثانية، رَدَّ عليه التحية، وقال له: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح.

ولما حَيّا يوسفَ عليه السلام في السماء الثالثة، ردَّ عليه التحية، وقال له: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح.

ولما حَيّا إِدريسَ عليه السلام في السماءِ الرابعة، رَدَّ عليه التحية، وقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح.

ولما حيّا هارونَ عليه السلام في السماءِ الخامسة، ردَّ عليه التحية، وقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح.

ولما حيّا موسى عليه السلام في السماءِ السادسة، ردَّ عليه التحية، وقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح.

ولما حيّا إبراهيمَ عليه السلام في السماءِ السابعة، رَدَّ عليه التحية، وقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح[١].

---

(١) انظر حديث المعراج في البخاري رقم: ١٦٣٦. ومسلم برقم: ١٦٣.

والشاهدُ في الحديثِ أنَّ آدمَ وإبراهيمَ عليهما السلام خاطبا محمداً ﷺ بالبُنُوَّة، وقالا له: مرحباً بالابنِ الصالح.

وذلك لأنَّ آدمَ هو أَبو البشر، وإِبراهيمَ هو أبو الأنبياء.

بينما الأنبياءُ الخمسة: عيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى عليهم السلام خاطبوا محمداً ﷺ بالأُخوة، وقالا له: مرحباً بالأخ الصالح.

وهذا يوحي بأنَّ إدريسَ متأخِّرٌ في الزمان، فلو كانَ بعدَ آدم وقبلَ إبراهيم لقالَ له كما قالا له: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح.

وممنْ قالَ بأنَّ بعثةَ إدريس عليه السلام كانت متأخرة، وليستْ متقدمةً قبلَ نوحٍ عليه السلام القاضي أبو بكر ابن العربي.

نقلَ الإِمامُ القرطبيُّ في تفسيرِه عن القاضي ابنِ العربي قولَه: «ومَنْ قال إِنَّ إدريسَ كان قبلَ نوح، من المؤرخين، فقد وَهِم.

والدليلُ على صحةِ وهْمِه الحديثُ الصحيحُ في الإِسراء، حين لقيَ النبيُّ ﷺ آدمَ وإدريس. فقالَ له آدم: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح، وقالَ له إدريس: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح.

فلو كانَ إدريسُ أباً لنوح لقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح، فلما قال له: والأخ الصالح، دلَّ على أنه يُجمتعُ معه في نوح، صلوات الله عليهم أجمعين.

ولا كلامَ لمنصفٍ بعدَ هذا»[1].

هذا ما يمكنُ أنْ يُقالَ في قصةِ إِدريسَ عليه السلام، اعتماداً على

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧: ٢٣٢.

الآياتِ والأحاديث، وعندَ تركِ الإسرائيليات وعدمِ أخْذِ أوِ اعتمادِ شيءٍ منها.

وما سوى ذلك، مما فصَّلَتْ فيه الإسرائيليات، فهو عندنا من مبهماتِ القرآن، التي يجبُ أنْ نُبقيَها على إبهامها.

فمن المبهماتِ في قصةِ إدريسَ عليه السلام: نَسَبُه، وتحديدُ الزمنِ الذي بُعِثَ فيه، والقومِ الذين بُعثَ إليهم، وعمرِه عندما بُعث، والكتابِ الذي أَنزله عليه. وتفاصيلِ ما جرى بينه وبين قومه، وكيفَ كانت نهايتُه، وأينَ وكيفَ كانت وفاتُه، وتحديدُ الذين آمنوا به مِن قومه، وتحديدُ نهايةِ الذين كفروا من قومه.

كلُّ هذه المبهمات لا نَخوضُ فيها، لأنه لم يَرِدْ عليها دليلٌ في الآياتِ الصريحة والأحاديثِ المرفوعة الصحيحة.

علينا أنْ نَبقى مع القرآنِ والحديثِ الصحيح، نَقولُ بما قالا به، ونسكتُ عما سكتا عنه، ويَسَعُنا في ذلك ما وسع الصحابةَ الكرام، رضوان الله عليهم.

[٢]

ذو الكفل عليه السلام

ذو الكفل نبيٌّ كريم، عليه الصلاة والسلام، وردَ اسمُه ضمنَ أَنبياءَ آخرين في القرآن، وكان ذكْرُه مرتيْن فقط.

الأولى: في سورة الأنبياء. قال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦].

وقد تكلَّمْنا عن هذه الآيةِ عندَ حديثِنا عن إدريسَ عليه السلام في المبحثِ السابق، وأشَرْنا إلى ثناءِ اللّهِ على هؤلاء الأنبياء.

«إسماعيل»: مفعولٌ به لفعلٍ محذوف، تقديره: اذكُرْ إسماعيل.

و«إدريس وذا الكفل» معطوفان عليه منصوبان.

والتقدير: اذكُرْ إسماعيل، واذكُرْ إدريس، واذكُرْ ذا الكفل.

وأثنى اللّهُ عليهم بأنهم صابرون، مرحومون، صالحون.

وهذا ثناءٌ على ذي الكفل، وشهادةٌ من الله له بأَنه صابر، مرحوم، صالح. كباقي إِخوانه الأَنبياء.

الثانية: في سورة ص. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٨].

قَرنت الآياتُ ذا الكفل مع إسماعيل واليسع، وقدَّمَتْهما عليه، وذكَرَتْ قبلَهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، عليهم السلام.

وتقديمُ إسماعيلَ واليسع على ذي الكفل، قد يدلُّ على أَنه كان بعدهما في الزمان. والله أعلم.

هذا ما أَوردَه القرآنُ عن ذي الكفل عليه السلام، حيث لم يذكُرْ عن قصتِه أيَّ شيء، واكتفى بإيرادِ اسمِه ضمنَ أسماء أنبياء آخرين.

وإذا ما انتقلْنا إلى مصدرنا الإسلاميِّ اليقيني الثاني، وهو الحديثُ النبويُّ الصحيح، فإننا لا نجدُ حديثاً صحيحاً مرفوعاً، يتحدثُ فيه رسولُ الله ﷺ عن ذي الكفل.

بينما أَوردت الإسرائيلياتُ بعضَ الأَخبار والتفصيلات عن ذي الكفل، وعن سببِ تسميتِه بذلك، ونَقَلَ هذه الإسرائيلياتِ بعضُ المفسرين والمؤرخين المسلمين، مع أَنها إسرائيلياتٌ باطلةٌ كاذبة، تَنسبُ إلى ذي الكفل ذنوباً كبائر، لا تَصدرُ عن مسلمٍ صالح، فضْلاً عن نبيٍّ كريم!

ونحنُ لا نَرى إيرادَ هذه الإسرائيليات، ولا نسبةَ أَشياء للأَنبياء من خلالها، ولذلك أَضرَبْنا عنها.

إنَّ كلَّ قصةِ ذي الكفل عليه السلام مبهمٌ من مبهماتِ القرآن، فلا نعرفُ من قصتِه إلاّ اسمَه ـ أو لقبه ـ.

لا نعرفُ زمانَ بعثته، ولا تفاصيلَ حياته، ولا القومَ الذين بعثهُ اللّهُ إليهم، ولا المكانَ الذي كان يقيمُ فيه، ولا تفاصيلَ قصتِه معهم، وأحداثَ ما جرى بينه وبينهم، ولا كيفَ كانت نهايةُ قصتِه معهم.

هذه التفاصيلُ من «مبهمات القرآن» التي نُبقيها على إِبهامها، ونَكِلُ العلمَ بها إِلى اللّهِ سبحانه. والله أعلم.

[٣]

إلياس عليه السلام

وردَ اسمُ إِلياسَ عليه السلام في موضعَيْن في القرآن.

الأول: في سورةِ الأنعام: وذلك ضمنَ مجموعةٍ من الأَنبياء، كانوا من ذريةِ إبراهيمَ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٦].

اكتفت الآياتُ بذكْرِ اسمِ إِلياسَ عليه السلام، ضمنَ الثمانية عشر نبياً المذكورين فيها.

الثاني: في سورةِ الصافات بعدَ الحديثِ عن نوحٍ وإبراهيم

وإسماعيل وإسحاق وموسى وهارون، وبعده جاءَ الحديثُ عن لوط ويونس، عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: ١٢٣ ـ ١٣٢].

يخبرُنا اللّهُ في هذه الآياتِ أنَّ إلياسَ كان نبياً رسولاً: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

و«إلياس»: اسمُ علمٍ أعجمي، ممنوعٌ من الصرفِ للعلميةِ والعجمة.

والراجحُ أنه من أَنبياءِ بني إسرائيل، مثل: ذي الكفل واليسع وإدريس ويونس وأيوب، عليهم الصلاة والسلام.

وسَجلت الآياتُ بعضَ ما جرى بينَه وبينَ قومه الكافرين.

«بعل» معبود قومه الكفار:

فقد دَعاهم إلى توحيدِ الله وعبادتِه وتقواه: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾. وهي دعوة كل نبي رسول، يدعو قومه إلى عبادة الله وحده.

ثم أنكرَ عليهم عبادةَ غيرِ الله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

ومعنى «أتدعون بعلاً» أتعبدونَ رَبّاً صنماً، وتجعلونَه معبوداً مألوهاً، وتَدْعونه وتتضرعون إليه وتطلبون منه؟ مع أَنه بعْلٌ صنم، وليس إلهاً قادراً على الضرِّ والنفع.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن «البعل» وإطلاقِه على المعبودِ من دون الله:

«البعل: هو الذكَرُ من الزوجين.

وسُمي بَعْلاً لما فيه من معنى الاستعلاءِ على المرأة، فجُعلَ كأنه سائسٌ لها وقائمٌ عليها.

وسُمي باسمه «بَعْل» كلُّ مستعلٍ على غيره، فسَمّى العربُ معبودَهم الذي يتقرَّبون به إلى الله «بعلاً» لاعتقادِهم ذلك فيه، قال تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

ويقال: أتانا بَعْلُ هذه الدابة. أي: المستعلي عليها»[1].

ومعنى كلام الراغبِ أنَّ مادةَ «بَعْل» في اللغةِ تقومُ على الاستعلاء. فالزوجُ بَعْلٌ لامرأتِه، لأنه مستعْلٍ عليها، متحكِّمٌ فيها، قائدٌ لها.

ويبدو أنَّ القومَ الذين بَعَثَ اللّهُ لهم إلياس نبياً عليه السلام كانوا يَعبدون صنماً، ويعتبرونه رَبّاً معبوداً، وسَمّوه «بَعْلاً» لأنهم يعتقدونَ فيه الأُلوهية، ويعبدونه ويَدْعونه ويَطلبون منه، ويتضرَّعون إليه.

لعلهم كانوا يقيمون في مدينة «بعلبك»:

ويمكنُ أنْ «نستأنسَ» بتحديدِ مكانِ القوم هؤلاء، بمدينةِ «بَعْلَبَكّ» الأثرية، الموجودةِ في لبنان. فلعلَّ القوم كانوا يقيمون فيها، ولعلَّ معبودَهم «بَعْلاً» كان تمثالُه فيها، بل لعلَّ المدينة بعلبك منسوبةٌ إليه.

وردَ في معجم البلدان لياقوت عن بعلبك: «بَعْلَبَكّ: بالفتح ثم السكون، وفتحِ اللامِ والباء، والكافِ المشدَّدة: مدينةٌ قديمة، فيها أبنيةٌ عجيبة، وآثارٌ عظيمة، وقصورٌ على أَساطين الرخام، لا نظيرَ لها في الدنيا، بينها وبين دمشق ثلاثةَ أيام...

---

(١) المفردات: ١٣٥.

واسمُها مركَّب من «بَعْل»: اسمُ صنم. و«بَكّ»: أصْلُه من: بَكَّ عنقَه، أي: دَقَّها. و: تَباكَّ القومُ أي: ازدحموا.

فإمّا أنْ يكونَ نُسِبَ الصنمُ إلى «بَكّ»، وهو اسمُ رجل، أَو جَعَلوه يَبُكُّ الأصنام، أي يَدُقها.

هذا إنْ كان عربياً، وإنْ كانَ أعجمياً فلا اشتقاق...»[1].

والراجحُ أن «بَعْلَبَكّ» اسمٌ أَعجمي، وليس مشتقاً.

المهمُّ أنَّ قومَ إلياس عليه السلام كانوا يعبدون صنماً يُسمونه «بَعْلاً». وأنكرَ عليهم ذلك بقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦)﴾

اللّهُ هو الخالق، وصنمهم «بَعْل» ليس خالقاً، فكيف يعبدونَ الصنمَ المخلوق، ويتركونَ عبادةَ الله الخالق؟

واللّهُ الخالقُ هو ربُّهم، وهو ربُّ آبائهم الأولين، الربُّ المتكفِّلُ بهم، الذي خلقهم ورزقهم ورعاهم فهو المعبودُ وحده.

إهلاك قومه الكافرين ونجاة المؤمنين:

رفضَ القومُ دعوةَ إلياس، وأَصرّوا على كفرِهم، وعكفوا على عبادةِ معبودِهم «بَعْل». وبذلك انتهتْ مهمةُ إلياسَ بينهم، وأَهلكهم اللّهُ بعذابه، وأَنجى إلياسَ ومَنْ معه من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨)﴾.

كذَّبه معظمُ قومِه، فحقَّ عليهم العذابُ في الدنيا، وفي الآخرة سيعذَّبون في جهنم.

---

(١) معجم البلدان لياقوت ١: ٤٥٣.

«محضرون»: اسمُ مفعول، يقررُ حقيقةَ بعثِهم بعد الموت، وإِحضارِهم للحساب، ثم عذابِهم في النار.

ثم استثنى مَنْ آمنَ بإلياس عليه السلام مِن قومه، ووصَفَهم بأنهم عبادُ الله المخلصون: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

والمستثنى منه هم القومُ المكذِّبون، الذين هم فاعلُ فعْلِ «كذبوه». والمعنى: كذَّبه قومُه الكفار، إلاّ عبادَ الله المخلصين منهم، الذين آمنوا به واتبعوه.

فالذين آمَنوا به عبدوا اللّهَ وحده، واتقوه وحده، وأَخلصوا الدينَ له وحده، وبذلك استخلَصَهم اللّهُ مِن بين عباده، فكانوا عبادَه المخلِصين المخلَصين، وكانت عبادتُهم خالصةً لله سبحانه.

انتهتْ قصةُ إِلياسَ عليه السلام مع قومِه بانقسامِهم إلى قسمين: أغلبيةٍ كافرة، عذَّبهم اللّهُ وأَهلكهم. وأقليةٍ مؤمنةٍ آمنتْ به، أَنجاهم اللّهُ معه.

ولا نعرفُ كيفَ كان تعذيبُ الكافرين، ولا كيفَ كانت نجاةُ المؤمنين، ولا كيف كانتْ نهايةُ إِلياسَ عليه السلام، فهذا من مبهمات القرآن.

ثناء الله على إلياس:

وقد أَثنى اللّهُ على إِلياس بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾. ومعنى «تركنا»: أَبقينا. و«الآخِرين»: الأجيال القادمة.

أي: أَبقينا على إِلياسَ الذكْرَ الحسنَ والثناءَ الطيبَ في الآخِرين القادِمين فيما بعد.

و«الآخِرين» تشملُ المؤمنين الصالحين بعدَ إِلياس وقبل محمد عليهما الصلاة والسلام، كما تشملُ الأمةَ المسلمةَ بكلِّ أَجيالها، أمةَ الخلافة والشهادة حتى قيامِ الساعة.

وقد وردَتْ هذه الجملة: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ في قصصِ بعضِ الأنبياءِ، المذكورينِ في سورة الصافات.

قالَ اللّهُ عن نوحٍ عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات: ٧٨].

وقالَ عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الصافات: ١٠٨].

وقال عن موسى وهارونَ عليهما السلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الصافات: ١١٩].

وقالَ عن إلياسَ عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الصافات: ١٢٩].

كلُّ الأنبياءِ جعلَهم اللّهُ قدواتٍ لمن بعدهم، وأَمَرَ الآخِرين القادمين بالاقتداءِ بهم. كما وردَ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ..﴾ [الأنعام: ٩٠].

قراءات ومعنى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾:

وبعدما أَخبرَنا اللّهُ أنه أَبقى لإلياسَ الذكْرَ الحسنَ والثناءَ الطيبَ في المؤمنين الآخِرين القادمين بعده، أَثنى عليه بالسلام عليه وعلى آله ووصَفَه بالإحسان، فقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: ١٣٠ ـ ١٣٢].

وفي قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ قراءتان:

الأولى: قراءةُ نافع وابن عامر: «سلامٌ على آلِ ياسين». بإضافةِ «آلِ» إلى «ياسين».

وذَهبوا إلى أَنَّ «ياسين» هو إلياس. وأَضافوا الآلَ إليه، فقالوا: «آلِ ياسين»، وآلُ ياسين هم أَتباعُه المؤمنون، الذين استجابوا له ودخلوا في دينه.

والسلامُ على «آلِ ياسين» ـ الذين هم آلُ إلياس ـ سلامٌ عليه هو، لأنه كان السببَ في هدايتهم.

الثانية: قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم وحمزة والكسائي: «سَلامٌ على إِلْياسين» بكسْرِ الألفِ وسكون اللام.

وفي توجيهِ هذه القراءة قولان:

الأول: أَنَّ «إِلْياسين» جمعُ «إِلْياس». والمرادُ بالجمعِ أَتْباعه المؤمنون، فَنُسِبوا إِليه، ثم جُمعوا جمعَ مذكرٍ سالم.

والأصلُ هكذا: إِلياس، ثم تَنسبُ المؤمنَ إِليه فتقول: هذا إِلْياسِيٌّ، ثم تَحذفُ ياءَ النسبةِ عند الجمعِ للتسهيل فتقول: إِلْياسون.

وذلك كقولك: مهلّب، مُهَلَّبِيٌّ، مُهَلَّبون. و: محمد، مُحَمَّدِيٌّ، مُحَمَّدون. وهنا تقول: إِلْياس، إِلْياسيٌّ، إِلْياسون.

وهذا التوجيهُ عليه كلامٌ واعتراض، ليس هذا موضعَ بسْطِه.

الثاني: «إِلْياسين» هو: إِلياس، وهو لغةٌ ثانيةٌ فيه. تقول: إِلْياسٌ وإِلْياسينُ.

وهذا كقولك: جبريل، وجبرائيل أو جبرائين، وميكال، وميكائيل أو ميكائين، وإسماعيل وإسماعين، وإسرائيل وإسرائين.

قالَ الشاعرُ في ضَبٍّ صادَه:

يَقولُ أَهْلُ السُّوقِ لَمّا جِينا ... هَذا وَرَبِّ البَيْتِ إِسْرائينا

والشاهدُ فيه قوله: إِسرائينا. حيث قلبَ اللامَ نوناً، والأصل: إسرائيل[1].

وهذا التوجيهُ أولىٰ، فالسلامُ في الآية: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ من الله على إِلياسَ نفسه، وليس على أَتباعِه وآلِه المؤمنين.

(١) انظر كتابنا «تفسير الطبري تقريب وتهذيب» ٦: ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

وهذا يتفقُ مع سلام اللّهِ على أَنبياءَ آخرين في نفس السورة. وذلك في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات: ٧٩].

وفي قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٩].

وفي قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصافات: ١٢٠].

وصرَّحَ بالسلامِ على المرسلين وليس على أَتْباعهم في آخرِ آيات السورة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨١].

ولعلَّ الحكمةَ في العدولِ عن إِلْياسَ» إِلى «إِلْياسين» في الآية: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ هي مراعاةُ الفاصلةِ ورؤوسِ آياتِ السورة. حيثُ معظمُ آياتِها جاءتْ مختومةً بالواو والنون أو الياء والنون.

فلو قالَ: «سلام على إِلْياس» لما انسجمَ هذ مع إِيقاعِ باقي الآيات، ولما توافقَ مع فواصلِها، ويَحدثُ فيها ما يُشبِهُ «الكسرَ» في الإِيقاع، يُشبهُ كسرَ الوزنِ في الشعرِ العربي العمودي، فأُضيفت الياءُ والنون، لتوفُّرَ هذا التوافقَ والانسجام.

مع أَنَّ «إِلْياسين» لغةٌ ثانيةٌ في «إِلْياس»، كما قرَّرْنا قبلَ قليل: إِلْياس إِلياسين، وإِسماعيل إِسماعين، وإِسرائيل إِسرائين.

فاختير الاسمُ الثاني لإِلياسَ الذي يحققُ الانسجامَ في الإِيقاع، والتوافقَ مع رؤوسِ الآيات!!

جزى اللّهُ إِلياس عليه السلام الجزاءَ الحسن، لأَنه أَكرمَهُ بتطبيقِ سنَّتِه المطردةِ عليه. فكلُّ محسنٍ يَجزيهِ اللّهُ بالإحسان، فكما جزاهُ اللّهُ بالإحسان، كذلك يَجزي المحسنين من عباده، وهو من عبادِ الله المؤمنين، بل كانَ إِمامَ عبادِ اللّهِ المؤمنين من قومه، لأَنه نبيٌّ رسُولٌ عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

هذا ما نقولُه عن قصةِ إِلياس عليه السلام، كما وردتْ في آياتِ سورة الصافات.

وما سكتَتْ عنه الآياتُ نسكتُ عنه ولا نخوضُ فيه.

[٤]

اليسع عليه السلام

وردَ اسمُ «ٱلْيَسَعَ» مرتيْن في القرآن.

المرةُ الأولى: في سورةِ الأنعام، وأثناءَ ذكْرِ أسماءَ ثمانيةَ عشرَ نبياً. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٦].

المرةُ الثانية: في سورة ص: أثناءَ إِيرادِ أَسماءَ مجموعةٍ من الأَنبياء، وذلك بعدَ عرضِ لقطاتٍ من قَصصِ داودَ وسليمانَ وأيوب عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٨].

وفي «ٱلْيَسَعَ» في السورتين قراءتان:

الأُولى: قراءةُ حمزة والكسائي: «وَالْلَّيْسَعَ» بأَلْ ولامٍ مشددة بعدها. وحُجَّتُهما أنه اسمٌ أَعجمي مبدوءٌ بأَلِف.

وقالَ بعضُهم: أصْلُ «الْلَّيْسَع»: لَيْسَعْ. مثلُ: ضَيْغَمْ، فعندما

تُدخِلُ عليها «أَلْ» تقول: اللَّيْسَع، كما تقول: الضَّيْغَم.

الثانية: قراءةُ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو وعاصم: «وَالْيَسَعَ»: بلامٍ مخففة.

وحُجَتُّهم في ذلك أنه اسم أعجمي، وردَ اسمه هكذا[1].

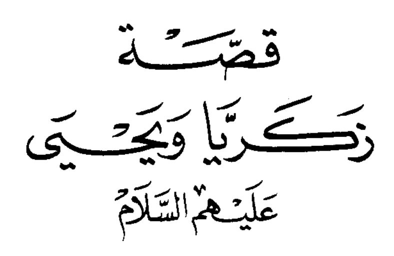
قالَ القرطبي نقلًا عن النحاس: «والحقُّ في هذا أَنَّهُ اسمٌ أَعجمي. والعجمةُ لا تُؤْخَذُ بالقياس، إِنما تؤخَذُ سماعاً. والعربُ تغيرُها كثيراً، فلا يُنْكَرُ أنْ يأتيَ الاسمُ الأعجميُّ بلغتين...»[2].

ولم يتحدث القرآنُ عن قصةِ «الْيَسَع» شيئاً. فكلُّ ما أَوردَه هو ذكْرُ اسمه ضمنَ أسماءِ أنبياءٍ في الموضعين السابقين. ولم يَرِدْ حديثٌ صحيحٌ يتحدث عن قصة «الْيَسَع»عليه السلام. ولهذا لا نَعرفُ عن «الْيَسَعَ» عليه السلام إلا اسمُه، وأنَّ اللّهَ جعلَه أحدَ الأنبياء. وكلُّ ما سوى هذا فإنه من مبهماتِ القرآن، التي نتوقفُ عندها، ولا نخوضُ فيها...

---

(١) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة: ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧:٣٣.


قصة
زكريا ويحيى
عليهم السلام



[١]

زكريا ويحيى في القرآن

زكريا ويحيى عليهما السلام من آخرِ أَنبياءِ بني إسرائيل، ولم يأتِ بعدَهما نبيٌّ لبني إسرائيل إلاّ عيسى عليه السلام.

وتَتداخلُ قصةُ زكريا ويحيى في القرآن، بحيث لا يمكنُ الفصلُ بينهما، كما تشتركُ قصتُهما مع قصةِ مريم وابنِها عيسى عليه السلام، لِما بين الجميع من القرابةِ العائلية، والاشتراكِ في وقوعِ الأحداث.

وسنتكلمُ هنا عن زكريا ويحيى إنْ شاء الله، وعندما يمرُّ بنا حديثٌ عن مريم وعيسى عليه السلام سنؤخرُه إلى قصة عيسى عليه السلام.

وردَ اسمُ زكريا عليه السلام سبعَ مرات في القرآن.

وردَ في سورة الأَنعام ضمنَ أَسماءِ مجموعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٨٥].

وأَشارتْ سورةُ الأنبياء إلى دعاءِ زكريا أنْ يرزقَه اللّهُ ولداً، واستجابةِ الله له، حيث أَصلحَ له زوجَه، ورزقه يحيى، في الآيتين: [٨٩ ـ ٩٠].

وذُكرَ في سورة مريم مرتينِ في بداية السورة، حيث أَشارتْ إلى دعائه لربِّه أنْ يرزقَه الولد، وقد بشرتْه الملائكةُ بيحيى، وذَكرتْ له الآيةَ الدالة على ذلك. في الآيات: [١ ـ ١١].

وذُكرَ في سورةِ آل عمران المدنية ثلاثَ مرات، وذلك أَثناءَ الحديثِ عن حملِ أُمِّ مريم بها، ثم ولادتها، وكفالةِ زكريا لها، ولما رأى زكريا كراماتِ الفتاة مريمَ رضي الله عنها طلبَ من الله أنْ يكرمَه بالولد، واستجابَ الله له، وبشرتْه الملائكةُ بيحيى وهو قائمٌ يصلي في المحراب، وأزالت استغرابَه، وقدمتْ له الآيةَ على ذلك. وهذا في الآيات: [٣٧ ـ ٤١].

وورِدَ اسمُ يحيى عليه السلام خمسَ مرات في القرآن، في نفسِ السورِ الأربعة التي وردَ فيها اسمُ أَبيه زكريا: الأنعام، والأنبياء، ومريم، وآل عمران.

في سورةِ الأنعام وردَ اسمُه مقروناً باسمِ أَبيه في آية (٨٥).

وفي سورةِ الأنبياء وردَ اسمُه مرةً واحدة، في أثناءِ الإشارةِ إلى استجابةِ اللّهِ لدعوة أَبيه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ..﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي سورةِ آل عمران وردَ اسمُه مرةً واحدة، في تبشيرِ الملائكة لأبيه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ..﴾ [آل عمران: ٣٩].

وفي سورةِ مريم وردَ اسمُه مرتين: مرةً في تبشيرِ الملائكة لأبيه: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ..﴾ [مريم: ٧].

ومرةً أخرى في مخاطبةِ اللّهِ له مباشرة: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾..﴾ [مريم: ١٢].

إنَّ ما عرضَه القرآنُ من قصةِ زكريا ويحيى عليهما السلام، هو تأثُّرُ زكريا لما رأى الكراماتِ عند مريمَ البتول، حيث دعا ربَّه، وذكَرَ له شيخوختَه وحاجتَه للولد، واستجابَ اللّهُ له، وأرسلَ الملائكةَ تبشرُه بيحيى، وهو يصلي في المحراب، وأزالت استغرابَه بالإشارةِ إلى قدرةِ الله المطلقة على فعلِ ما يريد، وقدمتْ له آيةً معجزةً يقدمُها لقومه.

ولما وُلِدَ يحيى وصارَ شاباً أَمَرَهُ اللّهُ أنْ يأخذَ الكتابَ بقوة.

هذا ما عرضَه القرآنُ من قصتهما، عليهما الصلاة والسلام.

[٢]
زكريا يدعو ربه طالباً منه الولد

زكريا: اسمُ علم أعجمي، لا نبحثُ عن معناه في العربية، وليستْ له مادةُ اشتقاقٍ فيها.

وهو من آخرِ أَنبياءِ بني إسرائيل، ولعلَّه كانَ مقيماً في بيتِ المقدس وما حولَها، بدليلِ حديثِ القرآنِ عن ولادة مريم وكفالةِ زكريا لها.

نَسَبُ زكريا عليه السلام من مبهماتِ القرآن، التي لا نخوضُ فيها.

ودعوةُ زكريا لبني إسرائيل، وتفصيلُ ما جرى بينه وبينهم، من مبهماتِ القرآن أيضاً.

كلُّ ما نعرفُه أَنه كان نبياً في بني إسرائيل، وأنه كانَ حولَه مجموعةٌ من صالحيهم، وأَنه كان مكرَّماً عند هؤلاء الصالحين.

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن مهنةِ زكريا عليه السلام، لأنَّ كلَّ نبيٍّ كان يأكلُ من عملِ يده.

روى مسلمٌ وغيرُه عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «كان زكريا نجاراً»[1].

وهذا من فضائلِه عليه السلام، فلم يقبَلْ أنْ يكونَ عالةً على قومه المؤمنين، يتكفَّلون بطعامِه وشرابه، وإنما اتخذَ النجارةَ مهنةً له، يأكلُ من عملِ يده فيها..

وكان زكريا متزوجاً من أختِ مريم الكبرى، كما توحي بذلك آياتُ سورة آل عمران، فكانَ لمريم ابنةِ عمران أُختٌ أكبرُ منها، وكان لها أَخٌ شقيقٌ اسمه هارون، وسنتكلمُ عن هذه المسألة فيما بعد، إن شاء الله.

كانت امرأةُ زكريا عاقراً، لم تَحمل ولم تُنجب.

زكريا يكفل مريم ويرى إكرام الله لها:

وتقدَّمَ بزكريا عليه السلام العمر، ونفسُه تتطلعُ ليكون له ولد.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٧٩. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٦٥.

ولما ولدت امرأةُ عمران - أمُّ امرأة زكريا - ابنتَها مريم، ووهبَتْها للمعبد، اختلفَ الكهنةُ والصالحون في من يكفلُ هذه الطفلةَ الصغيرة، فاقترعوا فيما بينهم، وخرجت القرعةُ على زكريا زوجِ أختِها.

وعاشت الطفلةُ في كفالةِ زكريا، وتحت إشرافٍ مباشرٍ من أختها الكبرى، ولما شَبَّتْ وصارتْ فتاة، وكانت في غايةِ الصلاح والتقوى، أكرمَها اللّهُ كرامةً من عنده، حيث كان ينزلُ عليها من رزقه طعاماً لها.

وكان زكريا الشيخُ الهرمُ عليه السلام يَدخلُ على مريم البتول، فيجدُ عندها الرزق، فيستغرب ويسألُها: يا مريم: أنّى لك هذا؟ من أينَ لك هذا الطعام ونحنُ لم نقدمْه لك؟

فتجيبُه بإيمانٍ ورضى: هو من عندِ الله، إن اللّهَ يرزقُ مَن يشاءُ بغير حساب.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧].

وعندما رأى زكريا إكرامَ اللّهِ للفتاةِ الصغيرة تحركَتْ نفسُه لطلبِ الولدِ الوارثِ له، وطمعَ في فضلِ اللّهِ وكرمِه، فاللّهُ الذي أكرمَ هذه الفتاة، قادرٌ على إكرامِ الشيخِ الهرمِ ومنحِه الولد، فدعا ربَّه طالباً منه ذلك.

الجو الذي طلب زكريا فيه الولد:

قال سيد قطب عن هذا الجوِّ الذي دعا فيه زكريا ربَّه: «عندئذٍ تحركَتْ في نفسِ زكريا، الشيخِ الذي لم يوهَبْ ذرية. تحركَتْ تلك الرغبةُ الفطريةُ القويةُ في النفسِ البشرية. الرغبةُ في الذرية، في الامتداد، في الخلف.. الرغبةُ التي لا تموتُ في نفوس العباد الزهاد...»(١).

(١) في ظلال القرآن ١: ٣٩٣.

سألَ زكريا ربَّه الذريةَ الطيبة. قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨].

و﴿هُنَالِكَ﴾: ظرفُ مكان. «هنا»: هي الظرف، واللامُ للبعد، والكافُ للبعد أيضاً(١).

ومعنى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾: في ذلك المكانِ الذي رأى فيه ما رأى من كراماتِ مريم، دعا زكريا ربَّه.

وخلاصةُ معنى هذه الآية كما في تقريبنا لتفسير الطبري:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾: عند رؤيةِ زكريا ما رأى عندَ مريم من رزقِ اللّهِ الذي رزقَها، وفضْلِه الذي آتاها، من غيرِ تسبُّبِ أحدٍ من الآدميين في ذلك.

لقد طمعَ في ذلك الظرفِ بالولدِ مع كبرِ سنه، من المرأةِ العاقر، فرجا أنْ يرزقَهُ اللّهُ منها الولد، مع أنه عجوزٌ وامرأته عاقر.

لقد رزقَ اللّهُ مريم رزقاً خاصّاً من لدنه، لم يكن مثْلُه مما جرت بوجوده في مثل ذلك الحينِ عادات، وكذلك ولادةُ العاقر خلافُ الأمرِ الذي تَجري به العاداتُ عند الناس.

لذلك رغبَ زكريا إلى اللّهِ في الولد، وسألَه ذريةً طيبة.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: لما رأى ذلك زكريا عندَ مريم قال: إنَّ الذي يأتي مريم بهذا الرزق، قادرٌ أنْ يَرزقني ولداً: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ..﴾.

وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾: من عندك. ﴿ذُرِّيَّةً﴾: نسلاً. ﴿طَيِّبَةً﴾: مباركة.

و«الذرية»: تُطلقُ على الواحدِ والجمع. وهي هنا بمعنى الواحد،

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبي ٣: ١٤٧.

فزكريا طلبَ من اللّهِ ولداً واحداً فقط. لأن اللّهَ قال عن طلبه في آيةٍ أخرى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥] ولم يقل أولياء..[1].

دعاء زكريا في سورة مريم:

كان دعاءُ زكريا عليه السلام ربَّه في سورةِ آل عمران مجملاً، لكنه مفصَّلٌ نوعاً ما في مطلعِ سورةِ مريم. قال تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ١ ـ ٦].

افتُتحت سورةُ مريمَ بخمسةٍ من الحروف المقطعة، التي افتتحَ اللّهُ بها بعضَ السور. ثم جاءَ الحديثُ بعدَ ذلك مباشرةً عن دعاءِ زكريا عليه السلام.

خاطبَ اللّهُ نبيَّه محمداً ﷺ، بأنه سيذكُرُ له رحمتَه بزكريا عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾.

و«ذِكْرُ» خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا ذِكْرُ رحمةِ ربك عبده..

و«عَبْدَه»: مفعولٌ به منصوب، للمصدر «رحمة».

و«زكريا»: بدلٌ منصوب من «عبدَه».

وفي «زكريا» قراءتان:

الأولى: قراءةُ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «زكريّا» بالقصر.

---

(١) انظر «تفسير الطبري تقريب وتهذيب» ٢:٢٥٦ ـ ٢٥٧.

الثانية: قراءةُ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو: «زكريّاء» بالمد والهمزة.

قالَ الإمامُ السمينُ الحلبي: «والمدُّ والقصْرُ في هذا الاسم لغتان فاشيتان عن أهلِ الحجاز. وهو اسمٌ أعجمي، فكانَ من حقِّه أنْ يقولوا فيه: مُنعَ من الصرفِ للعلمية والعجمة..»[1].

ووصفَ اللّهُ زكريا بالعبوديةِ لله: ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، وهذا وصفٌ للتكريم والتشريف، لأنَّ مقامَ العبوديةِ لله هو أعلى المقامات وأشرفُها، وهو مقَامُ الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام.

رحمَ اللّهُ عبدَه زكريا عليه السلام، وقْتَ ندائِه له، وذلك عندما دعاه وسألَه وطلبَ منه الولد: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾.

و«خفياً» بمعنى: خافِتاً مخفوضاً.

نداء زكريا الخافت وإخباره عن ضعفه وهرمه:

وَصفت الآيةُ نداءَ زكريا عليه السلام بأنه كان خفياً خافتاً، وهذا من أَدبِه في نداءِ ربِّه ودعائه. وإنَّ اللّهَ يحبُّ الدعاءَ الخفيَّ الخافت.

قال الإمام ابن كثير: «قال بعضُ المفسرين: إنما أَخفى دعاءَه لئلا يُنسبَ في طلبِ الولدِ إلى الرعونة لكبره.

وقال آخرون: إنما أَخفاهُ لأنهُ أَحَبُّ إلى الله.

وقال قتادة في تفسير الآية: إن اللّهَ يعلمُ القلبَ التقي، ويَسمعُ الصوتَ الخفي...»[2].

ونتعلمُ من زكريا عليه السلام الأدبَ في دعاءِ الله والتضرعِ إليه،

---

(١) الدر المصون ٣:١٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١٠٨.

حيثُ يكون صوتُنا أثناءَ النداءِ والدعاء خفياً خافتاً خفيفاً، كلُّه أدبٌ وتضرع، وإنابةٌ إلى الله سبحانه..

ولما نادى زكريا ربَّه نداءً خفياً، ذكَرَ حالتَه وهرمَه وشيخوختَه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم: ٤].

وَهَنَ عظمُ زكريا لما صارَ عجوزاً شيخاً هرماً، وضعفَتْ قواه، وغزا الشيبُ شعرَ رأسِه فصارَ أبيض.

قالَ سيد قطب عن دعاءِ زكريا والتصويرِ الفنيِّ في تعبيرِ القرآن عنه «وزكريا يشكو إلى ربِّه وَهْنَ العظم، وحين يَهِنُ العظمُ يكون الجسمُ كلُّه قد وَهَن، فالعظمُ هو أصلبُ ما فيه، وهو قوامُه الذي يقومُ به ويتجمعُ عليه. ويشكو اشتعالَ الرأس شيباً.

والتعبيرُ المصوِّر يجعلُ الشيبَ كأنه نارٌ تشتعل، ويجعلُ الرأسَ كلَّه كأنما تشملُه هذه النارُ المشتعلة، فلا يبقى في الرأسِ المشتعلِ سوادٌ.

ووَهَنُ العظمِ واشتعالُ الرأسِ شيباً، كلاهما كنايةٌ عن الشيخوخةِ وضعفِها، الذي يعانيه زكريا، ويشكوهُ إلى ربه، وهو يعرضُ عليه حالَه ورجاءَه.

ثم يعقبُ عليه بقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ معترفاً بأن اللَّهَ قد عوَّده، أنْ يستجيبَ إليه إذا دعاه، فلم يَشْقَ مع دعائِه لربِّه، وهو في فتوَّته وقوَّته. فما أحوجَه الآنَ في هرمِه وكبرِه أنْ يستجيبَ اللَّهُ له، ويتمَّ نعمته عليه»[1].

مضى شبابُ زكريا وامرأتِه بدون أنْ يدعوَ ربَّه طالباً منه الولد، ولعلَّه كان يأملُ ذلك في المستقبل، ولما صارَ هرماً ووهنَ عظمُه

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٠٢.

واشتعلَ شيبُ رأسه، فَقَدَ أملَه في أنْ يرزقَه اللّهُ الولدَ عن الطريقِ الطبيعيِّ العادي المألوف، فامرأته عاقر، لا قدرةَ لها على إفرازِ «البويضات»، وهو شيخٌ هرم.

ولكنه لما رأى إكرامَ الله للفتاةِ البتول مريمَ رضي الله عنها، استيقظت الرغبةُ في نفس زكريا من جديد، هو يريدُ الولدَ الآن عن طريقِ المعجزة، وليس عن الطريقِ العاديِّ المألوف. يريدُه بواسطةِ خارقةٍ من خوارق العادات، وكلُّه أملٌ في استجابةِ الله لدعائه، لأنه يوقنُ أنَّ اللّهَ قادرٌ على فعْلِ ما يريد، وإذا أرادَ اللّهُ أنْ يرزقَه الولد، رغم شيخوختِهِ هو وامرأته، فإنه سيفعلُ ذلك سبحانه.

لماذا يريد زكريا الولد؟:

أما السببُ الذي دفعه إلى طلب الولد، فهو خوفُه المواليَ من بعده، ولذلك يريدُ الولد، ليرثه ويرث آل يعقوب من قبله.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ..﴾.

﴿ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ جمعُ المولى. وهم العَصَبَةُ الأقارب.

قال السمينُ الحلبي: ﴿خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ﴾: قيل: أَرادَ بني عمِّه وعَصَبَتِه، وهمُ الذين يلونَه في النَّسَب..»[1].

ومعنى: ﴿مِن وَرَآءِى﴾: من بعدي.

والمعنى أنه خافَ مواليه وأَقاربَه وعَصَبَتَه، وخشيَ أنْ يتصرفوا في الناس شراً بعدَ وفاته.

وهو لا وارثَ له من صلبه، لأنَّ امرأتَه عاقر، ورجاؤُه في الله أنْ يهبَهُ ولياً، وأنْ يمنَحَه ولداً، ليكون وارثاً له ولآل يعقوب.

---

(١) عمدة الحفاظ ٤: ٣٩٣.

لماذا خافَ زكريا مواليَه وأقاربَه بعد وفاته؟ وفي ماذا يرثُه ابنُه الولي؟

للإمام ابنِ كثير في التفسير توجيهاتٌ لطيفة في ذلك:

الأول: خشيَ أنْ يتصرَّفَ مواليه من بعده في الناس تصرُّفاً مسيئاً، فسألَ اللّهَ ولداً، يكونُ نبياً من بعده، ليسوسَهم بنبوته، فاستجابَ اللّهُ له.

ولم يخشَ من وراثةِ مواليه له مالَه، فإنَّ النبيَ أعظمُ منزلةً وأجلُّ قدراً من أنْ يشفقَ على مالِه إلى هذه الدرجة، ومن أنْ يأنفَ من وراثةِ عصباتِه له، فيسألَ ربَّه أنْ يكونَ له ولدٌ ليحوزَ ميراثَه دونهم..

الثاني: لم يَذكر أنَّ زكريا كان صاحبَ مال، بل كان نجاراً يأكلُ من عملِ يدِه، ومثلُ هذا لا يَجمعُ مالاً، وكان الأَنبياءُ أزهدَ شيء في الدنيا.

الثالث: لم يتركْ زكريا عليه السلام مالاً، لأنَّ الأنبياءَ لا يورَثون في أموالِهم، فإنْ تَركوا أموالاً فإنَّ أموالَهم تكونُ صدقة.

ودليلُ ذلك ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ قال: «لا نورَث، ما تركْنا صدقة»[1].

ولذلك أَرادَ زكريا عليه السلام بالوراثةِ الوراثةَ في النبوة.

إنَّ قولَ زكريا عليه السلام عن الوليِّ الوارث: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، هو كقولِ اللّهِ عن وراثةِ سليمانَ لابنه داود عليهما السلام: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

وقد بَيَّنّا في قصةِ سليمان عليه السلام أنَّ وراثتَه لأبيه كانت وراثةَ في النبوةِ والملك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٣٠. ومسلم برقم: ١٧٥٨.

وهنا يريدُ زكريا عليه السلام ولياً ابناً، وارثاً له في النبوة، وليسَ في المال.

قال مجاهد: قولُه: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: كانتْ وراثتُه علماً، وكان زكريّا من ذرية يعقوب.

وقال الحسنُ البصري: أَرادَ أنْ يرثَه في نبوتِه وعلْمِه.

وقال السّدي: أرادَ أنْ يرثَ نبوتَه ونبوةَ آل يعقوب[1].

إذن: أرادَ زكريا عليه السلام أنْ يهبَهُ اللّهُ ابناً ليكونَ ولياً له، وليرثَه في النبوةِ والعلم، ويرثَ أَنبياءَ بني إسرائيل، وهم آلُ يعقوب، في النبوة والعلم.

«واجعله ربي رضياً»:

ولما طلبَ زكريا عليه السلام من رَبِّه الولد، التفتَ التفاتةً إيمانيةً أخلاقية سلوكية، فقال: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

أي: ربِّ اجعل ابني وارثي رضياً.

و«رَضِيّ» بمعنى اسم المفعول: مَرْضِي.

قالَ ابن كثير: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: أي: مرضِيّاً عندك، وعند خلْقِك، تحبُّه أنت، وتحببُه إلى خلقك..[1].

وعلقَ سيد قطب على دعاء زكريا: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ بقوله: «ولا ينسى زكريا، النبيُّ الصالح، أنْ يصوِّرَ أملَه في ذلك الوريثِ الذي يرجوه في كبره: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ لا جَبّاراً ولا غليظاً، ولا متبطراً ولا طموعاً.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣:١٠٩.

ولفظةُ «رضي» تُلقي هذه الظلال، فالرَّضِيُّ هو الذي يَرضىٰ ويُرضي.. ويَنشرُ ظلالَ الرضى فيما حولَه ومَنْ حولَه»[1].

إنَّ زكريا عليه السلام يريدُ أنْ يكونَ ابنُه الوارثُ راضياً مرضياً رضياً، وأنْ تُبنى شخصيتُه على الرِّضى، وأنْ تقومَ حياتُه على الرضى.

وعندما يكونُ رضيّاً سيكون فَرِحاً سعيداً مسروراً، وستكونُ علاقتُه بالآخرين قائمةً على السعادة واليسرِ والرضى، سيحبُّهم ويحبّونه، ويرضىٰ عنهم، ويرضونَ عنه، ويَأْلَفُ ويُؤلف.

الرَّضِيُّ ليس حاذّاً ولا عصبياً ولا شاكياً، ليس معقَّداً ولا مكتئباً ولا حزيناً، الرَّضيُّ سهلُ المعاملة، واسعُ الصدر، حليمُ النفس، حسنُ الخُلُق.

وهذه نعمةٌ من الله على عبدِه، أنْ يجعلَه راضياً مرضياً رضياً، وزكريا عليه السلام رجا اللّهَ أنْ يجعلَ ابنَه وارثَه رضياً ليسعدَ بهذه النعمة، ويُسْعِدَ والدَيْه بهذه النعمة، ويُسعدَ كلَّ مَنْ حولَه بهذه النعمة..

[٣]

حليلة زكريا: من امرأة عاقر إلى زوج حامل

دَعا زكريّا عليه السلام ربَّه، طالباً منه الولد، وهو يحسنُ الظنَّ به، وكان اللّهُ عند حسنِ ظنه، فاستجابَ له، وكتبَ له الولَدَ برحمته، وأجرى له معجزةً خارقة.

امرأتُه عاقر، لا يمكنُ أنْ تنجبَ في المنطقِ البشريِّ القائم على الأسباب والعادات، لكنها ستحملُ وتضعُ بأمرِ الله، إنْ أرادَ اللّهُ ذلك، وهو فعّالٌ لما يريد.

---

(١) في ظلال القرآن ٤ : ٢٣٠٢.

وأشارتْ إلى هذهِ الحقيقة آياتُ سورة الأنبياء. قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

و«زكريا» في الآية منصوب، لأنه معطوفٌ على ما قبلَه من الأنبياء: «وداود وسليمان..» و«وأيوب...» و«إسماعيل وإدريس وذا الكفل...» و«ذا النون...».

ونصْبُ هذه الأسماءِ المباركة بفعْلٍ مقدَّر. والتقدير: اذكُرْ داودَ وسليمان، واذكُرْ أيوب، واذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل، واذكر ذا النون، واذكر زكريا.

والخطابُ للنبيِّ ﷺ، ولكلِّ مسلمٍ متذكِّر من بعده.

سياق دعاء زكريا في سورة الأنبياء:

ولهذا ختمَ الحديثَ عن هؤلاءِ الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام بالثناءِ عليهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وهناكَ أمرٌ جامعٌ بين هؤلاء الأنبياء، المذكورين في سورة الأنبياء، وهو وقوعُ الواحدِ منهم في ضيق، ثم نداؤُه ربه، ثم استجابةُ اللّهِ له، وكشفُه ذلك الضيق.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨]

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

نادى زكريا ربَّه قائلاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي: لا تذرني وحيداً لا ولدَ لي ولا وراث، يرثني في النبوة والعلم.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: هذه جملةٌ حاليةٌ تناسبُ الدعاء. فهو يريدُ ابناً وارثاً يرثُه ويرثُ من آل يعقوب: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، والوراثةُ المقصودةُ هنا هي الوراثةُ في النبوة والعلم.

فأرادَ بقوله لربه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: أنت خيرُ مَنْ يبقى، بعد كلِّ مَنْ يموت. وأنا أعلمُ أَنك لا تضيعُ دينَك، ولكنني أريدُ أن لا تقطعَ فضيلةَ القيامِ بأمرِ الدين عن عقبي من بعدي، فارزقني وارثاً يقومُ بذلك[1].

استجابَ اللّهُ دعاءَ زكريا عليه السلام، وكانت الاستجابةُ سريعة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ..﴾ وعبَّرَ عن الاستجابةِ بحرفِ الفاء، الدالِّ على الترتيبِ مع التعقيب الفوري.

وهبَ اللّهُ له يحيى بعدما أصلحَ له زوجَه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ..﴾.

أصلحَ له زوجَهُ بعدَ أنْ جعلَها قادرةً على الإنجاب «بيولوجياً»، وكانتْ هذه معجزةً خارقة، لأنها كانت عاقراً من قبل، والآن سوفَ تحملُ وتُنجب، بأمْرِ الله وإرادتِه سبحانه.

«وامرأتي عاقر»:

وتعبيرُ القرآنِ عن امرأةِ زكريا قبلَ الحمل وبعدَه عجيبٌ لطيفٌ معجز.

فقبلَ الحملِ أخبر أَنها امرأةٌ عاقر: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا..﴾.

وبعدَ الحملِ أخبرَ أَنّها زوج له: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١١: ٣٣٦.

فما معنى «عاقر»؟ ولماذا استخدمَ مع «عاقر» كلمةَ «امرأة»؟ ولماذا عدلَ عن «امرأة» إلى «زوج» بعدما أَصلحَها وحملتْ بيحيى؟

كلمةُ «عاقر» وردتْ ثلاثَ مرات في القرآن، مرةً في سورة آل عمران، ومرتيْن في سورة مريم. وهي في المراتِ الثلاث مقرونةٌ مع «امرأتي»، وإِخبارٌ عن امرأةِ زكريا عليه السلام.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا..﴾ [مريم: ٥].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم: ٨].

واللطيفُ أنَّ جملةَ «وامرأتي عاقر» في المواضع الثلاثة في محلِّ نصبِ حال. ومجيئُها «حالاً» فيها كلِّها مقصود، وليس مصادفة.

فحالُها أَنها كانت عاقراً لا تُنجب، ولكنَّ اللّهَ أزالَ هذه الحال، ونقَلَها إِلى حالٍ جديد، حيثُ أَصلحها، وجعلها قادرةً على الإنجاب!

قالَ الإمامُ الراغب: «عُقْرُ الحوضِ والدار: أَصلُها.. وعَقَرْتُه: أصبتُ عُقْرَه: أي: أصلَه. و: عَقرتُ النخل: قطعتُه من أصلِه.

وامرأةٌ عاقر: لا تلَد. كأنها تَعقِر ماءَ زوجها. أي تقطَعُه»[1].

فالمرأةُ العاقرُ هي التي في رحِمِها مرضٌ أو داء، يحولُ بينها وبين الحملِ والإِنجاب، وعندما يعاشرُها زوجُها، فإِنها تعقرُ ماءَه، وتَقطعه، وتَقضي على حيواناتِه المنوية، ولا تُفرزُ بويضةً للإخصاب، وبذلك يَذهبُ ماءُ زوجها سُدى بسببِ هذا المرض.

وإِنَّ زكريا عليه السلام يعلمُ أَنَّ امرأتَه عاقر، عندها داءٌ أو آفةٌ في

---

(١) المفردات: ٥٧٧.

رحِمِها، وعاشَ معها سنواتٍ عديدة، لم تَحملْ مِنه ولم تُنجبْ له.

ولما استجابَ اللّهُ دعاءَ زكريا عليه السلام أَزالَ عُقْمَ وعُقْرَ امرأتِه، وقضى على الآفةِ والداءِ الذي فيها، والذي كان يقضي على ماءِ زوجِها، ويَحولُ بينها وبين إفرازِ «البويضة».

إزالة عقم امرأة زكريا معجزة من الله:

أَزالَ اللّهُ ذلك الداءَ بقدرتِه، وبدونِ سببٍ ماديٍّ مباشر، فلم تأخذْ تلكَ المرأةُ دواء، ولم تتناوَلْ علاجاً. فاللّهُ الذي وضعَ فيها ذلك الداءَ ابتلاءً لها ولزكريا عليه السلام، هو الذي رفعَ ذلك الداء، رحمةً منه لها ولزكريا.

ولما زالَ المانعُ أصبحتْ قادرةً على الإنجاب، فأَفرزت «البويضة» واستقرتْ تلكَ البويضةُ في الرحم تنتظرُ «الحُوَيْنَ المنوي» من الزوج، ولما تمت المعاشرةُ بين الزوجين، تمَّ الإِخصابُ بأمر الله، فحملت المرأةُ بجنينها.

وكان هذا كلُّه معجزةً من معجزات الله، خرقَ اللّهُ بها العادةَ البشرية، وهذه المعجزةُ الربانيةُ لها جانبان:

الجانبُ الأول: أن اللّهَ أزالَ عُقْمَ المرأة، والمرأةُ قد تكون عاقراً عقيماً وهي في سنِّ «الحيض»، تحيض لكنها لا تحمل، لداءٍ في رحمها، وهذه قد يعالجُها الطبُّ البشري، ويُزيلُ ذلك المانعَ من رحمها، وعندما تفرزُ بويضةً بعد ذلك، يتمُّ الإِخصاب والحمل، فهي تحيضُ في كلِّ دورةٍ شهريةٍ لها.

وقد يعجزُ الطبُّ البشريُّ عن علاجها، فتبقى عاقراً مع أَنها تحيض.

الجانب الثاني: أن اللّهَ أزالَ عُقْمَ امرأةِ زكريا عليه السلام بعدما بلغَتْ سنَّ اليأس!! وهذه هي المعجزةُ الربانيةُ الباهرة.

وبلوغُ المرأةِ سنَّ اليأس ـ وهو غالباً بعد بلوغِها الخمسينَ من عمرها ـ معناه انقطاعُ حيضِها، وتوقُّفُها عن إفرازِ البويضة التي يلقِّحُها «الحوين المنوي».

سنُّ اليأسِ عند المرأة هو توقُّفُ المرأةِ عن «إنتاجِ» البويضات نهائياً، ويستحيلُ عليها في المنطقِ البشري إنتاجُ بويضةٍ وحملُ جَنينٍ في رحمها، وكلُّ أطباءِ العالم عاجزون عن جعْلِ امرأة تحمل، بعدما تبلغ سنَّ اليأس!!

وقد أرادَ اللّهُ لامرأةِ زكريا أنْ تحملَ بعد بلوغِها سنَّ اليأس، فأوقعَ عليها معجزةً باهرة، وأمْكَنَها من إفرازِ بويضة، ثم أقدرَها على الإخصابِ والحمل والولادة.

هذا كلُّه معجزةٌ خارقة، لا تُقاسُ بالأَسبابِ المادية، والقدراتِ البشرية!!.

ولما حملت تحولت من امرأة إلى زوج!!:

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أنه عدلَ عن كلمةِ «امرأة» إلى كلمةِ «زوج».

فلما كانت عاقراً أطلقَ عليها «امرأة»: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾. ولكنها لما حملَتْ أَطلقَ عليها «زوج»: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾.

لما كانت عاجزةً عن الحملِ كانت امرأة، ولما أصبحتْ قادرةً على الحملِ صارت «زوجاً» لزكريا عليه السلام.

وهذا يدلُّنا على عدمِ الترادفِ في المصطلحات القرآنية، فالزوجُ والمرأةُ ليسا بمعنى واحد، وهو حليلةُ الرجل مطلقاً.

القرآنُ أطلقَ على حليلةِ الرجل امرأةً له: إذا كان هناكَ عدمُ انسجامٍ بينهما لسببٍ ماديٍّ أو معنوي نفسي. فإذا كانت لا تُنجبُ فهي

امرأةٌ للرجل، لوجودِ خللٍ ماديٍّ بيولوجي. وإذا كان أَحدهما مؤمناً والآخر كافراً فهي امرأةٌ له، كما قال القرآن: امرأةُ نوح، وامرأةُ لوط، وامرأة فرعون.

أمّا إِذا كانَ بينها وبينَه انسجامٌ ماديٌّ ومعنوي فهي زوجٌ له وهو زوجٌ لها، لأن المزاوجةَ تقومُ على الاقتران والانسجام.

فلما أصلحَ اللّهُ حليلةَ زكريا عليه السلام، وصارتْ قادرةً على الحمل، لم تَعُدْ مجردَ امرأةٍ له، هناك عائقٌ في جسمِها يحولُ بينها وبين تحقيقِ كاملِ الاقترانِ والانسجامِ بينهما.

لم تَعُدْ مجردَ امرأةٍ له، وإِنما أَصبحتْ «زوجاً»، تُؤدّي وظيفتَها الزوجيةَ «بيولوجياً» وتُحَقِّقُ رسالتَها الزوجيةَ عملياً، وتحملُ لزوجِها في رحمِها ابنَه، وبذلك تَحَقَّقَ الاقترانُ والتزاوجُ بينهما على أَحسنِ وأفضلِ صورة. وسبحان اللّهِ مُنَزِّلِ هذا القرآن المعجز!!

[٤]

بشارة زكريا وإزالة تعجبه

أَزالَ اللّهُ عُقْمَ امرأةِ زكريا، وجَعَلَها قادرةً على الحمل، بمعجزةٍ خارقةٍ منه، وحَوَّلَها من امرأةٍ عاقرٍ إِلى زوجٍ حامل.

وبقيَ السببُ المادي، وهو معاشرةُ زكريا عليه السلام لزوجه، ليتمَّ إِخصابُ البويضةِ في رحمها، وليتكوَّنَ الجنينُ هناك.

دور المحراب في حياة وعبادة زكريا:

وأَرسل اللّهُ الملائكةَ لتبشِّرَ زكريا بأنَّ اللّهَ قد استجابَ دعاءَه، وسيهبُ له يحيى. وجاءَته الملائكةُ وهو قائمٌ يصلي، فبشرَتْه البشرى، فاستغربَ وتعجَّبَ من ذلك، فأزالت الملائكةُ استغرابَه وتعجُّبَه.

قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ

﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٩ ـ ٤٠].

المحراب: مكانُ العبادة، وهو أفضلُ جزءٍ من البيت، لتخصيصِه بالعبادةِ والصلاة والذكر.

وقد تحدَّثنا ـ أثناءَ حديثِنا عن قصةِ الخصمين لما تسوَّروا على داودَ المحراب ـ عن اشتقاق المحرابِ من الحرب، وعن حكمةِ هذا الاشتقاق. وذكَرْنا كلامَ الإمام الراغب: «ومحرابُ المسجد قيل: سمي بذلك لأنه موضعُ محاربةِ الشيطان والهوى..»[1].

و«المحرابُ» وردَ في القرآن أربعَ مرات. مرةً في محرابِ داود عليه السلام، لما تسوَّرَ عليه الخصمان محرابَه.

وثلاثَ مرات في قصةِ زكريا عليه السلام:

الأولى: محرابُ الفتاةِ الطاهرة مريم، الذي كان يرزقُها اللّهُ فيه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ..﴾ [آل عمران: ٣٧].

الثانية: محرابُ زكريا الذي كان قائماً يصلي فيه عندما نادَتْه الملائكةُ بالبشرى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

الثالثة: المحرابُ الذي خرجَ منه زكريا إلى قومِه بعد تبشيره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ..﴾ [مريم: ١١].

وبما أنَّ زكريا عليه السلام نبيٌّ كريم، فقد كان دائمَ الصلاةِ والذكرِ لله، ولذلك كان يُكثرُ من الذهابِ إلى المحراب للصلاة والذكر، والاتصالِ بالله ومناجاته.

---

(١) المفردات: ٢٢٥.

نادى زكريا ربَّه من المحراب نداءً خفياً، طالباً منه الولَدَ الوارث، فاستجابَ اللّهُ له، وأرسلَ الملائكةَ لتبشِّرَه، وسمعَ البشرى وهو قائمٌ يصلي في المحراب فكان للمحرابِ دورٌ كبير في رحمةِ الله زكريا عليه السلام، وفي حلِّ مشكلته.

الملائكة بشرته بالبشرى من الله:

نادَتْه الملائكةُ وهو يصلّي في المحرابِ وقالت له: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾.

وهمزةُ «أَنَّ» في الآية مفتوحة، على أَنها مصدرية، وما بعدَها مصدرٌ مجرورٌ بحرفِ جرٍّ مقدَّر. أي: بأنَّ اللّهَ يبشرك بيحيى. والتقدير: بتبشيرِ اللّهِ لك بيحيى.

وذَكرت الملائكةُ له من صفات يحيى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ونتحدثُ عن هذه الصفاتِ بعد قليل إن شاء الله.

وبينما أَسندتْ آياتُ سورةِ آل عمران البشارةَ إِلى الملائكة: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، فقد أَسندتْ آياتُ سورةِ مريم البشارةَ إِلى الله. قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: ٧].

ولا تَعارضَ بين الآيتين، فاللّهُ هو الذي بَشَّرَ زكريا بيحيى عليهما السلام، لأَنه هو الذي استجابَ دعاءه، وأَصلحَ له زوجَه. وقدَّرَ أَنْ يرزقَه بابنه يحيى. وهذا ما قررتْه آيةُ سورة مريم: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ...﴾.

لكن كيفَ وصلتْ زكريا البشارةُ من الله؟ اختارَ اللّهُ أَنْ يرسلَ الملائكةَ لتنقلَ له البشرى فجاءتْه وبشرتْه بها.

فاللّهُ الذي بشَّره في الحقيقة، ولهذا أُسندت البشارةُ له في سورة

مريم، والملائكةُ هي التي أَوصلتْه البشارةَ من الله، ولهذا أُسندت البشارةُ لها في سورة آل عمران.

معنى اسم «يحيى»:

ولما بشَّرَ اللّهُ زكريا بالغلام أَخبره باسمه، قبلَ حَمْلِ أُمِّه به وولادتِها له، وأَخبره أنه أَولُ إنسانٍ يسمّى بهذا الاسم: ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾.

وقد ذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أَنَّ «يحيى» مشتقٌّ من الحياة، وأَنه على وزن الفعل المضارع: تقول: حَيا، يحيا. كما تقول: عاش، يعيش، و: مات، يموت.

وممن قالَ باشتقاقِه الإمامُ الراغب، حيث قالَ في حكمةِ تسميتِه بهذا الاسم: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ فقد نبَّهَ أَنه سمّاهُ بذلك من حيثُ إنه لم تُمِتْهُ الذنوب، كما أَماتَتْ كثيراً من ولدِ آدم، لا أنه كان يُعرفُ بذلك الاسم فقط، فإن هذا قليلُ الفائدة...»[1].

المرادُ بالحياة هنا عند الراغب الحياةُ الإيمانيةُ المعنوية، فالحيُّ هو الذي حيٌّ في قلبِه وروحه وإيمانه، إِذْ لم تُمِتْ المعاصي والذنوبُ قلْبَه.

وقالَ قتادة: سُمي يحيى لأَنَّ اللّهَ أَحياهُ بالإيمان والنبوة.

وقال مقاتل: اشتُقَّ اسمُ يحيى من اسمِ الله «حي».

وقال بعضُهم: سُمي بذلك لأَنَّ اللّهَ أَحيا به الناسَ بالهدى.

وقال آخرون: سُمي بذلك لأن اللّهَ أَحيا به رحمَ أُمّه[2].

---

(١) المفردات: ٢٧٠.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٤:٧٦.

وتدورُ هذه الأقوالُ كلُّها على أنه مشتقٌّ من الحياة، سواء كانت حياةً حسية أو حياة معنوية.

والراجحُ أنَّ اسمَ «يحيى» ليس مشتقّاً، لأنه اسمُ علمٍ أَعجمي، وهو ممنوعٌ من الصرف، للعلميةِ والعجمة.

إنَّ زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهما السلام أَشخاصٌ إسرائيليون وليسوا عرباً، وعاشوا بين اليهودِ في الأرضِ المقدسة، ولغةُ اليهودِ لغةٌ عبرية وليستْ عربية، وَأسماءُ أشخاصِهم أسماءٌ عبرية أعجمية، وليستْ عربية. فهذه الأسماءُ أعجمية وليستْ مشتقة، ولا نبحثُ لها عن معنى اشتقاقي في العربية.

ويحيى ابنُ زكريا عليهما السلام، ذكرتْ له الأناجيلُ في العهد الجديد قصةً جرتْ بينه وبين عيسى عليه السلام، لكنَّ مؤلِّفي الأناجيل لم يُسمّوه يحيى، وإنما سمّوه «يوحَنّا المعمدان»[1].

وبما أَننا لا نأخذُ شيئاً من العهدِ القديم ولا العهد الجديد، فلا نُسميهِ يوحَنا المعمدان، وإنما نُسميه الاسمَ الذي سَمّاه اللّهُ به في القرآن.

معنى «لم نجعل له من قبل سمياً»:

وأَخبرَ اللّهُ زكريا أنَّ ابنَه يحيى هو أولُ إِنسانٍ حملَ هذا الاسم، فلم يُسَمَّ به أحدٌ من قبل: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

و«سَمِيّاً» بمعنى «مُسَمّى»، فهو اسمُ مفعول. أي: لم نجعلْ شخصاً قبل يحيى مُسَمّىً بهذا الاسم.

و«سَمِيّاً» لم ترد إلا في سورة مريم. وذُكرت فيها مرتيْن:

الأولى: عن يحيى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

---

(١) انظر إنجيل متى. الإصحاح الثالث: يوحنا المعمدان.

الثانية: عن الله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥].

قالَ الإمامُ الراغب: «وقولُه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: أي: نظيراً له يستحقُّ اسمَه، وموصوفاً يستحقُّ صفتَه على التحقيق.

وليس المعنى: هل تجدُ مَنْ يتسمّى باسمه، إذ كان كثيرٌ من أسمائِه قد يُطلقُ على غيره، ولكن ليس معناه إذا استُعملَ فيه كما كان معناه إذا استُعملَ في غيره..»[١].

إذنْ معنى قوله عن الله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: لن تجدَ نظيراً ولا مثيلاً لله، يستحقُّ أنْ يسمّى باسمه، لأنه لا يَفعلُ أحدٌ فعلَه، ولا يتصفُ أحدٌ بصفاته، فاللّهُ هو الإلهُ الربُّ الخالق، وكلُّ ما سواه لا إلهاً ولا رباً ولا خالقاً، فلا سَمِيَّ ولا نظيرَ ولا مثيلَ له سبحانه.

وقد اختلفَ المفسرون في معنى قوله عن يحيى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾:

١ ـ فقالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: لم تَلِدِ النساءُ العواقرُ ولداً مثلَه.

٢ ـ وقال مجاهد: لم نجعَل له من قبله مِثْلاً أو شبيهاً.

٣ ـ وقال قتادة: لم يُسَمَّ باسْمِه أَحَدٌ قبلَهُ[٢].

والأقوالُ الثلاثة متقاربةٌ في الحقيقة، ولا تعارضَ بينها، فلم يُسَمَّ أحدٌ باسمه من قبله، وهو لا مثيلَ ولا شبيهَ له، حيث لم تَلِدِ النساءُ العواقرُ ولداً مثله.

وقد وَقفَ الإمامُ ابن كثير وقفةً لطيفةً فَرَّقَ فيها بين ولادة يحيى لزكريا، وولادةِ إسحاق لإبراهيم، عليه السلام.

---

(١) المفردات: ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

(٢) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢١٨.

بَيَّنَ أنَّ امرأةَ إبراهيمَ عليه السلام كانت عقيماً، بينما امرأةُ زكريا عليه السلام كانت عاقراً، وإبراهيمُ عليه السلام وُلِدَ له إسماعيلُ قبل بشارتِه بإسحاق عليهم السلام، بينما لم يُولَدْ لزكريا أيُّ ولدٍ قبلَ يحيى عليهما السلام.

وبيَّنَ أنَّ تعجُّبَ إبراهيم وسارة من البشارة بإسحاق كان لكبرِهما لا لعقْرِهما، فقالت سارة: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤].

بينما كان تعجُّبُ زكريا عليه السلام من البشارة بيحيى لعُقْرِ امرأته: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ..﴾[1].

معنى سؤال زكريا وتعجبه:

زكريّا عليه السلام هو الذي طلبَ الولدَ الوارث، وكلُّه أملٌ في استجابةِ اللّهِ لطلبه، ومع ذلك فوجئَ بالبشارة، وتعجَّبَ منها، ولما سمعَها من الملائكة صارحَهم بمفاجأتِه وتعجُّبه، فردّوا عليه وأزالوا تعجبَه.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٨ ـ ٩].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾ [آل عمران: ٤٠].

«أنّى» اسمُ استفهامٍ للتعجب، بمعنى «كيف». أي: كيفَ يكونُ لي غلام؟

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣: ١١٠.

وسؤالُه عن الجهةِ التي يأتيهِ منها الغلام، أي: من أينَ يكونُ لي غلام؟ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟ هل نبقى على حالِنا الذي نحنُ عليه أم يغيَّرُ هذا الحال؟

لقد وهنَ العظمُ منه، واشتعلَ رأسُه شيباً، وبلغَ من الكبر عتياً، وامرأتُه عاقر، فمن أين يأتيه الغلام؟

ومعنى قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾: بلغتُ النهايةَ والغايةَ في الكبر والشيخوخة والهرم.

قال الإمام الراغب: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾: وصلْتُ إلى حالةٍ من الكبرِ لا سبيلَ إلى إصلاحها ومداواتها»[١].

لم يكن سؤالُ زكريا واستفهامُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ من بابِ الاستبعادِ أو الإنكارِ أو الشك، فقد سألَ هو ربَّه من قبلِ أنْ يرزقَه الولد، وكان موقِناً بأن اللّهَ سيستجيبُ له: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

إنما سؤالُه كان عن الكيفيةِ التي سيأتيه بها الغلام، والجهةِ التي سيأتيه منها، والوسيلةِ التي سيأتيه بها، فهو يوقنُ أنَّ الغلامَ سيأتيه، لكن كيف؟ ومن أين؟ إنهُ شيخٌ هَرِم قد بلغَ من الكبر عتياً، وإنَّ امرأتَه عاقر، وهي عجوزٌ أيضاً، فكيف يأتيه الغلام؟

قال الإمام الطبري: «وكلامُ زكريا هذا سؤالٌ عن الوجهِ الذي يأتيه منه الولد، وليس إنكاراً في حصولِ ذلك الولد له، أو شكّاً في حقيقةِ وعْدِ اللّهِ له. فزكريا يعلمُ أن اللّهَ على كل شيء قدير، وأنَّ وعدَه نافذ، ولذلك لا بدَّ أن يأتيه الولد.

ثم هو الذي طلبَ الولدَ من ربِّه في دعائه، فلا يشكُّ في قدرةِ اللّهِ على أنْ يرزقَه به.

---

(١) المفردات: ٥٤٦.

فمعنى قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾: ليس استبعاداً لحصولِه، لكنه بمعنى: مِن أينَ يكونُ لي ولد..»[1].

ولا يخرجُ كلامُ ابنِ كثير كثيراً عن هذا. قال: «هذا تعجُّبٌ من زكريا عليه السلام، حين أُجيبَ إلى ما سأل، وبُشِّرَ بالولد، ففرحَ فرحاً شديداً، وسألَ عن كيفيةِ ما يولَد له، والوجهِ الذي يأتيه منه الولد، مع أنَّ امرأتَه كانت عاقراً، لم تلدْ من أولِ عمرها، ومع أنه قد كبرَ وعتا، وعَسى عظْمُه ونحل، ولم يبقَ فيه لقاحٌ ولا جماع..»[2].

هو على الله هين لأنه يفعل ما يشاء:

سألَ زكريا عليه السلام عن الكيفيةِ التي يأتيه بها الولد، فأتاهُ الجوابُ بأنَّ هذا فعلُ الله، واللّهُ يفعلُ ما يشاء: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

اللّهُ قَدَّرَ أنْ يرزقَ زكريا الولد، وقَدَرُهُ واقعٌ نافذ، وأَرادَ إِكرامَ زكريا بالولد، وإِرادَتُه فاعلةٌ طليقة، لا يُقيدها شيء، ولا يمنَعُها مانع.

صحيحٌ أنه قد بلغَ من الكبرِ عتياً، ولا قدرةَ ذاتيةَ له على الإِخصاب، وصحيحٌ أنَّ امرأتَه عاقر، ولا قدرةَ ذاتيةَ لها على إِنتاج البويضة وعلى الحمل، صحيحٌ أَنهما عاجزان عن ذلك وفقَ الأسبابِ والقوانينِ والسننِ البشرية، ويستحيلُ عليهما ذلك في الحساب البشري.

لكنَّ النظرَ إِلى الولدِ ليس من هذه الزاويةِ البشرية. إِنما من زاويةِ إِرادةِ الله ومشيئتهِ وقدرته، إنَّ الأمرَ أمْرُه، والفعلَ فعلُه، ولا استحالةَ للموضوع ولا استبعادَ له، عندما يُنظرُ له من هذه الزاوية: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ..﴾.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٤:٢١٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١١٠.

وذكَّرَ اللّهُ زكريا عليه السلام بنشأتِه هو: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾.

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾: إيجادُ الولدِ منك ومن زوجِك العاقر، رغم ما أنتما عليه أَمْرٌ هيّنٌ سهلٌ ميسور على الله، لأنه لا يعجزُه شيء، ولا يَصعبُ عليه فعلُ أيِّ شيء.

وأنتَ يا زكريا خلَقَك اللّهُ من العدم، فلم تكن شيئاً، ومع ذلك خلقك الله، وجعَلك حياً، ثم جعَلَك نبياً. فتذكَّرْ بدايتَك من العدم، لتعلمَ أنَّ أَمْرَ رزقِك بولدٍ هينٌ سهلٌ على الله.

تعليق سيد قطب على السؤال والجواب:

وما أَروعَ تعليقَ سيد قطب على تساؤلِ زكريا عليه السلام وعلى الجوابِ الذي قُدِّمَ له: «لقد استجيبت الدعوةُ المنطلقةُ من القلبِ الطاهر، ولم يَحُلْ دونَها مألوفُ البشر الذي يَحسبونه قانوناً، ثم يحسبون أنَّ مشيئةَ الله سبحانه مقيدةٌ بهذا القانون! وكلُّ ما يراهُ الإنسانُ ويحسبه قانوناً لا يخرجُ عن أنْ يكونَ أَمراً نسبياً ـ لا مطلقاً ولا نهائياً ـ فما يملكُ الإنسانُ وهو محدودُ العمرِ والمعرفة، وما يملكُ العقلُ وهو محكومٌ بطبيعةِ الإنسان هذه، أنْ يصلَ إلى قانونٍ نهائي، ولا أنْ يدركَ حقيقةً مطلقة.. فما أَجدرَ الإنسانَ أنْ يتأدبَ في جناب الله. وما أَجدره أنْ يلتزمَ حدودَ طبيعتِه وحدودَ مجاله، فلا يخبطُ في التيهِ بلا دليل، وهو يتحدثُ عن الممكنِ والمستحيل، وهو يضعُ لمشيئةِ الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو، ومن مقرراتِه هو، ومن علمِه القليل!

ولقد كانت الاستجابةُ مفاجأةً لزكريا نفسِه ـ وهل زكريّا إلاّ إنسانٌ على كلِّ حال ـ وَاشتاقَ أنْ يعرفَ من ربه كيفَ تقعُ هذه الخارقةُ بالقياسِ إلى مألوفِ البشر؟

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾.

وجاءَهُ الجواب.. جاءَهُ في بساطةٍ ويُسر.. يردُّ الأمْرَ إِلى نصابِه، ويردُّهُ إِلى حقيقتِه التي لا عسْرَ في فهمها، ولا غرابةَ في كونها..

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

كذلك! فالأمْرُ مألوفٌ مكرورٌ حين يُرَدُّ إِلى مشيئةِ الله وفعله، الذي يتمُّ دائماً على هذا النحو. ولكنَّ الناسَ لا يتفكرون في الطريقة، ولا يتدبَّرون الصنعة، ولا يَستحضرون الحقيقة!

كذلك بهذا اليسر.. وبهذه الطلاقة، يفعلُ اللّهُ ما يشاء.. فماذا في أنْ يهبَ لزكريا غلاماً وقد بلَغَهُ الكبر وامرأتُه عاقر؟ إنما هذه مألوفاتُ البشر التي يقررونَ قواعدَهم عليها، ويَتخذون منها قانوناً!

فأمّا بالقياسِ إلى الله، فلا مألوفَ ولا غريب.. كلُّ شيء مردُّه إِلى توجُّهِ المشيئة، والمشيئةُ مطلقةٌ من كل القيود..»[(١)].

[٥]

آية زكريا في صمته ثلاثة أيام

أَيقنَ زكريا عليه السلام أن اللّه سيهبَه يحيى، وسيكونُ هذا آيةً من آياتِ الله، لأنه عجوزٌ وامرأتُه عاقر.

وقد طلبَ زكريا من الله أنْ يجعلَ له آية، وأنْ يمهدَ لمعجزةِ ولادة يحيى له بمعجزةٍ أُخرى، يُريها لقومِه المؤمنين، فإذا شاهَدوها استعدوا لقَبولِ المعجزةِ الكبرى، وهي ولادةُ ابنه له.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١٠ ـ ١١].

لم يكنْ زكريا عليه السلام يريدُ الآيةَ له، لتكونَ دليلاً على تحقيقِ وعْدِ اللّهِ له، فهو نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، يثقُ بوعْدِ الله، ولا يحتاجُ إلى دليلٍ عمليٍّ لتحقيقه.

إنما كان يريدُ الآيةَ لقومِه وأَتباعه المؤمنين، فولادةُ الولدِ له على وضعِه ووضْعِ امرأته المعروفِ عجيبٌ مثير، إنه عجوزٌ هرم، وإنَّ امرأته عجوز عاقر، ومع ذلك سيُنجبانِ ولداً بأمرِ الله وإرادتِه.

أَرادَ زكريا عليه السلام الآيةَ لقومِه لتكون تمهيداً للآيةِ الكبرى عندما يولَدُ له يحيى.

آية زكريا في انحباس لسانه عندما يواجه الناس:

وقد استجابَ اللّهُ لطلبِ زكريا، وأَعطاه الآيةَ المعجزة: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

«سويّاً» حالٌ من زكريا. أي: لا تكلم الناسَ ثلاثَ ليال، وأنتَ سوي، صحيحٌ معافى. ليس فيك آفةٌ أو مرضٌ أو خَرَس.

ويوضِّحُ هذا قولُه تعالى في آية سورة آل عمران: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

كانت الآيةُ العجيبةُ والمعجزةُ الباهرة في لسانِ زكريا عليه السلام!

إنَّ قومَه يعرفون أَنه متكلمٌ بفصاحة وطلاقة، ويعلمونَ أنه لا عيبَ في لسانه. ولكن بعدَما بُشِّرَ بالولد، فوجئوا به لا يكلمُهم إلاّ بالرمْزِ والإِيحاءِ والإِشارة! واستمرَّ الأمْرُ على هذا ثلاثةَ أيامٍ بلياليها!

كان زكريّا عليه السلام في هذه الأيامِ الثلاثةِ على حالتيْن:

الحالة الأولى: عندما يخلو بنفسه، ويكونُ وحيداً، ليسَ معه أَحَد، ولا يَسمعه أَحد، عند ذلك ينطلقُ لسانُه بذكْرِ الله وتسبيحه، ويَسمعُ نفسَه وهو يُسبح اللّهَ ويَذكرُه.

الحالة الثانية: عندما يخرجُ على قومه، ويريدُ أنْ يكلمَهم ويخاطبَهم، فإنه يعجزُ عن ذلك، حيث يُحبسُ لسانُه عن الكلام، بطريقةٍ لا إرادية، عند ذلك يخاطبُهم عن طريقِ الرمزِ والإيحاءِ والإشارة.

وعندما يرَى قومُه ذلك كانوا يتعجَّبون، فما الذي حبسَ لسانَ زكريا عن الكلام؟ وما الذي جرى له؟

فإذا تَرَكَ قومَه، وعادَ إلى خلوتِه وعبادتِه ومحرابِه، انطلقَ لسانُه بالكلام، وسمعَ نفسَه وهو يذكرُ اللّهَ ويسبحُه!

واستمرَّ الوضعُ على هذه الصورةِ ثلاثةَ أيامٍ بلياليها.

ولم يكن إِمساكُ لسانِه عن الكلام عندما يواجهُ الناسَ بسببِ مرضٍ أو خرس، وإِنما بمعجزةٍ من الله، فهو سويٌّ صحيحٌ فصيحٌ متكلم، ولكنَّ اللّهَ كان يمسكُ لسانَه عن الكلامِ بطريقةٍ لا إرادية، لا دخْلَ لزكريا في ذلك.

وليس هذا غريباً على الله، فاللّهُ هو الذي خَلَقَه متكلّماً، واللّهُ هو الذي يُمَكِّنُ لسانَه من الكلام، فلا يتكلمُ كلمةً إلاّ بقَدَرٍ من الله. واللّهُ هو الذي حَبَسَ لسانَه عن الكلام عندما يواجهُ الناس، وأَطلَقَه بالكلام عندما يخلو إلى نفسه.

هذه هي الآيةُ التي جعلَها اللّهُ لزكريا عليه السلام.

قالَ ابن عباس: «أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً»: اعْتُقِلَ لسانُه من غيرِ مَرَض ولا خَرَس.

وقال ابن زيد: «أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً»: وأنتَ صحيح. حُبسَ لسانُه، فكان لا يستطيعُ أنْ يكلمَ أحداً، وهو في ذلك

يُسبح، ويَقرأ التوراة والإنجيل، فإذا أرادَ كلامَ الناس لم يَستطعْ أنْ يكلمهم..»[1].

معنى: «ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً»:

ويؤكّدُ هذا الفهمَ للآية قولُه تعالى في آيةِ سورة آل عمران: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾.

والرمزُ لم يَرِدْ في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

قال الإمامُ الراغب عنه: «الرَّمْزُ: إشارةٌ بالشفة، والصوتُ الخفيُّ، والغمزُ بالحاجب، وعَبَّرَ عن كلِّ كلامٍ كإشارةٍ بالرمز»[2].

وقالَ السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾: إلاّ إشارة: إمّا بالشفتين، وإمّا بالحاجبين، وإمّا باليدين. ولهذا سُمّيَ كلاماً. قال الشاعر:

إذا كَلَّمَتْني بالعُيونِ الفَواتِرِ ... رَدَدْتُ عَلَيْها بِالعُيونِ البَوادِرِ

وأصْلُه الحركة. وقيل للبحر: راموز. لكثرةِ أمواجه..»[3].

وحصرَ الإمامُ الطبريُّ الرمْزَ في اللغةِ بثلاثِ حالات:

الأولى: الإيماءُ بالشفتين.

الثانية: الإيماءُ بالحاجبيْن والعينيْن.

الثالثة: الخفيُّ من الكلام، الذي هو مثْلُ الهمسِ بخفضِ الصوت.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) المفردات: ٣٦٦.

(٣) عمدة الحفاظ ٢: ١٢٦.

وإذا كانتْ هذه حالاتُ الرمزِ في اللغة، فإنَّ رمْزَ زكريا عليه السلام في تكليمِه لقومِه كان بالإشارة.

فمعنى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾: أنْ لا تكلم الناس في الأيامِ الثلاثةِ بلسانك، وإنما عن طريقِ الإيماءِ والإشارةِ بيدك.

قال الحسن البصري: أمسكَ لسانُه، فجعلَ يومئُ بيدِه إلى قومه، أنْ سبّحوا بكرةً وعشيةً[1].

والاستثناءُ في «إلاّ رمزاً» استثناءٌ متصل، ومعناه أنَّ «رمزاً» من جنسِ المستثنى منه «أن لا تكلم الناس».

وهذا يدلُّ على أنَّ الرمزَ والإيماءَ بالعينِ أو اليدِ صورةٌ من صورِ الكلام، ونوعٌ من أنواع التعبير. فالذي لا ينطلقُ لسانه، وإنما يستخدمُ حركاتِ رأسه أو عينيه أو شفتيه أو يديه، فإنه يعبِّرُ بهذه الحركاتِ الرمزية عما في نفسه، ويَفهمُ السامعُ منه كما يَفهمُ منه إذا نطقَ بلسانه!.

وقد جمعتْ آيةُ آلِ عمران بين حالتَيْ زكريا عليه السلام وهو يعيشُ المعجزةَ الربانية خلالَ الأيام الثلاثة: صمتُه عند مواجهةِ الناس، ونطقُه عندما يخلو إلى نفسه: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

أَمَرَهُ اللّهُ بالإكثارِ من ذكْره في هذه الأيام الثلاثة، وأَخبرَه أنه لا يُحبسُ لسانُه عن تسبيحِ الله، ولا يُمنَعُ من ذكْره.

وذكرت الآيةُ طرفَي النهار، فإذا سبَّحَ اللّهَ في طرفَي النهار بالعشي والإبكار، فقد ذَكَرَه وسبَّحَه طيلةَ النهار.

العَشِيّ: من وقتِ زوالِ الشمس بعد الظهر، إلى أَنْ تَغيب.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

والإبكار: من وقتِ طلُوعِ الفجر، إلى وقتِ الضحى.

قال محمدُ بن كعب القرظي: «لَو رَخَّصَ اللّهُ لأحدٍ في تركِ الذكر لرخَّصَ ذلك لزكريا، حيث قال له: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾[1].

زكريا يفاجئ قومه بصمته ويوحي لهم بالتسبيح:

عرَفَ زكريا عليه السلام الآيَةَ التي جعَلَها اللّهُ له، وخرجَ على قومِه مفاجئاً لهم بصمتِه، واستخدامِه الإيحاءَ والرمزَ والإشارةَ بدلَ النطقِ والعبارة. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾﴾.

خرجَ زكريا على قومِه من المحراب، المحرابِ الذي كان يذكُرُ اللّهَ ويسبحُه فيه، وللمحرابِ دورٌ كبيرٌ في حياةِ زكريا عليه السلام، ففيه سمعَ البشرى من الله بالولد، وفيه كانَ يذكرُ اللّهَ ويسبحه، ومنه خرجَ إلى قومِه، مقدِّماً لهم الآيَةَ المعجزة.

فاجأَ زكريا عليه السلام قومَه وأَتْباعَه المؤمنين بدونِ كلام، ولعلَّها أولُ مرةٍ يشاهدونَه فيها صامتاً، فلا سلامَ ولا كلام، ولا تحيةَ ولا مخاطبة!

وتعجَّبَ القومُ منه، فلماذا لم يطرحْ عليهم التحية؟ وما الذي جَرى له؟ ولعلَّهم كلَّموه وخاطَبوه، واستفسروا عن سرِّ صمتِه، فلم يَسمعوا منه كلاماً ولا جواباً، فازدادَ تعجُّبهم واستغرابُهم، واستمرَّ هو في صمته.

واستخدمَ الإشارةَ والرمزَ والإيماء: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾.

---

(١) المرجع السابق ٢: ٢٦٣.

ومعنى «أَوحى إليهم»: أَشارَ إِليهم بيدِه إِشارةً خفيفةً سريعة، طالباً منهم تسبيحَ الله.

و«أَنْ» في قوله: ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ تفسيرية. وما بعدَها تفسيرٌ لما قبلَها.

أي: وَضَّحَ لهم عن طريقِ الوحي والرمزِ أنْ يقوموا بتسبيحِ اللّهِ في الصباحِ والمساء.

قال مجاهد وقتادة: كان وحيُه إِشارةً باليد.

وطلبَ منهم تسبيحَ اللّهِ بكرةً وعشياً، في بدايةِ النهار وفي نهايته، وهذا يتوافقُ مع أمرِ الله له، وينسجمُ معه.

فاللّهُ قد أمرَ زكريا أنْ يسبِّحَه بالعشيِّ والإِبكار: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

ولما نَفَّذَ زكريا أمْرَ الله، خَرَجَ على قومه، وأَمَرَهم أنْ يُسبِّحوا اللّهَ بكرةً وعشياً، عن طريقِ الوحي والرمز: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

واعتبرت الآيةُ إِشارةَ زكريا إِلى قومِه بالتسبيحِ وحياً.

قال الإمامُ الراغب: «أصْلُ الوحي: الإشارةُ السريعة. ولتضمُّنِ السرعة قيل: أَمْرٌ وحي.

وذلكَ يكونُ بالكلام، على سبيلِ الرمزِ والتعريض، وقد يكونُ بصوتٍ مجردٍ عن التركيب، وبإشارةٍ ببعضِ الجوارح، وبالكتابة.

وقد حُمِلَ على ذلكَ قولُه تعالى عن زكريا: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾. قيل: رَمَزَ. وقيل: أَشارَ. وقيل: كَتَبَ»[1].

---

(١) المفردات: ٨٥٨.

فهمَ القومُ المؤمنون إشارةَ زكريا، وقاموا بتسبيحِ الله، وسطَ استغرابهم من صمتِ زكريا عن الكلام، ذلك الصمتُ الذي استمرَّ ثلاثةَ أيام!

[٦]

يحيى النبي الزكي التقي

قَدَّمَ زكريا عليه السلام لقومِه الآيةَ الأُولى، وبعدَ انقضاءِ الثلاثةِ أيام، أَخبرهم أنَّ اللّهَ هو الذي حبسَ لسانَه عن الكلام أَمامَهم، وأَنه كان يُطْلِقُ لسانَه بذكْرِه وتسبيحِه عندما يَغيبُ عنهم، وأَنَه جعلَ هذا آيةً له، تَمهيداً لآيةٍ أُخرى أكبر، وهي الولدُ الذي سيمنحُه له.

وسمعَ أَتباعُه المؤمنون منه أَخبارَ المعجزةِ القادمة، فازدادَ إِيمانُهم بالله، وقدرتِه على خرقِ العادات والمألوفات.

وحققَ اللّهُ لزكريا معجزتَه، وحملتْ منه امرأتُه العاقر، وانقضتْ شهورُ الحملِ التسعة، وأَنجبتْ مولودها، وسمّاه أَبوه «يحيى» منفِّذاً أَمْرَ اللّهِ بتسميته.

يحيى مصدق بكلمة من الله:

وقد أخبرَ اللّهُ عن بعضِ صفاتِ يحيى عليه السلام بقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

صفاتُ يحيى عليه السلام المذكورةُ هنا أربعة: مصدقٌ بكلمةِ من الله، وسيدٌ، وحصورٌ، ونبيٌّ من الصالحين.

الأولى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: يحيى مصدّقٌ بكلمةِ من الله.

وفي المرادِ بكلمةِ الله التي يصدقها يحيى قولان للمفسرين:

الأول: كلمةٌ تأتيهِ هو من الله، لأَنه نبي، واللّهُ يُعطي أنبياءَه ما

يشاءُ من كلماتِه وكتبه، فلعلَّ هذه الكلمةَ كتابٌ من الله أَنزَله إليه فآمنَ وصدَّقَ به، ولعلَّها أحكامٌ من اللّهِ أَمره بها، فآمنَ وصَدَّقَ بها والتزمَها.

الثاني: كلمةُ اللّهِ هي عيسى ابن مريم عليه السلام، فقد صرحَ القرآنُ بأنَّ عيسى عليه السلام كلمةٌ من الله، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وكان عيسى معاصِراً ليحيى، وكِلاهما كان نبياً عليهما الصلاة والسلام. ولما بعثَ اللّهُ عيسى نبياً، كان يحيى هو أولَ مَنْ آمنَ بعيسى وصدَّقَه وصدَّقَ به، وشهدَ أنه عبدُ الله ورسولُه، وأنَّ اللّهَ بعَثه نبياً رسولاً[(١)].

ولا تَعارضَ في الحقيقةِ بين القولين، بل هما يتكاملان، فيحيى نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، وآتاهُ اللّهُ كلماتٍ منه، وكان هو أولَ مَنْ صَدَّقَها وصدَّقَ بها واتبعَها، ولما بَعَثَ اللّهُ عيسى نبياً كان يحيى النبيُّ أولَ مَنْ صدقَه وصدَّقَ به.

الثانية: «سيداً»: جعلَهُ اللّهُ سيداً شريفاً في قومِه، سادَهم بالنبوةِ والعلمِ والعبادةِ والحلم.

وفسَّرها الصحابةُ والتابعون بهذا المعنى:

قال ابنُ عباس والثوري والضحاك: السيدُ هو الحليمُ التقي.

وقال قتادة: كان يحيى عليه السلام سيداً في العلم والعبادة.

وقال مجاهد: السيدُ هو الكريمُ على الله.

وقال عكرمة: السيدُ هو الذي لا يغلبُه الغضب.

وقال سعيد بن المسيب: السيد هو الفقيهُ العالم.

---

(١) انظر القولين في تهذيبنا لتفسير الطبري ٢: ٢٦٠.

وقال ابن زيد: السيد هو الشريف[1].

وهذه الأقوالُ ليستْ متعارضة، فكلُّها مرادة، وينطبقُ عليها كلِّها معنى السيد، وكلُّها تحققتْ في يحيى عليه السلام.

لقد جعلَ اللّهُ يحيى عليه السلام سيداً شريفاً، سيداً في الحلمِ والتقوى، وسيداً في العلمِ والعبادة، وسيداً في الفقهِ والكرم.

يحيى حصور لا يأتي النساء:

الثالثة: «حصوراً». والحَصورُ اسمُ مفعول من الحَصْر وهو المنع.

ولم ترِدْ كلمةُ «حَصوراً» في غير هذا الموضعِ من القرآن.

قال الإمام الراغب: «الحَصورُ الذي لا يأتي النساء، إمّا من العُنَّة، وإمّا من العِفَّةِ والاجتهادِ في إزالةِ الشهوة.

والثاني هو المرادُ في الآية، لأنه بذلك تستحقُّ المحمدة»[2].

قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن جبير: الحصور هو الذي لا يأتي النساء.

يحيى عليه السلام منعَ نفسَه عن النساءِ برغبتِه وإرادته، وجاهَدَ نفسَه في عدمِ الرغبةِ فيهن، ولم يكن فيه عُنَّةٌ تمنَعُه من معاشرةِ النساء، فإنَّ هذا نقصٌ ينزَّهُ عنه الأنبياء.

وقد نقلَ الإمامُ ابنُ كثير عن القاضي عياض كلاماً طيباً في معنى كونِ يحيى عليه السلام حصوراً.

قال القاضي عياض: «اعلمْ أنَّ ثَناءَ الله تعالى على يحيى أَنه كان «حصوراً» ليس كما قالَه بعضُهم، إِنه كان هَيّاباً يَخافُ معاشرةَ النساء، أَو أنه لا ذَكَرَ له.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٣٤١.

(٢) المفردات: ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

بل قد أنكرَ هذا حُذّاقُ المفسرين ونُقّادُ العلماء، وقالوا: هذه نقيصةٌ وعيب، لا يَليقُ بالأَنبياء، عليهم السلام.

وإِنما معنى «حصوراً» أنه معصومٌ من الذنوب، لا يأتيها، كأنه حَصورٌ عنها.

وقيل: معناه: مانِعاً نفسَه من الشهوات.

وقيل: معناه: ليستْ له شهوةٌ في النساء.

وقد بانَ لك من هذا أنَّ عدمَ القدرةِ على النكاح نَقْص. وإِنما الفضلُ في كَوْنِها موجودةً ثم يمنَعُها، إِمّا بمجاهدةٍ كعيسى، أو بكفايةٍ من الله عز وجل كيحيى عليه السلام.

ثم هي في حقِّ مَنْ قَدَرَ عليها وقامَ بالواجب فيها، ولم تُشغلْه عن ربه، درجةٌ عليا، وهي درجةُ نبيِّنا محمد ﷺ، الذي لم تُشغلْه كثرتُهن عن عبادةِ ربه، بل زادَه ذلك عبادة، بتحصينِهن وقيامِه عليهن..

وعلَّقَ ابنُ كثير على كلامِ القاضي عياض بقوله: والمقصودُ أَنَّ مَدْحَ يحيى بأنه حصور، ليس معناه أَنه لا يأتي النساء، بل معناهُ أَنه حصورٌ من الفواحش والقاذورات، ولا يَمنعُ ذلك من تزويجِه بالنساءِ الحلال وغشيانهن...[1].

كان يحيى عليه السلام حَصوراً، تسامى بغريزتِه وشهوتِه، فلم يفكِّرْ في النساء، ولم يتزوج النساء، مع قدرتِه على ذلك لو أَراد، ومنَعَ نفسَه عن الشهوات والقاذورات.

يحيى نبي صالح:

الرابعة: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: وهذه نصٌّ على نبوةِ يَحيى عليه السلام، حيث سيجعلُه الله نبيّاً، ويَجْعَلُه من الصالحين، بل هو إِمامُ الصالحين في عصره.

---

(١) تفسير ابن كثير ١: ٣٤٢.

وهذه بشارةٌ ثانيةٌ لزكريا عليه السلام، فقد بَشَّرَهُ اللّهُ قبلَها بأَنه سيرزقُه بيحيى، وبشَّرَه فيها بأَنه سيجعلُه نبياً من الصالحين، وهي أعظمُ من البشارةِ الأُولى.

ولما كانت امرأةُ زكريا حاملاً بابنِها يحيى، كان زكريا يوقنُ أنَّ ما في بطنها ولد، وأنه سيكونُ نبياً من الصالحين، بناءً على هذه البشارة.

هذه صفاتُ يحيى الأربعةُ الواردةُ في سورة آل عمران.

أمّا سورةُ مريم فقد أخبرتْنا عن يحيى عليه السلام بعدما صارَ شاباً كبيراً، وبعدما بعَثهُ الله نبياً. قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٥].

قال الإمام ابن كثير: «وهذا أيضاً تضمَّنَ محذوفاً، تقديرُه: أنه وُجدَ هذا الغلامُ المبشَّرُ به، وهو يَحيى عليه السلام، وأنَّ اللّهَ علَّمه الكتاب، وهو التوراة.. وكان سِنُّهُ إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوَّهَ بذكره، وبما أَنعمَ به عليه وعلى والدَيْه..»[1].

«خذ الكتاب بقوة»:

خاطبَ اللّهُ يَحيى عليه السلام بعدما صارَ صبياً، وأَمَره أنْ يأخذَ الكتابَ بقوة: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾.

والمرادُ بالكتابِ هنا التوراة التي أَنزلَها اللّهُ على موسى عليه السلام، فقد أَبقاها اللّهُ كتاباً لأنبياءِ بني إسرائيل من بعده، إضافةً للكتب الأُخرى التي أَنزلَها على بعضِ أنبيائهم، كالزبور الذي أنزله على داود عليه السلام.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١١١.

أَمر اللّهُ يحيى أنْ يأخذَ كتابَ الله الذي معه بقوة، وأنْ يتدبَّره بقوة، وأنْ يطبقَ وينفذَ ما فيه بقوة، وأنْ يدعوَ إليه بقوة.

وليس المرادُ بالقوة هنا القوةَ الجسمية البدنية، وإنما المرادُ بها القوةُ المعنوية، قوةُ الفهم والعلم، وقوةُ الالتزام والانضباط، وقوةُ الأداء والعمل، وقوةُ الدعوة والبيان.

وأَمْرُ اللّهِ ليحيى عليه السلام أنْ يأخذَ كتابَ الله ـ التوراة ـ بقوة، يذكِّرُنا بأمْرِ اللّهِ لبني إسرائيل، زمنَ موسى عليه السلام، حيثُ أَمرهم أنْ يأخُذوا التوراةَ بقوة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة: ٦٣].

وبينما قَصَّرَ بنو إسرائيل في أَمْرِ الله، وضيَّعوا كتابَ الله، لأن هذه هي طبيعتُهم، فإنَّ يَحيى قد نَفَّذَ أَمْرَ الله، لأنه نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاة والسلام.

وأَخبرَنا اللّهُ أنه قد مَنَّ على يَحيى عليه السلام، بأنْ آتاهُ الحكمَ صبياً: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وليس المرادُ بالحكمِ هنا القيادة والزعامة والرئاسة، فلم يُنقلْ لنا أَنَّ يَحيى عليه السلام كان حاكماً على بني إسرائيل. إنما المرادُ بالحكم هنا الفهمُ والعلم، والجَدُّ والعزم.

قالَ الإمامُ ابن كثير في التفسير: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾: تعلَّم الكتابَ بقوة، أي: بجدٍّ وحرصٍ واجتهادٍ.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾: أي: آتيناهُ الفهمَ والعلم، والجدَّ والعزم، والإِقبالَ على الخير، والإِكبابَ عليه، والاجتهادَ فيه، وهو صغيرٌ حَدَث...

والصبيُّ هو ما كان قبلَ البلوغ.

يحيى ذو حنان وزكاة:

ومَنَّ اللّهُ على يَحيى عليه السلام بأنه آتاهُ الحَنان من عنده، وهذه

استجابةً منه لدعوةِ زكريا عليه السلام، فلما طلب زكريا عليه السلام الغلام، سألَ ربَّه أنْ يجعلَه رضياً: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

فاستجابَ اللّهُ دعوتَه، ومنحَ يحيى الحَنان: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

و«حَناناً» منصوبةٌ لأنها معطوفةٌ على «الحكم». والتقدير: آتينا يحيى الحكمَ وهو صبي، وآتيناهُ الحنان من لدنا، وكان باراً بوالديه...

ولم تَرِدْ كلمةُ «حنان» في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

وأَصْلُ الحنانِ الإشفاق. قال الإمام ابن فارس في «مقاييس اللغة»:

«الحَنانُ هو: الإشفاقُ والرقة، وقد يكونُ ذلك مع صوتٍ وتوجُّع.

والحَنان: الرحمةُ. قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

تقول: حَنانَكَ: رحمتَك. وحنانَيْك: حناناً بعدَ حنان، ورحمةً بعد رحمة.

قال طَرَفَةُ بنُ العَبْد:

أَبا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنا   حَنانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ[1]

الحَنانُ إِذن هو رِقَّةُ القلب، ورحمتُه بالآخرين، وإِشفاقُه عليهم.

وهذه نعمةٌ عظيمةٌ أَنعمَ اللّهُ بها على يحيى عليه السلام، فجعلَه حنوناً صاحبَ حنان، يحبُّ الآخرين ويرفقُ بهم، ويرحمُهم ويشفقُ عليهم.

قالَ ابنُ عباس: «وحناناً من لدنا»: ورحمةً مِن عندنا.

---

(١) مقاييس اللغة: ٢٤٨.

وقال مجاهد: «وحناناً من لدنا»: وتعطُّفاً مِن ربِّه عليه.

وقال عكرمة: «وحناناً من لدنا»: ومحبةً من ربه.

وبعد أنْ أوردَ الإمامُ الطبريُّ الأقوالَ السابقةَ في معنى «الحنان» في الآية بيَّن اشتقاقَه: «وأصْلُ الحنانِ من قولِهم: حَنَّ فلانٌ إلى كذا: وذلك إذا ارتاحَ واشتاقَ إليه.

ويقال: تحنَّنَ فلانٌ على فلان: إذا تعطَّفَ عليه ورحمَه ورقَّ له.

قال الحطيئة:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَداكَ المَليكُ ... فَإنَّ لِكُلِّ مَقامٍ مَقالا[1]

أي: تعطَّفْ عليَّ وارحمني.

وقوله «وزكاة» منصوب، لأنه معطوفٌ على «حناناً من لدنا». أي: آتينا يحيى وهو صبيٌّ ثلاثةَ أشياء: الحكمَ والفهمَ والعلم، والحنانَ والرحمة والإشفاق، والزكاةَ والطهارة والطاعة.

فالزكاةُ هنا هي الطهارةُ من الذنوب والمعاصي، وتطهيرُ النفس وتزكيتُها ومجاهدتها، والإقبالُ على الطاعة والعبادة.

فالزكاةُ هنا بمعنى التزكية، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩].

يحيى بار تقي، وليس جباراً عصياً:

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: كان يحيى عليه السلام تقيّاً عابِداً لله، خائِفاً منه، مؤدِّياً لفرائضه، مجتنباً محارمَه، مسارعاً في طاعتِه.

وقولُه: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ نتيجةٌ للصفاتِ السابقة التي وَصفَ اللّهُ بها يحيى عليه السلام، وثمرةٌ لما آتاهُ الله. فمنذُ أنْ كانَ صبياً، آتاهُ اللّهُ الحكمَ والفهمَ والعلم، وآتاه الحنانَ والرحمةَ والإشفاق، وآتاهُ الزكاةَ

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٢.

والتزكية والطهارة، ونتيجةً لكلِّ ذلك صارَ يحيى عليه السلام تقياً عابداً خاشعاً.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ معطوفةٌ على ﴿تَقِيًّا﴾. وصْفٌ آخرَ ليحيى عليه السلام.

والمعنى: كان يحيى تقياً، وكان بَرّاً بوالديْه.

وذِكْرُ برِّه بوالديْه مقصودٌ هنا، لأنَّ والديْه كبيران عجوزان، وهما بحاجةٍ إلى برِّ ابنِهما بهما، لتقدُّمهما في العمر، وحاجتِهما إلى المساعدة وحسنِ المعاملة، لا سيما أَنهما رُزقا بابنهما على كبر.

ونعمةٌ عظمى ينعمُ اللّهُ بها على الوالديْن الكبيريْن، عندما يوفِّقُ أَبناءَهما إلى البرِّ بهما، لأَنهما في عمرِهما المتقدم يَحتاجان إلى ذلك البرِّ والإحسان.

وبعدما وصفَ اللّهُ يحيى عليه السلام بوصفيْن إيجابييْن، نفى عنه وصفيْن سلبييْن، ونزَّهه عن نقيصتيْن، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

و«جَبَّار» صيغةُ مبالغة، من التجبرِ وهو التكبُّرُ والاستعلاء.

قال الإمام الراغب: «والجبارُ في الإنسان: صفة، يقالُ لمن يجبُرُ نقيصَتَه بادِّعاءِ منزلةٍ من التعالي لا يستحقُّها، وهذا لا يُقالُ إلاّ على طريقِ الذم»[1].

والإنسانُ لا يكون جباراً متجبراً في الأرض إلاّ ليسدَّ نقْصَه وضعفَه، فيتكبَّر ويتجبَّر، ويتعالى وينتفش، ويظلمُ الآخرين ويحتقرُهم ويضطهدُهم.

و﴿عَصِيًّا﴾ صفةٌ مشبهة، بمعنى صاحب المعصية، والعصيُّ هو الجبار، فكلُّ إِنسانٍ جبارٍ متجبر، فهو عصيٌّ عاصٍ، لأَنَّ المعصيةَ مبنيةٌ على التكبرِ والاستعلاء.

---

(١) المفردات: ١٨٤.

وعندما ننظر في هذه الآياتِ الكريمةِ التي أَخبرتْ عن يحيى عليه السلام، فسوفَ نرى التناسبَ والتناسقَ والتقابلَ في الصفاتِ المذكورة لــــه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾.

آتى اللّهُ يَحيى أمريْن، وأَنعمَ عليه بنعمتيْن، وهما: الحَنانُ والزكاة.

ووَصَفَهُ بوصفيْن إِيجابيَّيْن، هما ثمرةٌ للحنان والزكاة، وهما: كان تقياً لله، وكان بَراً بوالديه.

ونفى عنه أَمريْن قبيحيْن، يتناقضانِ مع ما سبق، فلم يكن جَبّاراً ولا عصياً.

وهذه كلُها ثمرةٌ للحكمِ الذي آتاهُ اللّهُ إياه وهو صبي: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وهذا كلُّه تطبيقٌ وتنفيذٌ لأمْرِ الله له: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ . .﴾.

سلام على يحيى يوم ولادته وموته وبعثه:

وبعدما قَدَّمَتْ لنا الآياتُ مجموعةً طيبةً من صفاتِ يحيى العظيمة، عليه الصلاة والسلام، خَتمتْ ذلك بتقريرِ حقيقةِ السلام الرباني الذي غَمر يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٥].

وهذا خبرٌ من الله سبحانه عن السلام الذي أَضْفاه على يحيى.

و﴿وَسَلَٰمٌ﴾ نكرة، والتنكيرُ للتكثيرِ والتفخيمِ والتعظيم، أي أنَّ اللّهَ جعلَه مغموراً بالسلامِ المبارك في حياتِه كلِّها.

وأَبرزت الآيةُ السلامَ الذي تغشّاه في مواطنَ ثلاثة، هي بحاجةٍ إِلى السلام من الله، أكثرَ من غيرِها من المواطن.

﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾: أضفى اللّهُ عليه السلامَ يومَ ولادته، ولذلك لم يمسّه الشيطانُ بسوء.

﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾: أضفى اللّهُ عليه السلامَ والأمانَ يومَ موته، فجعله منَعَّماً في قبره، وعصَمَهُ من فتنةِ القبر، وأجاره من عذابِ القبر.

﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾: أَضفى اللّهُ عليه السلامَ والأمانَ يوم القيامة، فأَمَّنه من الفزعِ في ذلك اليوم، الذي يَفزعُ فيه الآخرون، وأَجارَه من عذابه.

قال ابنُ عطية: أوحشَ ما يكونُ الخلقُ في ثلاثةِ مواطن: يومَ وُلد، فيرى نفسَه خارجاً مما كان فيه. ويومَ يَموت، فيرى قوماً لم يكن عايَنَهم. ويوم يُبعث، فيرى نفسَه في محشرٍ عظيم. فأكرمَ اللّهُ يحيى عليه السلام، وخصَّه بالسلام عليه في هذه المواطن: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾[1].

[٧]

وفاة زكريا ويحيى عليهما السلام

لم يُخبِرْنا القرآنُ عن زكريا عليه السلام إلاّ أَنه كانَ نبياً رسولاً، وأَنه دعا اللّهَ طالِباً منه الولدَ الوارث، وأَنه كان إِماماً في قومه، وحوله مجموعةٌ من أَتْباعِه المؤمنين، وأَنه كان داعيةً يدعوهم إِلى الله تعالى.

ولم يَزِد الحديثُ الصحيحُ على ما ذكره القرآن إلاّ أَنه كان «نجاراً» يعملُ في النجارة، ويأكلُ من عمل يده.

وما سوى ذلك، مما يتعلقُ بحياةِ زكريا عليه السلام وقصته، مبهمٌ من «مبهمات القرآن»، لا نعرفُ عنه شيئاً.

لا نعرفُ ماذا جرى لزكريا عليه السلام بعدما وُلد ابنُه يحيى،

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٣.

وبعدما صارَ شاباً قوياً، وحكيماً نبياً. ولا نعرفُ كم عاشَ زكريا وزوجُه بعد حياةِ ابنِهما، ولا مكانَ إقامتهما، ولا تفاصيلَ ما جرى بين زكريا وبين بني إسرائيل.

لا نعرف كيف مات زكريا عليه السلام:

ووفاةُ زكريا عليه السلام من مبهماتِ القرآن، فلم يتحدث القرآنُ عن وفاتِه، ولم يَرِدْ حديثٌ صحيحٌ مرفوعٌ عن رسول الله ﷺ يبينُ كيفيةَ وفاته، فلا نعرفُ عن وفاته شيئاً.

وقد تحدثت الإسرائيلياتُ عن كيفيةِ وفاةِ زكريا عليه السلام، وعن لحاقِ اليهودِ الكافرين به ليقتلوه، وعن اختفائِه منهم في داخلِ شجرة، وبقاءِ طرفِ ثوبِه خارجاً بارزاً، وعن إرشادِ الشيطان اليهودَ إليه، ثم نشرِهم الشجرةَ بالمنشار، وقطعِ جسمِ زكريا قطعتين.

ولا نقولُ بهذه الإسرائيليات، ولا نرضى ذكْرَ معظمِ المفسرين والمؤرخين المسلمين لها، ولا نقبلُ أنْ نفسّرَ بها كلامَ الله، ولا نعتمدُها في الحديثِ عن وفاةِ نبي الله زكريا عليه السلام ولا نقولُ شيئاً في وفاةِ زكريا عليه السلام، فنقولُ بما قالَ به القرآن، ونسكتُ عما سكتَ عنه القرآن.

أي: لا نقول: قتلَ اليهودُ الكفارُ زكريا عليه السلام، فلا ندري هل ماتَ زكريّا مقتولاً على أيدي اليهود، أو ماتَ موتاً عادياً.

وليس معنى هذا أنْ ندافعَ عن اليهودِ المجرمين، أو أنْ نقومَ بتبرئتهم من قتلِ الأنبياء، فهم كفارٌ مجرمون سفاكون، وقد أَخبرَنا اللّهُ أَنهم قتلوا بعضَ الأنبياء، وهذا يقينٌ وصدق.

قالَ اللّهُ عن اليهود: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..﴾ [البقرة: ٦١].

وخاطبَ اللّهُ اليهودَ قائلاً لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

اليهودُ قتلةُ الأنبياء، وهذه حقيقةٌ قرآنيةٌ صادقة، ويكفيهم هذا جريمةً وشناعة، ويكفينا هذا لنكرهَهَم ونُبغضَهم ونُقاتلَهم.

أمّا تعيينُ الأَنبياءِ الذين قتلوهم، وتحديدُ أَسمائِهم وأعدادِهم وكيفياتِ قتلهم، فهذا الذي لم يذكُرْه القرآن، ولم يبيِّنْه حديثُ رسولِ الله ﷺ.

والخلاصةُ أننا نتوقفُ في حديثِ الإسرائيليات عن تفاصيلِ مقتل زكريا عليه السلام، ولا نقولُ شيئاً في وفاتِه عليه السلام، لسكوتِ القرآن والحديث الصحيح عن ذلك.

هذا عن زكريا ونهايتِه عليه السلام.

يحيى يأمر بني إسرائيل بخمس كلمات، وعيسى يشهد على ذلك:

أَمّا يحيى عليه السلام فقد كانَ معاصِراً لعيسى عليه السلام، أَدركَه وعاشَ معه.

وأَخبرَنا القرآنُ أنَّ يحيى صَدَّقَ عيسى عليه السلام: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ..﴾.

واشتركَ يحيى وعيسى عليهما السلام في الدعوةِ إلى الله، وفي نصحِ وإِرشادِ وتذكيرِ بني إِسرائيل.

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن موقفٍ من مواقفِ النبيَّيْن الكريميْن اشتركا فيه في الدعوةِ إلى الله.

روى الترمذيُّ وغيرُه عن الحارثِ الأشعري، رضي الله عنه، أَن رسولَ الله ﷺ قال: «إِن اللّهَ أَمَرَ يحيى بنَ زكريا بخمسِ كلمات، يعملُ بهن، ويأمرُ بني إِسرائيل يعملونَ بهن.

وإِنَّ عيسى ابنَ مريم قال له: إنَّ اللّهَ أَمَرَك بخمسِ كلمات، تعملُ بهن، وتأمرُ بَني إسرائيل يعملون بهنّ، فإِمّا أنْ تأمرهم، وإِمّا أنْ آمرهم!

قال: إنكَ إِنْ تسبقْني بهنّ خشيتُ أنْ أُعَذَّب، أَوْ يُخسفَ بي!

فجمعَ يحيى الناسَ في بيتِ المقدس، حتى امتلأ، وقعدَ الناسُ على الشرفات.

فوعظَهم قائلاً: إنَّ اللّهَ أمرني بخمسِ كلمات أَعملُ بهن، وآمُرُكم أنْ تعملوا بهنّ.

أُولاهن: أنْ تَعبدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً. وإنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بالله، كَمَثَلِ رجل، اشترى عبداً من خالصِ ماله، بذَهَب أَوْ وَرِق [فضة]، وقال: هذه داري، وهذا مالي، فاعملْ وأَدِّ إليَّ. فجعلَ يعمل، ويؤدّي إلى غيرِ سيده. فأيُّكم يسرُّه أنْ يكونَ عبدُه كذلك؟. وإنَّ اللّهَ خلقَكم ورزقَكم، فلا تُشركوا به شيئاً.

وآمُرُكم بالصلاة. فإذا صَليتُم فلا تلتفتوا.

وآمُرُكم بالصيام. وإنَّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رجلٍ معه صُرَّةٌ فيها مِسْك، ومعه عصابة، كلُّهم يعجبُه أنْ يجدَ ريحَها. وإنَّ الصيامَ أطيبُ عند الله من ريحِ المسك.

وآمُرُكم بالصدقة. وإنَّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رجلٍ أَسَرَهُ العدوّ، وقاموا إليه، فأَوثقوا يَدَه إلى عنقه، فقال: هل لكم أنْ أَفديَ نفسي منكم؟ فجعلَ يُعطي نفسَه القليلَ والكثيرَ ليفكَّ نفْسَه منهم.

وآمُرُكم بذكرِ اللّهِ كثيراً. وإنَّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رجلٍ طلبه العدوّ، سراعاً في إثره، حتى أَتى على حصنٍ حصين، فأحرزَ نفْسَه فيه. كذلك العبد، لا يُحرزُ نفسَه من الشيطانِ إلاّ بذكْر الله.

وقالَ رسولُ الله ﷺ: وأَنا آمُرُكم بخمسٍ أَمَرَني اللّهُ بهنّ: الجماعةِ، والسمعِ، والطاعةِ، والهجرةِ، والجهادِ في سبيلِ الله.

فمَنْ فارقَ الجماعةَ قيدَ شبر، خلعَ الإسلامَ من رأسه إلاّ أنْ يَرجع، ومَنْ دعا بدعوى الجاهليةِ فإنَّه من جِثِيِّ جهنم.

قيل: وإنْ صامَ وصلى؟

قال: وإنْ صامَ وصلّى، فادْعوا بدعوى الله، الذي سَمّاكم المسلمين المؤمنين عبادَ الله..»[1].

قدَّمَ لنا رسولُنا محمدٌ ﷺ من خلالِ هذا الحديثِ يحيى عليه السلام داعياً إلى الله، آمِراً بني إسرائيل بالمعروف، حيثُ أَمرهم بعبادةِ الله وحده، وبالصلاة، والصدقة، والصيام، وذكر الله. واستخدمَ ضربَ الأمثالِ ليوضِّحَ ما يأمرهم به، وهذا من فصاحتِه وعلمِه ونجاحِه في الدعوةِ إلى الله.

وكان عيسى عليه السلام شاهِداً على يحيى وهو يُبَلِّغُ قومَه هذه الأوامر، بل لعلَّه كانَ معه عندما دَعاهم إلى ذلك الاجتماعِ الكبيرِ الحاشدِ في بيتِ المقدس، حيث أَمرهم بما أَمرهُ اللّهُ به.

واللطيفُ أنَّ رسولَنا محمداً ﷺ أَضافَ على الأوامرِ الخمسةِ الصادرةِ عن يحيى عليه السلام خمسةً أُخرى، وأَمَرَنا نحنُ بها كلِّها، أيْ صِرْنا مأمورين بالأَوامرِ العشرة، باعتبارِها توجيهات وأوامرَ إسلامية: عبادة الله، والصلاة، والصدقة، والصيام، وذكر الله، والجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله.

وفاة يحيى من مبهمات القرآن التي لا نعرفها:

عاشَ يحيى عليه السلام حياتَه نبياً داعياً إلى الله سبحانه وتعالى، إلى أَنْ وافاهُ الأَجَل، وغادَرَ هذه الدنيا إلى الله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

ولم يَرِدْ في القرآنِ ولا في الحديثِ الصحيحِ كلامٌ عن كيفيةِ وفاةِ يحيى عليه السلام، فوفاتُه من «مبهمات القرآن»، التي لا نتعرضُ لها بتفصيلٍ أَو بيان.

وقد فصَّلت الإسرائيلياتُ كثيراً في وفاةِ يحيى عليه السلام،

---

(١) أخرجه الترمذي: ٢٨٦٣ و: ٢٨٦٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٦٧.

وأَخبرتْ تلك الإسرائيلياتُ أنَّ يحيى عليه السلام ماتَ مقتولاً، وتحدثَتْ عن أَسبابِ مقتلِه، وعن قصةِ الملكِ اليهودي الذي أَرادَ الزواجَ من ابنةِ أَخيه، المحرمَ في شريعتِهم، وقيامِ يحيى بالإنكارِ عليه وعلى ابنةِ أخيه، وغَضَبِ الملكِ اليهودي والفتاةِ على يحيى، وطلبِ تلك الفتاةِ قتلَ يحيى، وتنفيذِ الملكِ لطلبها، وأمْرِ جنودِه أنْ يُقَدِّموا لها رأسَ يحيى على طبقٍ من ذهب، وغضبِ اللّهِ عليهم، وإِيقاعِ المذبحةِ بهم!!

فصَّلت الإسرائيلياتُ كثيراً في مقتلِ يحيى عليه السلام على أَيدي الملكِ اليهودي، واستهوتْ هذه التفصيلاتُ المفسرين والمؤرخين، فأَوردوها في كتبهم.

ونحنُ نتوقفُ فيها، ولا نقولُ بها، لأنها لم تَرِدْ في القرآنِ الصريح، ولا في الحديثِ الصحيح، ونعتبرُ وفاتَه من مبهماتِ القرآن، كما فعَلنا مع الحديثِ عن وفاةِ أَبيه زكريا عليه السلام.

وليسَ هذا دفاعاً عن اليهود، أَو تبرئةً لهم، فهم كفارٌ مجرمون، قتلةُ أَنبياء، بدون تحديدٍ لأَسماءِ وأَعدادِ وكيفياتِ الأَنبياء الذين قتلوهم.

ثم أَلا يتعارضُ القولُ بقَتْلِ ملكِ اليهودِ ليحيى عليه السلام مع قولِ اللّهِ عنه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾؟!!

قد قررَ اللّهُ أَنه منحَ يحيى السلامَ في حياتِه، وركَّزَ على تحقيقِ السلام في ثلاثةِ مواطن: عندَ ميلادِه، وعند وفاتِه، وعند بعثِه حياً يومَ القيامة.

وهذا معناهُ أَنه نالَ السلامَ والأمنَ والأمانَ من الله في هذهِ المواطن، وأنَّ اللّهَ عصمَه فيها من الأَخطارِ والآفات.

فإذا كان اليهودُ الكافرون يريدونَ قتْلَه، فإنَّ اللّهَ سيحميهِ منهم، وسيمنحهُ السلامَ والأمنَ والأمان!!

وهذا ما حصلَ مع عيسى عليه السلام، فاللّهُ قد منحه السلامَ

والأمنَ والأمانَ في نفسِ المواطنِ الثلاثة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٣].

قررَ اللّهُ أنْ يمنحَ عيسى عليه السلامَ الأمنَ والأمانَ يومَ ولادتِه وموتِه وبعثِه، ولما أرادَ اليهودُ صلْبَه وقتْلَه، عصمَهُ الله، ومنحهُ الأمنَ والأمان، وحالَ بينهم وبينَ تحقيقِ مُرادِهم، ورَفَعَهُ إليه.

فإذا كان اللّهُ قد فعلَ هذا مع عيسى عليه السلام، فلماذا لا يكونُ فعلَه أيضاً معَ يحيى عليه السلام؟ بمعنى أنَّ اللّهَ حققَ له السلامَ والأمنَ والأمان يومَ يموت.

إننا نفهمُ مِن قولِ اللّهِ عن يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ أنه ماتَ موتاً عادياً، وأَنه ماتَ بسلامٍ وأمنٍ وأَمان، وأنَّ اللّهَ لم يُمَكِّنْ أَعداءَه من قتلِه وإيذائه، لأن هذا يتعارَضُ مع السلامِ والأمانِ الذي منحهُ اللّهُ إياه يومَ موته.

إنَّ الآيةَ المذكورةَ تشيرُ لنا أنَّ يحيى عليه السلام ماتَ موتاً عادياً، ماتَ بسلامٍ وأمان، وليس قتلاً على يدِ ملك اليهود، كما تذكُرُ الإسرائيلياتُ والروايات!!

هذا ما نفهمُه من الآية، ونردُّ به تلكَ الإسرائيليات. ونقررُ بعدَ هذا أنَّ وفاته من مبهماتِ القرآن التي لا سبيلَ إلى بيانِها. والله أعلم!!.

يحيى وعيسى سيدا شباب أهل الجنة واستقبالهما الرسول في السماء الثانية:

وقد أَشارَ رسولُ الله ﷺ إلى فضْلِ ومنزلةِ يحيى وزكريا ابْنَي الخالة، عليهما السلام. فروى الترمذيُّ عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «الحسنُ والحسينُ سَيِّدا شبابِ أَهلِ الجنة، إلاّ ابْنَي الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، وفاطمةُ سيدةُ نساءِ أهل الجنة، إلاّ ما كانَ من مريمَ بنت عمران..»[1].

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٧٦٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٦٨.

اعتبرَ رسولُ الله ﷺ يحيى وعيسى عليهما السلام سَيِّديْ شبابِ أَهل الجنة، وإِذا كان عيسى عليه السلام قد رُفِعَ إِلى السماء في سنّ الشباب، كما سيمرُّ مَعَنا، فيبدو أَنَّ يَحيى عليه السلام قد توفيَ وهو في سنِّ الشباب أيضاً، مما جعلَهما سَيِّدَيْ شبابِ أهلِ الجنة.

وقدْ أَخبرَنا رسولُنا ﷺ أَنه لما عُرِجَ به إِلى السماء ليلةَ المعراج شاهدَ ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام في استقبالِه في السماءِ الثانية.

روى مسلمٌ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه في حديثِ الإسراءِ والمعراج الطويل: «... ثم عَرَجَ بِنا إِلى السماءِ الثانية. فاستفْتَحَ جبريلُ عليه السلام.

فقيل: مَنْ أَنتَ؟

قال: جبريل.

قيل: ومَنْ معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد بُعِثَ إِليه؟

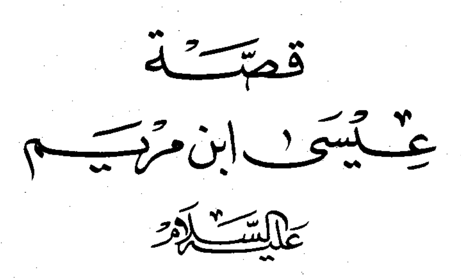
قال: قد بُعِثَ إِليه.

فَفُتح لنا، فإذا أَنا بابني الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، صلواتُ الله عليهما، فرحَّبا، ودَعَوَا لي بخير!»[1].

وهكذا كانَ زكريا ويحيى عليهما السلام من آخرِ أَنبياءِ بني إسرائيل، ولم يأْتِ نبيٌّ بعدَهما لبني إسرائيل إلاّ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وهو ما سنتحدثُ عن قصته في الفصلِ التالي إن شاء الله.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٢.


قصة
عيسى ابن مريم
عليه السلام

[١]

«مواضع ذكر عيسى عليه السلام وأمه في القرآن»:

وردَ اسمُ عيسى عليه السلام خمساً وعشرين مرةً في القرآن.

ووردَ اسمُ أُمِّه مريمَ رضي الله عنها أربعاً وثلاثين مرةً في القرآن. ثلاثاً وعشرين مرةً منها مقرونةً باسم عيسى: «عيسى ابن مريم»، وإحدى عشرةَ مرة مجردةً عن عيسى.

مواضع ذكر مريم في القرآن:

وردَ اسمُ مريمَ مجرداً عن عيسى عليه السلام في سورةِ آل عمران ستَّ مرات، أثناءَ الحديثِ عن ولادتِها وكفالةِ زكريا عليه السلام لها، ومخاطبةِ الملائكة لها، وتبشيرِها بعيسى عليه السلام.

ووردَ اسمُه مجرداً في سورةِ النساء مرتيْن، في سياقِ ذمِّ اليهود لكفرِهم واتهامِهم لمريم، وفي تقريرِ حقيقةِ كونِ عيسى كلمةَ الله، ألقاها إلى مريم.

وسورةُ مريم التي حملتْ اسمَها تحدثَتْ بالتفصيل عن قصةِ بشارتِها وحملِها لعيسى عليه السلام، وردَ اسمُها مجرداً مرتين فيها، في بدايةِ عرضِ قصتها، وعندما أَتَتْ قومَها تحملُ ابنَها، فاستغربوا ذلك منها، وأنكروه عليها.

ووردَ اسمُها في سورةِ التحريم مرةً واحدة، منسوبةً إلى أبيها: «مريم ابنة عمران»، في مقامِ الثناءِ عليها لإيمانِها وتصديقِها وقُنوتِها.

تحدثتْ سورةُ آل عمران عن بدايةِ قصةِ مريم رضي الله عنها، منذُ أنْ حملَتْ أُمُّها بها، ونذرَتْ أنْ يكونَ ما في بطنِها لله، وتَقَبَّلَها اللّهُ ورعاها، وقد اختلفَ الصالحون في من يكفلُها، وهي الطفلةُ الصغيرة، فألقوا أقلامَهم مقترعين، فكانت من نصيبِ زكريا عليه السلام زوج أختها، وتكفَّلَ زكريا بها، ونشأتْ فتاةً مؤمنةً صالحة في كفالته،

وكانَ اللّهُ يكرمُها برزقٍ مستمرٍّ عندها، وسألَها زكريا عن مصدره، وسط استغرابه، فأجابتْ بأنَّه من عندِ الله، فدعا ربه أنْ يرزقَه غلاماً.

وردَ هذا في آيات: [٣٥ ـ ٣٨] من السورة.

ثم تحدثتْ آياتُ السورةِ عن تبشيرِ الملائكة مريمَ رضي الله عنها، بأنَّ اللّهَ قد اصطفاها على نساءِ العالمين، وعليها أنْ تقنتَ وتركعَ وتسجدَ لله. وبشرتْها الملائكةُ أيضاً بأن اللّهَ سيهبُها ابنَها عيسى عليه السلام وسيجعلُه نبياً رسولاً، ولما استغربتْ مريمُ من ذلك، أَخبرتْها الملائكةُ بأنَّ هذا من أمرِ الله، واللّهُ يخلقُ ما يشاء.

ورد هذا في آيات: [٤٢ ـ ٤٨] من السورة.

وتحدثتْ سورةُ مريمَ عن حملِ مريمَ بعيسى عليه السلام، بدأت الآياتُ بلقطةِ ابتعادِ مريم عن أَهلها نحو الشرق، فلما كانتْ بعيدةً عنهم وحيدة، أرسلَ اللّهُ لها جبريلَ عليه السلام، فتمثلَ أَمامَها رجلاً بشراً سوياً، وصارحها بأنه رسولٌ من الله ليهبَها غلاماً زكياً، فاستغربتْ وسألتْ عن كيفيةِ إنجابِها الولدَ وهي الفتاةُ العذراءُ العفيفة، فأخبرَهَا أَنَّ هذا أمر الله.

ونفخَ جبريلُ فيها، فحملتْ بعيسى، ووضعَتْه تحتَ نخلة، وَوَجَّهَها إِلى أكلِ الرطبِ وشربِ الماء والصيامِ عن الكلام، وحملتْ ابنَها وذهبتْ إِلى قومها، ففوجئوا بابنها، ولما سألوها عنه أَشارتْ إِليه فالجوابُ عنده، فازدادَ استغرابُهم، وبلغَتْ دهشتُهم ذروتَها عندما سمعوهُ يتكلمُ ويقدمُ نفسَه إِليهم، ويخبرُهم أنه عبدُ الله، وأنه سيكون رسولاً.

ورد هذا في آيات: [١٦ ـ ٣٤] من السورة.

وحديثُ القرآن عن مريم رضي الله عنها في السور الأخرى إشارةٌ سريعة، فصلبُ قصةِ مريم كان في سورتي آل عمران ومريم.

مواضع ذكر عيسى في القرآن:

أما عيسى ابنُ مريم عليه السلام فقد كانَ الحديثُ عن قصته في سور: مريم وآل عمران والمائدة والنساء والصف والحديد والزخرف.

في سورةِ مريم تداخلَ الحديثُ عنه مع الحديث عن أُمِّه رضي الله عنها، وكَأَنَّ القصتين قصةٌ واحدة: الآيات: [١٦ ـ ٣٤]. وعقبت الآياتُ على ذلك بتقريرِ وحدانيةِ الله، وأَنه ليس له صاحبةٌ ولا ولد. الآيات: [٣٤ ـ ٤٠].

وفي سورةِ آل عمران وردَ اسمُ عيسى عليه السلام خمسَ مرات، وتداخلتْ قصتُه مع قصةِ أُمه أيضاً، حيث بشَّرت الملائكةُ مريمَ بعيسى، وذكرتْ بعضَ صفاتِ عيسى، ورسالتَه إلى بني إسرائيل، وبعضَ آياتِه ومعجزاته لهم، ولما كَذَّبَه بنو إسرائيل آمَنَ به أَتْباعُه الحواريون، ولما كان عيسى في خطرٍ مباشر، عصمهُ اللّهُ منه، ورفعه إليه. الآيات: [٤٨ ـ ٥٧].

وانتقلتْ آياتُ السورةِ بعد ذلك إلى جدال النصارى، وإقامةِ الحجة عليهم، وتعليمِ الرسولِ ﷺ ما يقولُه لهم في محاجَّتِه لهم، لإفحامِهم وإبطال كفرهم. الآيات: [٥٨ ـ ٧٤].

وتحدثتْ آياتُ سورةِ النساء عن سوءِ موقفِ اليهود من عيسى عليه السلام، حيث افتروا على أُمه مريم، وأَرادوا قَتْلَ عيسى عليه السلام، وصرحت الآياتُ بأن اللّهَ عصمه منهم، وأَنهم ما قتلوه ولا صلبوه، وإنما شُبه لهم، وقد رَفعه اللّهُ إليه، وسيؤمنُ أهلُ الكتاب به قبلَ موته، وأثنت الآياتُ على الراسخين في العلم من مؤمني أهل الكتاب، المتبعين لمحمدٍ ﷺ. وردَ هذا في الآيات: [١٥٦ ـ ١٦٢]. وقد وردَ اسمُ عيسى في السورة ثلاثَ مرات.

أما آياتُ سورةِ المائدة فقد تكفلتْ بنقاشِ النصارى بشأن عيسى عليه السلام في مواضعَ عديدةٍ من السورة.

وفي حديثِها عن قصة عيسى عليه السلام عرضَتْ مشهدَ المائدةِ التي أَنزلَها اللّهُ عليه وعلى الحواريين. في الآيات: [١١٢ ـ ١١٥].

وعرضتْ آياتُ السورةِ مشهداً من مشاهدِ يوم القيامة، يُذَكِّرُ اللّهُ فيه عيسى عليه السلام بفضْلِه عليه، ويتبرأُ فيه عيسى من عبادةِ النصارى له. في الآيات: [١٠٩ ـ ١١١. و١١٦ ـ ١٢٠].

وقد وردَ اسمُ عيسى في السورة ستَّ مرات.

وأَشارتْ آياتُ سورةِ الصفِ إِلى عيسى عليه السلام مرتين. مرة في تبليغِه الدعوةَ لبني إسرائيل وتكذيبهم له، في الآية (٦). ومرةً في انحيازِ الحواريين له ونصرتِهم لدينه، في الآية الأخيرة (١٤). وقد وردَ اسمُ عيسى فيها مرتين.

وأَشارتْ سورةُ الحديد إِلى رسالةِ عيسى عليه السلام، وإِلى ابتداعِ الرهبان الرهبانيةَ من بعده. في آية (٢٧).

وأشارتْ سورةُ الزخرف إِلى نبوةِ وعبوديةِ عيسى عليه السلام، وردَّتْ على النصارى في عبادتهم له. في الآيات: [٥٧ ـ ٦٥].

وما سوى هذا كان حديثُ بعضِ السور مجردَ ذكْرِ اسمِ عيسى عليه السلام ضمن الأنبياء، أو ذكر شريعته ورسالته.

وردَ اسمهُ في سورة البقرة ثلاثَ مرات، وفي سورةِ الأنعام مرة، وفي سورة الأحزاب مرة، وفي سورة الشورى مرة.

من خلالِ هذا العرضِ الموجزِ نرى أنَّ القرآنَ لم يتحدثْ عن عيسى عليه السلام إِلاّ من خلالِ حملِ أمه به وولادتِها له، وهذا في سورتيْ آل عمران ومريم.

ومن خلالِ دعوتِه لبني إسرائيل وسوءِ استقبالِهم له، حيثُ لم يتبعه إلا الحواريون، وهذا في سورِ آل عمران، والمائدة والصف.

ومن خلال تخطيطِ اليهودِ لقتلِه، لكنَّ اللّهَ حماهُ منهم، وهذا في سورة النساء.

ومن خلالِ عرضِ مشهدٍ لساحةِ العرضِ في الآخرة يتبرأ فيه عيسى من عابديه النصارى، وهذا في سورة المائدة.

وما سوى هذا هو نقاشٌ للنصارى، وإِبطالٌ لكفرِهم بالله،

وتأليهِهم لعيسى عليه السلام، وإثباتُ أَنه عبدُ الله ورسوله، وكان النقاشُ والجدالُ في سورتي آل عمران والمائدة على وجه الخصوص.

هذا وقد أوردَ القرآنُ وصفَ عيسى عليه السلام أحياناً، وهو «المسيح». وأحياناً يوردُ «المسيحَ» مجرداً، وأحياناً يوردُه مقروناً باسمِ أمه مريم: «المسيح ابن مريم».

ووردتْ كلمة «المسيح» إِحدى عشرة مرة في القرآن: في آل عمران مرة، وفي النساء ثلاثَ مرات، وفي المائدة خمسَ مرات، وفي التوبة مرتين.

هذه هي مواضعُ ذكْرِ عيسى عليه السلام وأمّه في القرآن.

[٢]

من هم آل عمران؟ ولماذا ذكروا في الآية؟

مريمُ هي ابنةُ عمران، بنصِّ آياتِ القرآن: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا..﴾ [مريم: ١٢].

ووردَ اسمُ «عمران» ثلاثَ مراتٍ في القرآن:

الأولى: «آلُ عمران» في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

الثانية: امرأةُ عمران والدِ مريم، في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا..﴾ [آل عمران: ٣٥].

الثالثة: ابنةُ عمران، في قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

فمن هم «آل عمران»، الذين وردَ ذكرُهم في السورة الثالثة ـ حسب ترتيبِ المصحف ـ التي حملت اسمَهم «سورة آل عمران»؟

من هو عمران الأول؟ ومن هو عمران الثاني؟:

هناك شخصان من بني إسرائيل، كلٌّ منهما اسمه «عمران»، وبينهما فترةٌ زمنيةٌ طويلة تمتدُّ عدةَ قرون.

عمران الأول: هو عمرانُ والدُ نبيِّ الله موسى ونبيِّ الله هارون عليهما السلام.

والدليلُ على أنَّ والدَ موسى اسمُه عمران ما أَخرجَه الحاكم عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «موسى بنُ عمران صَفِيُّ الله..»[1].

وما أَخرجَه مسلمٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي على موسى بنِ عمران عليه السلام...»[2].

فَنَسَبَ رسولُنا ﷺ موسى عليه السلام إِلى أَبيه عمران.

أَشارَ القرآنُ إِلى أُسرةِ عمرانَ الأول: امرأتُه وتصرفُها عندما أَنجبتْ ابنَها موسى، وابنتُه التي أَمرتْها بمراقبةِ تابوت أَخيها موسى، وهارونُ شقيق موسى. فهؤلاء الخمسةُ الصالحون هم أَعضاءُ أسرةِ عمران. ولا ندري هل كان لعمران أَولادٌ غيرُ المذكورين في القرآن أم لا؟

عمران الثاني: هو والدُ مريم رضي الله عنها.

وأَشارَ القرآنُ إِلى حملِ امرأتِه بمريم، ونَذْرِها لله، كما أَشارَ إِلى شقيقٍ لمريم اسمه «هارون»، وهو غيرُ هارون النبي شقيقِ موسى عليه السلام، وسنتحدثُ عنه فيما بعد إِنْ شاءَ الله.

وذَكَرَ رسولُ الله ﷺ أَنَّ عيسى ويحيى عليهما السلام هما أَبناءُ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢:٥٧٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٢٦.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٦٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٢.

الخالة، كما تحدثْنا في الفصل السابق، وهذا معناه أنَّ زكريا عليه السلام كان متزوجاً أُختَ مريم.

وهذا معناه أنَّ أسرةَ عمران الثاني المذكورةَ في القرآنِ والحديثِ كانت مكونةً من خمسةِ أشخاص أيضاً. عَرَفْنا أسماءَ ثلاثةٍ منهم، وهم عمرانُ الأب، وهارونُ الابن، ومريمُ الابنة، أما اسمُ امرأةِ عمران وابنتِه الأخرى فهذا من مبهمات القرآن.

وإذا كان عمرانُ الأول قد عاشَ في مصر زمنَ الفراعنة، في بدايةِ تاريخِ بني إسرائيل، فإنَّ عمرانَ الثاني قد عاشَ في بيتِ المقدس في آخرِ تاريخِ بني إسرائيل، وبينهما عدةُ قرون.

آل عمران هم أسرة عمران الثاني والد مريم:

من هم آلُ عمران الذين اصطفاهم اللّهُ على العالمين؟ هل هم آلُ عمران الأولِ والدِ موسى أم هم آلُ عمران الثاني والدِ مريم؟

ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أنَّ «آل عمران» هم ذريةُ موسى وهارون ابنيْ عمران الأول عليهما السلام، اللذين ظهرَ منهما معظمُ أنبياءِ بني إسرائيل.

وذهبَ آخرونَ إلى أنَّ «آلَ عمران» هم مريمُ وابنها عليه السلام، وأمُّها وأخوها رضي الله عنهم.

وقد أَخبرَنا اللّهُ أَنه اصطفى آدَم ونوحاً وآلَ إبراهيم وآلَ عمران. ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

قالَ الإمامُ ابن كثير في التفسير: «يُخبرُ اللّهُ أَنه اختارَ هذه البيوتَ على سائرِ أهلِ الأرض:

فاصطفى آدمَ عليه السلام، خلَقَه بيده، ونفخَ فيه من روحه،

وأَسجدَ له ملائكتَه، وعلَّمَه أَسماءَ كلِّ شيء، وأَسكنه الجنة، ثم أَهبطَه منها لِما له في ذلك من الحكمة.

واصطفى نوحاً عليه السلام، وجعلَه أولَ رسولٍ بعثَه إِلى أهلِ الأرض. . .

واصطفى آلَ إِبراهيم، ومنهم سيدُ البشرِ خاتمُ الأنبياءِ على الإطلاق، محمدٌ ﷺ.

واصطفى آلَ عمران، والمرادُ بعمران هذا هو والدُ مريم ابنة عمران، أُمُّ عيسى عليه السلام[1].

والراجحُ أنَّ آلَ عمران المذكورين هنا هم آلُ عمران والدِ مريم رضي الله عنها.

ولو كانوا هم آلَ عمران والدِ موسى عليه السلام لكانَ في الآيةِ تكرار، لأنَّ أَنبياءَ بني إِسرائيل الذين هم من ذريةِ موسى وهارون داخلون في قوله: «آل إبراهيم» لأنَّ إِبراهيمَ هو أَبو الأنبياء عليه السلام.

وأَخبرَ اللّهُ أنَّ هؤلاء المفضَّلين على العالمين ذريةٌ بعضُها من بعض، أي أنَّ السلسلةَ متصلةٌ في هؤلاء، والموكبَ الكريمَ مستمرٌّ فيهم، فكانوا ذريةً طيبةً مؤمنة صالحة، بعضُهم يتناسلُ من بعض.

وآلُ عمران هم أُسرةُ عمران. وقد علمْنا قبلَ قليل أنَّ عمران أَنجبَ ابناً وابنتين، الابنُ هو «هارون»، ولم نعرفْ عنه شيئاً، والابنتان هما: مريم وأُختُها امرأةُ زكريا عليه السلام.

حكمة ذكر تفضيل الأربعة في الآية:

والسؤال الآن: ما حكمةُ ذكْرِ المذكورين في هذه الآية: ﴿ءَادَمَ

---

(١) تفسير ابن كثير ١:٣٣٩.

﴿وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾؟ ولماذا ذُكِرَ آدمُ ونوحٌ باسميهما، بينما ذُكِرَ إبراهيمُ وعمرانُ بآلهما؟

ذُكِرَ آدمُ عليه السلام لأَنه أَبو البشر، الذي خلَقَه اللّهُ بيده، بدون أَبٍ ولا أم، وناسبَ أنْ تبدأ الآيةُ به لأَنه أولُ مخلوقٍ من البشر.

وذُكِرَ نوحٌ عليه السلام لأَنه أولُ رسول، أرسلَه اللّهُ إلى البشر، بنصِّ حديثِ الشفاعة، الذي أوردْناه عدةَ مرات، ولأَنه أبو البشريةِ الثاني أيضاً، حيث كان الطوفانُ عاماً في عهده، وأَغرقَ اللّهُ جميعَ الكفار، ولم يُبقِ حياً إلاّ نوحاً وأَتباعَه المؤمنين. ولهذا ذكَره اللّهُ ثانياً في الآية.

ولما جاءَ إلى إبراهيمَ عليه السلام ذَكَرَ تفضيلَ آلِ إبراهيم، لأَنه أَبو الأنبياء عليهم السلام، ومعظمُ الأنبياءِ المذكورين في القرآن هم من ذريته، فهم آله.

وأَساسُ آلِ إبراهيم هو إبراهيمُ نفسُه عليه السلام، وتفضيلُهم يعني تفضيلَ أَبيهم إبراهيم.

وأَشرفُ آلِ إبراهيم هو نبيُّنا محمد ﷺ، الذي هو أَفضلُ وأَكرمُ وأَشرفُ البشر.

وذِكْرُ «آلِ إبراهيم» في الآية معناه ذِكْرُ الأنبياءِ والمرسلين، فهم يمثلونَ الأنبياءَ بشكل عام، سواء كانوا من آل إبراهيم أم لم يكونوا.

انتهاء آل عمران بحفيديه يحيى وعيسى:

وإذا عَرَفْنا حكمةَ ذكرِ تفضيلِ آلِ إبراهيم باعتبارهم أنبياء، فما حكمةُ ذكر «آل عمران» في الآية؟

عرفْنا أنَّ لعمرانَ حفيديْن اثنين فقط، من جهةِ البنت.

حفيدُه الأول: يحيى عليه السلام، وهو ابنُ بنتِه الأُولى، التي لا نعرف اسمها.

وحفيدُه الثاني: عيسى عليه السلام، وهو ابنُ بنتِه الثانية مريم رضي الله عنها.

أما ابنُه هارونُ، خالُ يحيى وعيسى عليهما السلام، فلا نَعرفُ عنه شيئاً، ولعلَّه لم يتزوج ولم يُنجبْ ذرية! نقولُ هذا من بابِ الظن والتخمين.

ومعلومٌ أنَّ ابنتَه الأُولى لم تُنجبْ إلاّ يحيى عليه السلام، ومعلومٌ أن يحيى عليه السلام كان «حَصوراً» لم يتزوج!

وابنتُه الثانية أَنجبتْ عيسى عليه السلام بأمرِ الله، بدونِ زواج، وعيسى عليه السلام لم يتزوَّجْ أيضاً.

ومعنى هذا أنَّ آل عمران توقَّفوا عند حفيدَيْن يحيى وعيسى عليهما السلام، لأنهما لم يتزوجا ليكونَ لهما نسلٌ وذرية.

ثم إنَّ كُلًّا من الحفيدين الكريمين عليهما السلام ولدَ بطريقةٍ معجزة خارقة.

فيحيى عليه السلام كانتْ ولادتُه معجزةً كما مَرَّ مَعنا، ورزقَ اللّهُ أَبويْه به بعدما يئسا من الإنجاب، وبَلَغَا من الكبر عتيّا.

وعيسى عليه السلام كانت ولادتُه خارقةً باهرة، أَنجبتْه أُمُّه بدونِ زواج، وهي العفيفةُ البتول، لأنه كان بأمْرٍ مباشرٍ من الله!

هؤلاء هم «آلُ عمران»، وهذه هي أَجواءُ ولادةِ كلٍّ واحدٍ من حفيدَيْه عليهما السلام، وهي ولادةٌ خاصةٌ بطريقِ المعجزة.

ولأجلِ هذا كلِّه ذُكِرَ «آلُ عمران»، وقُرنوا مع آلِ إبراهيم، ومع آدم ونوح، عليهم السلام. والله أعلم.

[٣]

ولادة مريم وكفالة زكريا لها

امرأة عمران تنذر ما في بطنها لله:

أَشارَتْ آياتُ سورةِ آل عمران إلى نَذْرِ امرأةِ عمران ما في

بطنِها لله، وإلى أنَّ حَمْلَهَا كان أُنثى، وأَنها لما وضعَتْها سَمَّتْها مريم، واستلَمها وكفلَها زكريا:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٣٧].

«إِذْ»: ظرفٌ للزمانِ الماضي في محلِّ نصبِ مفعولٍ به لفعلٍ مقدَّر. التقدير: اذكُرْ وقْتَ قولِ امرأةِ عمران.

والخطابُ المقدَّرُ للرسولِ ﷺ، وجاءَ الخطابُ له صريحاً في سورةِ مريم، يأمُره اللّهُ بذكرِ وتذكُّرِ مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ..﴾ [مريم: ١٦].

لما كانت امرأةُ عمران ـ اسمُها من مبهماتِ القرآن ـ حاملاً، نذرَتْ أنْ يكونَ ما في بطنها محرَّراً خالِصاً لله: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾.

و«محرَّراً» اسمُ مفعولٍ من التحرير، وهو حالٌ منصوب، وصاحبُ الحالِ هو «ما» الاسم الموصول: «ما في بطني»، الذي يعودُ على الجنينِ الذي تَحمِلُه في بطنها.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن الحرية: «والحُرّ: خلافُ العبد.. والحريةُ ضربان:

الأول: مَنْ لم يَجْرِ عليه حكمُ الشيء. نحوُ قوله تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ..﴾ [البقرة: ١٧٨].

والثاني: مَنْ لم تتملكه الصفاتُ الذميمة، من الحرصِ والشَّرَهِ على المقتنيات الدنيوية. وإلى العبوديةِ التي تُضادُّ ذلك أَشارَ النبيُّ ﷺ بقوله: «تَعِسَ عبدُ الدينار، تَعِسَ عبدُ الدرهم...».

وقال الشاعر:

وَرِقُّ ذَوي الأَطْـــمـــاعِ رِقٌّ مُـــخَـــلَّـــدُ

وقيل: عبدُ الشهوةِ أذلُّ مِن عبدِ الرق.

والتحرير: جعلُ الإنسانِ حراً.

ومن الحريةِ التي تضادُّ الرقَّ قولُه تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ..﴾ [النساء: ٩٢].

ومن الحريةِ الثانية قولُه تعالى: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾.

قالَ الشعبي: «مُحَرَّراً»: مُخْلَصاً للعبادة.

وقالَ مجاهد: «محرراً»: خادِماً للبيعة [وهي: الكنيسة].

وقالَ جعفر الصادق: «محرراً»: مُعْتَقاً من أَمْرِ الدنيا..

وكلُّها أقوالٌ متقاربة[١].

أَرادت امرأةُ عمران أنْ يكونَ ما في بطنها مَنذوراً لله، موقوفاً على عبادةِ الله، خالِصاً لدينِ الله، محرَّراً من كلِّ قيدٍ يقيدُه في هذه الحياة.

إنَّ الناسَ أَحرارٌ من حيثُ الرق، ليسوا أرقّاء ولا عبيداً، ولكن ليس هذا كلَّ شيء.

إنَّ الحريةَ الحقيقيةَ للإنسان هي تحرُّرُهُ من قيودِ الذلِّ والاستعباد

---

(١) المفردات: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

المعنوي، هي أنْ لا تُقيدَهُ أَهواؤُه وشهواتُه وملذاتُه، وأنْ لا تستعبدَهُ الدنيا وما فيها، وأنْ لا ينشغلَ بما فيها عمّا أوجبَهُ اللّهُ عليه وكلّفه به، وأنْ يستعليَ على كلِّ القيودِ التي تُقيدُه، وتُعيقُ عبادتَه.

إنْ كان المؤمنُ هكذا فهو الحُرُّ المحَرَّرُ الخالصُ لله، وإنْ لم يكنْ كذلك فهو عبدُ الدنيا والشهوة، وأسيرُ الهوى والضرورة!

وطلبتْ من اللّهِ أنْ يتقبَّلَ منها نَذْرَها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ونَدعو إِلى ملاحظةِ التناسقِ بين الآيتيْن: ٣٤ و٣٥، في خاتمتيهما:

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿.. فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

حيثُ خُتمتْ كلُّ آيةٍ بنفسِ الاسميْن من أَسماءِ الله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

كان حملها أنثى:

ولعلَّ امرأةَ عمران كانتْ تأمَلُ أنْ يكونَ ما في بطنها ذَكَراً، ليَصلحَ أنْ يكونَ منذوراً لله.

وسياقُ القصةِ يُشيرُ إِلى أنها أَنجبتْ أُنثى من قبل، وهي التي تزوَّجها زكريا عليه السلام لما كبرت. وأَنجبتْ ذَكَراً، وهو هارون.

ولكن لم يكن الأَمْرُ كما توقعت امرأةُ عمران، فلما وضعَتْ حمْلَها، كانت أُنثى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ..﴾.

وفي الآيةِ جملتانِ معترضتان، أُدخلتا ضمنَ كلام امرأةِ عمران: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ..﴾.

الجملةُ الأولى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: والهدفُ من هذه الجملةِ التأكيدُ على علمِ اللّهِ بما وضعَتْ، وعلمِ اللّهِ بما في بطنِها

عندما نذرَتْ نذرها، وعلمِ اللّهِ بما ستحملُ وتضعُ قبلَ أنْ تحملَ وتضع.

إنَّ اللّهَ هو الذي قَدَّرَ أنْ يرزقَها أُنثى، لحكمةٍ يريدُها، وهو العالِمُ بذلك، وعِلْمُ اللّهِ شاملٌ لكلِّ شيء، محيطٌ بكلِّ شيء، يَعلمُ الأشياءَ قبلَ وقوعها، ويوجدُها وفقَ علمه بها.

فمعنى جملة ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾: اللّهُ أعلمُ بالمولودِ الذي وضعَتْه، وأنه أُنثى، وأنه جاءَ على غيرِ ما توقعَتْه وأَرادَتْه.

ليس الذكر كالأنثى في الشدة، ودلالة معناهما اللغوي على ذلك:

والجملةُ الثانية: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ وهي أيضاً ليستْ من كلامِ امرأةِ عمران، وإنما هي تقريرٌ لحقيقةٍ قاطعة، أرادَ اللهُ بيانَها في هذا الموطن.

والراجحُ أنَّ هذه الجملةَ خاصةٌ بالسياق الذي وردَتْ فيه، وهو نَذْرُ ما بطنِ في امرأةِ عمران للعبادةِ والخدمةِ والوقف.

والمعنى: ليس الذكرُ كالأنثى في هذا المجال، لأنَّ خدمةَ بيتِ الله، والتفرغَ لعبادةِ الله في بيتِ الله، لا يتساوى فيه الذَّكَرُ والأنثى، فهو يحتاجُ إلى مزيدٍ من الجهد، والقوةِ والجَلَد، والتحملِ والصبر، يبذلُ فيه صاحبُه كثيراً من الطاقةِ البدنية.

وليس الذكَرُ كَالأنثى في هذا المجال، فالأُنثى قد لا تَقْدِرُ على أداءِ ذلك بصورةٍ جيدة، فالذكَرُ أكثرُ قوةً وطاقةً وجلداً من الأنثى.

ولا نَرى أنْ تُعممَ هذه الجملة: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ لتشملَ جميعَ مجالاتِ الحياة بين الرجال والنساء، ولا نَرى استنطاقَ هذه الجملةِ لتدلَّ على التفضيلِ المطلقِ للرجالِ على النساء في كلِّ شيء.

ولا يوجَدُ نصٌّ صريحٌ في تفضيلِ الذكورِ على الإناثِ تفضيلاً ذكورياً، الذكَرُ أَفضلُ باعتباره ذكراً من الأنثى باعتبارها أنثى، لا يوجَدُ

نصٌّ على ذلك، بل القرآنُ صريحٌ في اعتمادِ التقوى أَساسَ التفضيلِ والتفاضلِ والتكريم: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ..﴾ [الحجرات: ١٣].

أَكرمكُم عند اللّهِ أَتقاكم، سواء كان ذكراً أم أنثى!

واللطيفُ في المعنى اللغويِّ لكلٍّ من الذكرِ والأنثى أنه قائمٌ على أَساسِ التفريقِ المعنوي بينهما.

إنَّ معنى «الذَّكَر» قائمٌ على الشدةِ والقوةِ واليبوسة.

وردَ في المعجم الوسيط: «الذَّكَرُ خلافُ الأنثى. وعضوُ التناسلِ منه.

والذَّكَرُ من الحديد: أَيْبَسُهُ وأَشَدُّهُ وأَجْوَدُه.

ويقال: رجلٌ ذَكَر: قويٌّ شجاعٌ أَبيّ. و: مطرٌ ذكَر: وابلٌ شديد. و: قولٌ ذَكَر: صلبٌ متين»[1].

أَما معنى «الأنثى» فهو قائمٌ على اللُّيونةِ والنعومة.

وردَ في المعجمِ الوسيطِ أيضاً: «أَنُثَ أُنوثَة: لانَ.. و: أَنَّثَ في الأمر: لانَ ولم يتشدّد.

والأُنثى: خلافُ الذكَرِ من كل شيء.

يقال: حديدٌ أَينث: غيرُ صَلب. و: سيفٌ أَنيثٌ: لَيِّن. و: مكانٌ أَنيث: سهلٌ مِنْبات. و: رَجُلٌ أَنيث: لَيِّنُ الكلام، متكسِّرُ الأَعضاء..[2].

إن اللّهَ حكيمٌ في خلقِ كلٍّ من الذكرِ والأُنثى، فلم يجعلْهما

---

(١) المعجم الوسيط: ٣١٣.

(٢) المرجع السابق.

مُتماثلانِ في كلِّ شيء. وفي موضوعِ الشدةِ والصلابةِ جَعَلَ الذكَرَ أقوى من الأُنثى.

الذَّكَرُ هو الأشدُّ والأمتنُ والأَقوى والأصلبُ، ليؤدّي رسالتَه في الحياة.

والأُنثى هي الأكثرُ ليونةً وسهولة، هي المتكسِّرَةُ الرقيقةُ اللطيفة، لتؤدي وظيفتَها، وتكونَ مطلوبةً مرغوباً فيها.

وصدَقَ اللّهُ القائل: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾.

حكمة التصريح باسم مريم في القرآن:

ولما وضعت امرأةُ عمران ابنتَها سَمَّتْها «مريم»: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

والراجحُ أَنَّ «مريم» اسمُ علمٍ أعجمي، فلا نبحثُ عن مادةِ اشتقاقٍ له في اللغةِ العربية.

و«مريمُ» اسمُ الأُنثى الوحيدُ المذكورُ في القرآن. أمّا النساءُ الأخرياتُ فإنهنَّ يُذْكَرْنَ بألقابهنَّ وكُناهُنَّ، فيقال: «أم موسى» و«أخت موسى» و«امرأة فرعون» و«امرأة نوح»، وهكذا.

قالَ الإمامُ الراغب: «مريم: اسمٌ أَعجمي، اسمُ أُمِّ عيسى عليه السلام».

وأَوردَ محققُ كتابِ «مفردات ألفاظ القرآن» الأستاذُ صفوانُ داوودي، فائدةً عن حكمةِ ذكْرِ «مريم» باسمِها الصريح في القرآن: «قال التلمساني: لم يَذكر اللّهُ امرأةً في القرآنِ باسمِها إلاّ مريم، ذكَرَها في نحوِ ثلاثينَ موضعاً.

والحكمةُ فيه أنَّ الملوكَ والأشرافَ لا يَذكرونَ حرائرَ زوجاتِهم بأسمائهن. بل يُكَنُّونَ عنهم بالأهلِ والعيالِ ونحوه، فإذا ذَكَروا الإِماءَ لم يُكَنّوا، ولم يحتشِموا عن التصريح. فلذا صَرَّحَ باسمها، إِشارةٌ إِلى أنها

أَمَةٌ من إماءِ الله وابنِها عبدٌ من عبيدِ الله، رَدّاً على اليهودِ الذين قالوا في عيسى عليه السلام وأُمّه ما قالوا...»[1].

الله أعاذ مريم وابنها من الشيطان:

وأَعاذت امرأةُ عمران ابنتَها مريمَ وذريتَها من الشيطان: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

لجأت هذه المرأةُ المؤمنةُ إلى الله، ليحميَ ويُعيذَ ابنتَها من شرِّ الشيطانِ الرجيم. وهذا من قوةِ إيمانِها بالله، واعتمادِها عليه.

وعندما ننظرُ في الآياتِ التي سجلَتْ دعاءَ امرأةِ عمران، فإننا ندركُ منها صفاءَ روحِها، وعظمةَ إيمانِها، وحرارةَ اتصالِها بالله، يظهرُ ذلك من قولِها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾. ومن قولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

ولْنتأمَّلْ جمالَ ذكْرِ حرفِ «إنّ» الذي هو حرفُ توكيدٍ ونصبٍ خمسَ مرات في الآيات، وفي كلِّ مرة يزدادُ المعنى توكيداً، ويزدادُ السياقُ جَمالاً: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ...﴾ و﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ و﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ و﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ و﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

و«ذريتها» محصورةٌ في ابنها عيسى عليه السلام، لأنَّ ظاهرَ السياقِ القرآني على أنَّ مريمَ لم تتزوج، وأَنها أنجبتْ عيسى بأمرٍ من الله، وعيسى عليه السلام رُفعَ إلى السماءِ ولم يتزوج، فليس له ذريةٌ ولا نسل.

وقد استجابَ اللّهُ دعاءَ امرأةِ عمران فأعاذَ مريمَ من الشيطانِ الرجيم، وأَعاذَ ذريتَها ـ ابنَها عيسى ـ من الشيطانِ الرجيم أيضاً.

---

(١) المفردات: ٧٦٦ حاشية.

لم يكن للشيطانِ سبيلٌ لمريم وابنِها عيسى، ولم يكن له سلطانٌ عليهما، فحفظهما اللّهُ من وساوسه ونزغاته.

بل إنه لم يمسّ مريمَ حين ولادتها، ولم يمسّ عيسى أيضاً حين ولادته. وصرَّحَ بهذه الحقيقةِ رسولُنا ﷺ.

بكاء المولود حين ولادته بسبب طعن الشيطان له:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «ما مِنْ بَني آدمَ مولودٌ إلاّ يمسُّه الشيطانُ حين يولَد، فيستهلُّ صارخاً من مسِّ الشيطان، غيرَ مريمَ وابنِها».

ثم قرأَ أَبو هريرة قول الله: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1].

يُفسِّرُ لنا رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث سرَّ بكاءِ المولودِ عندما يخرجُ من بطنِ أمه، ويُبينُ أنه بسببِ مَسِّ الشيطانِ له، وطعْنِه في بدنه! ولا بدَّ أنْ نأخذَ كلامَه بالتصديق، وليسَ بالشكِّ والريب، فإننا نعلمُ أَنَّ العداوةَ بين الإنسان والشيطان متأصلة، وأنَّ الشيطانَ حريصٌ على إيذاءِ الإنسان وإبعادِه عن الله، وإغوائِه وإضلالِه، وأنَّ اللّهَ جعلَ له بعضَ القدرةِ على ذلك، امتحاناً من الله للإنسان.

ولا يَتعارضُ هذا الحديثُ الصحيح مع أيِّ تعليلٍ ولا تفسيرٍ علميٍّ يقيني، لسِرّ بكاءِ الطفل عند خروجه من بطنِ أُمه، باعتباره سَبباً آخر يُضافُ إلى مَسِّ الشيطانِ له وطعْنِه في بدنه.

أمّا مريمُ وابنُها عيسى عليه السلام فإن اللّهُ قد حَماهُما من هذهِ الطعنةِ الشيطانية، بفضلِ دعاءِ أُمِّها الصالحة: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٣١. ومسلم برقم: ٢٣٦٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧١.

ولما وُلدَ عيسى عليه السلام، وأرادَ الشيطانُ أنْ يمسَّه ويطعَنَه، حَماهُ اللّهُ منه، فلم تُصبْهُ طعنةُ الشيطان.

روى أَحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كلُّ بني آدمَ يَطعنُ الشيطانُ في جنبيه بإصبعِه حينَ يولَد، غيرَ عيسى ابنِ مريم، ذهبَ يَطعن، فطعنَ في الحجاب»[1].

ولعلَّ المرادَ بالحجابِ هنا ملابسُ عيسى عليه السلام التي حَجبَتْ عنه طعنةَ الشيطان، أو ساترٌ ماديٌّ منعَ وصولَ طعنةِ الشيطانِ إليه..

إخبار الله عن تنازع العابدين في كفالة مريم دليل على النبوة:

وبعدَما وضعت امرأةُ عمران ابنتَها مريم، قامتْ بالوفاءِ بنذرها، وأرسلَتْها إلى مكانِ العبادة.

ولما شاهدَ العابدونَ الطفلةَ تَنازعوها واختلفوا فيها، فكلُّ واحدٍ منهم يريدُ أنْ ينالَ شرفَ كفالَتِها والإشرافِ عليها، واختصَموا في ذلك، ولم يجدوا حَلاًّ إلاّ بالقرعة.

وقد أَخبرَ اللّهُ محمداً ﷺ في القرآنِ بهذه المعلومة، واعتبرَها دليلاً على النبوة والوحي، وإثباتِ أنَّ القرآنَ كلامُ الله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

«ذلك»: إشارةٌ إلى مجموعِ الأَخبارِ الواردةِ في الآياتِ السابقة، مِن نَذْرِ امرأةِ عمران لما في بطنِها لِلّه، إلى كفالةِ زكريا لمريم، إلى بشارتِه بيحيى، إلى كلامِ الملائكة لمريم.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: هذه الأَخبار مِنْ أَنباءِ الغيب، واعتبرَتْها الآيةُ غيباً لأَنها وقعَتْ في الماضي، وحدثَتْ قبلَ قرونٍ من

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢:٥٢٣. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٨١.

حياةِ الرسول ﷺ، وبما أنه لم يكنْ موجوداً عند حدوثها فهي غيبٌ بالنسبةِ له. واللّهُ هو الذي أوحى بهذه الأنباءِ لرسولِه ﷺ، وأخبرَه بها، وهذا يُثبتُ نبوةَ محمدٍ ﷺ.

ووجْهُ دلالتِها على النبوةِ والوحي أنَّ أهلَ الكتاب من اليهودِ والنصارى يعلمونَ أنَّ محمداً ﷺ أُمّيّ، لا يكتبُ ولا يَقرأ، وهذا معناه أنه لم يعلمْ بهذه الأخبارِ من الكتب، ولم يصاحِبْ أحبارَ ورهبانَ أهلِ الكتاب، فكيفَ علمَ بهذه الأخبارِ الخفية التي لا يَعلمُها إلاّ عددٌ قليلٌ من الأَحبارِ والرهبان؟

إنَّ اللّهَ هو الذي أَوحى إِليه بها، فهو رسولُ الله ﷺ.

وقالَ اللّهُ لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

وتشيرُ هذه الآيةُ إِشارةً موجزةً مبهمةً إِلى اختصامِ واختلافِ وتنازعِ العابدين في المعبدِ في كفالةِ الطفلةِ الصغيرة مريم، فلم يتفقوا على واحدٍ منهم، لذلك كان لا بدَّ من القرعة.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾: ما كنتَ يا محمدُ عند هؤلاء العابدين الصالحين وفيهم نبيُّ اللّهِ زكريا عليه السلام، لتعلمَ تنازُعهم واقتراَعهم على كفالةِ مريم، ولكنك علمتَ ذلك بإِعلامِ وإِخبارِ اللّهِ لك.

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾: «إِذْ» ظرفُ زمانٍ للماضي بمعنى «حين». و«أقلامهم»: سِهامُهم التي اقترعوا بها على كفالةِ مريم.

اقترع العابدون بسهامهم لكفالة مريم:

قال مجاهد: «يُلقون أَقلامهم»: هم زكريا عليه السلام وأَصحابُه، استَهَموا بأَقلامِهم على مريم، حين دخلتْ عليهم.

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾: اقترعوا وأَلقوا سهامَهم وأَقلامَهم ليَنظروا

ويَعرفوا، فمَنْ خرجَ سهمُه فهو الذي كفَّلَه اللّهُ مريم، وهو الأحقُّ والأَولى بها.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: لم تكنْ يا محمدُ عندهم وهم يختصمون أَثناءَ التنازعِ والاختلافِ على كفالتها، وهذه الجملةُ تأكيدٌ لما قبلها، لإِثباتِ الوحيِ والنبوة.

كما أنَّ هذه الجملةَ تُشيرُ إِلى أنَّ اختلافَهم في الكفالة كان شديداً، حيثُ أَدّى إِلى اختصامِهم ونقاشِهم وجدالِهم فيما بينهم، وارتفاعِ أَصواتِهم في عرضِ حجةِ ودليلِ كلِّ واحدٍ منهم.

وكان هذا الاختصامُ والاختلافُ قبلَ الاتفاقِ على القرعة، أمّا بعدَ اقتراعِهم، وخروجِ سهمِ زكريا عليه السلام فقد زالَ الاختلافُ والتنازعُ بينهم.

ولم يُفَصِّل القرآنُ في كيفيةِ إِلقائِهم أَقلامَهم، بل جعلَها مبهمة، ولا نُحاولُ الوقوفَ على تفاصيلِ ذلك، لعدمِ وجودِ دليلٍ عليه، وعدمِ تحققِ فائدةٍ منه.

وليس المرادُ بالأَقلام هنا الأَقلامُ التي يُكتبُ بها، وإِنما السهامُ التي تُستخدمُ في القرعة.

قالَ الإمامُ الراغب: «أَصْلُ القَلْمِ: القَصُّ من الشيءِ الصلب، كالظُّفر، وكعْبِ الرمح والقَصَب...

وخُصَّ القَلَمُ بما يكتبُ به، وبالقَدَحِ الذي يُضربُ به، وجمعه أَقْلام. ومعنى «يلقون أقلامهم»: يُلقون قِداحَهم[1].

إنَّ هذه الآيةَ توبخُ أهلَ الكتابِ أيضاً، حيث كَذَّبوا رسولَ الله ﷺ، فكيفَ يكذبونه، وهو يقدِّمُ لهم هذه الأَنباء، التي لم يشهدْها، ولم يكنْ مع زكريا وأَصحابِه عندما اختصموا واستَهَمُوا وأَلقوا

(١) المفردات: ٦٨٣.

أَقلامَهم، ولم يَقرأ هذه الأَنباءَ في كتب، لأَنَّه أُمِّيٌّ لا يَقرأ، ولأنَّ هذه المعلومةَ لم تَرِدْ في كتبِ أهلِ الكتاب؟...[1].

الله كفل مريم زكريا:

قدَّرَ اللّهُ أنْ يتكفَّلَ زكريا مريم، فأَخرجَ سَهْمَهُ في القرعة، ورضيَ العابدون الآخَرون بهذا، لأَنَّهم مؤمنون صالحون، يَعلمونَ أنَّ اللّهَ هو الذي قدَّرَ هذا وأرادَه.

وهكذا كانت الطفلةُ في كفالةِ زكريا عليه السلام.

ومن حكمةِ اللّهِ الحكيم في هذا أنَّ زكريا هو الأحقُّ والأَوْلى بكفالتها، لأنه أَقربُ الناسِ إِليها، فهو زوجُ أُختها، أي أنَّ مريمَ ستكونُ عندَ أُختها الأكبرِ منها، وأُخْتُها حريصةٌ عليها، فكأَنَّها عندَ أُمِّها!.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ..﴾.

والمعنى أنَّ اللّهَ استجابَ دعاءَ أُمِّها الصالحة، فتقبَّلَ الطفلةَ مريم بقَبولٍ حسن، وأَنبتها نباتاً حسناً.

وردَ في تهذيبِنا لتفسيرِ الإمامِ الطبري عن القَبول والنباتِ ما يلي:

«قَبول»: هو مصدرُ الفعل الثلاثي «قَبِلَ». بينما مصدرُ الفعلِ المضعَّفِ «تَقَبَّلَ» هو: «تَقَبُّلٌ».

كذلك: «نَباتاً» مصدر الفعل الثلاثي «نَبَتَ». بينما مصدرُ الفعلِ الرباعي «أَنْبَتَ» هو «إِنْبات».

وقد ذَكرت الآيةُ «قَبول» و«نَبات» مصدرَيْن للفعلَيْن «تَقَبَّل» و«أَنبت».

مع أنَّ مصدرَيهما هما «تَقَبُّلٌ» و«إِنْبات».

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٦٥ ـ ٢٦٨.

والعربُ يأتونَ أَحياناً بالمصادرِ على أُصولِ الأفعالِ الثلاثية، فيقولون: تكلمَ فلانٌ كلاماً، والأصْلُ أنْ يقولوا: تكلَّمَ تكلُّماً.

وللاتيان بمصدرِ الثلاثي «قَبول» و«نَبات» للفعلِ غيرِ الثلاثي: «تَقَبَّلَ» و«أَنْبَتَ» توجيهٌ آخر، ليسَ هذا موضعَ تقريره.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ قراءتان:

الأُولى: قراءةُ عاصم وحمزة والكسائي: «كَفَّلَها زكريا» بتشديدِ الفاء، وإِسنادِ الفعلِ إلى الله. فاللّهُ هو الذي جعلَ زكريا كافلاً لها.

وفاعلُ «كَفَّلَها» يعودُ على الله. والهاءُ في الفعل في محلِّ نصبِ مفعولٍ به أول. و«زكريا» مفعولٌ به ثان منصوب. والمعنى: كَفَّلَ اللّهُ مريمَ زكريا.

الثانية: قراءةُ نافع وابنِ كثير وابنِ عامر وأبي عمرو: «وَكَفَلَها زكريا». بتخفيفِ الفاء، وإِسنادِ الفعلِ إلى زكريا.

وفاعلُ «كَفَلَها» هو «زكريا» المؤخَّر. والهاءُ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به مقدَّم. والمعنى: كَفَلَ زكريا مريم(١).

جعلَ اللّهُ زكريا كافلاً لمريم، وهو النبيُّ الكريمُ عليه الصلاة والسلام، لأنَّ اللّهَ يُعِدُّها لأَمْرٍ عظيم، ولهذا عاشَتْ مريمُ طفولَتَها وشبابَها عند زكريا عليه السلام، واقتبسَتْ منه العلمَ والمعرفة، واقتدَتْ به في العبادةِ والذكر، واستفادَتْ منه الخُلُقَ والسلوك، فنشأَتْ نشأةً إِيمانيةً صالحة، وكانت عابدةً ذاكرةً زاهدة، مقبلةً على الله، متصلةً به سبحانه.

ومضت السنواتُ ومريمُ في كفالةِ زكريا، حتى صارتْ فتاةً بالغةً واعيةً ناضجة، وهي مقبلةٌ على عبادتِها واتصالِها بالله وذكْرِها له.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

كرامة لمريم برزق الله لها وهي في المحراب:

وقد أكرمَها اللّهُ إكراماً، حيثُ كان يرزقُها رزقاً خاصّاً، وهي عابدةٌ معتكفةٌ في المحراب، ورأى زكريا عليه السلام ذلك: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وكلمةُ «كلما» تدلُّ على التكرار، أي أنَّ الرزقَ كان يأتي مريم وهي في المحرابِ باستمرار، بدونِ كَدٍّ ولا سعيٍ ولا كسبٍ منها، فهي في المحراب، متفرغةٌ فيه للعبادةِ والذكرِ والصلاة والمناجاة، واللّهُ يكرمُها بتقديمِ الرزقِ لها بخارقةٍ ليست مألوفةً ولا معروفة.

وكلَّما دخلَ عليها زكريا المحرابَ يجدُ عندها ذلك الرزق، وهو يعلمُ أنه لم يقدِّمْه هو لَها، وهو المتكفلُ بتقديم الطعام لها، فيتعجبُ من ذلك ويسألُها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟: أي مِنْ أيِّ مصدَرٍ ووجْهٍ جاءك هذا الرزق؟

إنه يعلمُ أن هذا الرزقَ لم يأْتِها من عندِ الناس، وسيكونُ من عندِ الله، وسؤالُه ليسمعَ الجوابَ منها، وهو عالمٌ به.

فتجيبه بصراحةٍ قائلة: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. أي: اللّهُ هو الذي ساقَ لها الرزق، وأوصلَه إليها وهي في المحراب، بدون سعيٍ ولا تحصيلٍ منها.

قالَ الحسنُ البصري: كان زكريّا إذا دخلَ على مريمَ المحراب، وجدَ عندها رزقاً مِن السماء، مِن الله، ليسَ من عندِ الناس، ولو أنَّ زكريا كانَ يعلمُ أنَّ ذلك الرزقَ من عنده لما سألَها عنه![1].

وعقَّبَ القرآنُ على جوابِ مريم بالتذكيرِ بحقيقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٥٥.

فهذه الجملةُ ليست من تمام جوابِ مريم، بل هي خبرٌ من الله، يخبرنا فيه أَنه يسوقُ الرزقَ إلى مَنْ يشاءُ مِن خلقه، بغيرِ حسابٍ ولا إِحصاءٍ ولا عَدٍّ يَحسبُه عليه.

إنَّ اللَّهَ لا يُحصي ولا يحاسبُ عبْدَه على ما يرزقُه إِياه، لأنَّ إخراجَ ذلك الرزقَ لا يُنقصُ خزائنَه سبحانه. فالذي يحسبُ ويحاسبُ ويعدُّ ويُحصي هو الذي يخشى النقصانَ من رزقه![1].

كرامات الأولياء غير معجزات الأنبياء:

وتقديمُ الرزقِ إلى مريمَ وهي في المحراب إثباتٌ للكرامة التي ساقها اللّهُ لها، لأَنه كانَ بطريقةٍ خارقةٍ غيرِ مألوفة. ومريمُ ليستْ نبيةً لنعتبرَ هذه الخارقةَ معجزة، فالمعجزاتُ مختصةٌ بالأَنبياء، وإِذا وقعت الخوارقُ من اللّهِ لغيرِ الأنبياء تُسمى كرامات.

وهذا دليلٌ قرآنيٌّ على إمكانيةِ الكرامةِ للأولياء، بل على وقوعِها وحدوثِها، وهناكَ أدلةٌ قرآنيةٌ أُخرى على إثباتِ الكرامة للأَولياءِ الصالحين، كما حصلَ لأصحابِ الكهف الصالحين.

ونحنُ نُثبتُ الكراماتِ للأولياء، كما نُثبتُ المعجزاتِ للأنبياء، ونُؤمنُ بحصولِها لهم، وأَنَّها مِن فعْلِ اللّهِ تكريماً لهم، وشَرْطُنا في قَبولها ذِكْرُها في آيةٍ صريحة، أَو في حديثٍ صحيح مرفوع. ولا نلتفتُ إلى كلامِ الذين يُنكرونَ الكراماتِ للأولياء، لأَنه يتعارضُ مع كلامِ اللّهِ وكلامِ رسوله ﷺ!

آتى الله مريم كل ما تحتاجه من الرزق:

وكلمةُ «رزقاً» في قوله: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ نكرةٌ مُنَوَّنَة، وهذا التنكيرُ والتنوينُ يدلُّ على التعميم والشمول، وهو مقصود. فالرزقُ الذي كان يأتيها به اللّهُ يشملُ جميعَ ما تحتاجُه من الطعام والمأكولات.

---

(١) المرجع السابق: ٢٥٦.

كما أنَّ هذا التنكيرَ يدلُّ على الإبهام، حيثُ لم يذكُرْ شيئاً من أَصنافِ الرزقِ المقدَّمِ لها، وهو يَدْعونا إلى عدمِ الخوضِ في تحديدِ أَصنافِ ذلك الرزق، من اللحومِ والخضارِ والفواكهِ والمأكولات والمشروبات، لأنَّ هذا لا دليلَ عليه، ولا فائدةَ منه، فَلْنُبْقِ الكلمةَ «رزقاً» على إبهامِها اللطيفِ الجميل!.

وعندما رأى زكريا عليه السلام إكرامَ اللّهِ لمريمَ بهذه الكرامةِ الخارقة، رغبَ هو في تكريمِ اللّهِ له بمعجزةٍ خارقة، فطلبَ من اللّهِ أنْ يرزقَهُ بغلامٍ وارث، فاستجابَ اللّهُ له.

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٨ ـ ٤٠].

وقد تكلمنا عن هذه الآيات عند حديثنا عن قصة زكريا ويحيى عليهما السلام.

[٤]

اصطفاء مريم على النساء وما ترتب عليه

الملائكة تخبر مريم باصطفاء الله لها:

أَخبرت الملائكةُ مريمَ رضي الله عنها بأنَّ اللّهَ اصطفاها وفضَّلَها على نساءِ العالمين، وطالَبَتْها بالصلاةِ والعبادة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣].

«إذْ» ظرفٌ للزمانِ الماضي، في محلِّ نصبِ مفعولٍ به لفعلٍ محذوف، تقديره: اذكُرْ إذْ قالت الملائكة. أي: اذكُرْ وقتَ قولِ الملائكة لمريم.

وهذا التذكيرُ لرسول الله ﷺ، ولكلِّ مسلم من بعده، ليتذكَّرَ قصةَ مريم واصطفائِها وتطهيرها، وقيامِها بعبادة الله وشكره.

أَرسلَ اللّهُ ملائكةً لتخبرَ مريمَ باصطفائها، كما أرسلَ ملائكةً من قبلُ لزكريا لتبشِّرَه بيحيى عليهما السلام: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ..﴾ [آل عمران: ٣٩].

ولا غرابةَ في خطابِ الملائكةِ لمريم، مع أنها ليستْ نبية، لأنَّ هذا كانَ بأمْرِ الله، إنَّ اللّهَ يرسلُ الملائكةَ لتخاطبَ الأنبياء، وهذا معروف، وقد يرسلُ ملائكةً لتخاطبَ صالحين وصالحات، كما خاطبت امرأةَ إبراهيمَ عليه السلام، وأَزالت استغرابَها من حملِها بإسحاق وهي عجوزٌ عقيم.

المهمُّ أَنَّ مريمَ رضي الله عنها رأتْ أَمامَها ملائكة، ولعلَّها رأَتْهم بعدما تَحَوَّلوا من صورتِهم الملائكيةِ إلى صورةٍ بشرية.

ولم تُبين الآيةُ عددَ الملائكةِ الذين خاطبوها، ولم تَذْكُرْ أسماءَهم، فهذا من مبهماتِ القرآن الذي لا نخوضُ فيه.

أخبرت الملائكةُ مريمَ باصطفاءِ الله لها وتطهيرِها واصطفائها على نساء العالمين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

معنى «اصطفاك»: اختارَك واجْتباك لطاعته، وخصَّك لكرامته.

ومعنى «طهرك»: طَهَّرَ بدنك من الرِّيَبِ والأَدناس والأَرجاس التي قد تكونُ في أَبدانِ بعضِ النساء.

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: فضَّلَك على نساءِ العالَمين في زمانك.

وإخبارُها باصطفاءِ الله لها وتطهيرِها وتفضيلِها على نساء العالمين تمهيدٌ للأمر بعبادتِها وقنوتِها وطاعتها: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقيامُها بالعبادةِ والركوع والسجود والصلاة والقنوت شكرٌ منها لله الذي اصطفاها واختارها، فهي تُقابلُ فضْلَ اللّهِ عليها بطاعته وعبادته.

كما أنَّ قيامَها بذلك تهيئةٌ وإعدادٌ لتلقّي أَمْرِ الله، حيثُ سيحقِّقُ فيها إرادتَه، ويجعلُها تنجبُ ولداً مباشرة.

توجيه الاصطفاءين من الله لمريم:

واصطفاءُ اللّهِ لمريم ناتجٌ عن اصطفائِه لآل عمران:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ..﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

وبَيَّنّا سابقاً أنَّ «آل عمران» هم: أَبوها وأمها وأخوها وأختها، وهي معهم. فهم خمسة أشخاص.

أي أنَّ اللّهَ اصطفى مريم مرتيْن:

مرةً باعتبارها ابنةَ عمران، فهي واحدةٌ من آلِ عمران، وهذا من الاصطفاءِ العامّ لآلِ عمران، باعتبارِها واحدةً من آل عمران.

ومرةً باعتبارِها مريم التي يُعدُّها اللّهُ لولادةِ ابنٍ بدونِ أَب.

والاصطفاءُ الثاني هو المرادُ بقول الملائكة لها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ...﴾.

وقد ذُكِرَ الاصطفاءُ الثاني الخاصُّ بها مرتيْن في الآية: ﴿ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الاصطفاءُ الأول: بمعنى الاجتباءِ والانتقاء. فاللّهُ اجتبى مريمَ وانتقاها من بينِ النساء، وأَخَذَها من بينهم، وجعلَها محلاً لتحقيقِ أَمره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ..﴾.

والاصطفاءُ الثاني: بمعنى التفضيل، فاللّهُ فَضَّلَ مريمَ على نساء العالمين.

والاصطفاءُ الثاني ثمرةٌ للاصطفاء الأول، ونتيجةٌ له، فعندما اجتبى اللّهُ مريمَ واختارَها من بين نساءِ العالمين، فقد فضَّلَها على باقي نساءِ العالمين.

فلا تكرارَ في الحقيقةِ في الآية، لأنَّ الاصطفاءَ في المرة الثانية ليس بمعنى الاصطفاءِ في المرة الأولى، بل هو ثمرةٌ له.

ولذلك لم تَرِد في المرةِ الأولى النساء، ولم يُذْكرْ حرفُ «على»، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ فقط.

بينما ذُكِرَ حرفُ «على» والنساءُ المفضَّلُ عليهن في المرة الثانية: ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

والاصطفاءُ مشتقٌّ من الصَّفاء. قال الإمام الراغب: «أصْلُ الصفاء: خلوصُ الشيءِ من الشَّوْب. ومنه: الصَّفا، للحجارةِ الصافية.

والاصطفاءُ: تناولُ صفوِ الشيء. كما أنَّ الاختيارَ تناولُ خَيْرِه..

واصطفاءُ الله بعضَ عبادِه، قد يكونُ بإيجادِه إيّاه صافياً عن الشَّوْبِ الموجودِ في غيره. وقد يكونُ باختيارِه وبحكمِه، وإنْ لم يَتَعَرَّ ذلك من الأول.

واصطفيتُ كذا على كذا أي: اخترتُه عليه..»[1].

اصطفى اللّهُ مريمَ وانتقاها من بينِ النساء، ونَشَّأها نشأةً حسنة، وأَنبتها نباتاً حسناً، وأسبغَ عليها نِعَمَهُ وتوفيقَه ورعايتَه، وأَلهمَ أُمَّها أنْ تنذرَها له وهي في بطنها، ليجعلَها خالصةً محررةً له، وهيأَ لها الحياة

(١) المفردات: ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

والعيشَ تحت كنفِ ورعايةِ نبيٍّ كريم هو زكريا عليه السلام، وقدَّمَ لها الرزقَ المنوَّعَ الشاملَ وهي في المحراب تكريماً لها.

ولم تتوفَّرْ هذه الأمورُ لأيِّ امرأةٍ غيرِها، مهما بلغَتْ من الصلاحِ والتقوى، وهذا هو الاصطفاءُ الأول لها، القائمُ على الانتقاءِ والاجتباء.

وبما أنَّ اللّهَ اصطفاها وانتقاها، فقد صفّاها وخَلَّصَها من الشوائب، وطهَّرَها من الأدناس والأرجاس: «وطهرك».

واصطفاها اللّهُ على نساءِ العالمين وفضَّلَها عليهن جميعاً في إنجابها الولدَ بدون أب، حيث خصَّها وحدَها بهذه الآيةِ الباهرة، والمعجزةِ الخارقة.

شهادة القرآن بطهارة مريم وتعليق سيد قطب:

وورودُ هذه الشهادةِ لمريم في القرآن، مع أنَّ الرسولَ ﷺ كان يخوضُ معركةً فكريةً شديدةً مع النصارى، دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، ومظهرٌ من مظاهرِ الإنصافِ والعدل في الإسلام.

قالَ سيد قطب: «والإشارةُ إلى الطهرِ هنا إشارةٌ ذاتُ مغزى. وذلك لِما لابسَ مولدَ عيسى عليه السلام من شبهات، لم يَتورع اليهودُ أنْ يُلصقوها بمريمَ الطاهرة، معتمدين على أنَّ هذا المولدَ لا مِثالَ له في عالم الناس، فيزعموا أنَّ وراءَه سرّاً لا يُشَرِّفُ.. قَبَّحهم اللّهُ!!.

وهنا تظهرُ عظمةُ هذا الدين، ويَتبينُ مصدرُه عن يقين.

فها هو ذا محمدٌ ﷺ، رسولُ الإسلامِ الذي يَلقى من أهلِ الكتاب ـ ومنهم النصارى ـ ما يلقى من التكذيبِ والعنتِ والجدلِ والشبهات..

ها هو ذا يُحَدِّثُ عن ربِّه بحقيقةِ مريم العظيمة، وتفضيلِها على «نساء العالمين»، بهذا الإطلاقِ الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزّون بمريم، ويتخذونَ من تعظيمِها مبرراً لعدمِ إيمانهم بمحمدٍ وبالدين الجديد!

أيُّ صدق؟ وأيةُ عظمة؟ وأيةُ دلالةٍ على مصدر هذا الدين، وصدقِ صاحبه الأمين!

إنه يتلقى «الحقّ» من ربِّه، عن مريم وعن عيسى عليه السلام، فيعلنُ هذا الحق، في هذا المجال، ولو لم يكنْ رسولاً من اللّهِ الحقِّ ما أَظهرَ هذا القولَ في هذا المجالِ بحال!»[1].

أحاديث في تفضيل مريم ورجاحة عقلها:

وبما أنَّ اللّهَ اصطفى مريم على نساءِ العالمين، فقد فضَّلَها عليهن، وجعلَها من خيرهن، وأَخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن فضلِها وخيريتها، وأَنها ليستْ وحدَها في ذلك، وإِنما معها نساءٌ فاضلاتٌ مؤمنات.

روى البخاريُّ ومسلم عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «خَيْرُ نسائِها مريمُ ابنةُ عمران، وخيرُ نسائِها خديجةُ بنتُ خويلد..»[2].

والضميرُ في «نسائِها» يعودُ على الجنة، أي: خيرُ نساءِ الجنة مريمُ وخديجةُ رضي الله عنهما.

وذِكْرُهما من بابِ التمثيل وليس من باب الحصر، فهناكَ حديثٌ آخر ذَكَرَ أربعَ نساء، هنَّ من خيرِ نساءِ الجنة.

فقد روى أحمدُ والحاكم وغيرهما عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: «خَطَّ رسولُ الله ﷺ في الأرضِ أَربعةَ خطوط، فقال: أَتدرون ما هذا؟

قالوا: اللّهُ ورسولُه أَعلم.

فقالَ عليه الصلاة والسلام: أَفضلُ نساءِ أَهل الجنة: خديجةُ بنت

---

(١) في ظلال القرآن ١:٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٣٢. ومسلم برقم: ٢٤٣٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧٤.

خويلد، وفاطمةُ بنت محمد، ومريمُ بنت عمران، وآسيةُ بنت مزاحم، امرأة فرعون»[1].

وقد شهدَ رسولُ الله ﷺ لمريمَ بكمالِها ورجاحةِ عقلها. فروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: «كَمُلَ من الرجال كثير. ولم يكملْ من النساءِ إلاّ آسيةُ امرأةُ فرعون، ومريمُ ابنة عمران، وإنَّ فضلَ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ على سائر الطعام..»[2].

كملَ عقلُ مريم لأنّ اللّهَ أَجرى لها خارقةً في ولادتها عيسى.

وكملَ عقلُ آسيةَ بنتِ مزاحم امرأةِ فرعون، لأنها اختارت الإيمانَ بالله، رغمَ أَنها امرأةٌ لأظلم حاكم، وأعتى كافر، الذي ادعى الألوهية والربوبية.

ولعائشةَ فضْلٌ على باقي النساء كفضْلِ الثريد على باقي الطعام، والثريدُ هو الخبزُ يُقَطَّعُ ويُفَتَّت، ثم يُسكبُ عليه اللحمُ بالمرق.

إذنْ فَضَّلَ اللّهُ مريمَ على نساءِ العالمين، وجعَلَها من خيرِ وأفضلِ نساءِ العالمين، وهي خامسةُ أَربعِ نساءٍ ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ فَضْلَهُنَّ على باقي النساءِ المؤمنات: آسيةُ بنتَ مزاحم، ومريمُ ابنة عمران، وخديجةُ بنت خويلد، وفاطمةُ بنت محمد، وعائشةُ بنت أبي بكر، رضي الله عنهن جميعاً.

قنوت مريم وسجودها وركوعها مع الراكعين:

ماذا ترتَّبَ على اصطفاءِ مريم واختيارها؟

عليها أنْ تقابلَ هذا بالشكر، وشكرُها يكونُ بالإكثارِ من القنوت والعبادة. ولهذا قالَتْ لها الملائكة: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ١:٢٩٣. والحاكم ٢:٥٩٤ ـ ٥٩٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤١١. ومسلم برقم: ٢٤٣١. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧٦.

والقنوتُ هو الطاعةُ مع الخشوع، والاستمرارُ على ذلك، والإخلاصُ في طاعةِ الله والخضوع له.

والسجودُ والركوعُ معروفان، باعتبارِهما ركنَيْن من أركانِ الصلاة.

وقُدِّمَ السجودُ على الركوع في الآية: ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

وحكمةُ تقديمِه على الركوع أَنه هو الأنسبُ مع القنوت.

فالقُنوت: «هو لزومُ الطاعةِ مع الخضوع» ـ كما قالَ الإمامُ الراغب[1] ـ وهذا يناسبُه ذكْرُ السجودِ بعده، لأنَّ السجودَ حركةٌ عملية تمثلُ غايةَ القنوت، وذروةَ الخضوعِ والخشوع.

فالإنسانُ عندما يَسجد، ويضعُ جبهتَه على الأرض، ويُناجي ربَّه بخشوع، يكونُ قانتاً خاضعاً خاشعاً.

والملاحَظُ أنَّ التعبيرَ جاءَ بصيغةِ ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾. فعبَّرَ بجمعِ المذكَّرِ السالم، ولم يُعبر بجمعِ المؤنث، فلم يقل «مع الراكعات»، مع أنَّ مريمَ أُنثى رضي الله عنها.

وهذا مثلُ قولِه تعالى في الثناء على مريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]. ولم يقل «من القانتات».

ولعلَّ ذكْرَ القانتين والراكعين بصيغةِ المذكَّرِ من باب التغليب، حيث غَلَّبَ القانتين والراكعين على القانتات والراكعات.

ولعلَّ هذا يتفقُ مع الحياةِ التي عاشَتْها مريم، رضي الله عنها، عندما كانَتْ في كفالةِ زكريا عليه السلام، ومع العابدين القانتين الراكعين من الصالحين.

---

(١) المفردات: ٦٨٤.

ولعلَّ هذا يتناسبُ مع حياتِها الخاصة رضي الله عنها، عندما أَنجبتْ ابنَها عيسى عليه السلام من غيرِ أب، وحيثُ لم تقترن برجل، ولم تُمارسْ حياتَها باعتبارِها امرأةً وزوجاً لرجل.

[٥]

جبريل يبشر مريم بعيسى

كانَ إِخبارُ الملائكةِ مريمَ باصطفاءِ اللّهِ لها وتفضيلِها على نساءِ العالمين تمهيداً لإِخبارِها أَنها ستنجبُ ولداً بأمر الله.

ولذلك بعثَ اللّهُ الملائكةَ إِلى مريمَ مرةً ثانية، لتبشرَها بذلك الولدِ المعجزة، وكان هذا بعدَ فترةٍ من الإِخبارِ الأول، اللّهُ أعلمُ بمدتها.

المراد بالملائكة جبريل وحده:

قال الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٨].

«إِذْ»: ظرفٌ لما مضى من الزمان، وهو في محلِّ نصبِ مفعولٍ به لفعلٍ مقدَّر، وما بعدَه في محلِّ جرِّ مضافٍ إِليه، والتقدير: اذكُرْ حينَ قالت الملائكة. أي: اذكُرْ قولَ الملائكة لمريم.

والخطابُ لرسولِ الله ﷺ، ولكلِّ مؤمنٍ ذاكرٍ متذكِّرٍ من بعده.

واختلفَ المفسرون في الملائكةِ التي قالتْ لمريم هذا القول، وقدمتْ لها هذه البشرى، هل هي مجموعةٌ من الملائكة أَم جبريل وحده؟

ذهبَ بعضُهم إلى أنهم مجموعةٌ من الملائكة، أرسلَهم اللّهُ إلى مريم لتبشيرِها بالبشرى، قبلَ أنْ يأتيها جبريل وينفخَ فيها كما ذكرتْ آياتُ سورةُ مريم.

وبذلك أخذَ الآيةَ على ظاهرها، كما جاءت الملائكةُ إلى مريم من قبل، وأخبرتْها بأنَّ اللّهَ اصطفاها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وممن قال بذلك الإمامان ابنُ جرير وابنُ كثير[1]..

وقالَ آخرون: الذي قال لمريمَ هذا القول هو جبريلُ فقط عليه السلام، أَرسلَه اللّهُ إلى مريم ليبشرَها بهذه البشرى.

وممن قالَ بذلك الإمامُ الرازي. واعتبرَ هذه الآية التي أطلقت العامَّ «الملائكة» وأرادت الخاصَّ «جبريل»، كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ..﴾ [النحل: ٢].

فالمرادُ بالملائكة هنا جبريل وحده عليه السلام، لأَنه هو أمينُ الوحي، الذي يَنزلُ على الأنبياء.

ودلتْ آياتُ سورةِ مريم على أنَّ الذي جاءَ إلى مريم وكلَّمها هو جبريل وحده..[2].

وإذا كنّا ذهبْنا في الآياتِ السابقة: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ.. وَطَهَّرَكِ﴾ إلى أَنَّ المتكلمين مع مريمَ مجموعةٌ من الملائكة، لا نعرفُ عددهم، فإننا نذهبُ إلى أنَّ المتكلمَ مع مريم هنا هو جبريلُ وحده عليه السلام.

والذي دَعانا إلى ترجيح هذا هنا هو سياقُ الآيات، فلما بشرَها

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٦٨ - ٢٦٩. وتفسير ابن كثير ١: ٣٤٤.

(٢) انظر تفسير الرازي ٨: ٤٢ - ٤٣.

جبريلُ بأن اللّهَ سيهبُها ولداً من غيرِ بعْل، استغربتْ وفوجئتْ: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؟.

فأَجابها بأنَّ هذا من أَمرِ الله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ..﴾.

والشاهدُ أنه أَسندَ القولَ إِلى مفرد: «قال...». أي: قال لها جبريل: كذلك الله يخلق ما يشاء.

ولو كان القادمون إِليها مجموعةً من الملائكة، لكان التعبيرُ بالجمع: «قالوا كذلك الله...».

وقد يُعَبَّرُ عن جبريل وحده بلفظٍ عام «الملائكة»، كما في الآية السابقة: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ...﴾، وهذا من بابِ إطلاقِ العام، وإرادةِ الخاص، وهو جبريلُ عليه السلام.

وإذا كان المرادُ بالملائكةِ في هذه الآيات هو جبريل وحده: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ..﴾ فإنَّ هذا معناه أنَّ اللّهَ أرسلَ جبريلَ إِلى مريم مرتيْن:

المرة الأولى: التي أخبرتْنا عنها هذه الآيات، والتي بشرَها بأنَّ اللّهَ سيهبُها ولداً من غير بعْل.

المرة الثانية: جاءَها بعد ذلك بفترة، اللّهُ أَعلم بمدتها، بعدما ابتعدتْ عن أهلها، وتمثَّلَ لها بشراً سوياً، جاءها لينفِّذَ البشارةَ السابقة بأمْرِ الله، حيث نفخَ فيها وحملتْ بعيسى عليه السلام، وتحدثَتْ عن مجيئهِ الثاني آياتُ سورة مريم.

وقد سبقَ مجيءَ جبريل إِلى مريم في المرتين مجيءُ الملائكةِ لها لتخبرَها باصطفاءِ الله لها وتطهيرِها، ومطالبتها بالعبادةِ والقنوت والركوع والسجود.

ولعلَّ الحكمةَ من هذه الزياراتِ المتكررة من الملائكة لمريم

رضي الله عنها، تهيئتُها وإِعدادُها للمعجزة القادمة، لتستعدَّ لها نفسياً، فلا تكونُ مفاجأتُها بها قاضيةً عليها عندما تقع.

إنَّ اللّهَ يمهدُ للحدثِ العظيم القادم، فقدمَ لمريم كراماتٍ متتابعة: فها هو رزقُها يأتيها من عندِ الله بدون كسبٍ ولا سعي، وها هي الملائكةُ تبشرُها بأنَّ اللّهَ فضَّلَها على نساء العالمين، وها هو جبريلُ يبشرُها بأنها ستلدُ ولداً من غير أب.

ورؤيةُ غيرِ النبي للملائكة كرامةٌ له، ومخاطبةُ الملائكةِ للولي كرامةٌ أُخرى له.

جبريل يبشر مريم بعيسى:

بماذا بشرَ جبريلُ مريم؟

بشرَها بعيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

هذه البشارةُ من الله لمريم، ولهذا أُسندتْ في الآيةِ إلى الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ..﴾ ودورُ جبريلَ هو نقلُ البشرى وتوصيلُها لها.

والتبشيرُ هو إِخبارُ المرءِ بالخيرِ الذي يسرُّه.

قال الإمامُ الراغب: «وأَبْشَرْتُ الرجل، وبَشَّرْتُه، وبَشَرْتُه: أَخبرتُهُ بخبرٍ سارّ، بَسَطَ بشرةَ وجهه، وذلك أَنَّ النفسَ إِذا سُرَّت انتشرَ الدمُ فيها انتشارَ الماءِ في الشجر...»[1].

اللّهُ يبشرُ مريم، ويقدِّمُ لها الخبرَ السار، بأَنها ستنجبُ ولداً من غير أَب، ورغم أنَّ الحدثَ عظيمٌ مدهش، يهزُّ صاحبَه هزاً، إلاّ أَنه سارٌّ مؤثِّر، لأنه يرفعُ مريمَ رضي الله عنها عند الله، ويُعلي منزلَتها عنده.. ويَكْفِيهَا فخراً ونعمة وذكْراً أنَّ اللّهَ اصطفاها من بينِ جميعِ

(١) المفردات: ١٢٥.

النساء، وجعلَها المرأةَ الوحيدةَ في الدنيا التي تحملُ من غيرِ زواج، وهي بكرٌ عذراء، وتُنجبُ بدونِ زواج، ويكون ابنُها نبياً رسولاً عليه السلام.

إِنها بشرى عظيمة، تحملُ نعمةً من الله غامرة، رغمَ عظمِ دهشةِ ومفاجأة الحدث، ولهذا أَرسلَ اللّهُ جبريلَ عليه السلام إلى مريم رضي الله عنها، ليزفَّ لها البشارة.

قال الله لمريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ . .﴾.

والمرادُ بالكلمةِ هنا عيسى عليه السلام.

و«مِنْه»: شبهُ الجملةِ في محلِّ جرٍّ صفةٍ لـ«كلمة». والتقدير: يبشرك بكلمةٍ كائنةٍ منه.

والضميرُ الهاءُ في «منه» يعودُ على الله.

والضميرُ الهاءُ في «اسمه» يعودُ على «كلمة». و«اسمُه» مبتدأ مرفوع، خبره «المسيحُ».

وجاءَ الضميرُ مذكَّراً «اسمُه»، مع أَنه يعودُ على مؤنَّث «كلمة»، فلم يقل: بكلمة منه اسمُها المسيح، لأَنَّ المرادَ بالكلمةِ مذكَّر، وهو عيسى عليه السلام، فذكَّرَ الضميرَ مراعاةً للمعنى.

و«عيسى»: بدلٌ مرفوعٌ من «المسيح».

و«ابنُ»: بدلٌ مرفوعٌ من عيسى.

إن الكلمةَ من الله المذكورةَ في الآية مفسَّرة بأَنها: المسيحُ عيسى ابن مريم.

كيف يكون عيسى كلمة الله؟:

وسمى اللّهُ عيسى عليه السلام بأنه كلمتُه في هذه الآية: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. لأَنَّ عيسى خُلق ووُجد بكلمةِ الله

«كُنْ» حيث أرادَ أنْ يخلقَه خلْقاً خاصّاً مباشراً، فقالَ له «كن»، وهذه هي الكلمةُ الإلهية، فكان ووُجِدَ كما أَمَرَ الله.

وهي الكلمةُ الواردةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

خلقَ اللّهُ عيسى عليه السلام بكلمةِ «كُنْ» وعَبَّرَ عنه بأنه كلمةٌ منه، كما خلقَ آدمَ بكلمة «كن»[1].

وأحالَ القرآنُ المستغربين من خلقِ عيسى على خلقِ آدم، الذي خلَقَه اللّهُ بكلمةِ «كن» بدون أبٍ أو أم. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

قالَ السمينُ الحلبي في الدّرّ المصون: «منه» في محلِّ جرٍّ صفةٍ لكلمة، والمرادُ بالكلمة هنا عيسى عليه السلام، سُمي «كلمة» لوجودِه بها، وهو قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فهو من بابِ إطلاقِ السَّبب على المسَبَّب».

وسنعودُ إلى توجيهِ كونِ عيسى عليه السلام كلمةً وروحاً من الله في المباحثِ القادمة، إن شاء الله.

و«من» في قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ حرفُ جر. وهي ليستْ للتبعيض، بل هي لابتداءِ الغاية. أي أنَّ هذه الكلمةَ من عندِ الله، ابتدأتْ من الله، وهي كلمةُ «كن».

قالَ الإمامُ الرازي: «قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾: لفظة «مِنْ» ليستْ للتبعيض. إذ لو كان كذلك لكان اللّهُ تعالى متجزّئاً متبعّضاً، متحمّلاً للاجتماعِ والافتراق، وكلُّ مَنْ كانَ كذلك فهو مُحْدَث، تعالى الله عن ذلك.

---

(١) الدر المصون ٢: ١٧٣.

بل المرادُ من كلمة «مِن» ههنا ابتداءُ الغاية. وذلك لأنَّ في حق عيسى عليه السلام لما لم تكنْ واسطةُ الأب موجودة، صارَ تأثيرُ كلمةِ الله تعالى في تكوينهِ وتخليقِه أكملَ وأظهر. فكان كونُه كلمةَ الله مبدأً لظهورِه ولحدوثه... هذا معنى «مِن» ومعنى كونه «كلمة»، لا ما يتوهَّمُه النصارى والحلولية..»[1].

كلمةُ الله التي ألقاها إلى مريم هي عيسى ابنُ مريم: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ..﴾.

لماذا وُصف عيسى بأنه مسيح؟:

أمامَنا ثلاثُ كلمات: المسيح، وعيسى، وابن مريم.

المسيحُ لقب. وعيسى هو الاسم، وابنُ مريم هو الوصف.

إنّ الاسمَ الصريحَ هو عيسى، وهو النبيُّ الرسولُ المذكورُ اسمُه ضمنَ أسماءِ الأنبياءِ المذكورين في القرآن. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ...﴾ [النساء: ١٦٣].

و«عيسى» اسمُ علمٍ أعجمي، ممنوعٌ من الصرف للعلميةِ والعجمة، وهو ليس مشتقاً.

ويُسميه النصارى «يَسوع». ومعناه عندهم: المخلِّص[2].

ونحن نستخدمُ الاسمَ الذي سَمّاه الله به في القرآن، فهو نبيُّ اللّهِ ورسولُه عيسى عليه السلام، ولا يَعنينا اسم النصارى «يسوع» في قليلٍ ولا كثير!

ولَقبُ عيسى هو «المسيح». ووردَ هذا اللقبُ إِحدى عشرة مرة في القرآن.

---

(١) تفسير الرازي ٨: ٤٩.

(٢) انظر قاموس الكتاب المقدس لبطرس عبد الملك ومن معه: ١٠٦٤.

و«مَسيح» على وزن «فعيل»، مشتقٌّ من المسح.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ «مسيح» بمعنى اسم الفاعل «ماسح».

بينما ذهبَ آخَرون إلى أنَه بمعنى اسمِ المفعول «ممسوح».

قال الإمامُ الراغب في المفردات: «المَسْحُ: إمرارُ اليدِ على الشيء، وإزالةُ الأثرِ عنه.

وقيل: سُمي عيسى عليه السلام مسيحاً لكونه ماسِحاً في الأرض، أيْ ذاهباً فيها.

وقيل: سُمي مسيحاً لأنه كان يَمسح ذا العاهةِ فيبرأ.

وقالَ بعضُهم: المسيحُ هو الذي مُسحت إِحدى عينيه. فالمسيحُ الدجال كان ممسوحَ العين اليمنى. وقال بعضُهم: معنى ذلك أَنه مُسحتْ عنه القوةُ المحمودةُ من العلمِ والعقل والحلم والأخلاق الجميلة. أَما المسيحُ عيسى ابنُ مريم فقد مُسحتْ عنه القوةُ الذميمةُ من الجهلِ والشَّرَهِ والحرص وسائرِ الأخلاق الذميمة»[١].

وإذا كان «مَسيح» بمعنى اسم الفاعل «ماسح»، فإنه لُقِّبَ بذلك لأنه كان يمسحُ الأرض بالسياحة فيها، أَو لأنه كان يمسحُ بيده على المريض فيبرأ. فهو ماسحٌ للأرض بالسياحة، وهو ماسحٌ للمريض معالجٌ له.

وإذا كان «مسيح» بمعنى اسمِ المفعول «ممسوح»، فإِنه لُقب بذلك لأنَّ اللّهَ مسحه بالبركة، فكان ممسوحاً مباركاً[٢].

ونرى أنَّ لقبه «مسيح» جَمَعَ بين اسمِ الفاعل واسمِ المفعول، فمجموعُ الماسح والممسوح يكون «مسيحاً» صيغةُ مبالغةٍ من المسح.

فعيسى عليه السلام كان ماسِحاً يمسحُ بيده على المريض فيبرأ

---

(١) المفردات: ٧٦٧ ـ ٧٦٨ باختصار.

(٢) انظر الدر المصون للسمين ٣: ١٧٤.

ويشفي، وكان ممسوحاً مسحه اللّهُ بالبركةِ وباركه، وكونُه ماسحاً وممسوحاً جعلَه مسيحاً عليه الصلاة والسلام.

أَما معنى المسيح عند النصارى فهو المكرَّسُ للخدمةِ والفداء: «سمي المسيحَ لأَنه مُعَزَّزٌ وَمُكَرَّسٌ للخدمةِ والفداء، وُعِدَ بمجيئه حالاً بعدَ السقوط..»[1].

ولماذا نسب عيسى إلى أمه:

و«ابنُ مريم» لقبٌ لعيسى عليه السلام.

ونُسبَ إِلى أمه لأنّه لا أبَ له عليه السلام.

ووردتْ جملةُ «ابنُ مريم» ثلاثاً وعشرين مرة في القرآن، يُنسب عيسى فيها كلّها إِلى أُمّه مريم.

قالَ الإمام الزمخشري في الكشاف: «نُسِبَ عيسى إِلى أُمه، للإشارةِ إِلى أَنه يولَدُ من غير أب، ولهذا نُسب إلى أمه، وبذلك فُضلتْ أُمه واصْطُفيتْ على نساء العالمين».

وقد بيَّنَ الإمامُ الزمخشريُّ الحكمةَ من الجمعِ بين الأسماءِ الثلاثة في الآية: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾:

فعيسى هو الاسم، والمسيح لَقب، وابنُ مريم صِفة.

لقد ذَكَرَ هذه الأسماءَ الثلاثةَ للإِشارةِ إِلى أَنَّ عيسى عليه السلام لا يُعرفُ ولا يَتميزُ ممن سواه إلاّ بمجموعِ هذه الثلاثة. فلا بدَّ أَنْ يُجْمَعَ بين الاسم واللقب والصفة[2].

إنَّ القرآنَ حريصٌ على تمييزِ عيسى عليه السلام بالكلماتِ الثلاثة، لِما رافقَ خلْقَه وولادتَه وحياتَه من معجزات، ليؤكّدَ على بشريته، ويَنقضَ مزاعمَ النصارى حولَ ألوهيته.

---

(١) قاموس الكتاب المقدس: ٨٦٠.

(٢) انظر الكشاف للزمخشري ١:٣٦٣.

اسمُه عيسى، ولقبُه ابنُ مريم، ونسبتُه إلى أمه مقصودةٌ ومرادة، ليكذِّبَ النصارى في زعمِهم أَنه ابنُ الله، فهم يقولون: عيسى ابنُ الله ـ تعالى الله عن كفرهم علواً كبيراً ـ.

والقرآنُ يقول لهم: إنه ابنُ مريم، وأُمه معروفة، أنتم تعرفونها عن يقين، فكيف صار ابناً لله مع أَنه ابنُ مريم؟

وهو مسيحٌ في أَعماله، ممسوحٌ مسحه اللّهُ بالبركة، وماسحٌ يَمسحُ على المرضى ويعالجهُم ويشفون بإذنِ الله.

خمس صفات لعيسى ابن مريم:

بَشَّرَ جبريلُ عليه السلام مريمَ رضي الله عنها بعيسى، ذاكراً اسْمَه ووصفَه ولقبَه: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وذكَرَ بعد ذلك أحوالَه فقال: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦].

ومن صفاتِ عيسى عليه السلام المذكورة في هذه الآيات.

﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾: إنه ذو وجْهٍ ومنزلةٍ عالية، وذو شرف وكرامةٍ عند الله، في الدنيا حيث حفظَهُ وحَماه من أعدائه، وفي الآخرة، حيثُ جعله في أَعلى منازلِ الجنة مع سائر المرسلين.

يقال: هذا وجيه: إذا كان شريفاً يُقدره الآخرون.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: عيسى عليه السلام من عبادِ اللّهِ المقرَّبين، الذين قَرَّبهم الله منه، وأَعلى منازلهم عنده.

والمقرَّبون هم السابقون، الذين يَسبقون أصحاب اليمين إلى الجنة، ومنازلُهم في الجنة أَعلى من منازلِ أصحاب اليمين، والمرسلون هم أئمةُ المقربين السابقين.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾: عيسى عليه السلام سيكلمُ

الناسَ في المهد، فورَ ولادته، وذلك عندما يفاجأون بمريم تحملُه، وتَذهبُ بهم الظنونُ كلَّ مذهب، فيُنطقُه اللّهُ وهو ابنُ ساعات، ويكلمُ الناس، ويقدِّمُ نفسَه إليهم، ويبرئ أُمَّه من كل تهمة.

كما أَنه سيكلمهم في حالِ كهولته وشيخوخته: «وكهلاً». ولعلَّ هذه إشارةٌ إلى نزولِ عيسى عليه السلام في آخر الزمان، عند نزولِه من السماء إلى الأرض.

وقَدمت الآيتانِ خمسةَ أحوالٍ لعيسى عليه السلام:

﴿وَجِيهًا﴾: حالٌ منصوب.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: شبهُ الجملةِ في محلِّ نصب حال. والتقدير: ومُقرَّباً.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾: الجملةُ الفعليةُ في محلِّ نصب حال. والتقدير: و: مكلماً الناسَ صبياً في المهد.

﴿وَكَهْلًا﴾: حالٌ منصوب. معطوفٌ على «صبياً في المهد»: ومكلماً الناسَ كهلاً.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: شبهُ الجملةِ في محلِّ نصب حال. والتقدير: وصالحاً.

ويكون الإخبارُ عن صفاتِ وأحوالِ عيسى عليه السلام هكذا: إن اللّهَ يبشركِ بعيسى المسيح: وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومقرَّباً عند الله في الدنيا والآخرة، ومكلِّماً الناس طفلاً في المهد، ومكلِّماً الناس كهلاً شيخاً، وصالحاً من الصالحين!

وعَرفتْ مريمُ رضي الله عنها صفاتِ ابنِها عيسى عليه السلام بهذه البشارة قبل ولادتها له.

وذِكْرُ هذه الأحوالِ والصفاتِ والتقلباتِ والتغيراتِ على عيسى عليه السلام يؤكدُ على بشريته.

وقد التفتَ الإمامُ الطبريُّ إلى هذه الالتفاتة: «فهو عليه السلام، منذُ أنْ خلَقَه اللّهُ مولوداً طفلاً صغيراً، إلى كهولته، يتقلَّبُ في الأحداث، ويتأثرُ بها، ويتغيرُ بمرورِ الأزمنة والأيام عليه، ويتحوَّلُ من صِغَرٍ إلى كِبَر، ومن حالٍ إلى حال.

ولو كانَ إلهاً أو ابناً لله، كما زعمَ النصارى الكافرون، لما حصلَ له ذلك!

... قالَ محمدُ بن جعفر بن الزبير: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾: يُخبرهم بحالاتِه التي يتقلَّبُ بها في عمره، كتقلُّبِ بني آدم في أَعمارهم، صغاراً وكباراً. إلاَّ أنَّ الله خصَّهُ بالكلام في مهدِه آيةً لنبوته، وتعريفاً من الله للعبادِ بمواقعِ قدرته...»[1].

دهشة مريم من البشارة واستغرابها:

لما سمعتْ مريمُ البشارةَ من جبريل عليه السلام بأَنها ستنجبُ عيسى، فوجئتْ ودُهشتْ واستغربتْ. إِنها فتاةٌ عذراء، ولم تتزوج، فمن أين يأتيها ذلك الولد؟

ولقد صارحتْ جبريلَ باستغرابِها. قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؟.

تركتْ جبريلَ، وتوجَّهتْ إِلى الله، وناجَتْه ونادَتْه ودعَتْه: «رب». أي: يا ربي يا الله.

﴿أَنَّىٰ﴾: اسمُ استفهام بمعنى «كيف»، ويدلُّ على المفاجأةِ والدهشة.

﴿يَكُونُ﴾: فعلٌ مضارعٌ تام. و﴿وَلَدٌ﴾ فاعلُ فعلِ «يكون» التام.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: الجملةُ في محلِّ نصبِ حال.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٧١.

والمرادُ بالمس هنا: المعاشرةُ الزوجية بالجماعِ والاتصالِ الجنسي.

والمرادُ بالبشرِ أيُّ رجلٍ ذَكَر.

و«البشر» في الأصل مصدر مثل «الخَلْق». يَستوي فيه المذكَّرُ والمؤنث، والمفردُ والمثنى والجمع: تقول: هذا بَشَر، وهذه بَشَر، وهذان بشر، وهؤلاء بشر.

واشتقاقُ البشرِ من البَشَرة، وهي الجلد، لأنَّ الإنسانَ يتفاعلُ ويتأثرُ بالفرحِ أو الحزن، فيظهرُ وينعكسُ ذلك على بَشَرَتِه![1].

ومعنى دهشةِ واستغرابِ مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: مِن أيِّ وجهٍ يكونُ لي ولد؟ أَمِنْ قِبَلِ زوجٍ أتزوَّجُه؟ أمْ يخلقُهُ اللّه فِيَّ من غيرِ بَعْل ومن غيرِ أنْ يَمْسَسْني بشر؟

إزالة استغرابها بالإحالة على قدرة الله المطلقة:

وجاءَها الجوابُ فوراً، لِيُزيلَ استغرابَها ودهشَتَها، حيثُ أمَرَ اللّهُ جبريلَ عليه السلام الواقفَ أَمامَها أنْ يقولَ لها: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

أي: كما قَدَّرَ اللّهُ أنْ يرزقَكِ ولداً بدون بشرٍ ولا زوجٍ ولا بَعْل، كذلك يخلُقُ ما يشاء، ويوجِدُ ما يشاء.

لا يقفُ شيءٌ أمامَ إرادةِ الله، ولا يمنعُه أيُّ شيء من فعْلِ ما يشاء، فإذا قضى أمراً، وإذا أراد إِيجادَ شيء، فإنه يوجِدُه ويخلُقُه مباشرة، ويقولُ له مباشرة: كن واحْدُث، فيلبّي الأمْرَ ويكونُ ويَحدثُ ويحصلُ في الواقع، كما قضى الله وأراد.

وردَ في تهذيبِ تفسير الطبري: «هكذا يخلقُ اللّهُ منكِ ولداً، دون

(١) انظر تفسير الدر المصون للسمين ٣: ١٨١ ـ ١٨٢.

أنْ يمسَّكِ بشر، فيجعلُه آيةً وعبرة. وإن اللّهَ يخلقُ ما شاء، ويفعلُ ما يريد، فيعطي مَن شاءَ الولدَ من زواجٍ ومن غيرِ زواج، ويَحرمُ مَنْ شاء من النساء الولد، وإنْ كانتْ ذاتَ زوج.

إنَّ اللّهَ لا يتعذَّرُ عليه فعْلُ شيءٍ أَراده، فإذا أَرادَ خلْقَ شيء، فإنما يقولُ له: كن. فيكون...»[1].

وقد علَّقَ سيد قطب على البشارةِ والاستغرابِ والجواب بقوله:

«فأمّا مريم، الفتاةُ الطاهرةُ العذراء، المقيدةُ بمألوفِ البشر في الحياة، فقد تلقَّت البشارةَ كما يمكنُ أنْ تتلقاها فتاة، واتجهتْ إلى ربِّها تُناجيه، وتتطلعُ إلى كشفِ هذا اللغز الذي يحيِّرُ عقْلَ الإنسان:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾.

وجاءَها الجواب، يردُّها إلى الحقيقةِ البسيطة، التي يغفلُ عنها البشرُ لطولِ أُلفتِهم للأسبابِ والمسبَّبات، لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

وحينَ يُرَدُّ الأمْرُ إلى هذه الحقيقة الأولية يَذهب العجب، وتَزولُ الحيرة، ويطمئنُّ القلب، ويعودُ الإنسانُ على نفسه، يسألُها في عجب: كيفَ عجبتِ من هذا الأمرِ الفطريِّ الواضحِ القريب؟!

وهكذا كان القرآنُ ينشئُ التصورَ الإسلاميَّ لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسرِ الفطريِّ القريب. وهكذا كان يجلو الشبهاتِ التي تعقِّدها الفلسفاتُ المعقدة، ويُقرُّ الأمْرَ في القلوب وفي العقول سواء...»[2].

وجوابُ جبريلَ على تساؤلِ مريم لإزالة استغرابها: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٧٢.

(٢) في ظلال القرآن ١: ٣٩٨.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يذكرنا بجوابِ الملائكة على تساؤلِ زكريا عليه السلام، لإزالة استغرابِه عندما بُشِّرَ بيحيى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٩ ـ ٤٠].

وكانت الإحالةُ في الجوابيْن على قدرةِ الله المطلقة، وإرادتِه النافذة، ومشيئته الطليقة، التي لا يقيِّدُها مألوفٌ ولا عرف.

الفروق بين الجواب لزكريا والجواب لمريم:

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني وجودُ فروقٍ في التساؤلِ والجوابِ لكلٍّ من زكريا ومريم، وهذه الفوارقُ ثلاثة:

فزكريّا عليه السلام يقول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟ بينما مريم رضي الله عنها تقول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾.

وعُدولُ العبارةِ في سؤالِ مريم عن الغلام إلى الولد مقصود، وذلك للتأكيدِ على أنَّ عيسى عليه السلام وُلِدَ ولادة، صحيحٌ أَنه ليس له أب، لكنه وُلدَ ولادةً طبيعية، فهو وَلَدٌ كباقي الأولاد، وُلِدَ كما يولَدُ باقي الأولاد، وهذا ردٌّ على النصارى في تأليهِهِم لعيسى عليه السلام، فهو وَلَد، وكيف يكون إلهاً مع ولادته؟

وعندما جاءَ الجوابُ إلى زكريا عليه السلام قالتْ له الملائكة: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾. لكن لما جاءَ الجوابُ إلى مريم قال لها جبريل: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ..﴾.

فعدلَ التعبيرُ عن فعْلِ «يفعل» إلى فعلِ «يخلق»، وهذا العدولُ مقصودٌ مراد.

قالَ السمينُ الحلبيُّ في حكمة هذا العدول: «قيل: لأنَّ قصَّتَها أَغربُ من قصته، وذلك أنه لم يُعْهَدْ ولدٌ من عذراء، لم يمسَّها بَشَر

البتة، بخلافِ الولدِ بين الشيخ والعجوز فإنه مستبعد.. وقد يُعْهَدُ مثلُه وإنْ كان قليلاً، فلذلك أتى بفعلِ «يخلق» المقتضي، الإيجادَ والاختراعَ من غيرِ إحالةٍ على سببٍ ظاهر، وإنْ كانت الأشياءُ كلُّها بخلقه وإيجاده...»[1].

أي التعبيرُ عن إيجادِ عيسى عليه السلام بفعلِ «يَخْلُق» أهم، لِمَا رَافَقَ ولادةَ عيسى من المفاجآت والمعجزات والخوارق، وما نتجَ عن ذلك من تأليهِ النصارى له، فنصَّت الآيةُ على خلقِ عيسى خلقاً، فاللّهُ خلقه، أي: أوجَدَه من العدم، وإذا كان مخلوقاً مِن لا شيء، وموجوداً من العدم فكيف يكونُ إلهاً؟

وأُضيفُ على جواب جبريل لمريم قولُه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وهذه الجملةُ لم تَرِدْ في جوابِ الملائكة لزكريا عليه السلام.

وذلك للتأكيدِ على قدرةِ الله المطلقة في خلْقِ عيسى عليه السلام، وفي جعْلِ أمّه الفتاةِ العذراء تنجبُه بدون بعل. وبما أنَّ هذا الأمْرَ مستحيلٌ في مألوفِ حياة البشر في التوالدِ والتناسل، أكَّدَ عليه في معرضِ الحديثِ عن قدرةِ الله المطلقة سبحانه وتعالى.

هذه حكمةُ العدول ـ في شأن البشارة بعيسى عليه السلام ـ عن «غلام» إلى «ولد»، وعن «يفعل» إلى «يخلق»، وإضافة جملة: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. والله أعلم.

وهكذا أَخذتْ مريمُ رضي الله عنها البشارةَ من جبريل عليه السلام، وصارَتْ على يقين بأنَّ اللّهَ سيهبُها ولداً.

وما بقي إلاّ تنفيذُ هذه البشارة، وتحقيقُ ما وَعَدَها اللّهُ به!

---

(١) الدر المصون ٣:١٨١.

[٦]

الحوار بين جبريل ومريم قبل النفخ

إرسال جبريل لها لتنفيذ البشارة السابقة:

وعدَ اللّهُ مريمَ أنْ يهبَها ولداً من غيرِ بعل، وجاءَ هذا الوعدُ على لسانِ جبريلَ عليه السلام، عندما بشَّرَها بذلك.

وما بقيَ إلاّ تحقيقُ ذلك الوعد، وتنفيذُ تلك البشارةِ عملياً.

وكان ذلك عندما أَرسلَ اللّهُ جبريلَ عليه السلام إلى مريمَ رضي الله عنها، ووقفَ أَمامَها في صورةِ بشر، وحاوَرَها ثم نفخَ فيها من روحِ الله، فحملتْ بعيسى عليه السلام.

وهذا المشهدُ المؤثِّرُ لم يَرِدْ إلاّ في آياتِ سورة مريم. وقد سبقَ الحديث عن حملِ مريم بعيسى ووضعِها له الحديثُ عن ولادةِ يحيى عليه السلام.

الحديثُ عن البشارةِ بيحيى وولادتِه ونبوتِه في الآيات: [١ ـ ١٥] من السورة.

والحديثَ عن ولادةِ مريم لعيسى في الآيات: [١٦ ـ ٣٣].

وقُدِّمَتْ قصةُ يحيى على قصة عيسى لأنَّ يحيى وُجد قبلَ عيسى عليهما السلام، فلهذا بدأت الآيات بالأسبق وجوداً.

وقُدمتْ قصةُ يحيى على قصةِ عيسى ـ وهذا هو الأهم ـ لتكونَ تمهيداً للحديثِ عن عيسى عليه السلام، فولادةُ يحيى كانت معجزة، لكنَّ ولادةَ عيسى كانت معجزةً أكبر.

«وقد تدرَّجَ السياقُ من القصةِ الأولى، ووجْهُ العجبِ فيها هو ولادةُ العاقرِ من بعلِها الشيخ، إلى الثانية ووجْهُ العجبِ فيها هو ولادةُ العذراء من غيرِ بعل! وهي أعجبُ وأَغرب!!»[1].

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٠٤.

قالَ الله عز وجل: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٦ ـ ٢١].

ذكر قصة مريم في القرآن لإثبات النبوة والوحي:

يقولُ اللّهُ لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾:

والمرادُ بالكتابِ هنا القرآن الذي أَنزله اللّهُ عليه. أي: اذكرْ يا محمدُ للمشركين وأهلِ الكتاب في آياتِ القرآن التي أَنزلْتُها عليك، قصةَ مريم وحملِها بعيسى ووضعِها له، واتْلُ عليهم هذه الآيات، وأَسْمِعْهم إياها.

وذكْرك لهذه الآيات دليلٌ على أنكَ رسولُ الله، وأنَّ اللّهَ هو الذي أَنزلَها عليك، فلولا إِنزالُها عليك من الله لما علمْتَ بها، لأنكَ أُمي لم تتعلَّمْها من أحد، ولم تَرِدْ في كتبِ النصارى على ما وردَتْ في القرآن!

وقد وردَ هذا الأمْرُ من اللّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ، في أكثرَ من آيةٍ من سورة مريم، وذلك عندَ الإشارةِ إِلى بعضِ الأَنبياءِ السابقين:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ...﴾ [مريم: ٤١].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ...﴾ [مريم: ٥١].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ...﴾ [مريم: ٥٤].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ ...﴾ [مريم: ٥٦].

وهذه المواضعُ تدلُّ على أنَّ من أَهدافِ ذكْرِ القصصِ في القرآن إِثباتَ نبوةِ محمد ﷺ، وتقريرَ حقيقةِ أنَّ القرآنَ كلامُ الله.

وعندَ سماعِ النصارى الصادقين هذه الآيات: [١٦ ـ ٤٠] من سورة مريم، التي تتحدثُ عن ملابساتِ ولادةِ عيسى عليه السلام يبكونَ ويعرفونَ الحق، ويؤمنون أنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، ويَدخلون في دينِه!

موقف النجاشي ومن معه عند سماع الآيات:

وهذا ما حصلَ من النجاشيِّ ملكِ الحبشة، لمّا سمعَ هذه الآياتِ من جعفرَ بن أبي طالب رضي الله عنه

روى الإمامُ أحمدُ عن أمّ سلمةَ رضي الله عنها قصةَ الهجرةِ إلى الحبشة، ومما جاءَ في القصة.... «... لما انتهى جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه من بيانِه قالَ له النجاشي: هل معكَ شيءٌ مما أُنزلَ على نبيكم؟

قالَ جعفر: نعم.

قال النجاشي: إقرأ.

فقرأ جعفرُ مطلعَ سورةِ مريم.

فبكى النجاشيُّ حتى أَخضلَ لحيته، وبلَّلَها بدموعه، وبكى البطارقةُ والأساقفة، حتى بلَّلوا مصاحفهم بدموعهم، متأثرين بما سمعوا من آياتِ القرآن.

بعدَ ذلك قالَ النجاشي: هذا القرآنُ الذي سمعْناه، والذي جاءَ به موسى يَخرجان من مشكاةٍ واحدة.

ثم خاطبَ النجاشيُّ عمرو بن العاص وعبدَ الله بن أبي ربيعة قائلاً: انطلِقا مِن هنا، فوالله لا أُسْلِمهم إِليكما أَبداً...

ولما خرجَ الموفَدان القرشيان من مجلسِ النجاشي قالَ عمروُ بن العاص لابنِ أَبي ربيعة: واللّهِ لآتينَّ النجاشيَّ غداً، أُعيبُ المسلمين عنده، وأُهيِّجُه عليهم، واستأصلُهم من عنده!

فقالَ له ابنُ أَبي ربيعة ـ وكان أهدأ الرجلين ـ: لا تفعلْ ذلك، فإنَّ للمسلمين أرحاماً فينا، وإنْ كانوا خالَفونا في ديننا.

فقالَ ابنُ العاص: لا بدَّ أنْ أفعل، وسأَقولُ للنجاشي: يزعمُ المسلمون أنَّ عيسى ابنَ مريم عبد!

وفي اليومِ التالي غدا عمروُ بن العاص على النجاشي، فقالَ له: أيها الملك: هؤلاء المسلمون يقولون في عيسى ابنِ مريم قولاً عظيماً، فأَرْسِلْ أَيّها الملكُ إِليهم، واسْأَلْهم عما يقولون فيه!

أَرسَلَ النجاشيُّ إِلى المسلمين، ودَعاهم إِلى الاجتماعِ به مرةً ثانية، ليسمعَ منهم ما يقولون في عيسى ابن مريم عليه السلام.

ولما علمَ المسلمونَ بذلك خافوا، ونَزَلَ بهم من الغمِّ ما اللّهُ به عليم، وقالَ بعضُهم لبعض: ما تقولون للنجاشيِّ بشأنِ عيسى ابن مريم؟

فقالَ جعفرُ بن أبي طالب رضي الله عنه: والله لا نَقولُ فيه إلاّ ما جاءنا من رسولِ الله ﷺ، هو عبدُ الله ورسولُه وروحُه، وكلمتُه أَلقاها إِلى مريمَ العذراءَ البتول!.

وفي الغدِ قابلَ المسلمون النجاشي، فقالَ لهم: ماذا تقولونَ في عيسى ابن مريم؟

فقالَ جعفرُ رضي الله عنه: نقولُ فيه ما عَلَّمَنا رسولُ الله ﷺ: إِنهُ عبدُ الله ورسولُه وروحُه، وكلمتُه أَلقاها إِلى مريمَ العذراءَ البتول.

ولما سمعَ النجاشيُّ كلامَ جعفر، تناوَلَ بيدِه عوداً من الأرض، ثم قالَ لمن حوله: واللّهِ ما تجاوزَ عيسى ابنُ مريم شيئاً مما يقولُه المسلمون، إلاّ بمقدارِ هذا العود!

فنخرَ البطارقةُ وغضبوا من كلامِ النجاشي، ولكنهم لم يَجْرءوا على معارضتِه.

فقالَ لهم: انْخروا ما شئتم فهذا هو الحق![1].

وأنزلَ اللّهُ في النجاشيِّ وأمثالِه قولَه تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥].

إنَّ موقفَ النجاشيِّ الرائعَ من سماعِه آياتِ سورة مريم وما نزلَ فيه من الآيات دليلٌ على أنَّ النصارى الصادقين يتأثَّرُون عندما يسمعونَ الآيات، ويُؤمنون بها، ويعتبرونَها دليلاً على إثباتِ نبوةِ محمد ﷺ.

ولهذا أَمَرَ اللّهُ محمداً ﷺ أنْ يذكرَ هذه الآياتِ للآخرين: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ...﴾.

مريم تبتعد عن أهلها إلى مكان شرقي للخلوة والعبادة:

وقد فارقَتْ مريمُ رضي الله عنها أَهْلَها يوماً ما: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

«إذْ» ظرفُ زمانٍ بمعنى «حين»، وما بعدَه في محلِّ جرٍّ مضافٍ إليه، والتقدير: اذكُرْ في الكتاب قصةَ مريم حين انتباذِها.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن النبذِ والانتباذ: «النَّبْذُ: إلقاءُ الشيء وطرحُه، لقلةِ الاعتدادِ به..

وانتبذَ فلان: اعتزلَ اعتزالَ مَنْ لا يُقلُّ مبالاتِه بنفسِه فيما بينَ

---

(١) انظر كتابنا «الرسول المبلغ»: ... والحديث مروي بالمعنى.

الناس. قال تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾[1].

خرجَتْ مريمُ من عندِ أَهلها، وابتعدَتْ عنهم، وانفردَتْ من دونهم.

قالَ قتادة: «انتبذتْ من أهلها»: انفردَتْ من أهلِها[2].

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: انفردَتْ عن أَهلها، وذهبتْ إِلى مكانٍ جهةَ الشرق.

﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا..﴾: لما ذهبتْ إِلى ذلك المكانِ الشرقي، اتخذتْ حجاباً ساتراً، يسترُها عن أَهلها وعن الناسِ الآخرين.

ولم تُحَدِّد الآياتُ السببَ الذي دفعَ مريم إِلى الانتباذِ من أهلها، وهذا من مبهماتِ القرآن، التي لا نخوضُ في بيانها، ولسْنا مع المفسرين الذين قالوا: إِنها ابتعدَتْ عن أَهلِها لما جاءَها الحيض[3]، فهذا مما لا دليلَ عليه.

كذلك لم تُحدد الآياتُ المكانَ الذي كان يُقيمُ فيه أَهلُها، ولا المكانَ الذي انتبذَتْ منهم إِليه، ولا المسافةَ بينَ المكانيْن، وهذا أَيضاً من مبهمات القرآن، فقد يكونُ المكانان في بيتِ المقدس، وقد يكونان في غيرها، وقد يكونُ ذهابُها إِلى المسجدِ الأقصى، وقد يكونُ ذهابُها إِلى مكانٍ قريبٍ منه، أَو إِلى مكانٍ آخر. فهذا ما لا نخوضُ فيه، ولا إمكانيةَ لمعرفتِه الجازمة، ولا فائدةَ من ذلك!

إِنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا...﴾ يدلُّ على أَنَّ مريمَ رضي الله عنها كانت تحبُّ أَنْ تخلوَ إِلى نفسها، وأَنْ تنفردَ عن أَهلِها والناسِ الآخرين، وأَنْ تُقبلَ على عبادةِ الله

(١) المفردات: ٧٨٨.

(٢) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٤.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣: ١١٢.

وذكرِهِ ومناجاتِه، وهذا هو دأبُ العابدين الزاهدين، المنقطعين لعبادةِ الله.

وكان لمريمَ حجابٌ ساترٌ يحجبُها عن أَهْلِهَا، لئلا تنشغَل بهم عن ذكْرِها، ولتتفرغَ لعبادةِ الله وذكره. ولعلها كانتْ في «صومعة» أو ما شابهها. ولعلَّها كانت تمكثُ في ذلك «المكان الشرقي» فتراتٍ متباعدة في العبادةِ والذكر، ولعلَّ أهلَها كانوا يَعرفون ذلك منها، ويَعرفونَ أنه مِن عادتِها، ولهذا ما كان انتباذُها منهم، وابتعادُها عنهم، وانفرادُها في ذلك المكان دونهم، ما كان يثيرُ انتباهَهم، أَو خوفَهم عليها!

أرسل الله لها جبريل لتنفيذ البشرى:

وبينما كانتْ في ذلك المكانِ الشرقي وحيدة، تَخلو إِلى نفسِها، وتنشغلُ في أَورادِها وأذكارِها ومناجاتِها، شاءَ اللّهُ أنْ يحققَ البشارةَ السابقةَ التي بشَّرها بها جبريل عليه السلام، وأنْ ينفذَ لها وعْدَه بإِنجابِها الولد.

أَرسلَ اللّهُ لها وهي في ذلك المكانِ جبريلَ عليه السلام: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

والفاءُ في «فأرسلنا» حرفُ عطف، وما بعدَها معطوفٌ على ما قبلها، أي: أَرسلْنا إِليها روحَنا بعدما اتخذَتْ حجاباً في ذلك المكان الشرقي.

و«روحَنا» هنا هو جبريلُ عليه السلام.

وأَطلقَ القرآنُ على جبريلَ عليه السلام «روحاً» في أكثرَ من آية.

منها قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤].

ومنها قولُه تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر: ٣ ـ ٤].

عطفَ في الآية «الروحَ» على الملائكة، مع أنَّ جبريلَ أحدُ الملائكة من بابِ عطفِ الخاصِّ على العام، لإبرازِ أهميةِ هذا الخاص.

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠١ ـ ١٠٢].

الكلامُ في الآيةِ عن إنزالِ القرآنِ على رسول الله ﷺ، وأَطلقت الآيةُ على جبريل عليه السلام أنه «روحُ القدس».

أي: الروحُ الأَمينُ المقدَّسُ المطهر، الذي هو مُنَزَّهٌ عن كلِّ مخالفةٍ أو ذنبٍ أو معصية.

وإِضافةُ جبريلَ إلى الله في قوله: ﴿رُوحَنَا﴾ من بابِ تكريمِه وتعظيمه، وذلك كإضافةِ الرسولِ إلى الله في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ. . .﴾ [المائدة: ١٩].

والمرادُ بقولِه: «رسولُنا» هنا محمدٌ ﷺ.

وَوُصفَ جبريلُ عليه السلام بأنه روح، لأنه يَنزلُ بالوحيِ على أنبياءِ الله ورسلِه، وهذا الوحيُ المتضمِّنُ كتبَ الله وأحكامَه فيه حياةُ قلوبِ وأرواحِ المؤمنين. فكلامُ الله روحٌ يُحيي به اللّهُ القلوبَ والأرواح، وحامِلُ هذه الروحَ هو جبريلُ روحُ الله عليه السلام!

جبريل أمامها في صورة رجل بشر:

ولما أَرسلَ اللّهُ جبريلَ عليه السلام إلى مريم مكَّنَه مِن أَنْ يتحولَ من صورتِه الملائكيةِ الحقيقيةِ الضخمة التي خلَقَه عليها، إلى صورةٍ آدميةٍ بشرية: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. .﴾.

و«بشراً» حالٌ من جبريل منصوب. و«سوياً» نعتٌ للحال منصوب.

ومعنى «سوياً» مستوياً، سويَّ الخلق، كاملَ الآدمية. وهذا

الوصفُ للتأكيدِ على بشريةِ جبريلَ عليه السلام عندما واجهَ مريم في خلوتِها.

ومَرَّ مَعَنا «سوياً» في الآياتِ السابقة من سورة مريم، في خطاب الملائكةِ لزكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾ [مريم: ١٠].

وتحوُّلُ الملَكِ جبريلَ عليه السلام إلى بشرٍ سويّ، دليلٌ على قدرةِ الملائكة على التحولِ من صورتِهم الملائكيةِ إلى صورةٍ بشرية، وأنهم يفعلونَ ذلك بإذنِ الله ومشيئته سبحانه، وأنهم عندما تنتهي مهمتُهم التي كلَّفَهم اللّهُ بها، يَعودون إلى صورتهم الملائكيةِ الحقيقية.

وعندما يتحوَّلون إلى الصورةِ البشرية فإنهم يتمثَّلون في صورةِ رجال، وليس في صورةِ نساء، كما جاءت الملائكةُ إبراهيمَ ولوطاً عليهما الصلاة والسلام.

وعدَمُ تمثلِهم في صورةِ نساء ليؤكِّدوا على تكذيبِ الكفارِ الذين زعموا أنَّ الملائكةَ بناتُ الله، تعالى اللّهُ عن قولِهم عُلُوّاً كبيراً.

مريم تعوذ بالله منه وتناشد تقواه:

وفوجئتْ مريمُ العذراءُ البتولُ برجلٍ غريب واقفٍ أمامَها، وهي وحيدةٌ بعيدةٌ عن أهلها، وأصابتها «هَزةٌ» شديدة، وخوفٌ كبير.

ماذا تفعل؟ هل تصرخُ وتستنجدُ بالناس؟ إنهم بعيدون عنها! هل تقاومُ هذا الرجل؟ إنها فتاةٌ ضعيفةٌ لا تَقدرُ على دفعِه ومقاومته، لأنه أَقوى منها!

ليس أَمامَها إلاّ أنْ تلجأَ إلى اللّهِ ربِّها، وأنْ تعوذَ وتحتميَ به، وهي توقنُ أنَّ اللّهَ سيحميها ويُعيذُها، ولذلك خاطبتْ هذا الرجلَ بأَنها تعوذُ باللّهِ الرحمنِ منه، واستحيت التقوى في قلبه!

قالَ تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ [مريم: ١٨].

قالتْ للرجل الغريب: إِني أعوذُ بربي الرحمنِ منك، وأَطلبُ من ربي أن يَحميني منك.

و﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ جملةٌ شرطية ﴿كُنتَ تَقِيًّا﴾ فعلُ الشرط، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ مفهومٌ من السياق. والتقدير: إنْ كنتَ تقياً تخافُ الله، فلا تقتربْ مني، ولا تمسّني بأذى.

وردَ في تهذيبِ تفسيرِ الطبري: «خافَتْ مريمُ جبريلَ لما تمثَّلَ لها بشراً سوياً، وظنَّته رجلاً يريدُها عن نفسِها، فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

أَي: أَستجيرُ بالرحمنِ منك، أَن تنالَ مني ما حرَّمَهُ اللّهُ عليك، إنْ كنتَ ذا تقوى، تتقي محارمَ الله، وتتجنبُ معاصيه، لأنَّ مَنْ كانَ تقياً للّهِ يتجنبُ ذلك.

قالَ ابنُ زيد: «قد علمتْ مريمُ أَنَّ التقيَّ ذو نَهْيَة، يَنتهي عن الحرام..»[1].

ومن سخافاتِ الإسرائيلياتِ أَنَّ «تقياً» الواردَ هنا اسمُ رجلِ فاسقٍ فاتكٍ مجرم، معروفٍ في ذلك العهد.

وقد كَفانا الإمامُ ابنُ كثير عندما علَّقَ على ذلك القولِ السخيفِ قائلاً: «وهذا يَرُدُّ قولَ مَنْ زعمَ أَنه كانَ في بني إسرائيل رجلٌ فاسق، مشهورٌ بالفسق، اسْمُه «تقي»، فإنَّ هذا قولٌ باطلٌ بلا دليل، وهو من أَسخفِ الأَقوال!»[2].

وبينما كانت مريمُ عائذةً بالله، تناشدُ التقوى في قلبِ هذا الرجل، وهي تحتَ تأثيرِ الهزةِ المفاجئة، هَزَّ الرجلُ مسامعَها هزةً ثانيةً أَعنف،

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٥.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير: ٥٠١.

وذلك عندما صارَحها بهدفِه منها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ [مريم: ١٩].

أَخبرَها أَنه رسولٌ من الله، أَرسله اللّهُ إِليها، وهو مكلَّفٌ بمهمةٍ محددة، إنه يُريدُ أَنْ يهبَها غلاماً!!

مفاجأة مريم من هدف جبريل ومهمته:

فوجئتْ بهذه المصارحة، هي وحدَها، وهو رجلٌ أَمامَها، ويُريدُ أنْ يهبَ لها غلاماً، وأنْ تحملَ هي بغلام!

لقد سبقَ أنْ جاءَها جبريلُ متمثلاً في صورةِ رجل، وأَخبرَها ببشرى سارة، وهي أنَّ اللّهَ سيجعلُها تحملُ بولدٍ من غيرِ بعل، وقد عَرَضنا هذا في المبحث السابق، عند كلامِنا عن قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٧].

فهي قد سبقَ علْمُها بذلك، ولكن لعلَّها مع الهزةِ المفاجئة، والخوفِ الشديد، والخجلِ البالغِ من رؤيةِ الرجلِ الغريب أَمامَها نسيتْ ذلك، وسيطرَ عليها الفزعُ والتوترُ والقلقُ والخجل.

إِنه يخبرُها أنه رسولٌ من ربها، فهل تثقُ به وتطمئنُّ إِليه؟

وبما أَنه صارحَها بأنه سيهبُ لها غلاماً زكياً ـ والزكيُّ هو الطاهرُ من الذنوب، والمطهَّرُ من الخبائثِ والمعاصي والنقائص ـ فلا بدَّ أنْ تستعليَ على خجلِها وهي العذراءُ البتولُ العفيفة، ولا بدَّ أنْ تصارحَه، فهذا الموقفُ لا ينفعُ فيه إلاّ المصارحة.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ٢٠﴾ [مريم: ٢٠].

إنها تعلمُ حسبَ معلوماتِها البشرية أنَّ المرأةَ لن تحملَ بالجنين إلاّ إذا تمت المعاشرةُ بينها وبين رجل، وذلك بالإخصابِ عن طريق تلقيح «الحُوَيْنِ المَنَوِيِّ» من الرجلِ للبويضة من المرأة، فإذا لم تتمّ المعاشرةَ بين الذكرِ والأنثى، فإنه يستحيلُ ـ حسبَ مألوفِ البشر ـ حملُ تلك المرأة.

هذه هي الطريقةُ الوحيدةُ للحملِ والإنجاب، التي يعرفُها الناس، ويتعاملون معها، ويتصرّفون على أساسِها!

وهذا الرجلُ الغريبُ يخبرُها أَنه سيهبُها غلاماً زكياً، فكيف؟ ومِن أَينَ يهبُها ذلك؟

أنى يكون لها غلام وهي هي؟ وجواب جبريل:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾: مِنْ أيِّ وجْهٍ يكونُ لي غلام؟ أمِنْ قِبَلِ زوجٍ وزواج؟ أَمْ من طريقٍ آخر؟

المرأةُ قد تحملُ من زوجِها إِذا كانتْ عفيفةً طاهرة. وقد تحملُ من زناها برجلٍ آخر إِذا كانت بغياً زانية! وليس هناك طريقٌ ثالث حسبَ مألوف الناس!!

وهي ليستْ متزوجةً بزوج، فلم يمسَّها ويعاشِرْها زوجٌ اقترنت به في نكاحِ حلال: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾.

وهي عفيفةٌ طاهرة لم تفكرْ في رجلٍ آخر، وليستْ بغياً كالبغايا: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾!

وجاءَها الجوابُ المطمئنُ من الرجلِ الواقفِ أَمامها، يُزيلُ مفاجأَتَها، ويَقضي على هزتِها ودهشتِها: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [مريم: ٢١].

ولعلَّها لما سمعتْ هذا الجوابَ الإيمانيَّ تذكرتْ ما سبقَ أنْ بَشَّرَها به جبريل، وما سبقَ أنْ أجابَ به على تساؤلِها ومفاجأتها، ويكادُ

يكونُ سؤالُها وجوابُه في الحالتَيْن واحداً، ولعلَّها عرفتْ أنه جبريل، وأَنه رسولُ ربِّها فعلاً، وأنه ليسَ مجردَ رجلٍ غريبٍ يريدُ أنْ يمسَّها بسوء!

عند ذلك اطمأنَّتْ ووثقَتْ، وعلمتْ أنَّ هذا أمْرُ الله، فاستسلمتْ لأمْرِ الله، ورضيتْ بحكمه.

وقولُه: «كذلك» الإشارةُ فيه إلى العادةِ المطردةِ في التناسل البشري، القائمةِ على التزواجِ والمعاشرةِ الزوجية. والتقدير: كما أنَّ اللّهَ قدَّرَ التكاثرَ البشريَّ عن طريقِ الزواج، بحيثُ أصبحَ هذا هو الطريقَ المألوفَ عندهم، كذلك أرادَ لكِ أنتِ أنْ تحمِلي وتلِدي بغيرِ هذا الطريق، وبدون معاشرةِ رجلٍ لك، ليقدِّمَ اللّهُ للناس آيتَه الدالةَ على قدرتِه المطلقة.

وقوله: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾: أي: أرادَ ربُّكِ خلقَ عيسى فيكِ مباشرة، وأمرَ بتحقيقِ ما أَراد، وكلَّفني بأنْ أنفخَ فيك، وقالَ لي ذلك، وأنا مكلَّفٌ بتنفيذِ قولِه وأمره.

كما قالَ ربكِ أيضاً: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾: أي: خلْقُ عيسى فيك من غيرِ معاشرتك لرجل، هو هيِّنٌ على الله، ليسَ مستحيلاً ولا صعباً ولا شاقاً، لأنَّ كلَّ الأمورِ هينةٌ على الله، يخلقُها ويوجدُها بقوله: «كن».

جواب جبريل لها وجوابه لزكريا قبلها:

ونلاحظُ أنَّ هذا الجوابَ الذي قدَّمه جبريلُ لمريمَ هو نفسُ الجوابِ الذي قدَّمه لزكريا، لإزالةِ استغرابه!

قالَ تعالى في قصة زكريا: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٧ ـ ٩].

وقالَ تعالى في قصة مريم: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٩ ـ ٢١].

ونَدعو إلى الوقوفِ على مظاهرِ الاتفاقِ والاختلافِ في التعبيرِ عن الحالتيْن!

وبعدما أَخبرها جبريلُ أنَّ خلْقَ عيسى بهذه الطريقةِ المعجزةِ هينٌ سهلٌ ميسورٌ على الله، ذكَرَ لها حكمةَ اللّهِ من خلقه، وأَخبرَها بقولِ الله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّآ..﴾.

اللامُ في «لنجعله» لامُ التعليل. والهاءُ فيها ضميرٌ يعودُ على عيسى عليه السلام. أي: خلَقْنا عيسى بهذهِ الكيفيةِ لنجعلَه آيةً للناس، على قدرتنا المطلقة، وإِرادتِنا النافذة، ليَعرفوا من هذه الآية أنَّ ما أَلِفوه واعتادوه، في حصْرِ التناسلِ عن طريقِ التزاوجِ بين الذكَرِ والأُنثى، إنما يقيِّدُهم هم، ولكنه لا يقيِّدُنا نحن، فنحنُ نفعلُ ما نشاء!!.

وخلَقْناهُ هكذا لنجعلَه رحمةً منّا للناس، فسوفَ نبعثُه نبياً رسولاً، والرسولُ رحمةٌ منا للعالمين.

«وكان أمراً مقضياً»:

وهكذا أَبلغَ جبريلُ عليه السلام ـ المتمثلُ في صورةِ بشرٍ سويّ ـ مريمَ بالأمر، وأزالَ استغرابَها بالإحالةِ على قدرةِ اللّهِ النافذةِ المطلقة، وانتهى كلُّ شيء، وعَلقت الآيةُ على ذلك بقولها: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

واسم «كان» مقدَّر، تقديرُه «الخَلْق». أي: وكانَ خلْقُ عيسى أمراً مقضياً مفروغاً منه!!

والراجحُ أنَّ جملةَ ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ ليستْ معطوفةً على ما

قبلَها، أَي أَنها ليستْ من كلامِ جبريل، ولا يُخبرُها فيه أَنَّ اللّهَ قدْ قدَّرَ خلْقَ عيسى فيها بهذه الكيفية، ولا تراجُعَ عن هذا الأمرِ المقضيّ.

الراجحُ أَنها جملةٌ مستأنفة، الواوُ فيها «وكان...» حرفُ استئناف، وليستْ حرفَ عطف. وهذه الجملةُ إِخبارٌ من اللّهِ بأَنه قد تمَّ الأَمْرُ وقُضيَ وفُرغَ منه، وانتهى كلُّ شيء، حيثُ نَفَخَ جبريلُ في مريم، منفِّذاً أمْرَ الله، فحملَتْ مريم بعيسى، وتتابعَتْ مشاهدُ القصة بعد ذلك!

قالَ سيد قطب: «بذلك انتهى الحوارُ بينَ الروحِ الأمين ومريمَ العذراء.. ولا يذكُرُ السياق ماذا كانَ بعد الحوار، فهنا فجوةٌ من فجواتِ العرضِ الفنيِّ للقصة...»[1].

إِنَّ الآياتِ لم تفصِّلْ لنا كيفيةَ نفخ جبريلَ في مريم، لأنَّ هذه كيفيةٌ غيبية، غيرُ قابلةٍ للقياس بالمقاييسِ العقلية، التي تَقيسُ بها عقولُنا الأحداثَ وتُحللُها، فهي فوقَ مستوى عقولِنا ومدارِكنا وتصوراتِنا!!

وكأنَّ هذه الجملة: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ تَدعونا إِلى تجاوزِ الخوضِ في نفخِ جبريلَ في مريم، وعدم الوقوف عنده، بل الانتقالُ منه إِلى مشاهدِ القصةِ اللاحقة، فالأمْرُ قد قُضي، وجبريلُ نَفَخَ في مريم، وحملَتْ بعيسى، وانتهى كلُّ شيء!!.

هذا وقد ذكرتْ لنا آياتٌ أُخرى أَنَّ جبريلَ عليه السلام نفخَ في مريم، فحملت بعيسى، لكن هذا النفخَ مجملٌ غيرُ مفصل! وهذا في المبحث التالي إن شاء الله!!.

[٧]
«فنفخنا فيها من روحنا»...

أَخبرَنا اللّهُ أَنَّ جبريلَ عليه السلام نفخَ في مريم من روحِ الله، فحملَتْ بعيسى عليه السلام.

---

(١) في ظلال القرآن ٤:٢٣٠٦.

ووردَ ذلك في معرضِ الثناءِ على مريم رضي الله عنها، والإشادةِ بعفتِها وإِحصانِها.

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].

الإحصان في القرآن للرجال والنساء:

وقال تعالى في سورة التحريم: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التحريم: ١٢].

لقد سبقَ الحديثَ عن النفخ في مريم الحديثُ عن إِحصانِها وعفتها: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا...﴾.

والتعبيرُ عن العفةِ والطهارةِ وعدمِ ارتكاب الفواحش بالإحصانِ وردَ في أكثرَ من آيةٍ في القرآن.

منها قولُه تعالى في إِحصانِ النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٢٣﴾ [النور: ٢٣].

ومنها قولُه تعالى في إِحصانِ الرجال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ...﴾ [النساء: ٢٤].

وقد جَمعتْ آيةٌ بين إِحصانِ النساءِ وإِحصانِ الرجال، وهي قولُه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ...﴾ [المائدة: ٥].

ويلاحَظُ أنَّ القرآنَ عبَّرَ عن إِحصانِ الرجالِ باسمِ الفاعل: «محصِنين»، بينما عَبَّرَ عن إِحصانِ النساءِ باسمِ المفعول: «محصَنات».

وهذا للإشارةِ إلى أنَّ الرجلَ هو الذي يَقومُ بإحصانِ المرأة، ويُشرفُ عليه ويتابعُه، فله القوامةُ عليها.

واللطيفُ إطلاقُ كلمةِ «إحصان» على العفةِ وعدمِ ارتكاب الزنا.

قالَ الإمامُ ابنُ فارس: «الحاءُ والصادُ والنون: أصْلٌ واحدٌ مُنْقاس، وهو: الحفظُ والحياطةُ والحرز.

فالحِصْنُ مَعْروف، وجمعُه حُصون.

والحَصان: المرأةُ المتعفِّفَةُ الحاصِنةُ فرجِها.

قالَ أحمدُ بنُ يحيى ـ ثعلب ـ كلُّ امرأةٍ عفيفةٍ فهي محصِنة ومحصَنة، وكلُّ امرأةٍ متزوجة فهي محصَنة لا غير ـ باسم المفعول[1] ـ.

وقالَ الإمامُ الراغب: «الحَصان: المحصَنة، إمّا بعفّتِها، أو تزوُّجِها، أو بمانعٍ من شرفِها وحريتِها.

ويقال: امرأةٌ مُحصِن ومحصَن. فالمُحْصِن: إذا تُصُوِّرَ حصْنُها من نفسها. والمِحْصَن: إذا تُصُوِّرَ حصْنُها من غيرها.

ولهذا قيل «المحصَنات»: المزوجات. تصوُّراً أنَّ زوجَها هو الذي أَحصنها...»[2].

المرأةُ المزوَّجة «مُحْصَنة» ـ باسم المفعول ـ لأنَّ زوْجَها هو الذي أَحصنها، وحفظَها ومنعَها من ارتكابِ الفاحشة، فهو يلبّي حاجتَها، ويُشبعُ غريزتَها، فلا تتطلعُ إلى غيرِه من الرجال.

والمرأةُ غيرُ المتزوجةِ العفيفةُ «مُحْصِنة» ـ باسم الفاعل ـ فليسَ لها زوجٌ يُحصنُها ويلبّي حاجتَها الجنسية، ولكنها هي التي تُحْصِنُ نفسها، وتحافظُ على عرضِها، وتحققُ عفَّتَها وطهارتَها. إنها تملكُ الغريزة

(١) مقاييس اللغة: ٢٦٧.

(٢) المفردات: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

والشهوة، ولكنها تَستعلي على شهوتِها، ولا تتطلعُ إلى الرجالِ بالحرام، وتجاهدُ نفسَها وشهوتَها لتحافظَ على عفتِها وطهارتِها.

مريم أحصنت فرجها بعفتها وطهارتها:

وإِحصانُ مريمَ رضي الله عنها من بابِ اسم الفاعل، فهي «مُحْصِنَة» لنفسِها ولفرجِها، لعدمِ وجودِ زوجٍ يحصنُها، وإنما إحصانُها لنفسِها بتساميها واستعلائِها على الضعفِ والشهوة، وارتفاعِها إلى منازلِ المقرَّبين عند الله، وانشغالِها بالعبادةِ والذكر، وسعادتِها بمناجاةِ الله والاتصالِ به.

ولهذا قال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ فأَسندَ الإِحصانَ إليها، تقول: أَحْصَن، فهو مُحْصِن.

ولو أَرادَ القرآنُ اسمَ المفعول لقال: «أُحصنت» فبنى الفعل للمجهول. تقول: أُحْصِن، فهو مُحْصَن.

أَحصنَتْ مريمُ فرجَها رضي الله عنها، فكانت عفيفةً طاهرة.

وفرجُ المرأةِ معروف. قالَ الإمامُ الراغب: «الفَرْجُ: الشّقُّ بين الشيئين. والفرْجُ: ما بينَ الرجلين.

وكُنّي بالفرجِ عن السوأة، وكَثُر، حتى صارَ كالصريحِ فيه»[1].

وسُميَ فرجُ المرأةِ فَرْجاً لما فيه من معنى الشّق.

والثناءُ على مريم بأَنها أَحصنَتْ فرجَها، والشهادةُ لها بعفَّتِها وطهارتِها، لتكذيبِ اليهودِ الكفارِ الملعونين، الذين اتَّهموها في عرضِها، وقالوا فيها قولاً عظيماً.

وهذه الشهادةُ لها في القرآن دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وأنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ.

---

(١) المفردات: ٦٢٨.

التوفيق بين «نفخنا فيها» و«نفخنا فيه»:

ولما أَرادَ اللّٰهُ تحقيقَ وتنفيذَ وعْدِه، أرسلَ الروحَ الأمينَ جبريلَ عليه السلام فنفخَ فيها، فحملَتْ بعيسى عليه السلام.

في سورةِ الأنبياء قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾، فعبَّرَ بالضميرِ المؤنث الهاء في «فيها».

وهذه الهاءُ تعودُ على مريم التي أَحصنتْ فرجَها، لأنَّ صياغةَ الآيةِ هكذا: و﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا..﴾.

وفي سورة التحريم قال: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾: فعبَّرَ بالضميرِ المذكَّر: «فيه». والهاءُ تعودُ على الفرج: «فرجها»، وهو مذكَّرٌ في اللفظ.

والمعنى: أَحصنَتْ مريمُ ابنةُ عمران فرجَها، فنفخنا في فرجها من روحنا..

وذهبَ بعضُهم إِلى أنَّ المرادَ بالفرجِ فتحةُ ثوبِ مريم، وليس فرجَها هي، وقالوا إِنَّ معنى «أحصنت فرجها» أَنها صانَتْ ثوبَها، فلم يمسَّه أَحد، ولم يمسَّ فتحتَه التي عندَ عنقِها أَحد، واعتبروا هذا مبالغةً في الثناءِ عليها، والشهادةِ بعفتها وطهارتها. فإذا كانتْ قد أَحصنَتْ فرجَ ثوبها، ولم يَقتربْ أحدٌ من فتحته، فإِحصانُها لفرجها الحقيقي من بابِ أولى.

وقالَ هؤلاء إِنَّ جبريلَ قد نفخَ في «فرج ثوبها»، أي أمسَكَ بفتحةِ الثوبِ ونفخَ فيه، وذَهبت النفخةُ إِلى جسم مريم، ودخلَتْ رحمها، فحملَتْ بعيسى.

ولا داعي لهذا القولِ لأنَّ القرآنَ قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ وقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾، والأصْلُ حملُ النفخِ على ظاهره.

فالراجحُ أنَّ جبريلَ عليه السلام نفخَ في فرجها، فذهبت النفخةُ إِلى رحمها، وحملَتْ بعيسى.

نقولُ بهذا، ولا نخوضُ في كيفيةِ النفخ، فهذه كيفيةٌ غيبية، لا نخوضُ فيها، لأنَّ النصوص لم تذكرها، ولم تبينها.

ولا تناقضَ بين قولِه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ و﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾.

إنَّ قولَه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ واردٌ في سورةِ الأنبياء، وهي سورةٌ مكية، وهو يخبرُ أنَّ النفخةَ كانتْ في مريم، أيْ في بدنِها، وهذا تعبيرٌ عام.

أما قولُه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ فهو واردٌ في سورة التحريم، وهي سورةٌ مدنية، وهي نازلةٌ بعد سورةِ الأنبياء، والإخبارُ فيها أنَّ النفخةَ كانت في فرجها، وهذا تعبيرٌ خاص.

إذنْ «نفخنا فيها» ذكْرٌ للعامِّ أولاً، و«نفخنا فيه» ذكْرٌ للخاصِّ بعد ذلك، فلا تعارضَ بين الآيتين. فجبريلُ عليه السلام نفخَ في بدنِ مريم، وكانت نفختُه في فرجِها على التخصيص.

التوفيق بين «نفخت فيه» لآدم، و«نفخنا فيه» لعيسى:

وإذا كانَ اللّهُ قد خلقَ آدمَ عليه السلام بأنْ نفخَ فيه من روحِه، فإنه خلقَ عيسى بأنْ أَمَرَ جبريلَ أنْ ينفخَ في مريمَ من روحِه.

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أَنَّهُ فَرَّقَ بين النفخةِ في خلْقِ آدم والنفخةِ في خلْقِ عيسى.

فعبَّرَ عن النفخةِ في خلقِ آدمَ بالمفرد، ووردَ هذا في موضعيْن في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢].

بينما عَبَّرَ عن النفخةِ في خلق عيسى بالجَمْع: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا..﴾ [الأنبياء: ٩١].

و﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا..﴾ [التحريم: ١٢].

فما حكمةُ التعبيرِ بالمفردِ في نفخِ الروحِ في آدم، والتعبيرِ بالجمعِ في نفخِ الروحِ في عيسى عليهما السلام؟

بالنسبةِ لآدمَ عليه السلام فإنَّ اللّهَ هو الذي نفخَ في جسدِه الممدَّد، وكانتْ نفخةً مباشرةً من الله، فدبَّتْ في آدمَ الروح، وقامَ إنساناً حياً، وكانت النفخةُ بكيفيةٍ غيبيةٍ، نحنُ لا نعرفُها ولا ندركها.

ولهذا قالَ: «فنفخت فيه»، وأَسندَ النفخَ إلى ذاتِه العليةِ سبحانه وتعالى.

أَمّا بالنسبةِ لعيسى عليه السلام، فإنَّ اللّهَ بعثَ جبريلَ عليه السلام لينفخَ في مريمَ رضي الله عنها من روحِه، فقامَ جبريلُ بالمهمةِ وتمت النفخة.

ولهذا عَبَّر بالجمع: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾: لاجتماعِ كلٍّ من المسَبِّبِ والسبب، فاللّهُ هو المسَبِّبُ في النفخ، لأنه هو الذي أَمَرَ بالنفخ، وقَدَّرَ ذلك وأَرادَه، فأَساسُ النفخ منه سبحانه وتعالى.

وجبريلُ هو السببُ الماديُّ الذي قامَ بالنفخ، ونَفَّذَ أَمْرَ الله، وحَقَّقَ إرادةَ اللّهِ في عالم الواقع. فلما اجتمعَ المسَبِّبُ والسببُ عَبَّرَ بالجمع وقال: «فنفخنا». علماً أنَّ اللّهَ هو الذي نفخَ في مريمَ في الحقيقة، لأَنه المسبِّبُ والآمِرُ والمريد.

فضميرُ «نا» في «نفخنا» هو ضميرُ العظمة، لعودتِه في الحقيقةِ على الله.

و«روحِنا» في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ مُضافةٌ إلى الله، وهي الروحُ التي اختصَّ بها، والتي لا يَعلمُ سِرَّها ولا حقيقَتَها أحدٌ من خلقه.

«روحنا»: جبريل. وروح الله الغيبية:

ولقد استعملَ القرآنُ كلمةَ «روحنا» في قصةِ عيسى عليه السلام بمعنيين:

الأول: جبريلُ. وذلك في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾.

الثاني: روحُ اللّهِ الخفيةُ الغيبية، التي يجعلُها في الناسِ الأحياء، وذلك في قوله: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا..﴾.

قال سيد قطب: «هل كلمةُ «روحِنا» التي في سورةِ مريم هي نفسُها التي في سورة التحريم؟ وهل مدلولُها واحد؟...

نَحنُ نَميلُ إلى أَنّها ذاتُ مدلولَيْن: فهي في سورةِ مريم تَعني جبريلَ الروحَ الأمين، وهو رسولُ الله إلى مريم.

أَما في سورةِ التحريم فتعني الروحَ الذي نفخَ اللّهُ منه في آدم، فإذا هو إنسان، ونفخَ منه في فرج مريم، فإذا البويضةُ حيةً مستعدةً للنمو..

فهي النفخةُ الإلهية التي تمنحُ الحياةَ، وتمنحُ معها الخصائصَ المرافقةَ لنوع الحياة...

... وإننا لا ندركُ شيئاً، لا عن ماهيةِ الروح بمعنى جبريل، ولا عن ماهيةِ الروح بالمعنى الآخر.. فكلُّه غيب...»[1].

معنى كون عيسى «كلمة الله وروح منه»:

وبما أنَّ جبريلَ عليه السلام نفخَ في مريمَ من روحِ الله، وتَكَوَّنَ من تلك النفخة عيسى عليه السلام، فقد اعْتُبر عيسى كلمةَ الله التي أَلقاها إلى مريم، كما اعْتُبر روحاً من الله سبحانه

---

(١) الظلال ٤: ٢٣٠٦ حاشية.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ...﴾ [النساء: ١٧١].

و«من» في قوله: «نفخنا فيه مِن روحنا» وقوله: «روح مِنه» ليستْ للتبعيض، لأنَّ روحَ الله لا تتبعض، ولا تتجزأ، ولا تنقسمُ إلى أبعاضٍ وجزئياتٍ وأقسام.

إنَّ «مِن» هنا لابتداءِ الغاية، فهي من عندِ الله سبحانه وتعالى.

قالَ الإمامُ السمينُ الحلبي في الدّرِّ المصون: «و«روحٌ» عطف على «كلمةٌ».

و«مِنه»: صفةٌ لـ«روح».

و«مِن»: لابتداءِ الغاية مَجازاً. وليستْ تبعيضية.

ومِن غريبِ ما يُحكى أنَّ بعضَ النصارى ناظَرَ عليَّ بنَ الحسينِ بن واقد المروزي، وقالَ له: في كتابِ الله «القرآن» ما يَشهدُ أنَّ عيسى جزءٌ من الله! وتلا هذه الآية: «وروح منه».

فعارَضَه ابنُ واقد بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ..﴾ [الجاثية: ١٣].

وقالَ له: لو صَحَّ كلامُك للزمَ أنْ تكونَ جميعُ هذه الأشياءِ في السموات والأرض جزءاً من الله. وهذا مستحيل.

فسكتَ النصرانيُّ وانقطعَ، ثم أَسلم..»[(١)].

---

(١) انظر الدر المصون ٤:١٦٦.

أما معنى «الكلمة» في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ فهي كلمةُ اللّهِ التي يخلقُ اللّهُ بها المخلوقات، وهي «كن».

قال سيد قطب: «وأَقربُ تفسيرٍ لهذه العبارة، أَنه سبحانه، خلقَ عيسى بالأمرِ الكونيِّ المباشر، الذي يقولُ عنه في مواضعَ شتى من القرآن: إنه «كن.. فيكون». فلقد أَلقى هذه الكلمةَ إلى مريم، فخلقَ عيسى في بطنها، من غيرِ نطفةِ أَب ـ كما هو المألوفُ في حياةِ البشر غير آدم ـ والكلمةُ التي تَخلقُ كلَّ شيءٍ من العدم، لا عجبَ في أنْ تخلقَ عيسى عليه السلام في بطنِ مريم من النفخة التي يعبِّرُ عنها بقوله: «وروح منه»[1].

وهكذا تحققَتْ إِرادةُ الله، ونَفَخَ جبريلُ في مريم من روحِ الله، وكانَتْ هذه الروحُ التي نفخَها فيها من عندِ الله، كما كانت بأمْرٍ من الله، وهي أَمْرٌ غيبيٌّ لا نعرفُ حقيقتَه ولا سِرَّه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [٨٥].

النفخ في مريم غيبي لا يخضع لتكييف العقل:

ونَفَخَ جبريلُ في مريمَ بطريقةٍ غيبية، لا نعرفُ كيفيتَها، وعقولُنا لا تدركُها.. وانتقلَتْ هذه «الروحُ» النفخةُ من فرجِ مريمَ إِلى رحمِها، وهناك صارتْ هذه النفخةُ الروحُ جنيناً حياً، ولا نعرفُ كيفَ انتقلت، ولا كيفَ صارتْ جنيناً حياً، ولا ما الذي جَرى في رحم مريم من تطوراتٍ وتفاعلاتٍ لتتحولَ هذه النفخةُ الروحُ إلى جَنينٍ حي.

لا نعرفُ ذلك لأَنه من عالَمِ الغيب، وعقولُنا البشريةُ لم تجهَّزْ بوسائلَ للخوضِ في عالم الغيب، لأَنَّ اللّهَ زوَّدَها بالوسائلِ التي تعينُها على تحقيقِ خلافةِ الإنسانِ في الأرض.

أما عالَمُ الغيب فطريقُ العقلِ المسلمِ إلى معرفتِه هو النص،

---

(١) في ظلال القرآن ٢: ٨١٧.

المتمثلُ في الكتابِ والسنة، حيثُ يؤمنُ بما وردَ في النص، ويكونُ دورُه هو تدبُّرُ النصِّ وحسنُ فهمِه وفقهِه وتأويلِه.

وهكذا حملَتْ مريمُ رضي الله عنها وهي البكْرُ العذراءُ البتولُ الطاهرة بابنها عيسى، بعدما نفخَ جبريلُ فيها من روحِ الله.

حكمة خلق عيسى من غير أب:

ولعلَّ الحكمةَ في خلقِ اللّهِ عيسى بنفخةٍ في مريم مباشرة هي ما ذَكَرَها سيد قطب في قوله: «وإذا نحنُ تجاوَزْنا حادثَ خلقِ الإنسانِ أَصلاً وإنشائِه على هذه الصورة، فإنَّ حادثَ ولادةِ عيسى ابنِ مريم يكونُ أَعجبَ ما شهدَتْهُ البشريةُ في تاريخها كلِّه، ويكونُ حادثاً فَذّاً لا نظيرَ له من قبلِه ولا من بعده...

والبشريةُ لم تشهدْ خلْقَ نفسِها، وهو الحادثُ العجيبُ الضخمُ في حياتها! لم تشهدْ خلْقَ الإنسانِ الأولِ من غيرِ أبٍ ولا أم، وقد مضتِ القرونُ بعدَ ذلك الحادث.

فشاءت الحكمةُ الإلهيةُ أنْ تُبرزَ العجيبةَ الثانيةَ في مولدِ عيسى من غيرِ أب، على غيرِ السّنّةِ التي جرتْ منذُ وُجدَ الإنسانُ على هذه الأرض، ليشهدَها البشر، ثم تظلّ في سجلِّ البشرية بارزةً فذة، تتلفتُ إليها الأجيال، إنْ عَزَّ عليها أنْ تتلفتَ إلى العجيبةِ الأُولى التي لم يشهدْها إنسان!

لقد جرتْ سنةُ اللّهِ التي وضعَها لامتدادِ الحياة بالتناسلِ من ذكرٍ وأنثى، في جميعِ الفصائلِ والأنواعِ بلا استثناء. حتى المخلوقاتِ التي لا يوجَدُ فيها ذكَرٌ وأُنثى متميزان، تتجمعُ في الفردِ الواحد منها خلايا التذكيرِ والتأنيث..

جرتْ هذه السّنّةُ أَحقاباً طويلة، حتى استقرَّ في تصورِ البشر أنَّ هذه هي الطريقةُ الوحيدة.. ونسوا الحادثَ الأول. حادثَ وجودِ الإنسان، لأَنه خارجٌ عن القياس.

فأرادَ اللّهُ أنْ يضربَ لهم مَثَلَ عيسى ابن مريم عليه السلام، ليذكِّرَهم بحريةِ القدرةِ وطلاقةِ الإرادة، وأَنها لا تحتبسُ داخلَ النواميس التي تختارها. .

ولم يتكرَّرْ حادثُ عيسى لأنَّ الأصلَ هو أنْ تجريَ السنةُ التي وضعَها الله، وأن يُنَفَّذَ الناموسُ الذي اختاره.

وهذه الواحدةُ تكفي، لتبقى أمامَ أَنظارِ البشرية مَعْلَماً بارزاً على حريةِ المشيئة، وعدمِ احتباسها داخلَ حدودِ النواميس ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾.

ونظراً لغرابةِ الحادثِ وضخامتِه، فقد عَزَّ على فِرَقٍ من الناس أنْ تتصوَّرَه على طبيعته، وأنْ تدركَ الحكمةَ في إبرازِه، فجعلَتْ تُضفي على عيسى ابن مريم عليه السلام صفاتِ أُلوهية، وتَصوغُ حولَ مولده الخرافاتِ والأساطير، وتعكسُ الحكمةَ من خلْقِه على هذا النحوِ العجيب ـ وهي إثباتُ القدرةِ الإلهية التي لا تتقيد ـ تعكسُها فتشوِّهُ عقيدةَ التوحيد. . .»[1].

وقد أَوْرَدْنا كلامَ سيد قطب على طوله، معتمدين له، فهذه الحكمةُ التي تبدو لنا من هذه الحادثةِ المعجزة، والله تعالى أعلم.

[٨]

مريم تلد عيسى عليه السلام

قابلَ جبريلُ عليه السلام مريم، وهي منفردةٌ عن أَهلها، منتبذةٌ منهم مكاناً شرقياً، ونفخَ فيها نفخةً بأمْرِ الله، وكان في النفخةِ كلمةُ اللّهِ الأزليةُ «كن»، وفيها روحٌ من عندِ الله، وشاءَ اللّهُ أنْ يتخلقَ الجنينُ في رحمِها بتلك النفخة، فحملَتْ بعيسى عليه السلام.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٠٤ ـ ٢٣٠٥.

حديث القرآن عن ولادة مريم لعيسى:

وقد أَشارَتْ آياتُ القرآنِ بإِيجازٍ إلى مشهدِ ولادةِ مريم الفتاة العذراء لابنِها عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٢ ـ ٢٦].

وعرضت الآياتُ لقطاتِ هذا المشهدِ المؤثر متتابعةً متعاقبة، معطوفٌ بعضُها على بعض بحرفِ «الفاء» الذي يدلُّ على الترتيبِ والتعقيب الفوري.

وجملة «فحملَتْه» معطوفةٌ على ما قبلها: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

والمرادُ بقوله: «كان أمراً مقضياً». أنَّ جبريلَ نفخَ في مريمَ نفخةً فيها الكلمةُ من الله والروحُ من الله، فتمَّ خلْقُ الجنين في رحمها.

والتقدير: نفخَ جبريلُ في مريم، فخلَقَ اللّهُ عيسى في رحمها، فصارَ جَنيناً حياً، فحملَتْ مريمُ جنينَها، فانتبذَتْ به مكاناً قصياً.

وبَيَّنّا عند كلامِنا على قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أنَّ الانتباذَ هو الابتعادُ والانفرادُ عن الآخرين واعتزالُهم.

وأَخبرَنا اللّهُ أنَّ مريمَ لما أحسَّتْ بالجنينِ في رحمها انتبذَتْ من أَهْلِها، وذهبتْ إلى مكانٍ قصيٍّ بَعيد.

لقد ذكرت الآياتُ انتباذَيْن لمريم، يَقومان على المرحليةِ والتدرج.

الأول: انتباذٌ عام، وهو المذكورُ في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا..﴾.

وهذا انتباذُ اعتادَته، واعتادَهُ منها أهلُها، حيث كانت تقومُ به، وتبتعدُ عن أَهلها إِلى مكانٍ يقعُ شرقيَّ أماكنهم، وكان لها فيه حجابٌ أَو بناءٌ أَو صومعة، وكانت تعبدُ اللّهَ وتُناجيه في ذلك المكانِ الشرقي.

انتباذ مريم الثاني القصي:

الثاني: انتباذٌ خاص، وهو المذكورُ في قوله: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾.

وهذا كان بعدما حملَتْ بعيسى، وحملَتْ به عندما كانتْ في حجابها في المكانِ الشرقي، الذي ذكَرَهُ الانتباذُ الأول.

أي أنَّ الانتباذَ الثانيَّ بُنيَ على الانتباذِ الأول، وكان نتيجةً له، حيث غادرَتْ ذلك المكانَ الشرقي، وذهبتْ إِلى المكانِ القصي، وبذلك ابتعدَتْ عن أهلِها مسافةً أَبعد.

و«قصياً»: صفةٌ مُشَبَّهَة على وزن «فَعيل» بمعنى: بعيد.

ونلاحظُ أنَّ فعلَ «انتبذت» الأول تعدّى إِلى ما بعدَه بحرف «مِن»: «فانتبذت من أهلها». فدلَّ على معنى المفارقةِ والانفرادِ عن أَهلها.

أمّا فعلُ «انتبذت» الثاني، فقد تعدّى إِلى ما بعدَه بحرفِ الجر الباء: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾. فدلَّ على معنى المصاحبة. والهاء في «به» تعودُ على عيسى الجنينِ في رحمها.

وذهبتْ إِلى ذلكَ المكانِ القصي، رغبةً منها في المبالغةِ في الابتعادِ عن أهلها، لأنها خَشيت الفضيحة، وخافَتْ من كلامِهم ونظراتِهم واتهامِهم، وتوقعَت استغرابَهم ودهشتَهم.

وهذا الاستغرابُ أمرٌ طبيعي، فهي فتاةٌ عذراءُ بتولٌ طاهرةٌ صالحة، يَعرفُ أهلُها صلاحَها وطهارتَها، وها هي تحملُ في بطنها جنينَها، فمن أينَ جاءَها؟ هل يصدقون روايتَها بأنه نفخَةٌ من الله، وأَنه لم يمسَّها رجل؟

فلعلَّها أحبَّتْ أنْ تبتعدَ عن قومِها، وأنْ تنتبذَ بجنينها إلى ذلك المكان القصي، لتسلمَ من اتهاماتِ أَهلها، وتنجوَ من نظراتهم!

المكان القصي هو بيت لحم والدليل من الحديث:

ولم يُحَدَّدْ ذلكَ المكانُ القصيُّ في القرآن، وهو معروفٌ عند النصارى والمؤرخين بأنه «بيتُ لحم». حيث أَقامتْ فيه مريم وأَنجبتْ فيه عيسى عليه السلام، ثم عادَتْ إلى أهلها وهي تحملُه.

وردَ في «قاموسِ الكتاب المقدس» عن بيت لحم ما يلي: «بيتُ لحم: اسمٌ عبري، معناه «بيتُ الخبز». وهي قريةٌ صغيرة، مبنيةٌ على أَكمة، تبعدُ ستةَ أميالٍ إلى الجنوب من أُورشليم - بيت المقدس - وهي محاطةٌ بتلالٍ تكسوها الأشجارُ والنباتاتُ الجميلة. وفيها مياهٌ عذبةٌ تنفجرُ من أَراضيها الخصبة.

وكانَ داودُ عليه السلام يشربُ الماءَ من البئرِ الذي فيها.

وكانت مدفنَ راحيل، ومسقطَ رأسِ داود، ومسكنَ نعمى وبوعز وراعوث.

وأعظمُ من ذلك جميعِه أَنه وُلِدَ فيها المخلِّص.

ولبيت لحم أَكثرُ من أربعةِ آلاف سنة منذُ أُسست، ولم تزلْ صغيرةً حتى إلى ما بعدَ أيام المسيح.

وبَنَت الأمبراطورةُ «هيلانة» كنيسةً فوقَ المغارةِ التي يُظَنُّ أنَّ مخلِّصَنا وُلدَ فيها، وهي أَقدمُ كنيسةٍ مسيحيةٍ في العالم، وهي كنيسة المهد...»[1].

ومَرَّ رسولُ الله ﷺ ليلةَ الإسراء ببيت لحم، وأَمَرَهُ جبريلُ عليه السلام أنْ ينزلَ فيصليَّ فيها، وأَخبرَه أَنها مكانُ ميلادِ عيسى عليه السلام.

---

(١) قاموس الكتاب المقدس لبطرس عبد الملك ورفقاه: ٢٠٥ - ٢٠٦.

روى النسائيُّ عن أنسِ بنِ مالك رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «أُتيتُ بدابَّةٍ فوقَ الحمار ودونَ البَغْل، خَطْوُها عند منتهى طَرْفِها، فركبْتُ، ومعي جبريلُ عليه السلام.

فسِرْتُ. فقالَ: انزلْ فَصَلِّ. فنزلْتُ فصليتُ.

فقال: أَتدري أينَ صليتَ؟ صليتَ بطَيْبَة، وإليها المُهاجَر!

ثم قال: انزلْ فَصَلِّ، فنزلْتُ فصلَّيْتُ.

فقال: أَتدري أينَ صلَّيْتَ؟ صليتَ بطورِ سيناء، حيثُ كلَّمَ اللّهُ عز وجل موسى عليه السلام.

ثم قال: انزلْ فَصَلِّ. فنزلْتُ فصلَّيْتُ.

فقال: أَتَدري أينَ صليت؟ صليتَ ببيت لحم، حيث وُلدَ عيسى عليه السلام.

ثم دَخَلْتُ بيتَ المقدس، فجُمِعَ لي الأنبياءُ عليهم السلام، فقدَّمَني جبريل حتى أَمَمْتُهم...»[1].

والشاهدُ في الحديثِ أنَّ جبريلَ عليه السلام أَمَرَ محمداً ﷺ أنْ ينزلَ فيصليَ في «بيت لحم»، وأَخبرَه أَنها مكانُ ولادةِ عيسى عليه السلام.

وقد علَّقَ الإمامُ ابنُ كثير على هذا الحديثِ بقوله: «وفي روايةِ عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّه: كان ذلك على ثمانيةِ أميالٍ من بيت المقدس، في قريةٍ هناك يقال لها بيت لحم.

وقد تقدَّمَ في أَحاديثِ الإسراءِ من روايةِ النسائي عن أَنسٍ رضي الله عنه، والبيهقي عن شَدّادِ بن أَوْس رضي الله عنه، أَنَّ ذلك ببيت لحم، فاللّهُ أعلم.

---

(١) أخرجه النسائي برقم: ٤٥٠. ورواه البيهقي بألفاظ أخرى عن شداد بن أوس.

وهذا هو المشهور، الذي تلَقّاه الناسُ بعضُهم عن بعض، ولا يَشُكُّ فيه النصارى أَنه ببيت لحم، وقد تلقّاه الناس، وقد وردَ به الحديثُ إِنْ صَحّ..»[1].

ويلاحَظُ أنَّ الإمامَ ابنَ كثير قد توقَّفَ في الحكم على الحديثِ وتصحيحه، بينما حكمَ الإمامُ البيهقيُّ له بالصحة. فقالَ بعدَ ذكْرِه له: «هذا إِسنادٌ صحيح..»[2].

ونحنُ نتابعُ الإمامَ البيهقيَّ في تصحيحِ الحديث، فهو حافِظٌ محدث، ونعتمدُ الحديث، ونذهبُ إلى أنَّ عيسى عليه السلام وُلِدَ في «بيت لحم».

والخلاصة: الراجحُ أنَّ «المكانَ القصيَّ» المذكورَ في قوله تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ هو المكانُ الذي وَلدتْ فيه ابنَها عيسى عليه السلام، وهذا المكانُ هو بيت لحم، كما وردَ في حديث الإسراء.

و«بيتُ لحم» مكانٌ قصيٌّ بالنسبةِ إِلى القدس، لأَنها تبعدُ عن القدس حوالي تسعةَ أميال.

حملها وولادتها في ساعات والدليل على ذلك:

ولما ذهبتْ مريمُ إِلى المكانِ القصيِّ في بيت لحم، منتبذةً بابنِها من أهلِها، أَحستْ هناك بآلام المخاضِ والطلقِ والوضع. قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ..﴾.

الفاءُ في الفعل: «فَأَجاءَها» حرفُ عطف، يدلُّ على الترتيبِ والتعقيبِ الفوري، وما بعدَها معطوفٌ على ما قبلَها، والتقدير: فحملَتْه، فانتبذَتْ به، فأَجاءَها المخاص..!!

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١١٤.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢: ٣٥٥ ـ ٣٥٧.

والتعبيرُ عن مراحلِ حمْلِها بعيسى وولادتِه بالفاء، الدالةِ أَصلاً على الترتيبِ مع التعقيب الفوري، جعلَ العلماءَ يختلفون في مدةِ حملها بعيسى: هل حملَتْه حَمْلاً طبيعياً، استمرَّ مدةَ تسعةِ أشهر، كما تَحملُ النساء، أم كان حملاً خاصاً لم يستمرَّ أكثرَ من ساعات.

ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أَنَّ حَمْلَها استمرَّ تسعة أشهر. وممن قال بذلك الإمامُ ابن كثير. وحملَ «الفاءَ» الدالةَ على التعقيب، على ترتيبِ وتعقيبِ مراحلِ الحمل التي يمرُّ بها الجنين، على التفاوتِ الزمنيِّ بينها.

قال: «فالفاءُ ـ وإنْ كانت للتعقيب ـ لكن تعقيبٌ على كلِّ شيءٍ بحسبه، وهي كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا...﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

... فالمشهورُ الظاهرُ ـ والله على كلِّ شيء قدير ـ أَنها حملت به كما تحملُ النساءُ بأولادهن...»[١].

وذهبَ آخَرون إلى أنَّ مدةَ حمْلها كانت سريعة. وهذا قولٌ منسوبٌ لابنِ عباس رضي الله عنهما.

روى الطبريُّ وابنُ كثير أنَّ ابنَ عباس رضي الله عنهما قال: ما هو إلاّ أنْ حملَتْ وولدَتْ، فليسَ بين حملها وولادتها زمن[٢].

وبعدَ أنِ اطَّلَعَ سيد قطب على القولين، مالَ إلى التوقفِ في الخوضِ في مدةِ الحمل، وعدمِ ترجيحِ أَحدهما على الآخر: «إنَّ السياقَ لا يذكُرُ كيفَ حملَتْه، ولا كم حملَتْه.. هل كانَ حَمْلاً عادياً، كما تَحملُ النساء، وتكونُ النفخةُ قد بَعثتِ الحياةَ والنشاطَ في البويضة، فإذا هي علقةٌ فمضغةٌ فعظام، ثم تُكسى العظامُ باللحم، ويَستكملُ الجنينُ أيامَه المعهودة؟ إنَّ هذا جائز.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١١٤.

(٢) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٧. وتفسير ابن كثير ٣: ١١٤.

فبويضةُ المرأةِ تبدأُ بعد التلقيحِ في النشاطِ والنموِّ حتى تستكملَ تسعةَ أشهرٍ قمرية.

والنفخةُ تكونُ قد أَدَّتْ دورَ التلقيح فسارت البويضةُ سيرتَها الطبيعية.

كما أَنه من الجائزِ في مثلِ هذه الحالة الخاصة أنْ لا تسيرَ البويضةُ بعد النفخةِ سيرةً عادية، فتختصرُ المراحلَ اختصاراً، ويعقبُها تَكَوُّنُ الجنينِ ونموُّه واكتمالُه في فترةٍ وجيزة.

ليس في النصِّ ما يدلُّ على إِحدى الحالتين، فلا نَجري طويلاً وراءَ تحقيقِ القضيةِ التي لا سند لَها...»[1].

وإِننا نميلُ إِلى ما قالَهُ ابنُ عباس رضي الله عنهما، مِن أَنَّ حَمْلَها بعيسى لم يستمرّ أكثرَ من ساعات، وأَنها ما أنْ حملَتْ به وهي في «المكان الشرقي»، حتى انتبذَتْ به إِلى «المكانِ القصي» ـ بيت لحم ـ وهناك «أَجاءَها المخاضُ إِلى جذع النخلة..».

وممّا يُقوّي ميلَنا إِلى هذا الرأي التعبيرُ بالفاء، الدالةِ على الترتيبِ والتعقيب الفوري، والتي تُرتبُ المراحلَ ترتيباً سريعاً فورياً: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ...﴾.

وقفة مع فعل «فأجاءها»:

في المكانِ القصي ـ بيت لحم ـ الذي ذهبَتْ إِليه نخلة، ولما أَحَسَّتْ بآلامِ المخاض اضطرتْ أنْ تلجأَ إِلى تلك النخلة، وما كان هناك أحدٌ عندها.

وعَبَّرَ القرآنُ عن هذه الحالةِ المثيرةِ العجيبة بقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٣٠٦ ـ ٢٣٠٧.

ونقفُ مع معنى فعل «أَجاءَ».

إِنه من تصريفاتِ فعل «جاء».

وردَ في المعجمِ الوسيط عن الفعلَيْن ما يلي: «جاءَ مَجيئاً: أتى. يقال: جاءَه، وجاءَ إِليه، وجاءَ به.

و: أَجاءَ فلاناً: جاءَ به. وأَجاءَ فلاناً إِلى كذا: أَلْجأه إِليه.

قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾.

وفي المثل: شَرٌّ ما أَجاءَكَ إِلى مُخِّه عرقوب. يُضربُ للمضطر جداً»[1].

وقالَ الإمامُ الراغب: «يُقال: جاءَه بكذا، وأَجاءَه. قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ..﴾. قيل: أَلْجأَها.

وإِنما هو مُعَدّى عن «جاء»[2].

ورأى الإمامُ الطبريُّ أَنَّ «أَجاءَها المخاض» بمعنى «أَلجأها» رغمَ أَنه من فعلِ «جاء».

وردَ في تهذيبنا لتفسيرِه ما يلي: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾: جاءَ بها المخاضُ إِلى جذع النخلة، وأَلجأَها، واضطَّرها إِليها..

إِذن: أَصْلُ «أَجاءها»: جاءَ بها، ثم لما حُذفت الباءُ صارت: أَجاءَها.

تقول: جاءَ هو. وأَجَأْتُه أَنا. أي: جئْتُ أَنا به.

قالَ زهيرُ بن أبي سلمى:

وَجارٍ سارَ مُعْتَمِداً إِلَيْكُمْ ... أَجاءَتْهُ المَخافَةُ وَالرَّجاءُ

---

(١) المعجم الوسيط: ١٤٩.

(٢) المفردات: ٢١٢.

قالَ ابنُ عباس ومجاهد وقتادة والسدي: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ..﴾: أَلجأَها المخاضُ إلى جذعِ النخلة[1].

إنَّ الطبريَّ يرى أنَّ أصل: «أجاءها»: جاءَ بها، فلما حُذفت الباء، ونَصَبَ الفعلُ المفعولَ به، عُوِّضَ عن الباء همزة في أوله، فصارت: «أجاءها».

أما الزمخشريُّ فإنه يرى أنَّ «أجاء» مأخوذٌ من الماضي الثلاثي «جاء». قال: «أَجاءَ: منقولٌ من «جاء». إلاّ أنَّ استعمالَه بعدَ النقلِ تغيَّرَ إلى معنى الإِلجاء.

أَلا تراكَ تقول: جئتُ المكانَ، وأَجاءَنيه زيد. كما تقول: بَلَغْتُه، وأَبلغنيه. ونظيرُه «آتى» حيث لم يُستعملْ إلاّ في الإعطاء»[2].

والراجحُ أنَّ الهمزةَ في «أجاء» للنقلِ والتعدية.

تقول: جاءَ الرجلُ المكان. بمعنى: أَتاه.

وعندما تقول: أَجاءَ الرجلُ الشخصَ المكان. بمعنى: أَتى به وحملَه على المجيء إليه، وأَلجأَه إلى ذلك وأَكرهه عليه.

وهذا الاستعمالُ موجودٌ في اللغة.

تقول: ذهبَ الرجلُ بالمال. و: أَذهبَ الرجلُ المالَ.

وتقول: جلسَ الرجلُ في المقعدِ. و: أَجلسَ الرجلُ أخاه.

وتقول: أَتى الرجلُ المكان. و: آتى الرجلُ العطيةَ.

ومن هذا الباب: جاءَ. و: أَجاء.

تقول: جاءَ الرجلُ البيت.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) الكشاف ٣: ١١.

وتقول: أجاءَ الفقرُ الرجلَ. أي: ألجأَ الفقرُ الرجلَ على المجيء.

فرغم أنَّ «أَجاءَ» منقولٌ عن «جاء» إلاّ أَنه ينصرفُ إِلى معنى الاضطرارِ والإكراهِ والمجيء.

معنى قوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾:

إِذن معنى «أَجاءها المخاض إلى جذع النخلة»: جاءَ المخاضُ بمريمَ إِلى جذعِ النخلة، واضطرَّها إِلى القدومِ إِليها، وأَكرهها على ذلك.

و«المخاض» مصدر. فعلُه الثلاثي: مَخِضَ، بكسر الخاء.

تقول: مَخِضَت الحاملُ، تَمْخَضُ، مَخاضاً: إِذا أَخَذَها الطلق ودنَتْ ولادتُها.

قالَ الإمامُ ابنُ فارس في معنى هذه المادة: «مَخِض: أصلٌ صحيح يدلُّ على اضطرابِ شيءٍ في وعائِه المائع..

والماخِض: الحامل. إِذا ضربَها الطلق. وهذا على معنى التشبيه، كأَنَّ الذي في جوفها شيءٌ مائعٌ يتمخَّضُ ويتحرَّكُ ويضطرب...»[(١)].

وكأنَّ الجنينَ في رحمِ الأم يضطربُ ويتحرَّك، قبلَ نزوله، وكأنه يسبحُ في ما حولَه من السائلَ الذي تضمُّه المشيمة.

ولم تَرِدْ كلمةُ «أَجاءها» وكلمةُ «المَخاض» في غيرِ هذا الموضع في القرآن.

و«المخاض في الآية: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ فاعلٌ مؤخَّر.

والهاء: في محلِّ نصبِ مفعولٍ به مقدَّم، يعودُ على مريم.

والتقدير: أَجاءَ المخاضُ مريمَ إِلى جذع النخلة.

---

(١) مقاييس اللغة: ٩٧٧.

وإسنادُه «الإجاءةِ» والإلجاءِ إلى المخاض إسنادٌ بديع، يقومُ على «التصويرِ القرآني» المعجزِ الرفيع.

فكأنَّ هذا المخاض ـ وهو آلامُ الطلق وتحركُ الجنين في الرحم ـ إنسانٌ قويٌّ شديد، يُخضعُ مريمَ له إخضاعاً، ويَدفعها دَفعاً، ويُكرهُها ويَضطرها، ويَجعلُها تسيرُ أمامه مُكرهةً مضطرة، حتى يجعلَها عند جذعِ النخلة، تستندُ إليها، وتعتمدُ عليها، وتستعلي على آلامِ الوضعِ والطلق!!

التجأَتْ مريمُ إلى جذعِ النخلة، في ذلك المكانِ القصي، بيت لحم.

و«جذعُ النخلة»: ساقُها الذي تقومُ عليه. وجمعُه: جذوع.

وإضافةُ الجذع إلى النخلة يُشيرُ إلى أنها نخلةٌ حيةٌ خضراءُ نامية، وليسَ الجذعُ ساقَ نخلةٍ يابساً مقطوعاً مُلقىً على الأرض!

نخلة بيت لحم عند ولادة عيسى:

وإذا كنا رجَّحْنا أنَّ المكانَ القصيَّ الذي شهدَ ولادتَها لعيسى عليه السلام هو بيتُ لحم، فإنَّ هذه الآيةَ تشيرُ إلى أنه كانَ في «بيت لحم» نخلةٌ حيةٌ ناميةٌ في ذلك الوقت.

ولا يستغربَنَّ ذلك أحد، ولا يَقيسُه على الواقعِ الآن، فالمعلومُ عند الناس في هذه الأيام أنه لا يوجد في بيت لحم نخلة، ولكن لا يُقاسُ الماضي البعيدُ على الواقعِ القائم، فتلك النخلةُ في بيت لحم التي شهدَتْ ميلادَ عيسى عليه السلام قد تكونُ عَدَتْ عليها عوادي الزمن فأَيبسَتْها وأماتَتْها.

وقد مَرَّ عبدُ الوهاب النجار مؤلفُ كتاب «قصص الأنبياء» في مطلعِ القرن العشرين بكنيسةِ «المهد» في بيت لحم، التي يزعمُ النصارى أنهم أَقاموها على مكان ميلادِ عيسى عليه السلام.

قال: «وأَقولُ أَيضاً: إِنَّ وجودَ النخل ببيتِ لحم، وهي البلدةُ التي كانت بها مريمُ يومَ ولادةِ المسيح نادر. وقد رأيتُ بكنيسةِ بيت لحم المبنيةِ على موضعِ ولادةِ المسيح مكاناً قد «قُوِّرَ» البلاطُ فيه. ويقولونَ إنَّ في موضعِ هذا التقوير كانت النخلةُ التي وَلَدَتْ عندها مريم..»[1].

آلام مريم عند الوضع وتمنيها الموت:

وهناكَ عند جذعِ النخلة أَخذها الطلق، واشتدَّتْ بها آلامُ المخاض، وأَطلقَتْ زفرَةً شديدةً موجعةً، قائلة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾.

تمنَّتْ مريمُ رضي الله عنها لو كانَتْ ماتت «قبل هذا» الحالِ المكروبِ الشديدِ الذي هي فيه، وكانت نسياً منسياً.

والنَّسْيُ هو: اسمٌ للشيء الذي يَنساه أَصحابُه ويتركونه، ويَذهبون عنه لحقارته عندهم.

و«مَنْسِياً»: اسم مفعول، صفةٌ لهذا «النَّسْيِ» المتروك. مبالغةً في إهمالِه وتركه.

وردَ في تهذيبنا لتفسيرِ الطبري عن «النسي المنسي» ما يلي:

﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾: قالت هذا في حالِ الطلق، استحياءً من الناس.

أي: يا ليتَني مِتُّ قبلَ هذا الكربِ الذي أَنا فيه، وكنتُ ﴿نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾: شيئاً نُسِيَ فَتُرِكَ طلبه، كخرقةِ الحيض التي إذا أُلقيتْ وطُرحتْ، لم تُطلبْ ولم تُذكَرْ.

وكلُّ شيءٍ نُسِيَ وتُرِكَ ولم يُطْلَبْ فهو «نَسْي».

قال ابنُ عباس: ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾: لم أُخلق، ولم أَكُ شيئاً.

---

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار: ٣٨١.

وقال قتادة: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: لا يُعْرَفُ ولا يُذْكَرُ. أي: لا أُعْرَفُ ولا يُدرىٰ مَنْ أنا[1].

لماذا تمنت مريمُ عند جذعِ النخلة لو ماتَتْ وكانَتْ نسياً منسياً؟

سيد قطب يحاولُ الإجابةَ على هذا التساؤل، وتصويرَ مشاعرِها في هذه اللحظات الحرجة: «فلْنشهدْ مريمَ تنتبذُ مكاناً قصيا عن أَهْلِها، في موقفٍ أشدُّ هولاً من موقفِها السابق لما حملَتْ بعيسى..

فلئن كانتْ في الموقفِ الأولِ تواجِهُ الحصانةَ والتربيةَ والأخلاق، بينَها وبين نفسها، فهي هنا وشيكةُ أنْ تواجهَ المجتمعَ بالفضيحة (!!)..

ثم هي تواجِهُ الآلامَ الجسديةَ بجانب الآلامِ النفسية، تواجهُ المخاضَ الذي «أَجاءها» إجاءَةً إلى جذعِ النخلة، واضطرها اضطراراً إلى الاستنادِ عليها، وهي وحيدةٌ فريدة، تُعاني حيرةَ العذراءِ في أولِ مخاض، ولا علْمَ لها بشيء، ولا مُعينَ لها في شيء...

فإذا هي قالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فإننا لنكادُ نرى ملامحَها، ونحسُّ اضطرابَ خواطرِها، ونلمسُ مواقعَ الألمِ فيها، وهي تتمنّى لو كانتْ نسياً منسياً..»[2].

وما هي إلا فترةٌ قصيرةٌ عانَتْ فيها مريمُ ما عانَتْ من آلامِ المخاض، وهي وحيدةٌ فريدة، وهي مستندةٌ إلى جذعِ النخلة.. ما هي إلا فترةٌ قصيرةٌ حتى وضعَتْ مولودَها عيسى عليه السلام..

ومرَّتْ فترةٌ قصيرة وهي تستعيدُ عافيتَها، وتعودُ تدريجياً إلى حالتِها الطبيعية، وكانت ما زالَتْ على نفس جلستِها بجانبِ جذعِ النخلة، وما زالَتْ أَسيرةَ هواجسِها وأفكارها، وما زالتْ قلقةً منفعلة، حزينةً مكروبة، وفجأةً سمعَتْ مَنْ يُناديها مِنْ تحتها...

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢) في ظلال القرآن ٥: ٢٣٠٧.

الراجح أن ابنها هو الذي ناداها من تحتها:

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي..﴾.

في قوله: ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ قراءتان:

الأولى: قراءةُ أَبي عمرو وابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم: «فناداها مَنْ تَحْتَها» بفتحِ الميم. على أنَّ «مَنْ» اسمُ موصولٍ بمعنى «الذي». و«تَحْتَها» صلة الموصول.

والمعنى: ناداها الشخصُ الذي تحتَها..

الثانية: قراءةُ الباقين: «مِنْ تَحْتِها» بكسر الميم. على أنَّ «مِنْ» حرفُ جر. و«تَحْتِها» مجرورٌ بحرف الجر.

والمعنى: ناداها المنادي مِنْ تحتِها.

ولكن مَنْ هو الذي ناداها؟ هلْ هو جبريل أم وليدُها عيسى؟

ذهبَ بعضُ العلماء إِلى أنَّ الذي ناداها مِن تحتها هو جبريل. فقد كانَ جبريلُ قريباً منها، ولما وضعت مولودَها جاءَها ووقفَ بين يديها. وكان في مكانٍ أسفلَ منها، ولهذا اعتُبرتْ مناداتُه لها مِن تحتها، لأنه كانَ أسفلَ منها.

وهذا قولُ ابنِ عباس وعلقمة والضحاك وقتادة والسدي.

وذهبَ علماءُ آخرون إِلى أنَّ الذي ناداها مِن تحتِها هو عيسى عليه السلامْ، الذي لم يولَدْ إلاّ قبلَ لحظات!

وهذا قولُ أُبَيّ بن كعب ومجاهد والحسن البصري وابن زيد وسعيد بن جبير.

قالَ أُبَيُّ بْنُ كعب: الذي ناداها هو الذي حَمَلَتْه في جوفِها، ودَخَلَ من فمِها.

والراجحُ هو القولُ الثاني، فالذي ناداها هو وليدُها، الذي كان ما

زالَ تحتَها، لحظةَ ولادتِها له.

والدليلُ على ترجيحِ هذا القول هو أنَّ الكلامَ فيما سبقَ كلُّه عن عيسى وليس عن جبريل، والضمائرُ السابقةُ تعودُ عليه «فحملته.. فانتبذت به.. فناداها من تحتها...».

ودليلُ ترجيحِ هذا القول أيضاً أنها لما ذهبتْ إلى أَهْلِها وهي تحملُه، واستغربوا أَمرها، أَشارتْ إليه. وهي لم تُشِرْ إليه إلاّ ليتكلمَ نيابةً عنها، وهي لم تفعلْ ذلك إلاّ لأَنه ناطق، وأنه قد تكلمَ معها من قبل، وقد جَرَّبَتْ ذلك منه..[1].

ثم إنَّ كونَ المتكلمِ معها ابنَها الذي ولدَتْه قبلَ لحظة أبلغُ وأظهرُ في المعجزة، لأنَّ كلامَه مع أمه ثم مع أَهلها بعد ذلك ليسَ مألوفاً ولا معتاداً، وإنما هو بأمْرٍ من الله!

ولْنتصوَّرْ مدى مفاجأةِ مريم الكبرى وهي تسمعُ ابنَها ـ ابنَ لحظة ـ يُناديها ويُكلمها ويشدُّ أَعصابَها ويَرفعُ معنوياتِها!!.

توجيه الوليد لأمه لحظة ولادته:

ماذا قال لَها ابنُها؟

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٤ ـ ٢٦].

إنَّ اللّهَ هو الذي أَلهمَ عيسى أنْ يقولَ لأمِّه هذا القول، وأَنطقَه بهذا الكلام، وإلاّ فما أَدراه بهذه الخطةِ العلميةِ الحكيمة، ولم تَمضِ على ولادتِه إلاّ لحظات.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٢٨ ـ ٢٢٩.

«أنْ» في قوله: ﴿أن لا تَحْزَنِي﴾: حرفُ تفسير، وما بعدَها جملةٌ تفسيرية تُفسِّرُ لنا نداءَه، وتخبرُنا بما قالَه لها.

﴿لا تَحْزَنِي﴾: نَهاها عن الحزن، ودَعاها إلى إزالة ما اعتراها من هَمٍّ وكَرب، ودَعاها إلى الهدوءِ والطمأنينة، وعدمِ التوترِ والقلقِ والانفعال.

لا تَحزني مما حصلَ، فإنَّ اللّهَ معكِ، يحفظكِ ويرعاك، فها هو الطعامُ والشرابُ عندك، قَدَّمَهُ اللّهُ لك بمعجزةٍ من معجزاته.

ولا تَحزني في التفكيرِ بمواجهةِ أَهلك، فإنَّ اللّهَ سيقدِّمُ لهم معجزةً أيضاً، يَعلمونَ منها براءتك، ويوقِنون أنَّ الأَمْرَ من الله.

أنبع الله لها جدول ماء آية وكرامة:

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ هذا من كلامِ عيسى لأُمِّه، يرشدُها إلى «السَّرِيِّ» الذي جعلَهُ اللّهُ تحتها.

وقد اختلفَ العلماءُ في المرادِ بالسَّرِيِّ الذي جعلَهُ اللّهُ تحتها:

فقالَ بعضُهم: السَّرِيُّ هو عيسى عليه السلام.

وهذا قولُ الحسن البصري والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قالَ ابنُ زيد: السَّرِيُّ عيسى، وأيُّ شيء أَسرى منه؟ ولو كان السَّرِيُّ النهرَ لما قالَ «تحتك»، لأنَّ النهرَ إلى جنبها وليس تحتَها.

وعلى هذا القول تكونُ الكلمةُ «سَرِيّ» من الفعلِ الثلاثي «سَرَوَ». تقول: سَرَوَ، يَسْرو، فهو سَرِيٌّ. مثل: شَرَفَ، يَشْرُفُ، فهو شَريف.

ومعنى «سَرَوَ»: شَرَفَ وعَظُمَ وارتفعَ قدْرُه.

والسَّرِيُّ هو: الرجلُ العظيم، مرتفعُ القدر، عالي المنزلة.

وعلى هذا القول يكونُ معنى الآية: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾:

لا تحزني، فإنَّ مولودَك الذي تحتك الآن، سيكون سَرِيّاً عندما يكبر، ويجعلُه اللّهُ رجلًا عاليَ المنزلة، رفيعَ القدر.

وقال آخرون: هو جدولُ الماء.

وهذا قولُ جمهورِ الصحابة والتابعين، منهم البراءُ بن عازب وابنُ عباس ومجاهدُ وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة ومعمر والسدي.

وعلى هذا القول تكون «سَرِيّ» من الفعل الثلاثي «سَرَىٰ». تقول: سَرىٰ، يَسْري، فهو سَرِيّ.

وسُميَ الجدولُ «سَرِيّاً» لأنَّ الماءَ يَسري ويَجري فيه.

والراجحُ هو القولُ الثاني، لتناسُبِه مع ما بعدَه من الأمرِ بالأكلِ والشرب[1].

وعلى هذا القولِ الراجح يكونُ معنى الآية: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: أَجرى اللّهُ لكِ جدولَ ماء، وها هو يَسري ويَسيلُ ويَجري، ويَمرُّ في سريانِه من تحتك، فلا تَحزني.

ويُشيرُ هذا إلى أنه لم يكنْ في المكانِ سَرِيٌّ ـ جدولُ ماء ـ من قبل، وإنما فجَّرَ اللّهُ لها الماء، وأَنبعه عندما لجأَتْ إلى جذعِ النخلة، وجعَلَه يمرُّ من تحتِها، ويتابع سريانِه وجريانِه.

وكان هذا خارقةً من المعجزاتِ والخوارقِ المتتابعة التي أَجراها الله، وصاحبَتْ خلقَ عيسى والحملَ به وولادته.

وأثمر لها النخلة في غير الموسم آية وكرامة:

وبعدما أَشارَ عيسى إلى سريِّ الماءِ الجاري تحتَها، أَرشدَها إلى النخلةِ التي تستندُ إليها، فقالَ لها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٢٩ ـ ٢٣٠. والدر المصون ٧: ٥٨٤.

والهَزُّ هو تَحريكُ الشيءِ تحريكاً شديداً.

والمعنى: حَرِّكي جذعَ النخلة، وقَرِّبيه منكِ، وأَميليهِ إِليكِ.

واختلفَ العلماءُ في النخلة، التي أُمرتْ أَنْ تهزَّ بجذعِها إِليها:

فقالَ بعضُهم: كان جِذْعاً يابساً، فلما هَزَّتْه بعثَ اللّهُ فيه الحياة، فصارَ نخلةً حيةً مثمرة.

وهذا قولُ ابن عباس والسدي.

وقالَ آخرون: كان جذعاً حياً لنخلةٍ خضراءَ حية.

وهذا قولُ مجاهد وعمرو بن ميمون..

والراجحُ هو القولُ الثاني، فالنخلةُ التي أُلجئتْ إِليها، والتي وَلَدَتْ تحتَها، والتي أُمرتْ أنْ تهزَّ بجذعِها إِليها، كانت نخلةً ناميةً خضراءَ حية.

لكن هل كانت النخلةُ مثمرةً ثمراً طبيعياً؟ وهل كان ذلك الوقتُ وقتَ نضوج الثمر؟

معلومٌ أنَّ وقتَ نضوجِ التمرِ يكونُ في الصيف، وهو موسمُ جنيِ التمر. فهلْ وَلَدَتْ عيسى في الصيف؟

يَذهبُ النصارى إِلى أنَّ ولادَته كانت في الشتاء، في الخامسِ والعشرين من كانون أول[1]. ولا تكونُ النخلةُ مثمرةً في هذا الوقت، ولا يكونُ البلحُ رُطَباً جنياً!!

الراجحُ أَنَّ إِثمارَ النخلةِ لم يكن إِثماراً عادياً طبيعياً، ولو كان كذلك لكانَ ميلادُ عيسى عليه السلام في الصيف.

إِن إِثمارَها كان إِثماراً خاصاً، معجزةً من اللّهِ سبحانه، حيثُ أمرَ النخلةَ أن تُثمرَ البلح، وأنْ ينضجَ البلحُ ليصبحَ تمراً، وأنْ يتحوَّلَ إِلى

---

(١) قاموس الكتاب المقدس: ٨٦٤.

رُطَبٍ جَنِيّ، وجَرى هذا كلُّه في لحظات، وطالما الأَمْرُ أمْرُ الله، فلا غرابةَ في ذلك، لأَنه فعّالٌ لما يريد، ويقولُ للشيء كن، فيكون كما أَراده.

وإنَّ كلَّ ما أَحاطَ بعيسى عليه السلام كان معجزاتٍ خارقة، وليس من الأمورِ المألوفةِ المعروفة.

وإذا كنا قد رجَّحْنا أنَّ إنْباعَ السَّرِيِّ كان معجزةً من الله، وأنه لم يكن الماءُ جارياً من قبل، فإن هذا يؤَكِّدُ أنَّ إثمارَ النخلة كان معجزةً أيضاً، ليتكاملَ الطعامُ مع الشراب، فتأكلَ من الرطب الجني، وتشربَ من ماءِ السَّرِيّ!

لماذا تهز جذع النخلة الكبير؟:

أمرَ عيسى أمَّه أنْ تهزَّ جذعَ النخلة، وأنْ تُميلَها إليها، ليتساقطَ عليها الرطبُ الجنيُّ منها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾.

فلماذا أَمرها بذلك؟ ولماذا لم يُسقط اللّهُ عليها الرطبَ الجنيَّ بدون هز النخلة؟

لقد أَوجدَ اللّهُ لمريمَ عدةَ معجزاتٍ خوارق، بدونِ جهدٍ منها، منذُ أنْ كانتْ متبتلةً في المحراب، حيثُ آتاها الرزقَ المنوَّعَ، إلى أنْ أَنبعَ لها سَرِيَّ الماء، وأثمرَ لها النخلةَ بالرطب.

فلماذا تهزُّ هي جذعَ النخلة ليتساقطَ عليها الرطبُ الجنيُّ؟

ولا نَنسى أنها كانتْ ضعيفةَ البدن، واهيةَ القوى، لأَنها نَفاسٌ وضعتْ ابنَها قبل لحظات، وجسمُ النفاسِ يكون ضعيفاً، فهي لا تكادُ تتحركُ حركةً لضعفها، فكيفَ تُؤمَرُ بهزِّ جذعِ النخلة وهي على هذه الحالة؟

وجذعُ النخلة عريضٌ سميك، لا تَقدرُ مجموعةُ الرجالِ الأقوياءِ على هزِّه وتحريكه، ومريمُ النفاسُ الضعيفةُ عاجزةٌ عن تحريكِ غصنِ شجرةٍ رفيع، فكيف تهزُّ جذعَ نخلةٍ كبيراً سَميكاً؟

لقد كانَ اللّهُ قادراً على إنزالِ الرطبِ عليها بدون جهدٍ ولا حركة منها، ولكنه أرادَ أنْ تتحركَ هي بحركةٍ ماديةٍ خفيفة، وأنْ تلمسَ جذع النخلة بيديْها، والباقي ليس عليها، بل على الله.

لم تهزَّ هي جذعَ النخلة في الحقيقة، لأَنها ضعيفة، وإنما اللّهُ هو الذي هزَّها وحرَّكها في الحقيقة. هي كانتْ سبباً مباشراً في تحريك النخلة، عندما وضعَتْ يديْها عليها، واللّهُ هو المسبِّبُ والمقدِّرُ، أوجدَ في النخلةِ التحريك، وأَمَرَها أنْ تُسقطَ الرطبَ الجنيّ، فتحركَتْ، وأسقطت!!

أَمَرَها اللّهُ بهزِّ جذعِ النخلة، لتأخذَ بالأسباب، حيث رتَّبَ تساقطَ الرطبِ عليها على هزِّها جذعَ النخلة.

وهذا درسٌ إيمانيٌّ عقيديٌّ لها، لتربطَ بين التوكلِ على الله، وبين الأخذِ بالأسباب، والأهمُّ من هذا أنه درسٌ إيمانيٌّ عقيدي لنا، لنربطَ بين الأسبابِ والمسبِّبات، وننسِّقَ بين الأخذِ بالأسباب والتوكلِ على الله.

فكلُّ مؤمنٍ يعتقدُ جازماً أنَّ اللّهَ هو الضارُّ والنافع، وأَنه لا مانعَ لما أَعطى الله، ولا مُعطيَ لما منعَ الله، ومن ثم يتوكلُ على الله، ويفوضُ أَمْرَه إليه، ويوقنُ أنَّ ما أَصابه لم يكن ليخطئَه، وأنَّ ما أَخطأَه لم يكن ليصيبَه.

وهذا التّوكّل والتفويضُ يوجبُ عليه أنْ يأخذَ بالأسباب، ويبذلَ الجهود، ليأتيه ما قدَّرَهُ اللّهُ به.

وحركةُ مريمَ رضي الله عنها دليلٌ على وجوبِ الأخذِ بالأسباب، لتأتيَ المقاديرُ والأرزاق.

تساقط الرطب الجني بعد هز الجذع:

«هُزّي»: فعلُ أمر. وجملةُ: «هزي إليك بجذع النخلة»: جملةٌ طَلَبية.

و«تُساقِطْ»: فعلٌ مضارعٌ مجزوم، لأنه جوابُ الطلب.

وفي «تُساقط» ثلاثُ قراءات:

الأولى: قراءةُ حفص: «تُساقِطْ» بضمِّ التاءِ وكسرِ القاف، على أنَّ الماضي منه «ساقَطَ». تقول: ساقَطَ، يُساقِطُ، والنخلة تُساقِطُ.

وهذه القراءةُ تشيرُ إلى أنَّ تَساقُطَ الرطبِ عن النخلة كانَ بالتدريجِ أولاً بأول، وليس دفعةً واحدة.

الثانية: قراءة حمزة: «تَساقَطْ». بفتحِ التاءِ والقاف. على أن الفعلَ الماضي منه خماسي: «تَساقَطَ». تقول: تَساقَطَ، يَتَساقَطُ، والنخلة تَتَساقَطُ. وحُذفت إِحدى التاءيْن للتخفيف فصارت: تَساقَطْ.

الثالثة: قراءةُ الباقين: «تَسّاقَطْ»، بفتح التاءِ وتشديدِ السين. الماضي منه خماسي «تَسّاقَطَ» والمضارع: يَتَساقَطُ، وَتَتَساقَطُ.

وأصلُ الكلمة «تَتَساقَطُ» فأُدغمت التاءُ في السين، فصارت: تَسّاقَطْ.

والمعنى في القراءاتِ الثلاثِ متقارب. حيثُ تشيرُ إِلى التساقطِ المتدرجِ للرُّطَبِ الجني.

واللطيفُ أنَّ التساقُطَ أُسندَ إِلى النخلة، فما أنْ تلمسَها مريمُ بيديْها الواهيتيْن، حتى تتجاوَبَ معها فتهتزُّ وتتحركُ بأَمْرِ الله، ثم تُساقِطُ على مريمَ الرُّطَبَ الجني، إِكراماً وإِسعافاً لها.

والرُّطَبُ هو الناضجُ من البلح، قبلَ أنْ يصيرَ تمراً.

إِنَّ ثَمَرَ النخيلِ يمرُّ بعدةِ مراحل، وله في كلِّ مرحلةٍ اسمٌ خاص، وأَسماؤه في هذه المراحل هي:

١ ـ البَلَح: وهو ثَمَرُ النخل إذا كانَ أخضر[١].

٢ ـ البُسْرُ: وهو ثَمَرُ النخلِ عند بدايةِ نُضجه، بعد أنْ يتحوَّلَ من الأخضرِ إلى الأصفرِ أو الأحمر[٢].

٣ ـ الرُّطَب: وهو ثمرُ النخلِ بعدما يتمُّ نضجُه، ويصيرُ ليناً طرياً حلواً، ويتحوَّلُ من البُسْرِ الذي بدا نضجه[٣].

٤ ـ التمر: وهو ثَمَرُ النخل عندما يبالغُ في نضجِه، وتَذهبُ ليونتُه، ويتحوَّلُ إلى جافٍّ يابس من كثرةِ النضج[٤].

٥ ـ العجوة: وهي التمرُ الناضجُ عندما يُخْلَطُ بعضُه ببعض، ويُرْكَمُ بعضُه فوقَ بعض[٥].

فالرُّطَبُ هو المرحلةُ الثالثة التي يمرُّ بها ثَمَرُ النخل، بعدَ أنْ يكونَ بُسْراً، وقبلَ أنْ يكونَ تَمْراً.

وَوُصِفَ الرطبُ في الآية بأنه جني ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾.

و«جَنِيّ» صفةٌ مشبهة، على وزن «فعيل».

والجَنِيُّ هو ما جُنِيَ من أنواعِ الثَمَرِ مباشرة، ولا يُجنى إلاّ إذا كان ناضجاً صالحاً للاجتناء[٦].

ولم يُذكر «الرُّطب» و«الجني» في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

و«الرطب الجني» هو: المجتنى المأخوذُ طرياً.

وأَمَرَ اللّهُ النخلةَ أنْ تُساقِطَ على مريمَ رُطَباً جنياً، وذلك لأهميةِ الرطبِ والتمرِ للمرأة النفساء.

---

(١) المعجم الوسيط: ٦٨.

(٢) المرجع السابق: ٥٦.

(٣) المرجع السابق: ٣٥١.

(٤) الرجع السابق: ٨٨.

(٥) المرجع السابق: ٥٨٧.

(٦) المرجع السابق: ١٤١.

لماذا قال: «وقري عيناً» وليس: تقرّ عينك؟:

وبَعدما أَمَرَ عيسى عليه السلام أُمَّهُ أنْ تهزَّ جذعَ النخلة أَمَرَها أنْ تأكل وتشرب: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

كُلي من الرُّطبِ الجني الناضج الطيبِ الذي تُساقطُه عليك النخلة، واشربي ماءً من الجدولِ السَّريِّ الذي أَجراهُ الله تحتك، ولا تخشي جوعاً ولا عطشاً.

و«قَرّي» فعلُ أمر. مِن: قَرَّ: بمعنى سُرَّ ورضي.

يقال: قَرَّتْ عينُه: سُرَّ ورَضيَ بالشيء، فصارَ قريرَ العين[1].

وقد سبقَ أنْ تحدَّثْنا عن قرةِ العين ومعناها، وأَوردْنا كلامَ الراغبِ الأصفهاني حولَها في حديثِنا عن قصةِ موسى عليه السلام، عندما وقَفْنا عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ..﴾ [القصص: ٩].

ولكنَّ الجديدَ في قوله هنا: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أنَّ الفاعلَ هو ياءُ المخاطَبة الموجَّهةُ إِلى مريم، و﴿عَيْنًا﴾ تمييز منصوب.

فأُسندَ القَرارُ إِليها لا إِلى عينها، بينما في الأفعالِ الأُخرى المذكورة في القرآن كان القَرارُ يسندُ إِلى العين. كما في قوله تعالى عن أم موسى عليه السلام: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [طه: ٤٠] وفي قوله تعالى عن قول امرأة فرعون: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ..﴾ [القصص: ٩].

وردَ في تهذيبِنا لتفسير الطبري: «وَقَرِّي عيناً»: طِيبي نفساً، وافرحي ولا تحزني بولادتك لي.

و«عَيْناً» تمييزٌ منصوب.

---

(١) المرجع السابق: ٧٢٤.

والمعنى: لِتَقَرَّ عينُك بولدك. ثم حُوِّلَ الفعلُ من العينِ إلى صاحبتِها، فَنُصبتْ على التميز.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤]. والمعنى: إنْ طابَتْ أنفسهن لكم.

وكقوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧]. والمعنى: ضاقَ ذرْعُه بهم[١].

وفرقٌ بعيدٌ في التعبيرِ بين قوله تعالى: «ولتقرّ عينُك» فَيُسنَدُ القرارُ والرّضى والسّرُور إلى العين، وبين قوله تعالى: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ فيُسندُ القرارُ والرضى والسعادةُ إليها، ثم يُجْعَلُ «عيناً» تمييزاً، لكونِ العينِ أَبرزَ عضوٍ في الإنسان، تنعكسُ عليه علاماتُ وآثارُ الرضى والسعادة، ولهذا يقال: هو قَريرُ العين. أي: هو هادئٌ ساكنٌ سعيدٌ مطمئن.

إنَّ قوله تعالى: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ يدلُّ على الحالةِ النفسيةِ العالية التي نقلَ اللّهُ مريمَ رضي الله عنها إليها.

فقد كانتْ قبلَ الولادة في غايةِ التوترِ والانفعالِ والقلق، وتجلّى هذا في قولها: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

أما بعدَ الولادة، وخروجِها منها بسلامة، وسماعِها مخاطبةَ وليدِها لها، فقد رأَتْ علاماتِ عنايةِ اللّهِ بها، وحفْظِه لها، وهي تعيشُ في ظلالِ معجزاته التي قدَّمَها لها، فها هي تأكلُ الرطب، وتشربُ الماء من السري، وتأنسُ برؤيةِ وليدها، وتسعدُ بمخاطبته لها.

ولذلك عاشَتْ حالةً نفسيةً عاليةً متألقة من قَرارة النفس، ومن الرضى والسرورِ والسعادةِ والطمأنينة، وانعكسَ هذا كلُّه على كيانها، لكنه كان أبرزَ ما يكونُ انعكاساً على عينها، ولهذا تَحولَت العينُ من فاعلٍ إلى تمييز!!

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٣٢.

وهكذا أَرشدَ المولودُ عيسى عليه السلام أُمّه إلى التصرفِ السليم السريع، وهي ما تزالُ تحتَ النخلة: أن لا تحزن، وتقرّ عيناً، وتهزّ إليها جذعَ النخلة، وتأكلَ من الرطبِ الجنيّ، وتشربَ من ماءِ السّريّ.

ونفذّتْ مريمُ ما سمعتْه من وليدِها، وأَخذتْ حاجتَها من الطعامِ والشراب، وزالَ حزنُها وقلقُها، وكانتْ قريرةَ العين، مسرورةَ النفس.

تحليل: «فإما ترين»:

وتابعَ وليدُها عيسى إرشادَها إلى التصرفِ المناسب عندما تواجهُ أهلَها، فقال لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

الفاءُ في قوله: «فإمّا ترين»: حرفُ استئناف. والجملةُ مستأنفة، لأَنه يذكُرُ لها كيف تتصرفُ عند مواجهتِها لأهلها.

و«إنْ» حرفُ شرطٍ جازم.

و«ما»: حرفُ توكيد، أُدغمتْ مع حرفِ الشرط، فصارت: «إمّا».

و«تَرَيِنَّ» خطابٌ لمريم، من الرؤيةِ وهي المشاهدة، وهي من الأَفعالِ الخمسة، على وزن «تفعلين»، وهي مجزومَة لأنها فعلُ الشرط، وعلامةُ جزمها حذفُ نونِ الأَفعالِ الخمسة، والياءُ فيها ضميرٌ متصل في محلِّ رفعِ فاعل، والنونُ المشددةُ هي نونُ التوكيد الثقيلة.

الفعلُ الماضي الثلاثي: رأى. والمضارع: يَرى. والمضارعُ المسندُ إلى المخاطب: ترى.

وعندما تخاطِبُ أُنثى تقولُ لها: أنتِ تَرَيْنَ.

وأَصلها: تَرْأَيين. على وزن: تفعلين.

ومعلومٌ أنَّ الأفعالَ الخمسةَ تُجزمُ بحذف النون. فلما جاءت «ترين» فعلَ شرط، جُزمتْ بحذفِ النون، فصارت: إنْ تَرَيْ. كما تقول: إنْ تفعلي. وياءُ المخاطبة هي الفاعل.

ولما دخلَتْ على «تَرَيْ» نونُ التوكيد الثقيلة، حُركت الياءُ الساكنة، وكُسرتْ لالتقاءِ الساكنين، فصارت: «تَرَيِنَّ»[1].

«إني نذرت للرحمن صوماً»:

قالَ عيسى عليه السلام لأمّه: اذهبي إِلى أَهلك، وأنت تحملينني، فإنْ شاهدتِ أَحداً من البشر، سواء كان من أهلك أو من غيرهم، واستغربَ منكِ لأنك تحملين على حضنك ولداً، وسألَكِ عن سرِّ الأمر، فلا تُجاوبيه ولا تكلميه، وأَعطيه إِشارةً يَفهَمُ منها أَنك صائمةٌ عن الكلام، وناذرةٌ أنْ لا تكلّمي أيَّ إِنسان! وأَحيلي عليَّ، وأَنا سأتولّى الكلامَ والشرح!!

هذا هو المعنى المفهومُ من هذه الجملةِ الشرطيةِ القرآنية: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

فمعنى «فقولي»: أَشيري لمنْ يكلمكِ ويسألكِ إِشاراتٍ باليدِ أَو غيرها، يَفهمُ منها أَنكِ صائمةٌ عن الكلام، ممتنعةٌ عن مخاطبةِ الناس.

واعتبرت الآيةُ هذه الإشارات قولاً، لأنها تَسُدُّ مَسَدَّ القول، وتُفهمُ الشخصَ المقابل المراد، فكأنّها قولٌ خارجٌ من الفم.

وبعضُ الإشاراتِ باليدين والعينين واللسان وغيرها، قد تعبِّرُ عن ما في النفس، وتُفهمُ الشخصَ المقابل، مثلَ الكلامِ الخارج من الفم، أَو أكثر.

ولغةُ الصمِّ والبكم تقومُ على الإشاراتِ باليدين، ولتلك الإشاراتِ قاموسٌ خاص، وكلُّ إِشارةٍ رمزٌ لألفاظٍ أَو جُمَلٍ معدودة!!

تُشيرُ لمن يَسألونَها وتُفهمهم أَنها نذرتْ للرحمن صوماً.

---

(١) انظر حاشية الدكتور أحمد الخراط على تفسير الدر المصون للسمين ٧: ٥٩٠. وهي الحاشية رقم (٤).

والنَّذرُ هو قربةٌ وعبادة، يتقربُ بها الناذرُ إلى الله بأداءِ المنذور، وذِكْرُ النذرِ في قصة مريم رضي الله عنها دليلٌ على أنه كان عبادةً يعرفُها المؤمنون السابقون، ويَتقربون بها إلى الله.

واعتبرت الآيةُ الصمتَ والامتناعَ عن الكلام صوماً: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

فكيفَ صارَ الصمتُ وعدمُ الكلام صوماً؟

لأنَّ معنى الصومِ هو الإمساك.

قال الإمام الراغب: «الصومُ في الأصل: الإمساكُ عن الفعل، مَطْعَماً كان، أو كلاماً أو مَشياً. ولذلك قيلَ للفرسِ الممسِكِ عن السيرِ أو العَلَف: هو صائم.

... وقوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾: عنى به الإمساكَ عن الكلام، بدلالةِ قوله بعده: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾»[1].

والمعنى أنَّ كلَّ مَنْ أمسكَ عن شيء، وامتنعَ عن فعله، فهو صائم عنه، فهناك مَنْ صامَ عن الطعام، وهناك مَنْ صامَ عن الكلام، وهكذا.

الفرق بين الصوم والصيام في القرآن:

و«الصومُ» و«الصيام» مصدران للفعل «صام»، وهذان المصدرانِ واردانِ في آيات القرآن.

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني المعجز أنَّ المصدريْن «الصوم» و«الصيام» ليسا مترادفين في القرآن، وإنما كلُّ واحدٍ منهما استُعمل في نوعٍ من أنواعِ الإمساك.

فالصومُ لم يَرِدْ في القرآن إلاَّ مرةً واحدة، في الآية التي نتحدث

(١) المفردات: ٥٠٠.

عنها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فهو في القرآن بمعنى: الإمساك عن الكلام.

أمّا الصيامُ فقد وردَ في القرآن تسع مرات ـ منها خمسُ مرات في سورةِ البقرة التي تكفلَتْ بالحديثِ عن أحكامِ صيامِ شهرِ رمضان ـ، وهو في هذه المراتِ التسعِ كلِّها بمعنى الإمساكِ عن الطعام، وهو الصيامُ الشرعي المعروف عند المسلمين.

إذن: الصومُ في الاستعمالِ القرآني هو الإمساكُ عن الكلام، كما فعلتْ مريمُ رضي الله عنها!

والصيامُ في الاستعمالِ القرآني هو الإمساكُ عن الطعامِ وسائرِ المفَطِّرات، وهو المعروفُ عند المسلمين!

ولا ترادفَ في مصطلحاتِ القرآن.

على مريمَ أنْ تُشيرَ لكلِّ مَنْ يسألُها أنها صائمةٌ عن الكلام، ولذلك لا تكلمُ أحداً من البشرِ الإنس: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

و«الإنسيُّ» هو الشخصُ المنسوبُ إلى الإنس، عكس الجني، المنسوبِ إلى الجن[1].

بين صوم مريم الإرادي وصمت زكريا اللاإرادي:

لقد جعلَ اللّهُ صومَ مريم وصمْتَها عن الكلامِ آيةً لها، ودليلاً على براءتِها وطهارتِها، فبينما صامتْ هي عن الكلام، وهي القادرةُ عليه، فقد أنطقَ اللّهُ وليدَها عيسى عليه السلام، الذي لم تَمضِ على ولادتِه إلاّ فترةٌ يسيرة، ويستحيلُ على المواليدِ مثلِه أنْ ينطقوا ويتكلموا، في مألوفِ البشر.

---

(١) المعجم الوسيط: ٣٠.

وهذا يذكِّرُنا بالآيةِ المعجزة التي جعلَها اللّهُ لقريبها وزوجِ أُختها زكريا عليه السلام، عندما بشَّرَه بابنه يحيى عليه السلام، حيث كانت آيتُه الصومَ عن الكلام إذا واجَهَ الناس، بحيث يستخدمُ الإشارة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [مريم: ١٠].

والفرقُ بين صوم مريم وصمتِ زكريا، أنَّ صمتَ زكريا كان لا إرادياً، حيث كان اللّهُ يمسكُ لسانَه عن الكلام إذا واجَهَ الناس، وعندما كان يحاولُ الكلامَ كان لسانُه لا يطاوعُه، ولا تخرجُ الكلماتُ منه.

أما صومُ مريم عن الكلام فقد كانَ صوماً إرادياً واختيارياً، فهي صامتة، لأَنها نذرتْ بإرادتِها لربِّها صوماً.

وكلاهما صمتٌ وامتناعٌ عن الكلام، وكلاهما كان آيةً لصاحبه، زكريا عليه السلام، ومريم رضي الله عنها. وسبحان الله الحكيم!!.

بقيَ في صوم مريمَ عن الكلام أنْ نقول: اللّهُ هو الذي أَمَرَها بذلك، وجعَلَه آيةً لها، وهي ليستْ قدوةً لنا في ذلك الصوم. وقد أنكرَ بعضُ الصحابةِ والتابعين على مَن اقتدى بها وأَعلنَ الصومَ عن الكلام.

روى الطبريُّ أَنه دخلَ على عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه رجلان، فسلَّمَ أحدُهما ولم يسلِّم الآخر.

فقالَ له ابنُ مسعود: ما شأْنك؟

فقال أَصحابُه: حلفَ أنْ لا يكلمَ الناسَ اليوم.

فقالَ له ابنُ مسعود: كَلِّم الناسَ، وسَلِّمْ عليهم. فإنَّ تلكَ المرأةَ علمتْ أنَّ أَحداً لا يصدِّقُها أَنها حملتْ من غيرِ زوج..[1].

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٣٢.

[٩]

عيسى يكلم الناس في المهد

أَخذَتْ مريمُ رضي الله عنها بإرشاداتِ وليدِها عيسى عليه السلام، فأكلَتْ من الرُّطَب، وشربتْ من الماء، وبعدما رجعتْ لها قوتُها، حملتْ ابنَها معها، وتوجَّهت إلى أهلها.

«فأتت به قومها تحمله»:

وهناك كانت الدهشةُ والمفاجأةُ لهم. وقد صَوَّرَت الآياتُ بعضَ ما جرى. قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٣٣].

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾: أَتتْ مريمُ رضي الله عنها قومَها وأهلَها المقربين، وكانت تحملُ ابنَها عيسى عليه السلام.

وكانتْ في غايةِ القوةِ والشجاعةِ والثقة والطمأنينة، لأَنها توقنُ أنَّ اللّهَ معها، وتعلمُ أنها لم ترتكبْ خطأ، واللّهُ هو الذي خلقَ في رحمِها عيسى، فلماذا تخشى مواجهتَهم؟

خرجتْ من عندهم وهي وحيدة، وعادتْ إليهم الآنَ وهي تحملُ ابنَها على حضنها، والمدةُ بين مغادرتِها لهم وعودتِها إليهم مدةٌ قصيرة، لكن لا يعلمُ مقدارَها إلاّ الله.

وصلَتْ مريمُ أَهلَها، ونَظروا إليها وقد سيطرت الدهشةُ عليهم! إنَّ ابنتَهم طاهرةٌ عذراءُ عفيفة، وهم يَعلمون هذا عن يقين، فما الذي يرونه منها؟

لقد أنطقَتْهم الدهشةُ والمفاجأةُ بعبارةٍ ساخرةٍ مُتَّهِمَة. قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

«قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً»:

وعبارتُهم فيها اتهامٌ غيرُ صريحٍ لمريم، والذي دَفَعهم إلى عدمِ اتهامِها بصراحة ـ فلم يقولوا لها: لقد ارتكبتْ فاحشةَ الزنا ـ هو إيمانُهم بالله، وتَقواهم لله، وتَحرجُهم من قذفِ الصّالحةِ بالفاحشة. ثم ما عُرِفَتْ به مريمُ من صلاحٍ وعبادةٍ وعفافٍ وطهارة، مما يجعلُها بعيدةً عن الفاحشة.

لكنهم رَأوا وَليداً على حضنِها، وهو أمرٌ غريبٌ مريب، يَدعو إلى الريبة، فكيف يُوَفِّقون بين ما يعرفونَه عنها من عفةٍ وطهارة، وبين ما يشاهدونَه بين يديها؟

اكتفوا بقولِهم لها بأَنها جاءَتْ بأمرٍ عظيمٍ فظيع، لا يتفقُ مع ماضيها الذي عَهدوه منها، ولا معَ أُسرتها التي نشأَتْ فيها، بين والدَيْن صالحيْن وأخٍ صالح!!

«وفَرِيّاً» صفةٌ مشبَّهة. مشتقةٌ من «فَرىٰ».

تقول: فَرىٰ، يَفْري، فَرْياً، فهو فَرِيّ.

قالَ الإمامُ الراغب: «الفَرْيُ: قطعُ الجلدِ للخَرْزِ والإصلاح. والإِفراءُ للإِفساد. والافتراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثر، وكذلك استُعملَ في القرآن في الكذبِ والشركِ والظلم..»[1].

ووردَ في المعجم الوسيط: «الفَرْيُ من الأمور: المختَلَق. والأمرُ العجيبُ. وفي التنزيل: ﴿يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾.

---

(١) المفردات: ٦٣٤.

ويُقال: فلانٌ يَفري الفرى: إذا أجادَ عمله، وأتى فيه بالعجيب..»[1].

ومعنى قولهم لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾: لقد جئتِ بشيءٍ عظيم، وأحدثْتِ حدثاً عجيباً، وهو الوليدُ الذي تحملينه، فمن أينَ لكِ به؟

استقامة أسرتها وهارون شقيق لها:

ثم أشاروا إلى طهارةِ منبتها، وعفةِ أفرادِ أسرتها، واستقامةِ أخيها ووالديها، فقالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

أَبوها رجلٌ صالحٌ عفيف: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾: ما كان سيئاً يأتي الفواحش.

وأُمُّها امرأةٌ صالحةٌ عفيفة: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾: ما كانت بَغِياً زانية.

وتوافقتْ شهادةُ قومِها لأُمِّها بطهارتها وعفتها، عندما نفوا عنها البغاء، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ مع شهادتِها هي لنفسِها عندما جاءَ جبريلُ عليه السلام لينفخ فيها بعيسى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾.

فأُمُّها ما كانت بَغِياً زانية، وهي ما كانتْ بغياً زانية.

و«بَغِياً» صفةٌ مشبَّهة، على وزنِ «فعيل». تقول: بَغَتْ، تَبغي. فهي بَغِيٌّ. وذلك إذا زنت.

ولم تَلحقْ «بَغِي» تاءُ التأنيث، فلم يُقَلْ «بغية» لأنها من الصفاتِ التي لا تلحقُ إلا النساء، مثل: حائض وحامل ومرضع وطالق. فلا يوصَفُ بهذه الصفات الرجال، فلا داعي لتاءِ التأنيثِ فيها.

---

(١) المعجم الوسيط: ٦٨٧.

وقد اختلفَ العلماءُ في قولهم لمريم؛ ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾:

فذهبَ بعضُهم إلى أنه لا يُرادُ بها الأخوةُ الحقيقية، وإنما «الأخوةُ التشبيهية»، فأرادوا تشبيهَها بهارونَ النبيِّ شقيقِ موسى عليهما السلام، تشبيهَها به في العبادةِ والعفةِ والصلاح.

والمعنى: يا شبيهةَ هارونَ النبيِّ في العبادة مِن أينَ هذا الوليد؟

وذهبَ الجمهورُ إلى أنَّ الأُخوةَ هنا أخوةٌ حقيقية، وأَنها شقيقةٌ لهارون. وهارونُ المذكور هنا ليس النبيَّ الكريمَ شقيقَ موسى عليهما السلام، فبينَهما عدةُ قرون. وإنما هو هارونٌ آخر.

والراجحُ هو قولُ الجمهور، لأنه وردَ فيه حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ.

روى مسلمٌ والترمذي عن المغيرةِ بن شعبة رضي الله عنه قال: بَعَثَني رسولُ الله ﷺ إلى نجران.

فقالوا: أَلستُم تقرأون: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾؟.

قلتُ: بلى.

قالوا: وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا؟

فرجعْتُ إلى رسول الله ﷺ، فأخبرْتُه.

فقال: أَلا أَخبرْتَهُم أَنهم كانوا يسمّون بالأنبياءِ والصالحين قبلهم..[1].

فهذا الحديثُ الصحيحُ صريحٌ في أنَّ هارون أَخٌ شقيقٌ لمريم، سماه أَبواها باسم هارون النبي عليه السلام.

استغراب قومها من إشارتها إلى وليدها ودهشتهم من سماعه:

ولما سمعتْ مريمُ كلامَ قومِها، عَزَّ عليها اتهامُهم الضمنيُّ لها،

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢١٣٥. والترمذي: ٣١٥٥. والأحاديث الصحيحة: ٢٧٥.

ولو تكلمتْ فقد لا يَسمعونَ لها، ثم هي ناذرةٌ للرحمنِ صوماً عن الكلام.

وبما أَنها سمعتْ كلامَ وليدِها لها، فورَ ولادتِه، فإنها أَحالت الجوابَ عليه!

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ . . .﴾: أَشارتْ إِلى عيسى، وكأنها تَقولُ لهم: لا تسألوني أنا، بل اسأَلوه وكَلِّموه.

ولم تَرِدِ الإِشارةُ في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

والإِشارةُ قد تكون باليدِ أَو العين أَو الرأس أو غيرِها، لتدلَّ على معنى من المعاني.

وفهمَ القومُ إِشارتَها. . إِنها تَدعوهم لسؤالِه هو، فزادَ استغرابُهم وتعجُّبُهم وغيظُهم، إِنهم يسألونَها مستنكرين، وهي تسخرُ منهم، وتُقابلُ سؤالَهم بالصمت، وتُشيرُ إِلى وليدِ لم تمضِ على ولادتِه إِلا ساعات، ليتولّى هو الكلامَ معهم!!.

ولهذا سأَلوها مستنكرين: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾؟.

كيفَ نسألُ طفلاً؟ وهل يفهمُ سؤالَنا؟ وإذا فهمَ سؤالَنا هل يَقدرُ أَنْ يُجيبَنا؟ وما عُهِدَ عن طفلٍ في المهد وُلدَ قبلَ ساعاتٍ أو أيام الكلامُ الواضحُ المفهم!!.

و«كان» هنا تامة بمعنى «وُجِد»، وفاعلُها ضميرٌ مستترٌ يعودُ على ابنها. و«صبياً» حال.

والمعنى: كيفَ نكلمُ مَنْ وُجدَ في المهدِ صبياً؟

والمرادُ بالمهدِ هنا حِجْرُ أُمه، لأَنهم يشاهدونَها وهي تحملُه.

قالَ الإمامُ الراغب: «المهدُ: ما يُهَيَّئُ للصبي: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن

كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾. والمهدُ والمِهاد: المكانُ المُمَهَّدُ المُوَطَّأ»[1].

و«المهد» وردَ في القرآنِ ثلاثَ مرات، في سياقِ الحديثِ عن عيسى عليه السلام.

كان عيسى عليه السلام وهو في حضنِ أُمِّه لم تمضِ على ولادته إلاّ عدةُ ساعات، يَعي ما يَجري حولَه وعياً معجزياً، ويَسمعُ كلامَ القوم إلى أُمِّه سمعاً معجزياً، وكان هذا الوعيُ والفهمُ والسماعُ معجزةً من الله، لأنه لم يُعهدْ أنْ يصدرْ عن طفلٍ مثلِه في حياةِ البشر.

ولما سمعَ سؤالَهم لأمه: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟ كان يعلمُ أنَّ أمه لن تجيبَ على السؤال، لأنه هو الذي أمرها أنْ لا تُجيبَ على أيِّ سؤال.

فتطوَّعَ هو للإجابة، وقدَّمَ نفسَه إلى القوم، وعَرَّفَ على نفسه، وعلى ما سيكونُ منه في المستقبل!

وفتحَ القومُ عيونَهم مبهورين مما يشاهدون، وأَصْغَوا سمعَهم مَشدوهين مما يسمعون، وسيطرت المفاجأةُ على كيانهم كلِّه! أهذه حقيقةٌ أَم خيال؟ أحقاً يُشاهدون طفلاً يتكلم؟ أَحقاً هذا صوتُ طفلٍ عمرُه ساعات يَدخلُ آذانَهم ومسامعَهم؟ أم هم متخيلون واهمون؟

إنها حقيقةٌ قاطعة، وإن كلامَ هذا الطفل معجزة، يسمعُه هؤلاء القومُ المؤمنون، فيزدادُ إيمانهُم بالله.

البداية الإيمانية في بيان الوليد عيسى:

ماذا قالَ عيسى عليه السلام في تقديم نفسِه إليهم؟

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا

---

(١) المفردات: ٧٨٠.

بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣].

بدأ عيسى عليه السلام كلامَه بتقريرِ حقيقةٍ عقيديةٍ إيمانية: الألوهيةُ لله، والعبوديةُ لغيره: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.

اللّهُ وحدَه هو الإلهُ الرب، لا يشاركُه أحدٌ في أُلوهيته وربوبيته.

وأنا عبدٌ لله، عبدٌ مخلوق، خلَقني اللّهُ خلقاً خاصاً بمعجزةٍ خارقة، بدون أب، ومعَ أنَّ خَلْقي معجزة، ومعَ أنَّ كلامي معكم معجزة، فإنني عبدُ الله، لستُ شريكاً ولا ابناً له.

قالَ الإمامُ ابن كثير: «أولُ شيء تكلَّمَ به أنْ نَزَّهَ جنابَ ربه تعالى، وبَرَّأه عن الولد، وأثبتَ لنفسِه العبوديةَ لربه..»[1].

إنَّ الدين ـ أيَّ دين ـ يقومُ على الفصلِ الدقيقِ بين الألوهيةِ والعبودية، فاللّهُ وحده هو الربُّ الإله، وكلُّ ما سواه له عبد.

وأيُّ خلْطٍ بين الإله والعبد يُعتبرُ كفراً بالله وشركاً به، فإذا ما رفعَ قومٌ عبداً من عبيدِ الله، وجعَلوه نداً لله، صاروا كفاراً مشركين بالله.

وهذه البدايةُ الإيمانيةُ لعيسى عليه السلام، التي بدأَ بها وهو طفلٌ في المهد، يقررُ فيها أنه عبدُ الله، وأنَّ اللّهَ وحده هو الرب، تكذيبٌ مبكرٌ لما سيقومُ به النصارى فيما بعد، عندما يَدَّعون أنه ابنُ الله.

وبعدما نصَّ على عبوديتِه لله، تحدَّثَ عما سيعطيهِ اللّهُ في المستقبل، فقال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

وهذا على تقديرِ المستقبل: سيؤتيني الكتاب، وسيجعلني نبياً.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١١٧.

والمرادُ بالكتابِ هنا الإنجيل، الذي سيؤتيه اللّهُ إيّاه، ويجعلُه مصدِّقاً للتوراةِ قبله.

لم يتكلمْ عيسى الوليدُ بهذا الكلام من نفسه، وإنما كانَ بإلهام من الله، أَلهمه أنْ يقولَ هذا القول، وأَخبره أنه سينزلُ عليه الإنجيل، وسيجعلُه نبياً رسولاً.

وإذا كان قولُه؛ ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ تكذيباً مبكراً لما سيزعمُه النصارى من بُنُوَّتِه لله، فإنَّ قولَه: ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ تكذيبٌ مبكرٌ لما سيزعمُه اليهودُ الملعونون، حيث سيكفرون به، ويُنكرون نبوَّته، ويحاولونَ قتله.

وقولُ عيسى بعد ولادتِه: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾، هو تطبيقٌ عمليٌّ للوعدِ الذي بَشَّرَ به جبريلُ عليه السلام مريم، قبل فترةٍ من حملِها بعيسى ووضعِها له، وهو الذي ذَكَره قولُه تعالى: ﴿يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦] وقولُه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ . . إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩].

معنى كون عيسى مباركاً:

وتابعَ عيسى عليه السلام تقديمَ نفسِه بكلامِه الواضحِ المبين: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾: اللّهُ باركني، وأفاضَ بركتَه عليّ، فصِرْتُ مباركاً أينما كنتُ ووُجِدْتُ.

و«كنتُ» هنا: فعلٌ ماضٍ تام، بمعنى «وُجدت». والتاء: ضميرٌ متصلٌ في محلِّ رفعِ فاعل.

و«كنت» فعلُ الشرط. وجوابُ الشرط محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله. والتقدير: أينما كنتُ ووجدتُ فقد جعلَني اللّهُ مباركاً.

و«مباركاً»: اسمُ مفعولٍ لأنه حلَّتْ عليه البركةُ من الله.

ومع أَنها عامةٌ في معناها، شاملةٌ لجميعِ صورِ البركة، إلاَّ أنَّ بعضَ السلف ذكَرَ بعض مظاهر هذه البركة.

قالَ مجاهد: «مباركاً»: جَعَلني نَفّاعاً.

وقال سفيان الثوري: «جَعَلني مباركاً أينما كنت»: جعَلَني معلِّماً للخيرِ حيثما كنت.

وقالَ وُهَيْبُ بنُ الورد: لقيَ عالمٌ عالماً فوقَه في العلم، فقالَ له: يرحمُك الله، ما الذي أُعلنُ من علمي؟

قال: الأمْرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، فإنه دينُ الله الذي بَعَثَ به أَنبياءَه إِلى عباده، وقد اجتمعَ الفقهاءُ على قولِ الله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ على أن بركته: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أينما كان!..[1].

﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

وهذا على ما سيكونُ في المستقبل. أي: سيوصيني بالصلاةِ والزكاة طيلةَ حياتي.

والصلاةُ معروفة.

أمّا الزكاةُ فقد ذهبَ بعضُ العلماء إِلى أنَّ المرادَ بها إِخراجُ زكاةِ المال. أي: أنَّ اللّهَ أَمره بإِخراجِ زكاةِ مالهِ طيلةَ حياته.

أمّا الطبري فله رأيٌ طريف، فهو يَرى أنَّ المرادَ بها: «تطهيرُ الجسدِ من دنس الذنوب. أي؛ وأَوصاني بتركِ الذنوب واجتنابِ المعاصي.

لأَنه قال: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾. أي: أَوصاني بالصلاةِ والزكاةِ طيلةَ

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٣٦ ـ ٢٣٧.

حياتي ووجودي في حياتي الدنيا. وما كانَ عيسى عليه السلام يدخرُ شيئاً من المال لغد، لتجبَ عليه زكاةُ المال»[1].

عيسى بار بأمه والبار عكس الجبار الشقي:

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى..﴾: وجعلني اللّهُ بَرّاً بوالدتي مريم.

الواو: حرفُ عطف.

و«بَرّاً» معطوفٌ على «مباركاً».

والمعنى: جَعلني اللّهُ نبياً، وجعلَني مبارَكاً، وجعلَني بَرّاً بوالدتي.

تقول: بَرَّ، يَبَرُّ، بِرّاً، فهو بارٌّ وبَرٌّ، وهم بَرَرَةٌ وأَبْرار.

ومعنى ذلك: التوسُّعُ في الإحسانِ إلى الوالدين ووصْلِهما[2].

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾. جعلني بَرّاً بوالدتي، ولم يجعلني جَباراً شقياً.

أي: لم يجعلْني مستكبراً على اللّهِ فيما أَمرني به ونَهاني عنه، ولكنه جعلَني متواضعاً له، متذلّلاً في طاعته.

وتُشيرُ الآيةُ إلى جانبين: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾.

الجانبُ الإيجابيُّ في شخصيةِ عيسى السوية عليه السلام، وهو بَرُّه بوالدته.

والجانبُ السلبيُّ الذي نَزَّهَ اللّهُ شخصيتَه السويةَ عنه، فلم يجعلْه جباراً شقياً.

ومَنْ كان عاقّاً لوالدَيْه كان جباراً شقياً عصياً، لأنه إذا لم يكن بارّاً بوالديه، فكيفَ يكونُ رحيماً بالآخرين؟ ومَنْ لا خيرَ فيه لوالدَيْه لا خيرَ فيه للآخرين!

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٣٨.

(٢) المعجم الوسيط: ٤٨.

قالَ عبدُ الله بن واقد: قالَ بعضُ أهلِ العلم: لا تَجِدُ عاقّاً لوالديْه إلاّ وجدْتَه جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾. ولا تجد سيء الملكة والمعاملة إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦][1].

وإذا وردَتْ كلمةُ «جبار» في القرآن وصْفاً للإنسان فإنها لا تكونُ إلاّ للذّم، لأَنه لا يكونُ جباراً إلاّ مَنْ كانَ مختالاً متكبراً، وشقياً عاصياً.

المؤمنُ الصالحُ لا يتجبَّر، لأَنه يعلمُ أَنَّ العظمةَ والجبروتَ لله، فيتواضعُ بينَ يدي الله، ويرحمُ الآخرين من عباد الله.

ولأَنَّ وصْفَ الإنسان بأنه جبارٌ ذمٌّ له، فقد نَزَّهَ اللّهُ نبيَّه عيسى عليه السلام عنه: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

ونَزَّهَ أَيضاً معاصِرَه يحيى عليه السلام عنه، حيث أَخبرَ عنه بقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤].

يحيى عليه السلام ليسَ جباراً عصياً، وعيسى عليه السلام ليسَ جباراً شقياً.

السلام على عيسى دليل على بشريته:

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

أَخبرَ عيسى قومَ مريم أَنَّ اللّهَ أَضفى عليه السلامَ والأمانَ في المواضعِ الثلاثةِ الحرجةِ الخطيرة من حياته: يومَ ولادتِه، ويومَ موته، ويومَ بعثه حياً يوم القيامة.

وردَ في تهذيبنا لتفسيرِ الإمامِ الطبري:

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٣٨.

«الأَمَنَةُ من اللهِ عليَّ من الشيطانِ وجندِه يومَ وُلدتُ، فلا يَنالون مني ما يَنالون من المواليدِ عندَ ولادتهم.

وأَمَنَةٌ من الله عليَّ يومَ أموت، من هولِ المطلع.

وأَمَنَةٌ من الله عليَّ يومَ أُبعثُ حياً يوم القيامة، فلا يَنالُني الفزعُ الذي يَنالُ الناس عندما يُعاينونَ أهوالَ القيامة..»[1].

إنَّ قولَ عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ دليلٌ على عبوديته لله.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير: «هذا إثباتٌ منه لعبوديتِهِ لله، وأنه مخلوقٌ من خلْقِ الله، يَحيى ويَموت ويُبعث، كسائرِ الخلائق، ولكنْ له السلامةُ في هذه الأحوال الثلاثة التي هي أشقُّ ما يكون على العباد..»[2].

لماذا سلام يحيى نكرة وسلام عيسى معرفة؟:

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أنه أَخبر عن السلامِ على النبيَّيْن الكريميْن: يحيى وعيسى عليهما السلام، لكن في الخبريْن تفاوتٌ في التعبير.

في الإِخبارِ عن يحيى وردَ السلامُ نكرة، وبأُسلوبِ الإِخبارِ عن الغائب؛ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم: ١٥].

وفي الإِخبارِ عن عيسى وردَ السلامُ معرفة، وبأسلوبِ التكلمُ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم: ٣٣].

وفي هذا إِشارةٌ إِلى أَنَّ السلامَ الذي أَضْفاهُ اللّهُ على عيسى عليه السلام كان أَخصَّ من السلامِ الذي أَضْفاه على يحيى عليه السلام، ولذلك خَصَّصه ومَيَّزه بالتعريف.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٣٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١١٧ ـ ١١٨.

وحكمةُ تعريفِ السلامِ وتمييزِه وتخصيصه أنَّ اللّهَ يعلمُ أنَّ اليهودَ سيكذبون عيسى عليه السلام ويَكفرون به، ولن يكتفوا بذلك، بل سيحرصون على قتلِه وصلبه، وهذا ما فَعلوه به فيما بعْد!

ولقد حماهُ اللّهُ منهم، ولم يجعلْ لهم سلطاناً عليه، ولذلكَ رفَعه إليه.

ولهذه الحوادث التي وقعَتْ له، خصَّه اللّهُ بالسلامِ الخاص، فسلَّمه من اليهودِ ومكائدِهم ومؤامراتهم.

كما أنَّ تعريفَ هذا السلام تعريضٌ بخصومِه اليهود الكافرين، بأنَّ لهم ضدَّ هذا السلام، قالَ الإمامُ الزمخشري: «والصحيحُ أن يكونَ هذا التعريفُ تعريضاً باللعنةِ على متهِمي مريمَ عليها السلام وأَعدائِها من اليهود. وتحقيقُه أنَّ اللامَ في «السلام» للجنس. فإذا قالَ عيسى بأنَّ جنسَ السلام عليّ، فقد عَرَّضَ بأنَّ ضدَّه وهو اللعنةُ على اليهود.

ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧] فإنه يعني أنَّ العذابَ على مَنْ كذب وتولى...»[١].

وهكذا أَنهى عيسى عليه السلام بيانَه، وقدَّمَ نفسَه إلى قومِ أُمه، وذكرَ عبوديتَه للّهِ الواحد، وذكَرَ ما سيؤتيه اللّهُ من النبوةِ والكتاب، ومن السماتِ والمزايا الإيجابيةِ القائمةِ على برِّه بأمه، وتواضعِه، وعدمِ تجبرِه أو تكبره، وما سيضفيهِ عليه من السلامِ والأمانِ في حياته.

وتوقَّفَ عرضُ القرآن لقصةِ ميلادِ عيسى عليه السلام عند هذا الحد، ولم يتحدثْ عن ردةِ فعلِ القومِ لما سمعوا بيانَه وكلامَه، ولا عن ما جرى لمريمَ رضي اللّهُ عنها بعد ذلك.

تعقيب القرآن على عرض مشهد ولادة عيسى:

وقد عقبتْ آياتُ سورةِ مريم على ذلك بتقريرِ الحقيقةِ الإيمانية

---

(١) الكشاف ٣: ١٦.

بشأنِ عيسى عليه السلام، وتقريرِ وحدانيةِ الله، وتكذيبِ النصارى في مزاعمِهم حولَه.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٣٤ ـ ٤٠].

إنَّ هذا التعقيبَ هو الهدفُ من ذكْرِ الحملِ بعيسى وولادتهِ وكلامِه في المهد، لأنَّ موضوعَ هذا التعقيب ثمرةٌ لما قبله.

والملاحَظُ أنَّ أسلوبَ وإيقاعَ ولهجةَ وفاصلةَ هذا التعقيب يختلفُ عن السردِ والعرضِ فيما قبله.

لقد كانَ الكلامُ من مطلعِ السورة إلى هذا الموضعِ عرضَ لقطاتٍ ومشاهد من قصةِ زكريا ويحيى عليهما السلام، ثم عَرَضَ مشاهدَ ولقطاتٍ من بداياتِ قصة عيسى مع أمه عليه السلام.

فقد كانَ الأسلوبُ واللهجةُ والإيقاعُ يتناسَبُ مع العرضِ والسردِ والإخبار والرواية. وكانت فواصلُ الآيات متناسقةً مع الأُسلوب والجو، حيث كانت بالياءِ المشددة التي بعدَها أَلِف، مثل: زكريا. خفياً، شقياً. ولياً. رضياً. سمياً.

وكانت الفواصلُ السابقة في عَرْضِ قصةِ عيسى على نفس الصورة: شرقياً. سوياً. تقياً. زكياً. بغياً. مقضياً. قصياً. منسياً. سرياً. جنياً. . . وهكذا.

أما في آيات هذا التعقيب السبعة فقد اختلفَ الأسلوبُ والإيقاع،

فصارَ هادئاً بطيئاً مديداً، واختلفَتْ فواصلُ الآيات، فتحوَّلَتْ إِلى واوٍ أو ياء بعدَها نون أو ميم، مثل: يمترون. فيكون. مستقيم. عظيم. مبين. يؤمنون....

قالَ سيد قطب في كتاب «التصوير الفني في القرآن» معلِّلاً ذلك: «وهكذا يتغيَّرُ في هذا التعقيب نظامُ الفاصلةِ فتطول، ويتغيَّرُ نظامُ القافيةِ فتصبح بحرفِ النون أو الميم وقبلهما مَدٌّ طويل.

وكأنما هو في هذه الآياتِ الأخيرة يُصدِرُ حكماً بعدَ نهايةِ القصة، مستَمَداً منها. ولهجةُ الحكم تَقتضي أُسلوباً موسيقياً غيرَ أُسلوب الاستعراض. وتقتضي إِيقاعاً قوياً رصيناً، بدلَ إِيقاعِ القصةِ الرَّضِيِّ المسترسِل، وكأنما لهذا السببِ كان التغيير.

ونحنُ نستأنسُ في هذا الاستنباط بملاحظةٍ أُخرى، ذلك أَنه بمجرد الانتهاءِ من إِصدارِ هذا الحكم، وإِلقاءِ ذلك التقرير، عادَ إِلى النظامِ الأول في القافيةِ والفاصلة، لأَنه عادَ إِلى قَصَصٍ جديد...»[1].

قال القول الحق بشأن عيسى:

أَخْبَرَنا اللّهُ في هذا التقريرِ والتعقيب، أنّ هذا هو الحقُّ في قصةِ عيسى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

و﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ فيه قراءتان:

الأولى: قراءةُ عاصم وابنِ عامر: «قَوْلَ الحق» بالنصب. على أَنه مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوف، مؤكِّدٍ لما قبلَه. والتقدير: ذلك عيسى ابنُ مريم، أَقولُ فيه قولَ الحق. والقائلُ هو الله سبحانه.

الثانيةُ: قراءةُ الباقين: «قولُ الحق» بالرفع. على أَنه خبرٌ لمبتدأ محذوف. تقديره: هو قولُ الحق.

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ٩٠.

الحقّ في عيسى عليه السلام هو ما قالَه الله، أما أَهلُ الكتاب فقد كانوا يمترون ويختصمون ويختلفون فيه.

قال قتادة: امْتَرَتْ فيه اليهودُ والنصارى. فأما اليهودُ فزعموا أَنه ساحرٌ كذاب، وأمّا النصارى فزعموا أنه ابنُ الله، وأَنه إِله، وأنه ثالث ثلاثة: وكذبوا كلُّهم، لأنه عبدُ اللّهِ ورسولُه، وكلمتُه وروحُه..

وقالَ ابنُ جريج: اختلفَ فيه النصارى. فقالت فرقة: هو عبدُ الله ورسولُه، وقالت فرقةٌ هو الله. وقالت فرقة: هو ابنُ الله[1].

وقد كَذَّبَ اللّهُ النصارى بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

كيف يكون عيسى ابناً لله؟ وما ينبغي ولا يصلحُ لله أنْ يتخذَ ولداً، وهو لا يَحتاجُ إِلى الولد، سبحانه وتعالى عما يقول النصارى علواً كبيراً.

ولا غرابةَ في خلْقِه عيسى عليه السلام من غيرِ أب، لأنه أَراد خلْقَه هكذا فخَلَقَه، وإذا أَرادَ اللّهُ إِيجادَ شيء فإنه يوجِدُه بكلمة «كن»، فيكونُ ذلك الشيءَ ويوجَدُ كما أرادَ الله.

وبما أن السياقَ في تكذيبِ مزاعمِ وادعاءات النصارى حولَ تأليه عيسى عليه السلام، فقد أَخبرَ عن بعضِ ما قالَه عيسى لهم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌۭ مُّسْتَقِيمٌۭ ﴿٣٦﴾﴾.

قال عيسى للنصارى عندما كان بينَهم قبلَ أنْ يرفعه اللّهُ إليه: اللّهُ هو ربي ربكم، لا شريكَ له، ولم يتخذْ صاحبةً ولا ولداً، وأَنا عبدُه ورسولُه، ولستُ ابناً له، وأَنا مأمورٌ بعبادتِه، فاعبدوه كما أَعبدُه أَنا، وهذا هو الصراطُ المستقيم.

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥:٢٣٩.

ولكنَّ النصارى لم يأخذوا بقوله، وإنما انقسموا إلى أحزابٍ مختلفة فيه: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وهذه الأَحزابُ النصرانية، كافرةٌ بالله، لأَنها أَلَّهتْ عيسى عليه السلام، فمنهم مَنْ قال: هو إله، ومنهم مَنْ قال: هو ابنُ الله، ومنهم مَنْ قال: هو أَحَدُ الأقانيم الثلاثة: الآب والابن والروح القدس، فهو ثالثُ ثلاثة.

ولهؤلاءِ الكافرين عذابٌ شديدٌ يومَ القيامة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قوة سمع وبصر الكفار يوم القيامة وحسرتهم:

ومِن أَحوالهم هناك في الآخرة قوةُ أَسماعِهم وأَبصارِهم: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

وردَ في تقريبنا لتفسيرِ الطبري ما يلي: «هذا إِخبارٌ عن أَحوالِ الكفار، يومَ ورودِهم على الله في الآخرة. فقد كانوا في الدنيا عُمياً عن إِبصارِ الحق، والنظرِ في آياتِ الله الدالةِ على وحدانيته، صُمّاً عن سماعِ آياتِ كتابه، وعن الاستجابةِ لدعوة الرسل.

فما أَسمعَهم يومَ قدومِهم على ربِّهم في الآخرة، وما أَبصرَهم في ذلك اليوم، ولكن حين لا ينفعهم السمعُ والإبصار.

قال قتادة: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾: ذاك والله يومَ القيامة. سَمعوا حينَ لا ينفعُهم السمع، وأَبصروا حين لا ينفعَهم البصر، فكانوا أسمعَ قوم وأبصرَهم.

وقال ابن زيد: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾: هذا يومَ القيامة، فأما الدنيا فلا، حيث كانتْ على أَبصارِهم غشاوة، وفي آذانهم وقر،

فلما كان يومُ القيامة أَبصروا وسَمِعوا، لكن لم يَنتفعوا...[1].

وإذا كان هؤلاء النصارى المؤلّهون لعيسى عليه السلام، على هذه الصورةِ من السمعِ والبصرِ يوم القيامة، حين لا ينفعهم ذلك، فلا بدَّ أنْ يُوَجَّهَ لهم الإنذار، ليستفيدوا من الفرصةِ المتاحة لهم في الدنيا:

ولذلك أَمَرَ اللّهُ نبيَّه محمداً ﷺ أنْ ينذرهم عذابَ الآخرة: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أَنذرهم عذابَ يومِ القيامة، حيث سيحاسَبون فيه، ثم يحكمُ اللّهُ فيهم بالعذاب الأبدي فيِ جهنم، فيتحسَّرون حسرةً شديدة.

أَنذرْهم وهم في الدنيا حتى تزولَ الغفلةُ التي يَعيشونها، وحتى يصحوا ويستيقظوا، فيتخلَّوا عن كفرهم، ويؤمنوا بالله.

وختمَ اللّهُ التعقيبَ على قصةِ ميلادِ عيسى عليه السلام بتقريرِ حقيقةٍ إِيمانية قاطعة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

وهذا تأكيدٌ لوحدانيتِه، وأنه لا شريكَ له، فهو الخالق، وكلُّ ما سواه مخلوق، وعيسى مخلوقٌ من المخلوقين.

واللّهُ وحدَه هو المالكُ للسمواتِ والأرضِ والدنيا والآخرة، وهو الذي يرثُ الأرضَ ومَنْ عليها من البشر، وهو الذي يُفني هذه الدنيا، ويأتي بالآخرة، وهو الذي يَبعثُ الناسَ يومَ القيامة، ويحاسبهم ويثيبهم أو يعاقبهم.

ما بين طفولة عيسى وبعثته مسكوت عنه:

وعيسى عليه السلام يكونُ من المبعوثين يوم القيامة.

وبهذا التعقيبِ الإيمانيِّ والتقريرِ القرآني، تنتهي لقطاتُ ومشاهدُ قصةِ ميلادِ عيسى عليه السلام.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٥: ٢٤١.

وقد سكتَ القرآنُ عن ما جرى لمريمَ رضي الله عنها بعد قدومِها إلى قومها، ولا نعرفُ كيفَ كانتْ حياتُها بعد ذلك، ولا كيفَ ومتى وأينَ كانتْ وفاتُها.

كما سكتَ القرآنُ عن تفاصيلِ طفولة عيسى عليه السلام، ومحطاتِ إقامتِه، وما جَرى له في صباه. فهذا ليسَ من مقاصدِ العرض القرآني.

ونحن نسكتُ عن ما سكتَ عنه القرآن، ولا نأخذُهُ من مصادرِ غيرِ الكتاب والسنة!!

[١٠]

عيسى رسول إلى بني إسرائيل

شبَّ عيسى عليه السلام، وعاشَ صِباه وشبابَه طاهراً تقياً، يحفظُه اللّهُ ويَحميه ويَرعاه، ويُبعدُ عنه الشيطانَ ووساوسَه، حتى أَنزلَ عليه الوحي، وجعلَه نبياً رسولاً، وبعثَه إلى بني إسرائيل، وأَنزلَ عليه كتابَه الإنجيل.

ولا يحددُ لنا القرآنُ عمرَه عندما بعثَه اللّهُ وأَنزلَ عليه كتابه، فلا نخوضُ في ذلك، ونَبقى مع ما وردَ في صريحِ القرآن وصحيحِ الحديث.

وكانت بعثةُ عيسى عليه السلام وإنزالُ الإنجيلِ تحقيقاً للبشرى التي قَدَّمَها اللّهُ إلى أُمّه قبلَ حملِها به: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . .﴾ [آل عمران: ٤٧ ـ ٤٨].

وهي تحقيقٌ لما أَخبرَ هو عن نفسِه، عندما كلَّمَ قومَه وهو في المهد قائلاً: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣١].

وجوب الإيمان بأن عيسى عبد الله ورسوله:

إنَّ عيسى عبدُ الله، ونبيُّه ورسولُه عليه الصلاة والسلام، ويجبُ

الإيمانُ بنبوتِه ورسالتِه إلى بني إسرائيل، ومَنْ أنكرَ كونَه نبياً رسولاً فقد كفر، ولهذا كان مِن أسبابِ كفرِ اليهود إنكارُهم نبوةَ ورسالةَ عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

وأَخبرَ اللّهُ نبيَّه محمداً ﷺ أنه أخذ الميثاقَ منه كما أَخَذَهُ من أُولي العزم من قبله، ومنهم عيسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾ [الأحزاب: ٧].

وهذا ما قررَهُ رسولُنا ﷺ حيث روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ شهدَ أنْ لا إلهَ إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، وأن محمداً عبدُه ورسولُه، وأن عيسى عبدُ الله ورسولُه، وكلمتُه أَلقاها إِلى مريم وروحٌ منه، والجنة حق، والنار حق، أدخلهُ اللّهُ الجنةَ على ما كان من العمل..»[1].

والإيمانُ بنبوةِ عيسى عليه السلام يجبُ أنْ يكون إيماناً بالأُمورِ التي ذكَرَها رسولُ الله ﷺ، من أَنه: عبدُ الله، ورسولُ الله، وكلمةُ الله أَلقاها إلى مريم، وروحٌ من الله خلَقَها في رحم مريم.

وقد بَيّنّا معنى كونِه كلمةً وروحاً من الله في ما مضى، ولله الحمد.

عيسى مقفى وخاتم لأنبياء بني إسرائيل:

وصرحَ القرآنُ في أكثرَ من موضعِ بأنَّ عيسى عليه السلام

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٣٥. ومسلم برقم: ٢٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٧٧.

«مُقفى»، قَفى اللّهُ به على آثارِ الأنبياء السابقين، وبعثَه بعدهم. وهو آخر أَنبياءِ بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ...﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ...﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٦ ـ ٢٧].

والمُقفى اسمُ مفعول من الفعلِ الرباعي «قفّىٰ»، بمعنى: أتبع.

يقال: قفّى على آثاره: ذهبَ بها. وقفّى به فلاناً: أَتبعه بفلان[1].

معنى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾: أَتبَعْنا على آثارِ الرسل السابقين كنوح وإبراهيم برسلٍ لاحقين جاءوا بعدهم كموسى وهارون.

ومعنى: «وقفينا بعيسى ابن مريم»: أَتبَعْنا الرسلَ اللاحقين كموسى وهارون برسولِنا عيسى ابن مريم، وآتيناه الإنجيل، وجعلناه آخرَ أنبياءِ بني إسرائيل.

وهكذا جعلَ اللّهُ عيسى عليه السلام خاتمَ أَنبياءِ بني إسرائيل، ولم يَبعثْ بعدَه رسولاً إلاّ خاتمَ الأنبياءِ والمرسلين، والرحمةَ لجميعِ العالمين، محمداً ﷺ.

لماذا ذكر همزة «ابن» في: عيسى ابن مريم؟:

وكانَ القرآنُ حريصاً على تأكيدِ نسبةِ عيسى عليه السلام إلى أُمه، فيقول «عيسى ابن مريم»، ويقول: «المسيح عيسى ابن مريم».

---

(١) المعجم الوسيط: ٧٥٢.

وهو منسوبٌ إِلى أُمّه لأنه ليسَ له أبٌ لينسبَ إِليه.

ومن لطائفِ رسم المصحفِ العثماني أنَّ همزةَ «ابن» مذكورةٌ موجودةٌ في كلِّ موضعٍ ذُكِرَ فيه «عيسى ابن مريم».

مع أنَّ همزةَ «ابن» تُحذفُ لفظاً وخطاً، إِذا وردَ اسمُ شخص، وبعدَه «ابن» صفةٌ له، مُضافاً لاسمِ شخصٍ آخر هو أبٌ له. تقول: محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عبد المطلبِ ﷺ. إلاّ إِذا وقعَ «ابنُ» في أولِ السطر فتَثبتُ الهمزةُ في أوله.

وخرجَ عن هذه القاعدة إِذا أُضيفَ «ابن» إِلى أُمِّ الشخص، فإن همزةَ ابن تَثبتُ في الخطِّ والكتابة. تقول: الحسنُ ابنُ فاطمة رضي الله عنهما، بينما تقول: الحسنُ بنُ علي رضي الله عنهما.

ولذلكَ كانتْ همزةُ «ابن» في «عيسى ابن مريم» عليه السلام مثبتةً في المصحف أَينما وردَت، لأنَّ عيسى نُسبَ إِلى أُمه لكونه لا أَبَ له، فكلمةُ «ابن» أُضيفَتْ إِلى الأُمِّ وليس إِلى الأَب![1].

عيسى رسول إلى بني إسرائيل فقط:

بعثَ اللّهُ عيسى ابنَ مريم عليه السلام رسولاً إِلى بني إسرائيل فقط.

ووردَ هذا في صريحِ آياتِ القرآن.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ...﴾ [الصف: ٦].

---

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه لمحمود صافي ٨: ٢٩٧.

خاطبَ عيسى عليه السلام بَني إسرائيل، وصارحَهم بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم..﴾.

وأَخبرَهم أَنه مصدِّقٌ لما سبقَه من التوراة، وأَنه يبشرُهم بالنبيِّ الخاتم الذي سيبعثُه اللّهُ من بعدِه: محمدِ بن عبد الله ﷺ.

وبعثةُ عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل فقط، لأنَّ كلَّ نبي كانَ يُبعثُ إلى قومِه خاصة، إلاّ رسولَنا محمداً ﷺ الذي بعثَه اللّهُ إلى الناسِ كافة.

كلُّ نبي كانَ يقولُ لقومه: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾. أما رسولُنا ﷺ فقد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ...﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وهذا ما وردَ في صريحِ حديثِ رسولِ الله ﷺ، حيث روى مسلمٌ عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أُعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي: كان كلُّ نبيٍّ يُبعثُ إلى قومه خاصة، وبُعثتُ إلى كلِّ أحمر وأسود. وأُحلّتْ لي الغنائم، ولم تُحَلَّ لأحدٍ قبلي. وجُعلَتْ لي الأرضُ طيبةً طهوراً ومسجداً، فأيّما رجلٌ أدركَتْه الصلاةُ صلى حيثُ كان. ونُصرتُ بالرعبِ بين يديْ مسيرةِ شهر. وأُعطيتُ الشفاعة..»[1].

والشاهدُ فيه قولُه: كان كلُّ نبيٍّ يُبعثُ إلى قومه خاصة، وبُعثتُ إلى كلِّ أحمر وأسود.

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أنَّ عيسى بلَّغَ رسالتَه إلى بني إسرائيل بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ...﴾ ولم يقل: يا قوم.

بينما أَخبرَ القرآنُ في الآيةِ السابقة من سورة الصف أنَّ موسى عليه

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٥٢١.

السلام قالَ لهم: يا قوم! قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ...﴾ [الصف: ٥].

موسى يقولُ لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوْمِ﴾. وعيسى يقول لهم: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم..﴾ ولم يقل: يا قوم.

والحكمةُ في هذا أنَّ الرجلَ يُنسبُ إلى قومِ أبيه، فيُقال: هو من بني فلان، ويخاطِبُهم هو قائلاً: يا قوم.

وهذا متحققٌ في موسى عليه السلام، لأنه ابنُ عمران، وأبوه عمران من بني إسرائيل. أَما عيسى فليسوا قومَه، بل لا قومَ له من البشر، لأنه ليسَ له أب!

عالمية النصرانية خلاف طبيعتها:

وإذا كان عيسى ابنُ مريم عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل فقط، بنصِّ القرآنِ الصريح والحديثِ الصحيح، فإنَّ هذا معناه أنَّ «النصرانيةَ» ديانةٌ إسرائيليةٌ خاصة، وأنَّ الأقوامَ الآخرين من غيرِ بني إسرائيل ليسوا مدعوّين من قِبَلِ عيسى، وليسوا مطالَبين بالإيمانِ به والدخولِ في دينه!!

ولكنَّ الواقعَ التاريخيَّ لا يتفقُ مع هذه الحقيقة، حيثُ دخلَ أفرادٌ من غيرِ بني إسرائيل بعدَ رفْعِ عيسى عليه السلام في النصرانية، واتَّبعوا عيسى عليه السلام، وانتشرت الديانةُ النصرانيةُ في بلاد الشام ومصر، ثم امتدَّتْ إلى الحبشةِ في الجنوب، واليونان وتركيا في الشمال، ووصلَتْ إلى روما في الغرب، بعدَ رفعِ عيسى عليه السلام بفترة وجيزة.

والحقيقةُ أنَّ هذا الانتشارَ العالميَّ للنصرانية، ودخولَ أقوام من غيرِ بني إسرائيل فيها، كان خلافَ أصْلِها وطبيعتِها، وكان أمراً خارجياً خارجاً عنها، وله أسبابٌ كثيرة، ليس هذا موطنَ بيانِها.

جعلَ اللّهُ عيسى عليه السلام رسولاً، وبعثَه إلى بني إسرائيل، وأنزلَ عليه الإنجيل، وجعلَه مكملاً للتوراة ومصدِّقاً لها.

معنى الإنجيل وصفاته المذكورة في القرآن:

فالإنجيلُ كتابٌ من كتبِ الله التي أنزلَها اللّهُ على رسله، فيجبُ الإيمانُ بأنَّ الإنجيلَ كتابُ الله، أنزلَهُ اللّهُ على عيسى عليه السلام.

و«الإنجيل» كلمةٌ أعجميةٌ غيرُ عربية، ولا نبحثُ عن معنى اشتقاقِها في العربية.

وَرَدَ في «قاموس الكتاب المقدس» أنَّ «الإنجيلَ» مشتقٌ من اللفظِ اليوناني «أُونْجِلْيُون»، ومعناه بالعربية: الخبرُ الطيب، أو البشارةُ. على أنه بشارةٌ من الله، تولّى عيسى عليه السلام التبشيرَ بها للآخرين[1].

وقد وردتْ كلمةُ «الإنجيل» اثنتي عشرة مرةً في القرآن.

أَخبرَ اللّهُ أنه أنزلَ القرآنَ كما أنزلَ التوراةَ والإنجيلَ من قبل: ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤].

وجعلَ اللّهُ الإنجيلَ مصدِّقاً للتوراة، ومكملاً لأحكامِها. قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٦ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ۝٤٧﴾ [المائدة: ٤٦ ـ ٤٧].

وجعلَ اللّهُ عيسى عليه السلام مصدِّقاً لما بينَ يديه من التوراة، وذلك أنَّ موسى عليه السلام بَشَّرَ بعيسى عليه السلام، والبشارةُ به وردَتْ في التوراة التي أَنزلَها اللّهُ على موسى عليه السلام.

فلما بعثَ اللّهُ عيسى نبياً رسولاً، كانت بعثتُه تصديقاً لتلك البشارةِ

---

(١) قاموس الكتاب المقدس: ١٢٠ ـ ١٢١.

المذكورة في التوراة، حيثُ تحققتْ تلكَ البشارةُ النظريةُ في صورةٍ عمليةٍ واقعية، ونُفِّذَ الوعدُ الإلهيُ الذي فيها في عالم الواقع، ومعلومٌ أنَّ اللّهَ لا يُخلفُ الميعاد.

وأَخبرَ اللّهُ أَنه جعلَ الإنجيلَ فيه هدى ونور، وهو هدى يَهدي اللّهُ به الناسَ إلى التي هي أقوم، وهو نورٌ ينيرُ للناسِ حياتَهم وطريقَهم.

إنه هدى ونورٌ لأَنه كتابُ الله، وكلُّ كتبِ الله التي أنزلَها على رُسُلِه هدى يَهتدي الناسُ بها، ونورٌ تنيرُ للناسِ حياتَهم.

الإنجيل الصحيح مصدق للتوراة الصحيحة:

ومن المعلومِ أنَّ الإنجيلَ أَنزلَه اللّهُ على عيسى عليه السلام هدى ونوراً، وأنَّ عيسى عليه السلام بلَّغَه إلى المؤمنين به، وأَنهم اهتدوا به واستنارَتْ حياتُهم بأَنواره، ولكنَّ النصارى حَرَّفوا الإنجيلَ بعد رفعِ عيسى عليه السلام، وبذلك طَمَسوا ما فيه من نور، وقَضوا على ما فيه من هدى!

وجعلَ اللّهُ الإنجيلَ الأصيلَ الصحيحَ مصدِّقاً للتوراةِ التي قبلَه، وتصديقُ الإنجيل للتوراة هو اعتمادُه لها بأَمْرِ الله ـ والتوراةُ هي التي أنزلَها اللّهُ وليست التوراةَ المحرفةَ التي كتبها أَحبارُ اليهود ـ!

الإِنجيلُ مصدقٌ للتوراة، لأن كلَّ كتبِ اللّهِ يصدِّقُ بعضُها بعضاً، إِنه يصدِّقُها في العقيدةِ ومسائلِ الإيمان، وإِثباتِ الوحدانية ونفيِ الشرك وتعبيدِ الناسِ لله، ويصدقُها في الأَخبارِ والأَخلاقِ والتوجيهات، بحيث يتناسقان ويتوافقان في هذه الموضوعات.

أَما في الأَحكام والتشريعات فإنَّ الإِنجيلَ يُقرُّ ويصدقُ ويوافقُ معظمَ أحكامِ التوراة الإِلهية، لأَنها أحكامٌ وتشريعاتٌ من الله.

وفي بعضِ الأحكامِ والتشريعات أَرادَ اللّهُ أنْ ينسخَ ما في التوراة بما في الإنجيلِ منها، حيث كانَ بعضُها يحرمُ أَشياءَ على اليهود، فنسخَ اللّهُ ذلك، وأَباحها لهم في الإنجيل.

ووردَ هذا صراحةً في قولِه تعالى عن بعضِ ما قالَه عيسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ...﴾ [آل عمران: ٥٠].

وأَخبرَنا اللّهُ عن بعضِ ما أوردَه في الإنجيل، وأَخبرَ به عيسى بني إسرائيل، ـ وهو الذي أوردَهُ في التوراةِ والقرآن أيضاً ـ وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

إنَّ الذي قررَه اللّهُ في كتبه الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن هو أنَّ المؤمنين باعوا أنفسَهم وأموالَهم لله، فاشتراها اللّهُ منهم، وجعلَ ثمنَ ذلك الجنة، وطريقةُ التسليم هي الجهادُ والقتالُ في سبيل الله، وعندما يجاهدُ هؤلاء المؤمنون فسيَقْتُلون بعضَ الأعداء، ومقابلَ ذلك سيُقْتَلُ أُناسٌ منهم شهداء، ووعدَ اللّهُ الفريقين من المؤمنين المجاهدين ـ الشهداء والمنتصرين السعداء ـ الجنة، وهذا وعْدٌ قاطعٌ منه، وردَ في التوراةِ والإنجيل والقرآن، وإنه منجزٌ لهم ما وَعَد، لأَنه سبحانه لا يُخلفُ الميعاد.

وذِكْرُ هذه الحقيقةِ الجهاديةِ في الإنجيل دليلٌ على أنَّ الإنجيلَ الربانيَّ الأصيلَ فيه أَبعادٌ وتوجيهاتٌ جهادية! .

صفات رسول الله والذين معه في الإنجيل الصحيح:

ومما ذكرَه اللّهُ في الإنجيل صفاتُ الرسولِ الخاتم محمدِ بنِ عبد الله ﷺ، وأَخبرَنا في القرآن أنَّ النصارى يَجدون صفاتِه مكتوبةً عندهم في التوراة والإنجيل. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ..﴾ [الأعراف: ١٥٧].

كما ذكَرَ اللّهُ في الإنجيلِ بعضَ صفاتِ المؤمنين أتباعِ رسولِ الله محمدٍ ﷺ، وأخْبَرنا عن ذلك في القرآن. قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ۝٢٩﴾ [الفتح: ٢٩].

لقد ضربَ اللّهُ لأمةِ محمدٍ ﷺ مَثَلَيْن: مَثَلاً عِبادياً في التوراة، ومثلاً زراعياً في الإنجيل..

ويهمُّنا أنْ نُشيرَ في هذا المقام إلى مثلِهم الزراعيِّ في الإنجيل.

مَثَلُهم فيه كَمَثَلِ زرعٍ أخرجَ «شَطْأَه»: وهو نباتُه الصغيرُ الذي يَنبتُ بجانبِ النبتة الأساسية الأمّ.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾: فقوّاه وساعدَه، وقَوِيَ الزرعُ بشطئِه وفراخِه الصغيرة.

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾: فصارَ الزرعُ غليظاً قوياً.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: نَضجَ هذا الزرعُ على سوقِه التي تحملُ سنابِلَه.

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾: هذا الزرعُ الذي استغلظَ فاستوى على سوقِه، صارَ يعجبُ الزّرّاعَ والفلاحين، في تمامِه وحسنِ نباتِه وجمالِ سنابله.

وهكذا أصحابُ محمد ﷺ، حيثُ بعثَه اللّهُ رسولاً، وبدأَ وحيداً، ثم آمنَ به أُناسٌ قليلون، ثم ازدادوا وكثُرُوا، ونصرهم اللّهُ وأغاظَ بهم الكفار.

وهكذا بلّغَ عيسى عليه السلام بني إسرائيل الدعوة، وقدّمَ لهم الإنجيل!!.

[١١]

معجزات عيسى عليه السلام

الآيات الربانية رافقت عيسى منذ ميلاده إلى وفاته:

شاءَ اللّهُ الحكيمُ أنْ يجعلَ عيسى عليه السلام آية، ولذلكَ جعلَ معجزاتٍ عديدةً في حياته.

جعلَ اللّهُ حمْلَ أُمِّه به من غيرِ بَعْلٍ آية، وأجرى لها سَرِيَّ الماءِ آية، وأثمرَ لها الرُّطَبَ الجنيَّ على النخلةِ آية، وأنزلَ عيسى عليه السلام من بطنِ أُمِّه متكلِّماً آية، وأنطقَ عيسى أمامَ أهلها، فقدَّمَ نفسَه إليهم آية.

هذه آياتٌ ومعجزاتٌ رافقَتْ خَلْقَه وميلادَه وطفولتَه.

ولما صارَ شاباً وبعثَه اللّهُ نبياً رسولاً، قَدَّمَ اللّهُ له عدداً من الآياتِ والمعجزات لبني إسرائيل، أقامَ عليهم فيها الحجة.

ولما صممَ اليهودُ على صلبِه وقتلِه، حماهُ اللّهُ منهم، ورفَعَه إلى السماء، وجعلَ هذا آية.

وهو الآنَ حيٌّ في السماء بروحِه وبدنه، حياةً غيبيةً لا نعرفُ كيفيتَها، وجعلَ اللّهُ هذا آية.

وسينزلُه اللّهُ في آخرِ الزمان إلى الأرض، وسيكونُ إنزالُه آية.

وهكذا صاحبت الآياتُ والمعجزاتُ عيسى عليه السلام منذُ خَلْقِه إلى موتِه قبيلَ قيامِ الساعة.

ولهذا قالَ اللّهُ عنه وعن أُمِّه: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].

فنصَّ على أنه جَعَلَهما آيةً للعالمين، والعالَمون هنا هم الناسُ أجمعون، جعلَهما اللّهُ آيةً من آياته، الدالةِ على وحدانيتِه وقدرتِه وحكمته.

واللطيفُ في التعبيرِ القرآنيِّ أنه عبَّرَ عن الاثنين عيسى وأُمِّه بالمفرد، وذلك في قوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً﴾، ولم يقل: «آيتين».

وحكمةُ الإفرادِ «آية» أنهما متلازمان لا ينفصلان، فلا يُذْكَرُ عيسى عليه السلام إلاّ تُذكر أُمُّه معه، ولا تُذْكَرُ مريم رضيَ اللّهُ عنها إلاّ يُذْكَرُ ابنُها معها، فهما «آية» معاً.

ثم إنَّ الآياتِ التي جعلَها اللّهُ في مريم هي تمهيدٌ لآياتِ عيسى، فقصةُ مريمَ هي قصةُ عيسى باعتبارِها أُمَّه، فالمقصودُ من الآياتِ هو عيسى، ولذلك عبَّرَ بالمفردِ «آية»، فعيسى هو الآية، وأُمُّه جزءٌ منه، وآيتُها هي آيتُه.

ويهمُّنا في هذا الموضع الحديثُ عن آياتِ عيسى عليه السلام التي قَدَّمَها لبني إسرائيل، فهو رسولٌ بعثَهُ اللّهُ إليهم، وجعلَ اللّهُ معه آياتِ معجزاتٍ دالةً على صدْقِه ونبوتِه.

آيات الأنبياء الموقوتة وآية نبينا المستمرة:

ومعلومٌ أنَّ اللّهَ أعطى كلَّ نبيٍّ أو رسولٍ آياتٍ دالةً على نبوته ورسالته.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ..﴾ [الحديد: ٢٥].

وروى مسلمٌ عن أبي هريرة رضي اللّهُ عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «ما من الأنبياءِ من نبيٍّ إلاّ قد أُعطِيَ من الآياتِ ما مثلُه آمَنَ عليه البشر. وإنما كان الذي أُوتيتُ وَحْياً أوحى اللّهُ إليّ، وإني لأرْجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامة..»[1].

فقد صرحَ رسولُ الله ﷺ بأنّ اللّهَ أعطى كلَّ نبيٍّ آياتٍ دالةً على

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٥٢.

نبوتِه، وهذه الآياتُ تتفقُ مع خصوصيةِ رسالتِه في الزمانِ والمكانِ والأشخاص، وهي سببٌ في إيمانِ مَنْ يؤمنُ به من قومِه.

وجعلَ اللّهُ الحكيمُ آيةَ رسولِنا ﷺ مستمرةً حتى قيام الساعة، موجودةً في القرآنِ الكريم الذي أوحى اللّهُ به إليه، لأنَّ رسالتَه ﷺ عامةٌ شاملةٌ مستمرةٌ حتى قيامِ الساعة، ولهذا هو أكثرُ الناسِ أتباعاً يومَ القيامة.

من هذا الباب جعلَ اللّهُ مع عيسى عليه السلام مجموعةً من الآيات، وبعثَهُ نبياً رسولاً إلى بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ..﴾ [آل عمران: ٤٩].

أيد الله عيسى بجبريل روح القدس ومعناه:

وأيدَ اللّهُ عيسى عليه السلام بالروحِ القُدُس، وهو جبريلُ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ ..﴾ [البقرة: ٨٧] و[البقرة: ٢٥٣].

والملاحَظُ أنَّ هذه الجملةَ وردَتْ بعينِها في الآيتيْن السابقتيْن من سورةِ البقرة، وليس فيهما تكرار، لأنها في كلِّ آيةٍ واردةٌ في سياقٍ خاص، ولتقريرِ حقيقةٍ خاصة وهدفٍ معين.

وامتنَّ اللّهُ على عيسى عليه السلام بتأييدِه بروح القُدُس. قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا ..﴾ [المائدة: ١١٠].

وأُطلقَ على جبريل روحٌ، لأنَّ أَساسَ معنى الروحِ هو ما به حياةُ الإنسان، سواء كانت حقيقيةً أو معنوية.

فالروحُ الحقيقيةُ هي التي يجعلُها اللّهُ في الإنسان، وهي سِرٌّ من

أَسرارِه سبحانه، لا يعلمُ حقيقتَها أَحدٌ من خلْقِه، وهي أَساسُ حياةِ الإنسان، فإذا خرجت الروحُ منه مات.

والروحُ المعنويةُ هي التي بها حياةُ القلوبِ والنفوسِ والأرواح، وبهذا الاعتبار أُطلقَ على جبريلِ كما أُطلقَ على القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ..﴾ [الشورى: ٥٢].

وأُضيفَ الروحُ إلى القدسِ في قوله: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾.

والقُدُسُ مصدرُ الفعل الثلاثي: قَدُسَ. بمعنى: طَهُر.

تقول: قَدُسَ، يَقْدُسُ، قُدْساً، و: قُدُساً. ويجوزُ في الدالِ السكونُ والضم.

وإِضافةُ الروح إِلى القُدُس «روحُ القُدُس» حَوَّلَت الكلمةَ من المصدرِ إِلى الصفة، فكأَنَّه قال: جبريل هو: الروحُ المقدَّس. أي هو الطاهرُ المطهَّرُ المبارَك[1].

وبَيَّنَ السمينُ الحلبيُّ في «عمدة الحفاظ» حكمةَ وصْفِه بالقداسَة، فقال:

«روحُ القدس هو جبريل. والقُدُسُ هو الطهارة، ويُضَمُّ دالُه ويُسَكَّن.

وذلكَ لأَنه خُلِقَ من طهارةٍ محضَة، فهو مَلَكٌ خلقهُ اللّهُ من النور. وقيل: سميَ بذلك من حيثُ إِنه ينزلُ من اللّهِ بالقُدُس، أي: بما يطهِّرُ به نفوسَ عبادِه من القرآنِ والحكمةِ والفيضِ الإلهي..»[2].

جبريل روح القدس لكل الرسل:

و«روحُ القُدُس» ـ جبريلُ عليه السلام ـ ليس خاصّاً بعيسى ابنِ

---

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي ١:١٩٢.

(٢) عمدة الحفاظ ٣:٣٣٢.

مريم عليه السلام، فقد وردَ في القرآنِ في سياقِ إنزالِ كتابِ اللّهِ على عبدِه ورسوله محمدٍ ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ..﴾ [النحل: ١٠١ ـ ١٠٢].

والشاهدُ في الآية الثانية: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾. أي: الذي نَزَّلَ عليك القرآنَ من ربِّك هو روحُ القدس، جبريل عليه السلام.

والخلاصةُ أنَّ اللّهَ آتى عيسى عليه السلام الآياتِ المعجزاتِ البينات، وأَيَّده بجبريلَ تأييداً: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

وهذا معناهُ أنَّ اللّهَ كان يُنزلُ عليه روحَ القُدُس جبريل، وهو يقومُ بالدعوة، ويواجه بني إسرائيل، وكان جبريلُ عليه السلام يؤيِّده ويقوِّيه ويشجعُه.

وليس هذا خاصّاً بعيسى عليه السلام، فكلُّ أَنبياءِ الله ورسلِه أَيَّدَهم اللّهُ وقَوّاهم ونصرَهم بروحِ القُدُس جبريل عليه السلام. وكانَ لرسولِنا ﷺ نصيبٌ كبيرٌ من تأييدِه به، حيث كانَ يَنزلُ عليه في الفترةِ المكية والمدنية، مُواسياً مُؤانساً مُشجعاً، كما كانَ يَنزلُ عليه معلِّماً موجِّهاً، وفي المعاركِ مع الكفار كان يَنزلُ يَقودُ الملائكة مَدَداً مساعِداً مُعيناً، بأمرِ الله، كما حصلَ في بدرٍ وأُحد والأَحزاب، وغيرها.

من معجزات عيسى في القرآن:

آتى اللّهُ عيسى عليه السلام آياتٍ بيناتٍ ومعجزاتٍ واضحات، موجَّهةً لبني إسرائيل، دَليلاً له على صدقِ نبوته.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ

أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٤٩ ـ ٥١].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى...﴾ [المائدة: ١١٠].

قَدَّمَ عيسى عليه السلام نفسَه رسولاً إلى بني إسرائيل، وقَدَّمَ لهم الآياتِ والمعجزاتِ التي آتاهُ اللّهُ إياها.

﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: المصدرُ من هذه الجملةِ في محلِّ نصبِ صفةٍ لكلمة «رسولاً» قبلَها. والتقدير: ورسولاً قائلاً لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

و﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾: المصدرُ المؤولُ من هذه الجملةِ في محلِّ رفعِ خبرٍ لمبتدأ محذوف، تقديرُه: هي خلقي لكم من الطين.

و﴿لكم﴾: خطابٌ لبني إسرائيل، ووَجَّهَ الخطابَ إليهم، كما وَجَّهَ الآياتِ إليهم، لأنَّ اللّهَ بعثَه رسولاً إليهم، كما سبقَ أنْ قَرَّرْنا.

وقد سَجلتْ هذه الآيةُ بعضَ المعجزاتِ التي قدَّمَها عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، وهذه المعجزاتُ هي: إيجادُه الطيرَ الحيَّ من التمثالِ الجامد، وإبراؤُه الأكمهَ والأبرص، وإحياؤُه الموتى، وإخبارُهم بما يأكلون ويَدَّخرون في بيوتهم..

عيسى يخلق الطير من الطين بأمر الله:

الآية الأولى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ..﴾:

كانَ يصنعُ من الطينِ تمثالاً على شكلِ طائر، وبعدما يجفُّ التمثالُ وييبس، كان يَنفخُ فيه، فيتحوَّلُ هذا التمثالُ إلى طائرٍ حيٍّ حقيقي، وكان هذا بإذنِ الله وإرادتِه.

وهذه المعجزةُ عَبَّرَتْ عنها سورةُ المائدة بلفظٍ آخر. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ..﴾.

ونَسبت الآيتان «الخَلْقَ» إلى عيسى عليه السلام! فكيفَ عيسى يخلقُ من الطينِ طيراً؟ معَ أنَّ الخالقَ هو اللّهُ وحده؟

قالَ الإمامُ الراغب: «الخَلْق: أَصلُه التقديرُ المستقيم.

ويُستعملُ في إبداعٍ من غيرِ أَصْلٍ ولا احتذاء. قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١].

ودليلُ خلْقِ السمواتِ والأرض بمعنى إبداعِهما من غيرِ أَصْل هو قولُه تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ..﴾ [الأنعام: ١٠١].

وهذا الخلقُ الذي هو الإبداعُ من لا شيءَ خاصٌّ بالله، ولهذا جعلَهُ اللّهُ فَصْلاً بينَه وبين غيرِه سبحانه، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧].

ويُستعملُ الخلقُ في إيجادِ الشيء من الشيء. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾ [النحل: ٤].

وقالَ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥].

وهذا الخلقُ الذي هو بمعنى التحويلِ قد جعلَهُ اللّهُ لغيرِه في

بعضِ الأحوال. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى..﴾[1].

كان خلق عيسى للطير خلق تحويل لا خلق إبداع:

من النوعِ الثاني إذنْ كان خلْقُ عيسى عليه السلام، حيثُ أقْدره اللّهُ عليه، وأذِنَ له فيه، فكان يصنعُ من التراب طيناً، ثم يحوِّلُ هذا الطينَ التمثالَ إلى طائر، بإذنِ اللّهِ سبحانه.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير: «﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾: أي: تُصوِّرُه وتشكِّلُه على هيئةِ الطائر بإِذْني لك في ذلك: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾: فتنفخُ في تلك الصورة التي شكَّلْتَها بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روحٍ تَطيرُ بإذنِ الله وخلْقِه..»[2].

ما الذي خلَقَه عيسى عليه السلام؟

أَخَذَ تراباً، فجعَلَه طيناً، ثم أَخَذَ هذا الطين، فجعَلَ منه تمثالاً على شكْلِ وهيئةِ الطير، ثم نفخَ فيه فصارَ طيراً حياً..

ليس هذا إِيجاداً من العَدَم، ولا إِبداعاً من لا شيء، وإِنما هو تحويلُ أشياءَ خلَقَها اللّهُ من العدم، وأَوْجَدَها في الأرض، فأَخَذَها عيسى عليه السلام فحوَّلَها من حالةٍ إلى حالة: ترابٌ خلَقَه الله، وماءٌ خلقه الله، فأخذَ عيسى هذيْن العنصريْن فمزجَهما معاً، فصارا طيناً، ثم جعلَهما تمثالاً، فهل أوجدَ عيسى شيئاً من العدم؟

ثم هذا الخلقُ المنسوبُ إلى عيسى ـ الذي هو بمعنى التحويل ـ فعلَه عيسى بإذنِ الله، فاللّهُ هو المقدِّرُ والمسبِّبُ والخالقُ في الحقيقة، وعيسى عليه السلام هو السببُ الخارجيُ، والوسيلةُ العملية، حققَ اللّهُ على يده إرادتَه!

---

(١) المفردات: ٢٩٦. بتصرف واختصار. وانظر عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ١:٦٠٦ ـ ٦٠٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٣:١٠٩.

ولقد جاءَ التعبيرُ القرآنيُّ عن خلْقِ عيسى للطير من الطينِ دقيقاً، حيث قال: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ..﴾ ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ..﴾ حيث ذكَرَ المادةَ التي يخلقُ الطيرَ منها وهي «الطين»، فهو لم يَخلق الطين، وإنما يخلقُ لهم من الطين.

أمّا خلْقُ اللّهِ للكون وما فيه، فإنَّ الآياتِ التي تخبر عنه لا تَذكُرُ المادةَ التي خلقَ السمواتِ والأرضَ منها، ولم يَذكُرْ حرفَ الجرِّ «من»، وإنما ذكَرَ المفعولَ به مباشَرة. كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ [الأعراف: ٥٤].

وفرْقٌ كبيرٌ بين قولِ الله عن إبداعِه الكون ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وبينَ ذكْرِ المادة التي خلقَ عيسَى منها الطير، وحَوَّلَها إليه: ﴿تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾.

ولأجلِ هذا المعنى حرصَ القرآنُ على أنَّ الخلقَ كان بإذنِ الله، فاللّهُ هو الذي أذنَ له بذلك، وهو سببٌ مباشرٌ مادي، وهذا التأكيدُ على إذنِ الله، لتقريرِ الوحدانية، وتفردِ اللّهِ بالخلقِ الذي هو الإيجادُ والإبداع.

و«الهيئة» مصدر بمعنى اسمِ المفعول.

تقول: هاءَ فلان، يَهاءُ، هَيْئَة: بمعنى صارَ حسنَ الهيئةِ والصورة.

والهيئة هي: الحالُ التي يكونُ عليها الشيء، محسوسَةً كانت أو معقولة[1].

ومعنى «هيئة الطير»: على شكلِ صورةِ الطير.

كان عيسى يصنع التمثال ثم ينفخ فيه والله يجعله طيراً حياً:

والتقدير: أُوجِدُ وأَصنعُ لكم من الطين تمثالاً، وهذا التمثالُ يكون مصوَّراً على شكل الطائر.

---

(١) المعجم الوسيط: ١٠٠٢.

و«هيئة» لم تَرِدْ في القرآنِ إلاّ في الآيتيْن السابقتين: آيةِ سورة آل عمران، وآيةِ سورة المائدة.

وقولُ عيسى: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ يدلُّ على أَنه كان ماهراً في صنعِ هذه التماثيلِ المصوَّرَة المجسَّمة، يتقنُ تشكيلَها، ويُحسنُ إِيجادَها.

وبعدما يحسنُ صُنْعَ التمثال، كان ينفخُ فيه فيتحوَّلُ عن تمثالٍ جامدٍ إلى طيرٍ حي، بإذْنِ الله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾. ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى﴾.

وكما وَجَّهْنا إِسنادَ الخلقِ إِلى عيسى عليه السلام نوجِّهُ النفخَ في التمثالِ أَيضاً، فاللّهُ هو الذي أَذِنَ له في النفخ في تمثال الطير، واللّهُ هو الذي شاءَ أنْ يوجِدَ الحياةَ في التمثال، واللّهُ هو الذي جعلَه طيراً حياً، وليس لعيسى عليه السلام دورٌ في ذلك إلاّ النفخَ فقط.

إنَّ نفخةَ عيسى في تمثالِ الطير هي سببٌ مباشرٌ مادي، جعلَ اللّهُ الحياةَ فيه مترتبةً على النفخة، فالمسبِّبُ والمقدِّرُ والمريدُ هو الله.

ما كان عيسى عليه السلام خالِقاً للطير، فما هو إلاّ صانع، والخالقُ هو الله، وما كان عيسى عليه السلام واهِباً للحياةِ في الطير، فما هو إلاّ نافخ، وواهبُ الحياة هو اللّهُ المحيي سبحانه.

وقد حرصَ القرآنُ على تأكيدِ هذه الحقيقة، حيثُ صرَّحَ بأنَّ قيامَ تمثالِ الطيرِ طيراً حياً كان بإذنِ الله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى..﴾.

فكررَ «إذن الله» مرتيْن، مرةً في صنعِ تمثالِ الطير، ومرةً في تحوُّلِ التمثالِ إلى طيرٍ حيٍّ بعد النفخة.

ونلاحظُ أنه قالَ في آل عمران: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾، فعبَّرَ بالمذكَّر، بينما قالَ في المائدة: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا﴾ حيثُ عَبَّرَ بالمؤنث.

والهاءُ في «فيه» تعودُ على «التمثال» المقدَّر. والتقدير: أخلقُ لكم تمثالاً على هيئةِ الطير، فأنفخُ في التمثال، فيكونُ التمثالُ طيراً بإذن الله.

والضميرُ المؤنَّثُ في «فيها» يعودُ على «هيئة» قبلَه، وهي مؤنثة. والتقدير: أَخلقُ لكم تمثالاً على هيئةِ الطير، فأنفخُ في تلك الهيئة، فتكونُ الهيئةُ طيراً بإذن الله[1].

وإنَّ هذه المعجزةَ آيةٌ بينةٌ لعيسى عليه السلام، تدلُّ على أَنه رسولُ الله، لأَنها خارقةٌ للعادةِ لا يَستطيعُ أحدٌ القيامَ بها، إلاّ أَنْ يكونَ نبياً رسولاً، وإلاّ فمن الذي يقدرُ على جعلِ الروحِ في تمثالٍ مجسَّم جامد، ويحوِّلُه إلى طيرٍ حيٍّ يطيرُ ويتحركُ بمجردِ النفخِ فيه؟ لا يفعلُ ذلك إلاّ نبي، أَجرى اللّهُ آيتَه على يديْه.

عيسى يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله:

آيةُ عيسى الثانية: إبراؤه، الأكمَه والأَبرص.

قال تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

و«أُبرئُ» فعلٌ مضارع، بمعنى أُشفي. من البُرْءِ وهو الشِّفاء.

و«الأَكْمَهُ» صفةٌ مشبَّهة. تقول: كَمِهَ، يَكْمَهُ، كَمَهاً، فهو أَكْمَهٌ. والأَكمهُ الذي ولَدَتْه أُمُّه أعمى[2].

وكان عيسى عليه السلام يمسحُ بيدِه على الأكمه، وهو الذي لم يرَ النورَ منذ ولادتِه، فيعيدُ اللّهُ له بصرَه، ويَزولُ عنه عَماه، ويكونُ مبصراً قويَّ البصر.

ولم يتوصَّل الطبُّ في القديمِ ولا في الحديث إلى علاجِ الأكمه،

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٧٤.

(٢) المعجم الوسيط: ٧٩٩.

وإعادةِ بصره إليه، فكان علاجُ عيسى عليه السلام له، وهو ليسَ طبيباً دليلاً على أنه رسولُ الله، وأنَّ هذا العلاجَ كان معجزةً من الله.

و«الأَبرص» على وزن «الأكمه»، وهو صفةٌ مشبَّهةٌ أَيضاً. تقول: بَرِص، يَبْرَص، بَرَصاً، فهو أَبْرَص.

والبَرَصُ هو: بياضٌ يكون في جسمِ الإنسان، في مواضعَ متفرقةٍ منه، بسببِ علةٍ أصابَتْه. والأبرصُ هو الذي في جسمه هذه البقعُ البيضاء[1].

والبرصُ مرضٌ منفِّر، حيث ينفرُ الناسُ من الأبرص ويتجنبونَه.

وردَ في تهذيبنا لتفسيرِ الطبري ما يلي: «وإبراءُ عيسى عليه السلام للأكمهِ والأبرصِ بإذنِ الله، دليلٌ على نبوتِه، لأنَّ الكمَهَ والبرصَ لا علاجَ لهما من قِبَلِ الأطباء، لأنه لا يَقدرُ طبيبٌ على علاجهما. فكان علاجُ عيسى لهذين المرضين، وإبراءُ المريضيْن بدون علاج، وهو غيرُ طبيب، دليلاً على أنه رسولُ الله، وأنَّ اللّهَ أيَّده بهذه الآيةِ والمعجزة، وأنَّ اللّهَ هو الذي أَبرأَ وشفى على يديْ عيسى عليه السلام»[2].

معجزات الأنبياء تتناسب مع ما مهر فيه أقوامهم:

أما الإمامُ ابنُ كثير فقد بَيَّنَ حكمةَ جعلِ إبراءِ عيسى عليه السلام للأكمهِ والأبرصِ آيةً له، وهي توافقُ «الطِّبّ» في الظاهر، وجَعَلَ هذا الموضعَ مناسبةً للحديثِ عن تناسبِ معجزاتِ الأنبياء لما ذاعَ وانتشرَ بين أقوامِهم.

قال: «قالَ كثيرٌ من العلماء: بعثَ اللّهُ كلَّ نبيٍّ من الأنبياءِ بما يناسبُ أهلَ زمانِه.

فكان الغالبُ على زمانِ موسى عليه السلام السحرَ وتعظيمَ

---

(١) المرجع السابق: ٤٨.

(٢) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٧٤.

السحرة، فبعثَهُ الله بمعجزاتٍ بَهَرت الأبصار، وحَيَّرت كلَّ سَحّار، فلما استيقَنوا أَنها من عند العظيمِ الجبار، انقادوا للإِسلام، وصاروا من عبادِ الله الأَبرار.

وأَما عيسى عليه السلام فبُعثَ في زمنِ الأطباء وأَصحابِ علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيلَ لأحدٍ إليه إلاّ أنْ يكونَ مؤيَّداً من الذي شرعَ الشريعة، فمن أينَ للطبيبِ قدرةٌ على إحياءِ الجماد، أو مداواةِ الأكمه والأبرص، وبَعْثِ مَنْ هو في قبره رهينٌ إلى يوم التناد؟

وكذلك محمدٌ ﷺ، بُعِثَ في زمنِ الفصحاءِ والبلغاءِ وتجاريدِ الشعراء، فأتاهم بكتابٍ من عندِ الله عز وجل، فلو اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أَنْ يأتوا بمثله، أو بعشرِ سورٍ من مثله، أو بسورةٍ من مثله، لم يستطيعوا أبداً، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً..»[1].

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني أنَّ «الأكمهَ والأبرص» قُرِنا معاً في القرآن، ولم يُذْكَرا إلاّ مرتين، في سياقِ الحديث عن آياتِ عيسى عليه السلام، في إبراءِ الأكمه والأبرص.

عيسى يحيِي الموتى بإذن الله:

آية عيسى الثالثة: إحياؤه الموتى:

قال تعالى: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ..﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي..﴾.

وظاهرُ هذه الآيةِ الباهرة أنَّ عيسى عليه السلام كان يمرُّ بالموتى، فيدعو اللّهَ أنْ يُحييهم، فيستجيبُ اللّهُ دعاءَه ويُحييهم، فيخرجون من قبورهم أَحياء.

إنَّ إحياءَ عيسى عليه السلام للموتى مظهرٌ عمليٌّ لإرادةِ الله، فاللّهُ

---

(١) تفسير ابن كثير ١: ٣٤٥.

سبحانه هو الذي أَحياهم في الحقيقة، هو المسبِّبُ والمقدِّرُ والمريد، لأَنه هو الذي يُحيي ويميت.

وما يفعلُه عيسى عليه السلام لإِحيائهم هو سببٌ ظاهري، اللّهُ هو الذي مكَّنَهُ من ذلك وأَقْدره عليه، وجعلَ الحياة تدبُّ في ذلك الميتِ على يديه، فلا نقفُ عند السبب وننسى إِرادةَ المسبِّبِ سبحانه وتعالى.

وإِحياءُ الموتى آيةٌ بينةٌ دالةٌ على نبوةِ عيسى عليه السلام، لأَنَّ البشرَ جميعاً لا يستطيعونَ إِحياءَ ميت.

فخروجُ الميتِ من قبرِه حياً بدعاءِ عيسى عليه السلام دَلِيلٌ على أَنَّ اللهَ هو الذي أَحياه، وجعلَ حياتَه على يدِ عيسى عليه السلام، ليكونَ ذلك آيةً بينةً على أَنه رسولٌ من عند الله.

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآني عن آيةِ إِحياءِ عيسى للموتى أَنه فيه نوعٌ من التعاقبِ والمرحلية!

ففي سورةِ آل عمران قال لبني إسرائيل: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وفي سورةِ المائدة قال الله ممتناً عليه: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾.

فهو أَوَّلاً أحياهم بإذنِ الله، فدبَّتْ فيهم الحياةُ وصاروا أَحياء، وهذا ما تكفلتْ بالإِشارةِ له آيةُ سورة آل عمران.

وهو ثانياً أَخرجهم من قبورهم أَحياء، فبعدما دبَّتْ فيهم الحياة، دَعاهم إِلى الخروج من قبورهم، فخرجوا منها بإِذنِ الله، وهذا ما تكفَّلَتْ بالإِشارةِ له آيَةُ سورةِ المائدة.

فلا تكرارَ في إِخبارِ القرآن عن الحالةِ الواحدة أكثرَ من مرة، وإِنما هو التنويعُ في العرض، وإِفادةُ جديدٍ في كلِّ مرة جديدة. وسبحانَ مَنْ أَنزلَ القرآن!

إِنَّ ما أَخبرَ عنه القرآن من معجزةِ إِحياءِ عيسى للموتى كان مبهماً، ولم يَرِدْ في غيرِ هاتين الآيتين، ولم يَذكر اللّهُ لنا موتى معيَّنين

أَحياهم عيسى عليه السلام. وكذلكَ كان إِخبارُ القرآنِ عن الأكمهِ والأَبرص مبهماً.

وبما أنَّ السنةَ الصحيحةَ لم تُبين لنا أشخاصاً معينين، كان أَحدهم أكمَه أو أَبرص، فعالجه عيسى، أَو كان ميتاً فأحياه، فإننا لا نخوضُ في تعيين وتحديدِ مَنْ عالَجهم أَو أحياهم، ولا نَذهبُ إِلى الأناجيل لنأخذَ منها أمثلةً على ذلك، لأنَّ النصارى حرفوا الإنجيل.

عيسى يخبرهم بما غاب عنه من أصناف الطعام:

آيةُ عيسى الرابعة: إِخبارُهم بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم:

قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ..﴾.

المعنى: أُخبرُكم بما تأكلون، مما لم أُشاهدْه ولم أُعاينْه، ولم أكنْ معكم وقتَ أكلِكم. وأُنبئكم أيضاً بما ترفعونَه وتخبئونه وتدَّخرونه في بيوتكم من أَصنافِ الطعام.

فإذا ما اجتمعَ مجموعةٌ على أَصنافِ طعام، وكان عيسى عليه السلام في مكانٍ آخرَ لم يشاهدهم، فإنه يخبرُ مَنْ معه بأَصنافِ الطعام التي على مائدةِ المجموعة، وكأنه جالسٌ معهم يرى ما أَمامهم!

وإِذا جاءه مجموعة، فإنه يُخبرُ كلَّ واحد منهم بما في بيته من أَصنافِ الطعام، بالتفصيل، كأَنْ يقولَ له: عندك من كذا وكذا كميةَ وعددَ كذا وكذا..

وإِخبارُه بهذيْن النوعيْن معجزةٌ من الله له، دالةٌ على نبوته، تُضافُ إِلى معجزاته الأخرى.

لأنَّ العلمَ بما يأكلون وما يَدَّخرون من بابِ العلم بالغيب، وهذه الأشياءُ من غيبِ الحاضر، الذي هو غائبٌ عن عينِ الشخص، مع أَنه موجودٌ في مكانٍ آخر.

وعلمُ عيسى بأصنافِ الطعام المأكولة والمدخرة مما لم يشاهدْه

دليلٌ على أنَّ اللّهَ هو الذي أَخبره بذلك وأعلمه به. فمن المعلومِ عندَنا أنَّ اللّهَ اختصَّ بعلم الغيب، وأنه يُعْلِمُ منه ما شاءَ من عبادِه.

وقد فَرَّقَ الإمامُ الطبريُّ بين إِخبارِ عيسى عليه السلام الصادق بذلك، وكونِه معجزةً له، وبين إِخبارِ المنجمين والكهان بذلك، وهو من بابِ التخمين.

«والفرقُ بين إِخبارِ عيسى وإِخبارِ المنجمين بذلك هو أنَّ الكهانَ والمنجمين يُخبرونَ بذلك بعدَ الأخذِ بالأسباب، والتعلم والإتقانِ والمهارةِ والممارسة.. أما عيسى عليه السلام فكان يخبرُ بذلك بدون أخذِ بالأسباب، وبدونِ مهارةٍ وجهد وتعلم، وإِنما بإعلامِ اللّهِ له مباشرة.

وهذا هو الفرقُ بين علمِ الأنبياء بالغيوب بتعليمِ اللّهِ لهم مباشرة، وإِخبارهم أَقوامَهم بها مباشرة، وبين زعْمِ الكهانِ والمنجمين معرفةَ الغيوب، واستعانتِهم بشياطينهم من الجن، وأَخْذِهم بالأسباب، وقيامِهم بالتحايل، وادِّعائِهم على الله كذباً وزوراً وبهتاناً»[1].

هذه الآياتُ الأربعُ وَجَّهها عيسى عليه السلام إِلى بني إسرائيل، وجعَلَها دليلاً له على نبوته. ولذلك قالَ لهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

حكمة تكرار «آية» في معجزات عيسى:

ونلاحظُ أنَّ القرآنَ حرصَ على بيانِ أنَّ ما قَدَّمه عيسى عليه السلام من الآياتِ لهم هو آيةٌ من الله سبحانه، ولذلك تكررتْ كلمةُ «آية» في النصِّ القرآني الذي أَخبرَ عن تلك الآيات. قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٧٦.

ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)﴾ [آل عمران: ٤٩ ـ ٥١].

تكررتْ كلمةُ «آية» ثلاثَ مرات: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في البداية. و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في الوسط. و﴿جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في النهاية..

وهذا التركيزُ القرآنيُّ على آياتِ عيسى عليه السلام، دليلٌ على أهميةِ الآياتِ للأنبياء، ودليلٌ على أنَّ عيسى عليه السلام عبدُ الله ورسولُه، كان يتلقّى الآياتِ من الله، ويقدِّمُها لبني إسرائيل..

وبعدما قدَّمَ عيسى عليه السلام آياتِه لبني إسرائيل أَخبرهم أنَّ رسالتَه استمرارٌ لرسالةِ سلفهِ موسى عليه السلام في أَساسِها وروحِها، ولهذا هو مصدقٌ للتوراة: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ..﴾.

وقد تكلمنا عن هذا المعنى في المبحثِ السابق، فلا نُعيدُه.

وكانَ عيسى عليه السلام حَريصاً على التأكيدِ على الفصْلِ بين الألوهيةِ والعبودية، وعلى أنه عبدُ اللّهِ ورسوله، وأنَّ اللّهَ ربُّه وربُّ العالمين. وكان يخبرُ بني إسرائيل المدعوّين بذلك. ولهذا ختمَ بيانَه الدعويَّ إلى بني إسرائيل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)﴾.

وردَ في تهذيبنا لتفسيرِ الطبري: «وهذا إِبطالٌ لما ادَّعَته النصارى من تأليهِ عيسى عليه السلام، حيثُ أَخبرهم أنَّ اللّهَ هو ربُّه وربُّهم، وأنَّ اللهَ أرسله برسالتِه، وأَنهم مطالَبون بعبادةِ الله وطاعته، وأنَّ هذا هو الطريقُ المستقيم..

قالَ محمدُ بن جعفر بن الزبير: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ تبرّياً من الذي يقولُه النصارى، واحتجاجاً من اللّهِ عليهم: ﴿فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾..»[1].

[١٢]
عيسى والحواريون والمائدة

تحدَّثْنا فيما مضى عن بعثةِ عيسى عليه السلام نبياً رسولاً إِلى بني إسرائيل، ثم تحدَّثْنا عن المعجزاتِ الأَربعِ التي آتاهُ اللّهُ إِياها، وجعَلَها دليلاً له على نبوته: خلقِ الطيرِ من الطِين، وإبراءِ الأكمهِ والأبرص، وإِحياءِ الموتى، وإِخبارِهم بما غابَ عنه من أَصنافَ طعامِهم ومدَّخراتهم...

ماذا كان موقفُ بني إِسرائيل من دعوةِ ورسالةِ عيسى عليه السلام؟

كَفروا به وكَذَّبوه، واتهموه بأنه ساحرٌ كذاب، وأنَّ ما معه سحرٌ مبين.

ولم يؤمنْ به إلاّ عددٌ من الصالحين منهم، أطلقَ القرآنُ عليهم وصفَ «الحواريّين..».

معنى الحواريين وسبب تسميتهم بذلك:

«الحواريّون» وردَتْ في القرآنِ خمسَ مرات، وكلُّها وصفٌ لأَتْباع عيسى عليه السلام المؤمنين، وكلُّها واردةٌ بصيغةِ الجمع.

ومُفرد «حواريّين» حَوارِيّ، وهو مشتقٌّ من الفعل: «حَوَر».

وردَ في المعجمِ الوسيط عن هذا الفعل: «حارَ، يَحور، حَوْراً: رَجَع.

وحارت العين، تَحار، حَوَراً: اشتدَّ بياضُها واشتدَّ سوادُها. واستدارَتْ حدقَتُها، ورقَّتْ جفونُها، وابيضَّ ما حولَها.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٧٨.

و: حَوَّرَ الدقيقَ أو الثوب: بيَّضَه. و: حَوَّرَ الجلد: صبَغَه.

و: الحَوارِيّ: مبيِّضُ الثياب. و: الذي أَخلصَ واخْتير ونُقِّيَ من كلِّ عيب. و: الصاحب. و: الناصر.

وجمعه: حواريّون. وهم أَنصارُ عيسى عليه السلام..»[1].

وذكرَ الإمامُ الراغبُ بعضَ الأقوال في سببِ تسمية أَنصارِ عيسى عليه السلام بالحواريين: «والحواريّون أنصارُ عيسى عليه السلام. قيل: كانوا قصّارين. وقيل: كانوا صَيّادين.

وقالَ بَعْضُ أهْلِ العلم: إنما سُمّوا حواريّين لأنهم كانوا يُطَهِّرون نفوسَ الناس، بإفادتِهم الدينَ والعلم، المشارَ إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال أَيضاً: وإنما قيل: كانوا قصّارين، على التمثيلِ والتشبيه...

وقال: إنما كانوا صيادين، لاصطيادِهم نفوسَ الناس من الحيرة، وقَوْدِهم إلى الحق..»[2].

ونلاحظُ أنَّ الإمامَ الراغبَ قد فسَّرَ معنى الحواريين تفسيراً إشارياً ذوقياً، يقومُ على التأويلِ الإشاري.

وأَوردَ الإمامُ الطبريُّ ثلاثةَ أقوالٍ في سببِ تسميتهم بالحواريين، ورجَّحَ الأولَ منها: «اختلفَ أهلُ التأويل في سببِ تسميتهم «الحواريين»:

١ ـ فقالَ بعضهم: سُمّوا بذلك لبياضِ ثيابهم.

٢ ـ وقالَ آخرون: كانوا قصّارين يبيِّضون الثياب.

---

(١) المعجم الوسيط: ٢٠٥ باختصار.

(٢) المفردات: ٢٦٣.

٣ ـ وقالَ آخرون: هم خاصةُ أَتباعِ الأنبياء وصفوتُهم.

والراجحُ هو القول الأول[١].

أمّا الإمامُ ابنُ كثير فقد رجَّحَ أَنهم سُمّوا حواريين لأنهم آمَنوا بعيسى عليه السلام وأيّدوه ونَصرون.

قال: «الحواريّون: قيل: كانوا قصّارين، وقيل: سُمّوا بذلك لبياضِ ثيابهم، وقيل: صيادين.

والصحيحُ أنَّ الحواريَّ هو الناصر»[٢].

الراجح أن الحواريين هم الأصحاب والأنصار:

وما رجَّحهُ الإمامُ ابن كثير هو الراجح. لأنَّ «الحواريّين» مشتقةٌ من «حَوَر» وهذه المادةُ عربيةٌ أصيلة.

والحَوارِيّ هو: الصاحبُ والناصر، الذي ينصرُ النبيَّ ويؤيدُه ويَتبعُه...

ودليلُ ذلك ما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: ندبَ النبيُّ ﷺ الناسَ يومَ الخندق، فانتدَبَ الزبيرُ، ثم ندب، فانتدَبَ الزبير، ثم ندبَ الناسَ، فانتدَبَ الزبير.

فقالَ ﷺ: «إنَّ لكلِّ نبيٍّ حوارِيّاً، وإنَّ حوارِيِّيَ الزبيرُ بنُ العوام..»[٣].

أرادَ رسولُ الله ﷺ أنْ يقومَ واحدٌ من أَصحابه لينظرَ ما يفعلُ المشركون يومَ الأحزاب، فندَبَهم وخيَّرهم، وكان الزبيرُ بنُ العوام هو الذي يقومُ في المرات الثلاث.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١:٣٤٥.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٢٨٤٧. ومسلم برقم: ٢٤١٥.

وهذه الحادثةُ مع الزبيرِ غيرُ الحادثةِ الأُخرى التي بعثَ فيها رسولُ الله ﷺ حذيفةَ بنَ اليمان رضي الله عنهما ليدخلَ معسكرَ الأحزاب، فهما حادثتان منفصلتان.

وعلَّقَ رسولُ الله ﷺ على قيامِ الزبير في المراتِ الثلاثة بأنَّ اللّهَ جعلَ لكلِّ نبيٍّ حوارياً يؤيِّدُه وينصرُه، وإنّ حوارِيَّه هو الزبيرُ بن العوام رضي الله عنه.

أي أنَّ الزبيرَ هو ناصرُ رسول الله ﷺ من البشر، ومؤيِّده ومُتابِعُه.

وليسَ معنى هذا قصرَ النصرةِ على الزبيرِ وحْدَه، ونفيَها عمن سواه مِن المهاجرين والأنصار. وإنما معناه أنه كانَ أبرزَ حوارِيٍّ وناصرٍ لرسولِ الله ﷺ في تلك الحادثة.

وإلاّ فإنَّ الصحابةَ كانوا جميعاً حواريّين لرسول الله ﷺ، نَصروه واتَّبعوه وأيَّدوه. وكانوا أفضلَ من الحواريّين أتباعِ عيسى عليه السلام.

إنَّ هذا الحديثَ الصحيحَ يدل على أنَّ «الحواريّين» ليسوا خاصين بعيسى عليه السلام، وأنَّ لقبَ «الحواريّين» ليسَ مقصوراً عليهم.

إنَّ «الحواريين» هم أَتباعُ كلِّ نبي، وإنَّ هذا اللقبَ يُطلقُ على كلِّ مَنْ أيَّدوا نبياً ونَصروه، فأَتباعُ موسى عليه السلام حواريّون، وأَتباعُ عيسى عليه السلام حواريّون، وأَتباعُ محمدٍ ﷺ حواريّون! وهكذا.

والحديثُ صريحٌ في هذا المعنى، وذلك في قوله: «إن لكل نبي حوارياً..».

وإذا كان أَتباعُ وأَنصارُ كلِّ نبيٍّ حواريّين له، فإنَّ هذا يدلُّنا على أنَّ سببَ تسميةِ أنصارِ عيسى عليه السلام حواريّون، ليسَ لأنهم كانوا قصّارين أو صيّادين، أَو ذوي ملابسَ بيضاء، وإنما لأَنهم آمَنوا بعيسى عليه السلام وأيَّدون ونَصروه.

عيسى يحس الكفر من بني إسرائيل فينتدب الحواريين لنصرته:

وقد دَعا عيسى عليه السلام أَتباعَه الحواريّين إلى نصرتِه لما رأى كُفْرَ معظمَ بني إسرائيل به.

قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣].

«لما أحسَّ عيسى منهم الكفر»: لما وجَدَ عيسى من بني إسرائيل الكفر. فقد سَمِعوا دعوتَه، وشاهَدوا آياته، ومع ذلك أصرّوا على الكفرِ به وتكذيبه.

وفرْقٌ بين الفعلَيْن الماضييْن: الثلاثي: حَسَّ. والرباعي: أَحَسّ.

تقول: حَسَّ، يَحُسُّ: بمعنى: قَتَلَ. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ...﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي: تَقتلونهم وتستأصلونهم وتَقضون عليهم.

وتقول: أَحَسَّ، يُحِسُّ. بمعنى أدركَ الشيءَ بحاسَّته. قال تعالى: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ..﴾ [مريم: ٩٨] بمعنى: هل تجد منهم من أحد[(١)].

قالَ السمينُ الحلبي عن معنى «أَحَسّ»:

«وأَمّا أَحْسَسْتُه فحقيقته: أدركْتُه بحاسَّتي.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ..﴾ فتنبيهُ أَنه قد ظهرَ منهم الكفرُ ظهوراً بانَ للحِسّ، فضلاً عن الفهم..

وقالَ الهروي: «فلما أَحَسّ»: أي: علمَ. وأَصْلُه في اللغة:

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٧٨ ـ ٢٧٩.

أَبْصر، ثم وُضعَ موضعَ العلمِ والوجود..»[1].

كان كفرُ بني إِسرائيلَ بعيسى عليه السلام بارزاً واضحاً ظاهراً، ولذلك أَحسَّه عيسى عليه السلام بحاسَّته.

عند ذلكَ طلبَ الأَنصارَ الذين ينصرونَه، فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

والأَنصارُ جمعُ نصير، والنصيرُ هو الناصرُ والمعينُ والمساعد.

والمعنى: مَن أَنصاري وأَعواني، الذين يُعينونَني على هؤلاء الكفار، ويُساعدونَني في الدعوةِ إِلى الله، ويَسيرونَ معي في الطريقِ إلى الله؟.

وذهبَ بعضُ العلماءِ إِلى أَنَّ «إِلى» في قوله: ﴿أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بمعنى «مَعَ الله». وممن ذهبَ إِلى ذلك الإِمامُ الطبري[2].

ولَسْنا معهم في هذا الفهم، فنحنُ مِن أَنْصارِ إِعمالِ كلِّ حرفٍ من حروفِ المعاني في القرآن، ولا نَرى تناوُبَ حرفٍ عن حرف.

و«إِلى» في الآيةِ مُرادة، وهي على ظاهِرِها، لأَنَّ عيسى عليه السلام أرادَ أَنصاراً مُعاونين يساعدونَه في الدعوة «إِلى الله»، ويَسيرونَ معه في الطريقِ «إِلى الله». ولهذا قال متسائلاً: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

الحواريون يلبون دعوته وينصرونه:

وقد لَبّى أَتْباعُه الحواريون دعوتَه، وأَجابوه قائلين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

ويلاحَظُ أَنَّ الحواريين الصالحين لم يقولوا: نحنُ أَنصارك إِلى الله، وإِنما أَضافوا أَنفسهم إِلى الله مباشرة، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) عمدة الحفاظ ١:٤٧١.

(٢) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٧٩.

وهذه الإضافةُ للتكريم والتشريف، فقد نالوا الشرفَ والكرامةَ والمنزلةَ العاليةَ بإضافتهم إلى الله.

ومعنى كونهم أَنصاراً لله أَنهم أنصارٌ لرسوله عيسى عليه السلام، وأَنصارٌ لدينه الذي أَنزلَه عليه، وأَنصارٌ لدعوته التي حملوها وبلَّغوها.

وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ..﴾ [الصف: ١٤].

إنَّ اللّهَ يدعو المؤمنين من أمةِ محمدٍ ﷺ إلى الاقتداءِ بالحواريين في موقفِهم الإيمانيِّ العظيم، ويطالبهم أنْ يكونوا أَنصاراً له، ينصرونَ دينَه، ويعاونونَ رسولَه، وأنْ يَفعلوا كما فعلَ الحواريّون مع عيسى عليه السلام.

وأَعادَتْ آيةُ سورةِ الصف السؤالَ والجوابَ الواردَ في سورة آل عمران: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ..﴾.

وتابعَ الحواريون تصريحَهم قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ حيثُ جَهروا بإيمانِهم بالله، وطلَبوا من نبيِّهم عيسى عليه السلام أنْ يشهدَ لهم أمامَ الله بأَنهم مؤمنون مسلمون أَنصارٌ لله.

وطَلبوا منه أنْ يشهدَ لأَنهم يعلمونَ أنَّ شهادتَه لهم عظيمةٌ عند الله، ثقيلةٌ في ميزان الله، لأنه رسولُ الله، الشاهدُ الشهيدُ عليهم.

دلالة تصريحهم بأنهم مسلمون:

وتصريحُهم بأَنهم مسلمون: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾، لأنهم آمَنوا بعيسى عليه السلام، ودَخلوا في دينه، وبذلك يكونون قد استسلموا وأَسلموا وخَضعوا لله سبحانه، لأنَّ الإسلامَ - في معناه العام - هو الخضوعُ المطلقُ لله.

واعتبارُهم مسلمين دليلٌ على أنَّ كلَّ نبيٍّ جاءَ بالإسلام، وأنَّ دينَ كلِّ نبيٍّ هو الإسلام، وأنَّ أتباعَ كلِّ نبيٍّ مسلمون، الإسلامُ بمعناه التاريخي العام، وليس بمعناه الخاصِّ المحدد، الذي هو دينُ محمدٍ ﷺ!

وهذه الآيةُ صريحةٌ بأنَّ عيسى عليه السلام جاءَ بالإسلام، وأنَّ دينَه هو الإسلام، وأنَّ أتباعه هم المسلمون، فها هم الحواريون يصرِّحون قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وقد وردَ في تهذيبنا لتفسيرِ الإمام الطبري: «وقولُهم: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ «الإسلامَ» هو دينُ الله، الذي بَعَثَ به عيسى والأنبياءَ من قبله، وأنَّ دينَ عيسى هو الإسلام وليس اليهوديةَ أو النصرانية. وهذه تبرئةٌ لعيسى عليه السلام من النصرانية، كما بُرِّئَ إبراهيمُ عليه السلام قبلَه من اليهودية وأيِّ دينٍ غيرِ الإسلام..»[1].

دلالة شهادة الحق من الحواريين الشاهدين:

وبعدما أعلنَ الحواريون الصالحونَ أنهم أنصارُ اللّهِ مع عيسى عليه السلام، وطَلبوا منه أنْ يشهدَ لهم عند الله، توجَّهوا إلى الله، يَدْعونه ويتضرَّعون إليه، ويُعلنونَ البيعةَ الإيمانية معه. قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

لقد سبقَ أنْ أَعلنوا إيمانَهم بالله واتِّباعَهم عيسى عليه السلام عندما أَجابوه قائلين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فلما عادوا يقولون مخاطِبين لله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

لسيد قطب تعقيبٌ لطيفٌ على ذلك: «وفي هذا التوجُّهِ لعقْدِ البيعةِ مع الله مباشرة لفتةٌ ذاتُ قيمة...

إنَّ عَهْدَ المؤمن هو ابتداءً مع ربه، ومتى قامَ الرسولُ بإبلاغه فقد انتهتْ مهمةُ الرسول من ناحيةِ الاعتقاد، وانعقدت البيعةُ مع الله، فهي

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٨٠.

باقيةٌ في عنقِ المؤمن بعدَ الرسول. . . وفيه كذلك تعهُّدٌ لله باتباعِ الرسول، فليس الأَمْرُ أَمْرَ عقيدةٍ في الضمير، ولكنه اتِّباعٌ لمنهج، والاقتداءُ به في الرسول. . .

ثم عبارةٌ أُخرى تُلفتُ النظرَ في قول الحواريون: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

فأيُّ شهادة؟ وأيُّ شاهدين؟

إنَّ المسلمَ المؤمنَ بدينِ الله مطلوبٌ منه أَنْ يؤديَ شهادةً لهذا الدين بشهادةٍ تؤيِّدُ حقَّ هذا الدين في البقاء، وتؤيِّدُ الخيرَ الذي يحملُه هذا الدينُ للبشر. . وهو لا يؤدي هذه الشهادةَ حتى يجعلَ من نفسِه ومن خُلُقِه ومن سلوكه ومن حياته صورةً حيةً لهذا الدين. صورةً يراها الناسُ فيرون فيها مثلاً رفيعاً، يشهدُ لهذا الدين بالأحقيةِ في الوجود، وبالخيريةِ والأفضليةِ على سائرِ ما في الأرض من أنظمةٍ وأوضاع وتشكيلات. . .

. . . فهؤلاء الحواريون يَدْعون اللّهَ أنْ يكتبَهم مع الشاهدين لدينه. أيْ أنْ يوفِّقَهم ويُعينَهم في أنْ يَجعلوا من أنفسِهم صورةً حيةً لهذا الدين، وأنْ يبعثَهم للجهادِ في سبيلِ تحقيقِ منهجه في الحياة، وإقامةِ مجتمع يتمثلُ فيه هذا المنهج، ولو أدوا ثمنَ ذلك حياتَهم، ليكونوا من «الشهداء» على حقِّ هذا الدين. .

وهو دُعاءٌ جديرٌ بأنْ يتأمَّلَه كلُّ مَنْ يَدَّعي لنفسه الإسلام. . فهذا هو الإسلامُ، كما فهمه الحواريون، وكما هو في ضميرِ المسلمين الحقيقيين. . »[1].

وقد امتنَّ اللّهُ على عيسى عليه السلام لأَنه أَلهم الحواريين أنْ يَنحازوا إِليه، وأنْ يَنصروه ويساعدوه، وأنْ يواجِهوا قومَهم اليهودَ الكافرين.

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٤٠٢.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١].

ومعنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾: أَلهمْتُهم وأَلقيتُ إليهم الإيمان، وقذَفْتُه في قلوبهم، ووجَّهْتُهم إليه..

ولما طلبَ اللّهُ إليهم الإيمانَ به وبرسولِه عيسى عليه السلام استجابوا لذلك، وأعلنوه وجَهروا به، وقالوا: آمنّا بالله وبرسوله. وطلبوا من عيسى عليه السلام أنْ يشهدَ بإسلامهم.

وتتكاملُ الآيَتان، في سورةِ آل عمران وسورة المائدة على تقريرِ هذه الحقيقة.

أخبرتْ آيةُ سورةِ آل عمران عنها بقولها: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. وأخبرتْ آيةُ سورةِ المائدة عنها بقولها: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

الحواريون يطلبون من عيسى المائدة:

وقد أخبرَ القرآنُ عن حادثةٍ طريفةٍ عجيبةٍ حدثتْ من الحواريين، وهي المائدةُ التي طَلَبوها من عيسى عليه السلام، ورَغِبوا إليه في أن يسألَ ربَّه إنزالَها!..

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥].

تتحدثُ هذه الآياتُ عن معجزةِ إنزالِ المائدة من السماءِ على

الحواريين، وهذه القصةُ لم تَرِدْ في غيرِ هذه السورة، ومنها أَخَذت السورةُ اسْمَها «سورةَ المائدة»، ومعلومٌ أنَّ اسمَ السورةِ توقيفيٌّ بأمْرِ الله، وأَنه يؤخذ من شيء مذكورٍ فيها.

ومعجزةُ إنزالِ المائدةِ من السماء لم تَرِدْ عندَ النصارى، وإنما تَفَرَّدَ القرآنُ بذكْرِ إنزالها.

قال الإمامُ ابن كثير في التفسير: «هذه قصةُ المائدة، وإليها تنسَبُ السورة، فيقالُ سورةُ المائدة، وهي مما امتنَّ اللّهُ به على عبدِه ورسولِه عيسى، لما أجابَ دعاءَه بنزولها، فأنزلَها اللّهَ آيةً باهرة، وحجةً قاطعة.

وقد ذكَرَ بعضُ الأئمة أنَّ قصَّتَها ليست مذكورةً في الإنجيل، ولا يعرفُها النصارى إلاّ من المسلمين. والله أعلم...»[1].

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾. يُذَكِّرُ اللّهُ رسولَه محمداً ﷺ بقولِ الحواريين لعيسى طالبين منه المائدة.

و«إذ»: في محلِّ نصبِ مفعولٍ به لفعلٍ محذوف، تقديره: اذكُرْ قولَ الحواريين.

وهذا التذكيرُ للرسولِ ﷺ وللمسلمين من بعده، ليتذكَّروا هذه المعجزةَ الربانية، ويُفرقوا بين موقفِ الحواريين من عيسى بشأنها، وموقفِ الصحابةِ من رسولِ الله ﷺ بشأن المعجزات.

قالَ الحواريون: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: نادَوا عيسى عليه السلام باسمه، وليسَ بصفتِه. فلم يقولوا: يا رسولَ الله.

وهذا غيرُ لائق، فالأَوْلى أَنْ ينادوه بصفةِ النبوة، وشتَّانَ بين ندائِهم لعيسى ونداءِ الصحابة لرسولِ الله ﷺ.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢:١٠٩ ـ ١١٠.

كانَ الصحابةُ ينادونَ رسولَ الله ﷺ بصفتِه، فيقولون: يا رسولَ الله، ولم يُعْهَدْ عنهم أنهم قالوا: يا محمدَ بن عبد الله ﷺ.

وقد أَدَّبهم اللّهُ بهذا الأدبِ في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

أي: لا تَدْعوه وتُنادوه كما يدعو بعضُكم بعضاً. فلا تقولوا: يا محمد. ولكن قولوا: يا رسولَ الله.

فرغمَ أنَّ الحواريين كانوا مؤمنين، إلاّ أنَّ نداءَهم لعيسى بقولهم: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ لا يتفقُ مع الذوقِ والأدبِ واللطفِ في خطابهم لهم.

هذه واحدة.

قول الحواريين «هل يستطيع ربك أن ينزل مائدة»؟:

أمّا الثانيةُ فهي أفظع، وهي في قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وفي ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قراءتان:

الأولى: قراءةُ الكسائي: «هل تَستطيعُ رَبَّكَ» بالتاءِ في الفعل، ونصْبِ «ربَّك» على أنها مفعولٌ به.

والمعنى: هل تستطيعُ أنتَ أنْ تسأَلَ ربَّك وأنْ تطلبَ منه إِنزالَ المائدة؟

وعلى هذه القراءة لم يكن الحواريون شاكّين في قدرةِ الله على إنزالها.

قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: كان الحواريّون لا يشكّون أنَّ اللّهَ قادرٌ على أنْ يُنزلَ عليهم المائدة. وإنما قالوا: يا عيسى هل تستطيعُ سؤالَ ربِّك إنزالَها.

الثانية: قراءةُ الستة الباقين: «هل يَستطيعُ ربُّك..». بالياءِ في الفعل، ورفعِ «ربُّك» على أنه فاعل.

والمرادُ بالاستطاعةِ على هذه القراءة الاستجابةَ. بمعنى: هل يستجيبُ ربُّكَ لك إنْ سألْته، وينزلُ علينا المائدة.

وهذا كقولِ القائل: هل تستطيعُ أنْ تنهضَ معنا؟ وهو يعلمُ أَنه يستطيع، لكنه بمعنى: هل تستجيبُ لنا وتنهضُ معنا؟

طلبَ الحواريون من عيسى عليه السلام أنْ ينزلَ اللّهُ عليهم «مائدةً» من السماء.

والمائدةُ على وزنِ «فاعلة»، فعلها: مادَ.

تقول: مادَ، يَميدُ، مَيْداً: إِذا تحرَّك. و: مادَت الأرض: تحركَتْ واضطربت.

فالمائدةُ هي: الخِوانُ ـ الطاولة ـ الذي عليه الطعام والشراب[1] فإن لم يكن على الخِوانِ طعامٌ وشراب لا تُسمّى مائدة.

وهذا مثلُ: الكأس، لا تُسمّى كأساً إلاّ إذا كان فيها خمر. وإلاّ فهي قَدَح.

وكذلك الذَّنوبُ هو الدَّلْوُ الذي فيه ماء. وإلاّ فهو دلو.

والجِرابُ هو الجلدُ المدبوغ، فإنْ لم يكن مدبوغاً فهو إِهاب.

والقَلَمُ هو المبريُّ الجاهزُ للكتابة، وإلاّ فهو أُنبوب[2].

هل كانوا شاكين في قدرة الله على إنزالها؟:

وقد اختلفَ العلماءُ في الحواريّين: هل كانوا شاكّين في قدرةِ اللّهِ على إنزالِ المائدة، عندما قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا ..﴾ أم كانوا مؤمنين بقدرتِه على ذلك.

فذهبَ بعضُهم إلى أَنَّهم كانوا مؤمنين وليسوا شاكّين، وحَملوا

---

(١) المعجم الوسيط: ٨٩٣.

(٢) الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي ٤:٦١ حاشية.

كلامَهم السابقَ على معنى: هل تستطيعُ أنتَ سؤالَ ربِّك. أو معنى: هل يستجيبُ ربُّك إنْ سألْتَه.

وذهبَ آخَرونَ إلى أنهم كانوا شاكّين. وممن ذهبَ إلى ذلك الإمامُ الطبري، حيث رأى أنهم خالَطَ قلوبَهم مرضٌ وشك، فسألوا عيسى ذلك اختباراً.

ودليلُه على ذلك الآيةُ السابقة: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا...﴾.

فقد سألوا هم عيسى عليه السلام ذلك السؤالَ أوّلاً، وكَرِهَ اللّهُ سؤالَهم واستعظَمه، وأمَرَهم بالتوبةِ وتجديدِ الإيمان، بسببِ سؤالهم السابق، وطالَبهم بالإقرارِ بقدرتِه المطلقة على كلِّ شيء، وتصديقِ عيسى في كلِّ ما أخبرهم به.

كما استعظَمَ عيسى نفسَه عليه السلام سؤالَهم، وذلك عندما ردَّ عليهم قائلاً: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

وهذا هو الراجح، وسياقُ الآياتِ يدلُّ عليه. فقد كانوا مؤمنين بالله، ومصدِّقين لعيسى عليه السلام، لكنَّ إيمانَهم بالله لم يكن تاماً، وإنما فيه بعضُ الضعف، رغمَ ما شاهَدوا من معجزاتِ وآياتِ عيسى عليه السلام، الدالةِ على قدرةِ اللّهِ المطلقة.

شاهَدوا سابقاً إبراءَ عيسى للأكمهِ والأبرص، وشاهَدوا نفخَهُ في تمثالِ الطيرِ وتحوُّلَه إلى طيرٍ حي، وشاهَدوا إحياءَ عيسى للموتى، وكانوا يوقنون أنه يتمُّ بإذنِ الله وقدرته، ويؤمنون بقدرةِ الله.

ولما شاهَدوا تلك الآياتِ تطلعَتْ نفوسُهم إلى ما هو أعلى، فأرادوا آيةً يَستفيدونَ هم منها، فائدةً إيمانيةً ودنيوية، أرادوا مائدةً يأكلون منها.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣:٣٥٧ ـ ٣٥٨.

فكأنّهم قالوا لعيسى عليه السلام: عَرَفْنا من الآياتِ السابقة التي شاهَدْناها على يديْك أنَّ اللّهَ قد استطاعَ إجراءَها، وقدرَ على إيجادِها، وأيقنّا أنّه قادرٌ على ذلك، فهلْ يستطيعُ ربُّك ـ الذي استطاعَ إنزالَ الآياتِ عليك ـ أنْ ينزلَ علينا مائدةً من السماء؟

كانوا شاكين في «تمام قدرة الله» فكره عيسى سؤالهم:

إنَّ سؤالَهم لا يَعني أنهم شاكون في قدرةِ اللّهِ أساساً، فهم يؤمنون بذلك من خلالِ الآياتِ السابقة، ولكنهم كانوا شاكّين في «تمامِ» قدرةِ الله، وفي تحقيقِ ما يَطلبون هم منه سبحانه.

كأنّهم قالوا: آمَنّا أن اللّهَ قادرٌ على إحياءِ الموتى وإبراءِ الأكمهِ والأبرص، فهل هو قادرٌ على إنزالِ المائدةِ علينا، وهل يستطيعُ فعلَ ذلك؟

ومع ذلك دلَّ سؤالُهم على ضعفِ إيمانهم بقدرةِ الله المطلقة، وكَرِهَ عيسى عليه السلام سؤالَهم، فقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ومعنى كلامه: راقِبوا اللّهَ وخافوه، واحْذروا أنْ يُنزلَ بكم عقوبةً على قولِكم هذا، فإن اللّهَ لا يُعجزه فعلُ شيءٍ أَراده. وشكُّكُم في قدرةِ الله على إنزالِ المائدة من السماءِ كفرٌ بالله، فتخلّوا عن ذلك، واتقوا اللّهَ إن كنتم مؤمنين به، ومصدِّقين لي[1].

ولما رأى الحواريونَ كراهيةَ عيسى عليه السلام سؤالَهم وتهديدَه لهم، عَلّلوا له طلبَهم الغريب، وذكَروا له هدفَهم منه. قال تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)﴾.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣: ٣٥٩.

هدف الحواريين من طلب إنزال المائدة:

إنَّ هدفَهم من إنزالِ المائدة يتمثلُ في أَربعِ نقاط:

الأولى: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾. وهذا يدلُّ على أنَّ القومَ كانوا جائعين، وليس عندهم طعام، وشاهَدوا آياتِ الله السابقة، فأَرادوا أنْ يُكرِمَهم ربُّهم بإنزالِ مائدة ليأكلوا..

الثانية: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا..﴾: نريدُ أنْ تطمئنَّ قلوبُنا بعد أَنْ نأكلَ من المائدة، ونزدادَ يقيناً وطمأنينةً بأنَّ اللّهَ معنا، يكرمُنا وينعمُ علينا.

ومعلومٌ أنَّ المؤمنَ بالله، تزدادُ طمأنينةُ قلبِه عندما يرى آيةً ماديةً من الله، ويشاهدُ معجزةً باهرة منه أمامه.

ويذكِّرُنا هذا بجوابِ إبراهيمَ الخليل عليه السلام، يعللُ فيه هدفَه من طلبه أنْ يريه اللّهُ كيفيةَ إِحياء الموتى، وهو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى...﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الثالثة: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا..﴾: نزدادُ علماً بأنكَ قد صدَقْتنا في نبوتكِ وآياتِك ومعجزاتك. فمعجزاتُك السابقة موجهةٌ للآخرين، ونحنُ لم ننتفعْ منها منفعةً دنيوية، ونريدُ منك آيةً خاصةً لنا، تصدِّقُنا وتكرمُنا بها.

الرابعة: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾: نريدُ أنْ نشهدَ على إنزال المائدة، ونقدمُ شهادةً بذلك على أنَّ اللّهَ أيدكَ بهذه الآية، وجعلَها برهاناً ودليلاً على نبوتك، ونخبرُ الآخَرين بذلك.

أَرادوا أنْ يكونوا شاهدين بإنزالِ المائدة آية، على نبوةِ عيسى عليه السلام، وعلى قدرةِ الله المطلقة على فعلِ ما يريد.

ومع ذكْرِهم أهدافَهم الأربعةَ من طلبِهم إنزالَ المائدة، إلاّ أنَّ الطلبَ يدلُّ على شكِّهم في قدرةِ الله المطلقة، مما دعا عيسى عليه السلام إِلى الإِنكارِ عليهم، وهذا مأخذ يؤخذ عليهم.

مقارنة بين موقف الحواريين وموقف الصحابة:

وشتّان بين موقفِهم هذا، وموقفِ الصحابةِ الكرام مع رسولِ الله ﷺ. وقد قارنَ سيد قطب بينهم وبين الصحابة، وخرجَ بفضْلِ الصحابة الكبير، وتفضيلِهم على جميعِ الأنبياء السابقين:

«وَيكشفُ لنا هذا الحوارُ عن طبيعةِ قوم عيسى.. المستخْلَصين منهم وهم الحواريون.. فإذا بينَهم وبينَ أصحابِ رسولنا ﷺ فرقٌ بعيد.

إِنهم الحواريون الذين أَلهمهم اللّهُ الإيمانَ به وبرسولِه عيسى. فآمَنوا، وأَشْهَدوا عيسى على إسلامِهم، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزاتِ عيسى ما رأوا، يطلبون خارقةً جديدة، تطمئنُّ بها نفوسُهم، ويعلمونَ منها أنه صدقَهم، ويَشهدون بها له لمن وراءَهم.

فأمّا أَصحابُ محمدٍ ﷺ، فلم يطلبوا منه خارقةً واحدةً بعد إسلامِهم.. لقد آمنتْ قلوبُهم واطمأنتْ منذُ أن خالطَتْها بشاشةُ الإيمان. ولقد صَدَّقوا رسولَهم، فلم يعودوا يطلبون على صدقِه بعد ذلك البرهان، ولقد شهدوا له بلا معجزةٍ إلاّ هذا القرآن.

هذا هو الفارقُ الكبيرُ بين حواريي عيسى عليه السلام وحواريي محمد ﷺ، ذلك مستوى، وهذا مستوى... وهؤلاء مسلمون، وهؤلاء مسلمون، وهؤلاء مقبولون عند الله، وهؤلاء مقبولون.. ولكن تبقى المستوياتُ متباعدةً كما أَرادَها الله...»[١].

عيسى يطلب من الله المائدة:

وبعدما عرفَ عيسى عليه السلام أَنهم مؤمنون، وعرفَ أَهدافَهم من طلبِ المائدة، اطمأنَّ إِلى إِيمانهم، واستجابَ لطلبهم، فدعا اللّهَ ربَّه أنْ ينزلَ عليهم المائدةَ من السماء.

---

(١) في ظلال القرآن ٢:٩٩٨.

قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

حَدَّدَ عيسى عليه السلام دعاءَه، فقد طلبَ من اللهِ أنْ ينزلَ عليهم مائدةً من السماء. وجمعَ في دعائِه بين الألوهية والربوبية، من بابِ التضرعِ في الدعاء: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾.

أرادَ عيسى عليه السلام أنْ يكونَ نزولُ المائدة عيداً: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا..﴾.

والمعنى: نريدُ أنْ نجعلَ من يومِ نزولِ المائدة عيداً، نعبدُ اللّهَ فيه، كما يعبدُ الناسُ ربَّهم في أعيادهم، وهذا العيدُ يكون عيداً للأحياء منّا وقتَ نزولها، ولمن يجيءُ بعدنا.

قال السدي: معناه: نتخذُ اليومَ الذي نزلَتْ فيه عيداً، نعظِّمُه نحنُ ومَنْ بعدنا..

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾: معطوفةٌ على خبر «تكون» وهو: «عيداً».

والمعنى: نريدُ أنْ يكونَ إنزالُ المائدة آيةً منك، ودليلاً على إكرامِك لعبادك، وبرهاناً على تصديقِك لنبيك.

﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: أَعطِنا يا ربَّنا مِن عطائك، فإنك خيرُ مَنْ يُعطي ويمنحُ ويرزق، لأنه لا يدخلُ عطاءَك مَنٌّ ولا نكد![١].

الله يعد بإنزالها ويهدد من يكفر:

وردَّ الله على طلب الحواريين بقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

ومعنى الآية: إنِي سأنزلُ المائدةَ عليكم، بناءً على طلبكم، وسأُطعمكم إياها، وعليكم أنْ تُقابلوا هذا بذكْري وشكْري والثناءِ علي،

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣: ٣٦٠.

وزيادةِ إيمانِكم بي. فإذا لم تفعلوا هذا، وقابلْتُم ذلك بالكفر، فإني سأعذبُ الكافرَ منكم عذاباً شديداً مؤلماً، لا أعذبُه أحداً من عالمي زمانه.

وهذا تهديدٌ شديدٌ من الله لمن سيكفرُ من الحواريين ومشاهِدي المائدة بعد إنزالِها عليهم، وهو تهديدٌ يتناسَبُ مع جلال الموقفِ وعظمةِ المعجزة، فشيءٌ عظيمٌ أنْ يَرى أُناسٌ جالسون ومائدةَ طعام نازلةً عليهم من السماء، وأنْ يتابعوا نزولَها التدريجيَّ إليهم حتى تكونَ بين أيديهم، وبعدَ ذلك يمدّون أَيديهم إليها ويأكلونَ منها طعاماً لذيذاً شهياً!!

إنَّ هذا شيءٌ عظيم، يجبُ أنْ يُقابَلَ بالإيمانِ والشكرِ والثناءِ على الله.

أمّا أنْ يكفرَ أشخاصٌ بعد هذا كلِّه بالله، ويَكْذِبوا رسولِه عيسى عليه السلام، فإنَّ هذا مفارقةٌ بعيدة، تدلُّ على أنَّ طلبَ هذه المعجزةِ الخارقةِ كان لهواً وتسليةً وهزلاً. ولا يجوزُ أنْ يُنظَرَ إلى المعجزاتِ هذه النظرةَ الباطلة، ولذلك سيعذِّبُ اللّهُ مَنْ يكفرُ بعدما يعاينُ هذِه المعجزةَ عذاباً شديداً، لا يعذبُه أحداً من العالمين، وذلك بسببِ عِظَمِ وقبحِ جريمته وكفره!.

الراجح أن الله أنزل المائدة على الحواريين:

وقد اختلفَ العلماءُ في نزولِ المائدةِ على الحواريين:

فذهبَ جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّ اللّهَ أَنزلَها عليهم، بعدما دعا عيسى عليه السلام، فأكلوا منها، وحَقَّقوا مرادهم منها، وبعدَ ذلك رفعها الله.

وممن قالَ بأنها نَزلتْ: عمارُ بن ياسر، وعبدُ الله بن عباس وعكرمةُ وسعيدُ بن جبير وعطيةُ العوفي وأبو عبد الرحمن السلمي. وآخرون.

وذهبَ بعضُ العلماء إلى أنها لم تَنزل.

قالَ مجاهد: هذا مَثَلٌ ضربَهُ الله، ولم يَنزلْ شيئاً من المائدة.

وقال الحسنُ البصري: لما قال الله لهم: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خافوا وقالوا: لا حاجةَ لنا فيها. فلم يُنزلْها الله..

والراجحُ هو قولُ الجمهور، وهذا ما دلَّ عليه ظاهرُ القرآن، فقد طلبَ الحواريون إنزالَ المائدة، ودَعا عيسى عليه السلام ربَّه أنْ ينزلَ المائدة، واستجابَ اللّهُ له قائلاً: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

«ومنزل»: اسمُ فاعل، بمعنى المستقبل. أي: إني سأنزلُ المائدةَ عليكم.

وهذا وعْدٌ من اللّهِ بإنزالها، والوعْدُ من الله متحققُ الوقوع، واللّهُ لا يخلفُ الميعاد، ولا يَجوزُ أنْ يقولَ الله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم يقولُ بعضهم: إن اللّهَ لم ينزلها!

وهذا كقولِه تعالى عن استخلاف آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾ [البقرة: ٣٠].

فقد عبَّرَ عن ذلك باسم الفاعل «جاعل»، وهذا وعْدٌ منه سبحانه، وقد نَفَّذَ وعْدَه وجعلَ آدمَ خليفة.

واسمُ الفاعل «مُنَزِّلُها» كاسمِ الفاعل «جاعل»، وَعْدٌ نافِذٌ من الله، ولا خلفَ في وعدِ الله.

وقد رجَّحَ نزولَها أئمةُ المفسرين كابن جرير الطبري وابن كثير.

قالَ الإمامُ ابن كثير بعد استعراضِ أقوالِ الجمهور في نزول المائدة: «وكلُّ هذه الآثار دالةٌ على أنَّ المائدةَ نزلَتْ على بني إسرائيل أيامَ عيسى ابن مريم إجابةً من الله لدعوتِه، كما دلَّ على ذلك ظاهرُ هذا السياق من القرآنِ العظيم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ..﴾.

وبعدما ذكَرَ أَقوالَ التابعيَّيْن الجليلَيْن مجاهدِ والحسنِ البصري في عدم نزولِها علَّقَ على ذلك بقوله: «وهذه أَسانيدُ صحيحةٌ إِلى مجاهد والحسن. وقد يتقوّى ذلك بأنَّ خبرَ المائدة لا يعرفُه النصارى، وليسَ هو في كتابهم، ولو كانتْ قد نزلَتْ لكان ذلك مما تتوفَّرُ الدواعي على نقلِه، وكان موجوداً في كتابهم...

ولكنَّ الذي عليه الجمهور أَنها نزلَت، وهو الذي اختارَهُ ابنُ جرير... وهذا القولُ ـ والله أعلم ـ هو الصواب، كما دلَّتْ عليه الأَخبارُ والآثار...»[1].

وهكذا أَجرى اللّهُ هذه الآيةَ الباهرةَ والمعجزةَ الخارقة، فبينما كان الحواريّون جالسين مع عيسى عليه السلام، وبعدما دَعا عيسى ربَّه، أنزلَ اللّهُ عليهم المائدةَ من السماء، فرفعَ القومُ رؤوسَهم وإذا بهذه المائدةُ تنزلُ من السماء، وعليها مختلفُ أَصنافِ الطعامِ الشهي، واستمرتْ في نزولِها المتدرج حتى استقرت أَمامَهم على الأرض، فمدّوا أَيديهم وأَكَلوا منها، وحَمدوا الله وشكَروه على هذه النعمةِ الغامرة.

تفصيلات إنزال المائدة وأصناف طعامها من المبهمات:

وكان إِنزالُ المائدة عليهم تصديقاً من اللّهِ لعيسى عليه السلام، وتكريماً من اللّهِ له وللحواريّين المؤمنين. وحَقّقوا مرادَهم منها، فأَكَلوا، واطمأنّتْ قلوبُهم، وعلموا أن اللّهَ يُكرمُهم، وأنَّ عيسى قد صدَقَهم، وكانوا عليها من الشاهدين.

هذا هو حديثُ القرآنِ عن إنزالِ المائدةِ على الحواريين، ولم يَرِدْ إلاّ في سورةِ المائدة في هذه الآياتِ الأربع.

وتكررَتْ كلمةُ «مائدة» فيها مرتان، فمن لطائفِ التعبيرِ القرآني أنَّ كلمةَ «مائدة» لم تُذكَرْ في القرآنِ إلاّ في سورة المائدة!!

---

(١) انظر كلام ابن كثير حول المائدة في تفسيره ٢: ١٠٩ ـ ١١٣.

وكلمة «مائدة» في الآياتِ نكرةٌ منوَّنة: ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ..﴾.

وهذا التنكيرُ والتنوينُ يدلُّ على الإبهام، فهي مبهمةٌ في القرآن، وليس هناك أحاديثُ صحيحةٌ عن رسولِ الله ﷺ، تُضيفُ جديداً إلى آياتِ القرآن.

ونحنُ نبقى مع القرآنِ في حديثِه المبهمِ المقصودِ عن المائدة، ولا نَذهبُ إلى إسرائيلياتِ ورواياتِ السابقين في تفصيلِ الحديثِ عنها، فإنها كلُّها مشكوكٌ فيها عندنا، وموقفُنا منها هو «التوقفُ» فيها!

وكم كانَ الإمامُ الطبري موفَّقاً عندما علَّقَ على أصنافِ المائدة بعدم الخوضِ فيها، وعدمِ محاولةِ تعيينِها.

وردَ في تهذيبنا لتفسير الطبري: «والراجحُ في هذا الأمرِ القولُ: كان على تلك المائدة مأكولٌ. وجائزٌ أنْ يكونَ سمكاً وخبزاً، وجائزٌ أَنْ يكونَ ثمراً من ثمارِ الجنة. ولا ينفعُ العلمُ به، ولا يضرُّ الجهلُ به. المهمُ الإقرارُ بأنَّ اللّهَ أَنزلَ عليهم مائدة، اعتماداً على ظاهرِ التنزيل..»(١).

[١٣]
عيسى يبشر برسول الله عليهما السلام

الأنبياء يطلبون من أتباعهم الإيمان بمحمد ﷺ:

محمدٌ رسولُ الله ﷺ هو خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين. وأخبرَ اللّهُ الأَنبياءَ والرسلَ بهذه الحقيقة، وأَخَذَ عليهم الميثاقَ والعهدَ أنْ يؤمنوا به.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣:٣٦١.

﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢].

قالَ عليُّ بنُ أَبي طالب وعبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهم في معنى هذه الآية: ما بعثَ اللّهُ نبياً من الأنبياء إلاّ أخذَ عليه الميثاق: لئن بُعِثَ محمدٌ ﷺ وهو حيٌّ ليؤمِنَنَّ به ولينصُرَنَّه، وأَمَرَه أنْ يأخذَ الميثاقَ على أمتِه، لئن بُعِثَ محمدٌ ﷺ وهم أحياء، ليؤمِنُنَّ به ولينصُرَنَّه...»[1].

وقد أكَّدَ رسولُ الله ﷺ الحقيقةَ التي قررَتْها هذه الآية، فبيَّنَ أنه لو كان أَحدُ الأنبياء السابقين حياً، وأدركَ بعثتَه لوجبَ عليه أنْ يَتبعَه.

فروى أحمدُ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ عمرَ بنَ الخطاب أتى النبيَّ ﷺ بكتابٍ أَصابَه من بعضِ أهل الكتاب، فقرأَهُ النبيُّ ﷺ.

فغضبَ عليه الصلاةُ والسلام وقال: «أَمُتَهوِّكونَ فيها يا ابنَ الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكُم بها نقية. لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحقٍّ فتكذبوا به، أو بباطلٍ فتصدِّقوا به، والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسى ﷺ كان حياً ما وَسِعَه إلاّ أنْ يَتْبَعَني...»[2].

والشاهدُ في الحديث قوله: لو أنَّ موسى عليه السلام حياً ما وَسِعَه إلاّ أنْ يَتْبَعَني.

وانطلاقاً من هذه الحقيقةِ فقد بَشَّرَ الأنبياءُ السابقون بمحمدٍ ﷺ، وكانت البشارةُ بشكلٍ أخصَّ على لسانِ موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، كما ذَكَرَ اللّهُ بعضَ صفاتِ النبيِّ الخاتم ﷺ في التوراة وفي الإنجيل.

---

(١) تفسير ابن كثير ١: ٣٥٧.

(٢) الحديث حسن. وذكر الشيخ الألباني شواهد أخرى للحديث يتقوى بها، ويكون حسناً. انظر «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» ٦: ٣٤ ـ ٣٨.

وهذا معناه أنَّ اليهودَ والنصارى كانوا يَعرفون مِن هذه البشارات أنَّ اللّهَ سيبعثُ النبيَّ الخاتم عليه الصلاة والسلام، ولكن لما بَعَثَ اللّهُ محمداً رسولاً ﷺ كَفَروا به وكذبوه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

الأنبياء أبناءُ عَلّات وليس بين عيسى ومحمد نبي:

لقد بَشَّرَ عيسى بالنبيِّ محمدٍ عليهما الصلاة والسلام، لأنَّ عيسى عليه السلام هو آخرُ أنبياءِ بني إسرائيل، ولم يكنْ هناك نبيٌّ بينَ عيسى وبين محمد عليهما الصلاة والسلام.

ولهذا كان رسولُنا ﷺ هو أَوْلى الناسِ بعيسى ابنِ مريم عليه السلام.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أَنا أَوْلى الناسِ بعيسى ابن مريم، في الدنيا والآخرة، والأَنبياءُ إِخوة، أَبْناءُ عَلّات، أُمهاتُهم شتّى ودينُهم واحد. وليس بيني وبين عيسى نبي...»[1].

يخبرُنا رسولُ الله ﷺ في هذا الحديثِ عن حقيقةِ وحدةِ الرسل، واتفاقِهم في أُصولِ الرسالات، وهي العقيدةُ والتوحيدُ والإيمانُ والعبودية لله، فكلهم جاءوا بهذا، والاختلافُ بينهم في الشرائعِ والأحكام.

وشبَّهَهُم في ذلك بأبناءِ العَلّات، وهم الإِخوةُ لأب، بينما أُمهاتُهم شتى. فبما أنَّ الإِخوةَ لأب اجتمعوا على الأب رغمَ اختلافِ أمهاتهم، فكذلك الأنبياءُ اجتمعوا على العقيدةِ والإيمانِ رغم اختلافِ أَحكامِهم وتشريعاتِهم..

---

(١) انظر البخاري برقم ٣٤٤٢ و٣٤٤٣. ومسلم برقم: ٢٣٦٥.

ويخبرُنا ﷺ في هذا الحديث أيضاً أنه ليسَ بينه وبين عيسى عليه السلام نبي، وهذه معلومةٌ تاريخيةٌ مهمة، فبينهما قرابةُ ستةِ قرون لم يَبعث اللّهُ فيها نبياً، ولهذا كانت بعثةُ محمدٍ ﷺ على فَترةٍ من الرسل.. كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ [المائدة: ١٩].

وبما أنه ليس بينهما نبي، فهو أَولى الناسِ بعيسى ابنِ مريم، لأنَّ كُلاً منهما نبيٌّ رسولٌ، عليهما الصلاة والسلام.

إنَّ الرسولَ ﷺ يخبرُنا أنه أَوْلى بالأَنبياءِ السابقين، ممن يزعمونَ أَنهم أَتباعهم، فهو أَوْلى بإبراهيم عليه السلام ممن يَزعمون أَنهم أَتباعُه من اليهودِ والنصارى والعرب المشركين، وهو أَوْلى بموسى عليه السلام من اليهود، وهو أَوْلى بعيسى عليه السلام من النصارى..

صفات محمد في التوراة والإنجيل:

بَشَّرَ موسى عليه السلام قومَه بمحمدٍ ﷺ، وبَشَّرَ عيسى عليه السلام قومَه بمحمد ﷺ، ولهذا جاءتْ صفاتُ رسولِنا ﷺ مكتوبةً في التوراة والإنجيل.

وردَ هذا صريحاً في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧ ـ ١٥٨].

يخبرُنا اللّهُ في هذه الآية أنَّ رسولَنا ﷺ هو النبيُّ الأمي، وأنَّ اللّهَ أخبرَ به اليهودَ والنصارى في التوراةِ والإنجيل، وأنهم قد قرءوا صفاتِه المكتوبةَ في التوراةِ والإنجيل، وهذه حقيقةٌ قاطعة، أنطقَ اللّهُ بها بعضَ اليهود والنصارى.

روى البخاريُّ عن عطاءِ بن يسار قال: لقيتُ عبدَ الله بنَ عمرو بن العاص، رضي اللّهُ عنهما، فقلت: أخبِرْني عن صفةِ رسولِ الله ﷺ في التوراة، فقال: «أجل. واللّهِ إنه لموصوفٌ في التوراةِ بصفتِه في القرآن: يا أيها النبيُّ إنا أرسلناكَ شاهِداً ومبشِّراً ونذيراً، وحِرْزاً للأميين، أنتَ عبدي ورسولي، سميتُك المتوكِّل، ليسَ بفَظٍّ، ولا غَليظ، ولا سَخّابٍ في الأسواق، ولا يَدفعُ السيئةَ بالسيئة، ولكن يعفو ويَصفح، ولن يَقبضَهُ اللّهُ حتى يُقيمَ به الملةَ العوجاء، بأنْ يَقولوا: لا إله إلا الله. ويَفتحَ به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً.

قال: ثم سألتُ كعبَ الأحبار عن ما قالَ ابنُ عمرو فما زادَ عليه حرفاً..»[1].

يدلُّ هذا الحديثُ على أنَّ صفاتِ الرسولِ ﷺ الموجودةِ في القرآن هي نفسُ صفاتِه الموجودةِ في التوراة والإنجيل.

عيسى يبشر بمحمد عليهما الصلاة والسلام:

وصرحَ القرآنُ بأن عيسى عليه السلام قد بَشَّرَ بالنبيِّ الخاتم ﷺ. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف: ٦ ـ ٧].

يعلنُ عيسى عليه السلام لبني إسرائيل أنَّ اللّهَ بعثَه لهم رسولاً،

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢١٢٥.

وجعلَه مصدِّقاً لما سبَقه من التوراة، وأَمَرَهُ أنْ يبشِّرَ برسولِ الله محمد ﷺ، الذي سيبعثُه من بعده، وأنْ يأخذَ على النصارى العهد، أنْ يُؤمنوا به ويتَّبعوه.

ومع ذلك، فإنَّ النصارى الذين أَدركوا محمداً ﷺ قد نَقَضوا عهدَهم مع عيسى، وكَذَّبوا محمداً عليه الصلاة والسلام. ولما شاهَدوا ما معه من البينات قالوا إنها سحر: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وبما أنَّ عيسى عليه السلام بَشَّرَ به، فقد أَخبرَ محمدٌ ﷺ أَنه «بُشرى عيسى» عليه السلام.

روى أحمدُ وغيرُه عن العرباضِ بن سارية رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إني عندَ الله في أُمِّ الكتابِ لخاتمُ النبيين، وإنَّ آدمَ لمنجدلٌ في طينته، وسأنبئكُم بتأويلِ ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى قومَه، ورؤيا أُمي التي رأتْ أنه خرجَ منها نورٌ أَضاءَتْ له قصورُ الشام...»[1].

التوفيق بين اسميه «أحمد» و«محمد» عليه السلام:

والذي يُلفتُ النظرَ في التعبيرِ القرآنيِّ عن بشارةِ عيسى بمحمدٍ عليهما الصلاة والسلام أنه جاءَ فيه اسمُ «أحمد» مع أنَّ اسمَه هو «محمد» ﷺ: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ..﴾.

ولا فرقَ بين الاسميْن «أحمد» و«محمد»، لاشتقاقِهما من مادةِ «الحمد». والاسمانِ معروفان للنبيِّ الخاتمِ ﷺ.

«أحمد»: أفعلُ تفضيلٍ من «حَمد». تقول: حَمِدَ، يَحْمَدُ، فهو حامِد. وهو أحمد: أكثرُ حَمْداً من غيره.

و«مُحَمَّد» على وزن «مُفَعَّل»: اسمُ مفعولٍ من الرباعي «حَمَّد» تقول: حَمَّدَ، يُحَمِّد، والمفعول منه: مُحَمَّد.

---

(١) أخرجه أحمد ٤:١٢٧ ـ ١٢٨. وانظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي رقم: ١٢.

قالَ الإمامُ الراغب: «يقال: فُلانٌ محمود: إذا حُمِد. و: مُحَمَّد: إذا كثرتْ خصالُه المحمودة.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾: فأحمدُ إشارةٌ إلى النبيِّ ﷺ باسمِه وفعلِه، تنبيهاً أنه كما وُجِدَ اسمُه أَحمد، يوجَدُ وهو محمودٌ في أَخلاقِه وأفعالِه.

وخُصَّ لفظةُ أحمد فيما بَشَّرَ به عيسى ﷺ، تنبيهاً أَنه أحمدُ منه ومن الذين قبلَه، أي أكثرُ حَمْداً منهم لله.

وقولُه تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾: فمحمد هنا ـ وإنْ كانَ مِنْ وَجْهِ اسماً له عَلَماً ـ ففيه إشارةٌ إلى وصْفِه بذلك، وتخصيصِه بمعناه...»[1].

إنَّ «أحمد» و«محمد» مشتقّان من «الحمد»، فهما من مادةٍ اشتقاقيةٍ واحدة، فلا تناقضَ بين الاسمَيْن الكريمَيْن.

ولعلَّ من حكمةِ التعبيرِ بأفعلِ التفضيل «أحمد» في بشارةِ عيسى عليه السلام، اعترافَ عيسى ابنِ مريم عليه الصلاة والسلام بفضْلِ محمدِ بن عبد الله ﷺ عليه وعلى كلِّ مَنْ سَبَقَه.

وكأنَّ عيسى عليه السلام يقول: النبيُّ الخاتمُ الذي يأتي من بعدي هو أكثرُ حمداً منّي لله، وأكثرُ حمداً مِن كلِّ مَنْ سبقني لله، فهو «أحمدُنا» لله، وأكثَرُنا له ذكْراً وشكْراً، وثناءً ومدحاً.

وفي هذا تواضعٌ من عيسى عليه السلام أَمامَ محمد ﷺ.

معاني أسماء النبي محمد ﷺ:

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ له أسماءَ عديدة:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن جبيرِ بن مُطْعِم رضي اللّهُ عنه، أن

---

(١) المفردات: ٢٥٦.

رسولَ الله ﷺ قال: «لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو اللّهُ بي الكفر، وأنا الحاشر، الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدمي، وأنا العاقب، الذي ليسَ بعدَه نبي..»[1].

وروى مسلمٌ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يُسمي لنا نفسَه أسماء، قال: أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبيُّ التوبة ونبيُّ المرحمة»[2].

فسَّرَ رسولُ الله ﷺ أسماءَه الثلاثة، المضافة إلى محمد وأحمد.

فهو الماحي، الذي محا اللّهُ به الكفر، لأنَّ اللّهَ أبقى الإيمانَ والإسلامَ برسالتِه قوياً حتى قيامِ الباطل، وجعلَ الباطلَ والكفرَ زاهقاً ذليلاً.

وهو الحاشر، الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدمِه يومَ القيامة، فاللّهُ يُشَفِّعُهُ فيهم، ولا يَبدأُ حسابُهم إلاّ بشفاعتِه، ولا يَدخلُ المؤمنون الجنةَ إلاّ بعده، فهو الذي يَطرقُ لهم بابَ الجنة، ويتقدمُهم في دخولِه.

وهو العاقب، الذي جاءَ عقبَ الأنبياءِ جميعاً، وبعثَه اللّهُ نبياً بعدَهم جميعاً، وختمَ اللّهُ به الأَنبياءَ فلا نبيَّ بعده.

والمقَفِّي بمعنى العاقب، فهو الذي قَفَّى اللّهُ به الأنبياء، وختمهم به.

وهو نبيُّ الرحمةِ والتوبة أي أنه جاءَ بالتوبةِ والرحمة، وحثَّ الناسَ على التوبةِ والاستغفار، ودَعاهم إلى التراحمِ فيما بينهم.

إنَّ هذه الأسماءَ الخمسةَ للنبي ﷺ تدلُّ بصراحةٍ على أنَّ «أحمد» المذكورَ في الآية اسمٌ من أسمائه، فلا تعارضَ بين أحمد ومحمد ﷺ.

وبشارةُ عيسى بمحمد ﷺ لأنه خاتمُ النبيين، الذي ختمَ اللهُ به هذا الموكبَ النبويَّ الكريم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٥٣٢. ومسلم برقم: ٢٣٥٤.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٥٥.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ مَثَلي ومَثَلَ الأنبياءِ من قبلي، كَمَثَلِ رجلٍ بنى بيتاً، فأحسنَه وأجملَه، إلاّ موضعَ لَبِنَةٍ من زاوية، فجعلَ الناسُ يطوفون به، ويَعجبونَ له، ويقولون: هَلاّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة؟

قال: فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتمُ النبيين»[1].

بقيَ في موضوعِ بشارةِ عيسى بمحمدٍ عليهما الصلاة والسلام مسألة: وهي: هل هذه البشارةُ موجودةٌ في الأناجيل التي يتداولُها النصارى الآن؟ وهل المرادُ بها النبيُّ الخاتمُ أحمدُ ﷺ كما وردَ في صريحِ القرآن؟

«محمد في الكتاب المقدس» لعبد الأحد داود:

أُسجلُ هنا خلاصةً موجزةً جداً من الكتابِ الطيب «محمد في الكتاب المقدس» الذي أَلَّفه البرفسور «عبد الأحد داود». وكان «داود» قِسّيساً كبيراً للكلدانيين التابعين للرومِ الكاثوليك، وكان اسمه «دافيد بنجامين كلداني».

وقد درسَ الكتابَ المقدسَ بقسميه «العهدِ القديم» و«العهد الجديد» دراسةً متأنية، واستخرجَ منها بشاراتِ أَنبياءِ بني إسرائيل بالنبيِّ الخاتم محمد ﷺ، وبشارةَ عيسى عليه السلام الصريحةَ به في الإنجيل. ووقفَ على تحريفِ النصارى لهذه البشارات.

ودَفَعَه ذلك البحثُ إلى الاقتناع بأنَّ محمداً ﷺ هو رسولُ الله وخاتمُ النبيين، فتخلّى عن النصرانية، ودخلَ في الإسلام، وأَلَّفَ نتيجةَ بحثه في كتابٍ بالإنجليزية.

وقد تَرجَمَ الكتابَ إلى العربية فهمي شما، وطبعَتْه رئاسةُ المحاكم الشرعية في قطر عام ١٩٨٥ ـ ١٤٠٥.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٥٣٥. ومسلم برقم: ٢٢٨٦.

قالَ البروفسور عبدُ الأحد داود: وردَتْ بشارةُ عيسى بأحمدَ عليهما السلام في إنجيل يوحنا في الإصحاحات الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر.

وسَجَّلَ تحريفاتِ رهبانِ النصارى لتلك البشارات.

ويهمُّنا هنا أنْ نقفَ مع جملةٍ واحدة، وردَتْ في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا، تتوافَقُ تلك الجملةُ الأصليةُ غيرُ المحرفة مع الآيةِ القرآنية تماماً: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾.

العبارةُ الأصليةُ الصحيحةُ في إِنجيلِ يوحَنّا، كما وقفَ عليها البروفسور عبدُ الأحد داود هي: «وسوفَ أذهبُ إلى الآب. وسيرسِلُ لكم رسولاً، سيكون اسمُه «البرقليطوس» لكيْ يبقى معكم إلى الأَبد..».

و«البرقليطوس» هو أَحمد.

ولكنَّ النصارى حَرَّفوا هذه العبارةَ إلى العبارة التالية: «وسوفَ أسألُ الآب، وسوفَ يعطيكُم برقليطوس آخر، يَبقى معكم إِلى الأَبد..».

وفرْقٌ بعيد ـ كما يقولُ داود ـ بين العبارةِ الأصلية «البرقليطوس» بالتعريفِ والتحديد، وبين «برقليطوس آخر» في العبارةِ المحرفة، الذي يدلُّ على أنَّ عيسى عليه السلام عنده مجموعةٌ من «البرقليطيسيين».

وكلمةُ «برقليطوس آخر» دلَّتْ على أنَّ المرادَ بها عند النصارى «المُعَزّي» أو «الوَسيط» أو «المُعين»، وليسَ الرسولَ الخاتم[1].

البرقليطوس هو أحمد:

إنّ «البرقليطوس» كلمةٌ يونانيةٌ إِغريقية. معناها بالعربية ـ بالضبط ـ

---

(١) انظر مبحث «البرقليطوس يعني أحمد» في كتاب «محمد في الكتاب المقدس»: ٢١٩ ـ ٢٢٠.

«الأَمْجَد والأَشْهر» المشتقّ من التمجيدِ والثناء. وهو «أحمدُ» المذكور في القرآن.

والصيغةُ الآرامية ـ التي كان يتكلَّمُ بها عيسى عليه السلام ـ الواردةُ في بشارةِ عيسى عليه السلام هي: «مَحَامْدَا» أو «حَمِدا»، وهي متناسقةٌ مع الصيغة العربية «محمد» أو «أحمد» تماماً[1].

وقد خرجَ البروفسورُ المهتدي عبدُ الأحد داود رحمهُ الله من بحثه بنتيجةٍ إيمانيةٍ قاطعة. قالَ فيها: «إنَّ التنزيلَ القرآنيَّ القائلَ بأنَّ عيسى ابنَ مريم أعلنَ لبني إسرائيل أنه كان: ﴿ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ واحدٌ من أقوى البراهين على أن محمداً ﷺ كان حقيقةً نبياً، وأنَّ القرآنَ تنزيلٌ إلهي فعلاً.

إذْ لم يكن في وسْعِه أبداً أنَّ يعرفَ أنَّ كلمةَ «البرقليطوس» كانت تعني «أحمد» إلاّ من خلالِ الوحي والتنزيل الإلهي.

وحجةُ القرآن قاطعةٌ ونهائية، لأنَّ الدلالةَ الحرفيةَ للاسمِ اليوناني تعادلُ بالدقة ودونَ شكٍّ كلمتي «أحمد، ومحمد».

ومن المدهشِ أنَّ هذا الاسمَ الفريد، الذي لم يُعْطَ لأحدٍ من قبل، كان «محجوزاً» بصورةٍ معجزةٍ لأشهرُ رسلِ الله، وأجدرِهم بالثناء. ونحن لا نجدُ أبداً أيَّ يوناني كان يحملُ اسمَ «برقليطوس»، ولا أيَّ عربي كان يحملُ اسمَ أحمد»[2].

تحريف «البرقليطوس» في الأناجيل إلى «برقليطوس آخر»:

وإذا كانَ «عبدُ الأحد داود» قد وَقَفَ على تحريفِ الأَناجيلِ لمعنى كلمة «البرقليطوس» إلى كلمةِ «برقليطوس آخر» ـ وفرقٌ بعيدٌ بين الكلمتين، فإنَّ ترجماتِ إنجيل يوحنا إلى العربية جعلت الكلمةَ بمعنى «المُعَزّي» وبمعنى المعين.

---

(١) المرجع السابق: ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) المرجع السابق: ٢٢٣.

أَمامي ترجمتانِ للكتابِ المقدس، ولإنجيل يوحنا:

الأولى: ترجمةُ «دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط» والمطبوعةُ في القدس عام ١٩٨٤. وقد تَرجمتْ كلمةَ «برقليطوس» إلى «مُعَزّي».

والعبارةُ السابقةُ التي أَوردَها عبدُ الأحد داود من الإصحاح الرابع عشر من إنجيلِ يوحنا، نَصُّها في هذه الترجمة هكذا: «إِن كنتم تحبّوني فاحفظوا وصاياي، وأَنا أطلبُ من الآب، فيعطيكُم مُعَزِّياً آخر، ليمكثَ معكم إِلى الأَبد..».

الثانية: الكتاب المقدس: كتاب الحياة: ترجمة تفسيرية. وقد طبع في مصر عام ١٩٨٨.

والعبارةُ السابقةُ في هذه الترجمةِ التفسيرية هكذا: «إنْ كنتم تحبّوني فاعملوا بوصاياي، وسوفَ أطلبُ من الآبِ أنْ يُعطيكم مُعيناً آخر، يبقى معكم إلى الأبد..».

وهذا مثالٌ واضحٌ على التحريف المتعمد:

فبشارةُ عيسى عليه السلام بالنبيِّ الخاتم كانتْ باللغةِ الآرامية «مَحَامْدَا» أو «حَمِدا». وهي نفسُ كلمة «محمد» أو «أَحمد» بالعربية.

ولما كتبَ يوحنا إنجيلَه، كتبه باللغةِ اليونانية، فترجمَ كلمةَ «مَحَامْدَا» الآرامية إلى كلمة «البرقليطوس»، ومعناها: الأَشهر والأَمجد والأَكثر حمداً وثناءً. وهذا لا غبارَ عليه.

لكنَّ الرهبانَ الذين كتبوا إنجيلَ يوحنا بعد ذلك، حَرَّفوا كلمةَ «البرقليطوس» التي تَعني التحديدَ إِلى «برقليطوس آخر»، التي تعني التعدُّدَ والتعويم!

ولما تَرجموا هذه الكلمةَ إِلى العربية، حَوَّلوها من معناها الصحيح: الأَمجد والأَشهر والأَحمد إلى «المعزّي» و«المعاون».

وإنَّ العودةَ إلى الأصلِ الآرامي لإنجيل يوحنا، بل والترجمةِ اليونانية الأصلية لبشارةِ عيسى عليه السلام فيه، تُعطينا توافُقاً وتناسقاً وانسجاماً بين الكلمات الثلاث:

«مَحَامْدَا» الآرامية. و«البرقليطوس» اليونانية. و«أحمد» العربية القرآنية!

اعتراف علماء لاهوت بأن «البرقليطوس» هو أحمد:

بقيَ أنْ نقول: إنَّ المنصفين من علماءِ اللاهوتِ النصارى، يَعترفون بأن الكلمةَ اليونانيةَ الأصليةَ من إنجيل يوحنا، هي بمعنى الكلمةِ العربيةِ القرآنية «أحمد».

وقد روى الشيخُ عبد الوهاب النجار مؤلفُ كتاب قَصصِ الأنبياء حادثةً طريفةً جَرَتْ بينَه وبين المستشرقِ الطلياني الدكتور «كارلو نلينو» تؤكِّدُ هذه الحقيقة.

كان الشيخُ النجارُ طالباً في كلية دار العلوم عام ١٨٩٣ - ١٨٩٤م، وكان يدرسُ معهم المستشرقُ الدكتور كارلو نلينو، وكان هذا المستشرقُ الإيطالي حاصِلاً على الدكتوراه في «آدابِ اللغةِ اليونانية القديمة» التي كُتبتْ بها الأناجيل. وجاءَ إلى القاهرة ليتعلمَ اللغةَ العربية.

وقد انعقدتْ صداقةٌ بين عبد الوهاب النجار وكارلو نلينو.

وذاتَ يوم سألَ النجارُ المستشرقَ قائلاً: ما معنى «بيريكلتوس؟ - وهي «برقليطوس» التي مَرَّتْ مَعَنا من قبل -.

فأَجابَني بقوله: إنَّ القسسَ يقولون: إنَّ هذه الكلمةَ معناها «المُعَزّي»!

فقلت: إنّي أسألُ الدكتورَ «كارلو نلينو» الحاصلَ على الدكتوراه في آدابِ اللغة اليونانية القديمة، ولستُ أسألُ قسيساً!

فقال: إنّ معناها «الذي له حَمدٌ كثير»!!

فقلت: هل ذلك يوافقُ أَفعلَ التفضيل «أحمد»؟

قال: نعم.

قلت: إنَّ رسولَنا ﷺ من أسمائِه «أحمد»!

قال: يا أَخي أنتَ تحفظُ كثيراً...[1].

وهكذا توافقت الأَناجيلُ الأصليةُ على النصِّ على بشارةِ عيسى عليه السلام بمحمدٍ ﷺ، واعترفَ المنصفون من النصارى بهذه الحقيقة، رغمَ تحريفِ مترجمي ومؤلِّفي الأناجيل المتأخّرين لها.

[١٤]

«إني متوفيك ورافعك إليّ»

دعا عيسى عليه السلام اليهودَ إلى الله، ولكنهم رفضوا دعوتَه وكفروا به. ولما ظهرَ كفرهم واضحاً دَعا الحواريين إلى الانحياز إليه، فلبّوا الدعوة. قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣].

وقد تحدثنا عن هذا الموضوع من قبل.

الله يحمي عيسى من مكر اليهود:

ولم يكتفِ اليهودُ بالكفر به وتكذيبه واتهام أُمِّه بالباطل، بل ارتقوا إلى مستوى أشنع وأفظع، حيث تآمَروا عليه ومكروا به وأَرادوا قتْلَه، فحماه اللّهُ منهم.

وقد امتنَّ اللّهُ على عيسى عليه السلام في ذلك. قال تعالى:

---

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار: ٣٩٨ حاشية.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

تتحدثُ الآيةُ عن حمايةِ الله له بإجمال، فلما أرادَ اليهودُ إيذاءَه وقتْلَه، كفَّ اللّهُ أيديهم عنه.

وهذا الإجمالُ في سورة المائدة عليه إضافةٌ يسيرةٌ في سورة آل عمران. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤ ـ ٥٥].

﴿وَمَكَرُوا۟﴾: اليهودُ الكافرون المجرمون مكَروا بعيسى عليه السلام مكراً خبيثاً، وتآمَروا عليه، وأَرادوا قتْلَه.

﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: أَبطلَ اللّهُ مكرَ اليهود وخبثَهم، وأَفشلَ كيدهم، وحمى عيسى عليه السلام منهم.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: اللّهُ خيرُ مَنْ ينصرُ أولياءَه ضدَّ أَعدائه، وخيرُ مَنْ يُبطلُ كيدَ أَعدائِه، ويُحبطُ مؤامراتِهم.

قالَ الإمامُ الراغب في معنى المكر: «المكر: صرفُ الغيرِ عما يقصدُه بحيلة.

وذلك ضربان:

مكرٌ محمود: وذلكَ أنْ يتحرى بذلك فعلَ جميل. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

ومكرٌ مذموم: وهو أنْ يتحرى به فعلَ قبيح. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقالَ في الأَمْرَيْن: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا...﴾ [النمل: ٥٠].

وقالَ بعضُهم: من مكْرِ اللّهِ إمهالُ العبد، وتمكينُه من أَعراضِ الدنيا..»[1].

المشاكلة في «ومكروا ومكر الله»:

أَسندت الآيةُ إلى اليهود مكراً خبيثاً مذموماً ضدَّ عيسى عليه السلام، وهو تآمرهم عليه لقتله. وأَسندتْ إلى الله مكراً طيباً محموداً، وهو إبطالُ مكرهم السيء، وإنجاءُ عيسى عليه السلام منهم. ووصفت اللّهَ بأنه خيرُ الماكرين.

وهذا الأسلوبُ يُسمى في البلاغة «مشاكلة».

والمشاكلة هي: ذكْرُ الشيء بلفظِ غيرِه، لوقوعِه في صحبته.

مكْرُ اليهود مكرٌ حقيقي قائمٌ على إيقاعِ الضرِّ بعيسى عليه السلام، ومكْرُ اللّهِ «مشاكلةٌ» لمكر اليهود، وافَقَهُ في اللفظ، لأنه وقعَ بجانبهِ في التعبير، لكنْ خالَفَه في الحقيقة، لأن اللّهَ أبطلَ مكرَهم بعيسى عليه السلام.

إذن: أَرادَ اليهودُ قتلَ عيسى عليه السلام، ورسموا لذلك خطةً دقيقة، ومَكَروا به مكراً شيطانياً خبيثاً.

وأرادَ اللّهُ حمايةَ عيسى منهم، ونجاتَه من كيدِهم، وإبطالَ مكرهم، فأنقذَه من بين أَيديهم بأنْ أَلقى شَبَهَهُ على غيره، فأَخذوا شَبَهَهُ وقتلوه، ظانّين أنهم قتلوا عيسى. وبهذا مَكَرَ اللّهُ بهم، وسَخَرَ منهم.

أخرجَ اللّهُ عيسى من وسطهم حياً، وحفِظَه بحفظه، وحماهُ بحمايته.

كيفَ أبطلَ اللّهُ مكرَ اليهودِ ضدَّ عيسى عليه السلام؟

أَبطلَ ذلك عندما توفّاه ورَفعه إليه وطهَّرَه منهم. وتفصيلُ ذلك في

---

(١) المفردات: ٧٧٢.

الآية التالية: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

و«إِذْ» ظرفٌ لما مضى من الزمان. متعلقةٌ بالآية السابقة: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾.

والتقدير: ومكرَ اللّهُ باليهود حينَ قال لعيسى: إني متوفّيك ورافعُك إليّ..

فتكونُ الآية (٥٥) التي أمامنا، تفسيراً لمكْرِ اللّهِ باليهود المذكور في الآية (٥٤): ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾.

أي: أبطلَ اللّهُ مكرَ اليهود عندما توفّى عيسى ورفَعَه إليه، وأَنجى اللّهُ عيسى منهم بعدما توفّاه ورفَعَه إليه.

وهذه الآيةُ من متشابهات القرآن، وفي معناها إشكالاتٌ كثيرة عند الناس: فما معنى قوله «متوفّيك»؟ وهل توفّى اللّهُ عيسى وأَماتَه على الأرض؟ أَم رفَعَه بروحه وجسمه إلى السماء؟ وإذا كانَ الأولُ فكيف سينزلُ في آخر الزمان؟ وإذا كان الثاني فكيف قال: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾؟.

سنحاولُ السيرَ في هذا الموضوع بتأَنٍّ وحَذَر، وننظرُ أَثناءَه في تعبيرِ القرآن عن الحادثة، ونصوصِه الأخرى المشابهة، ونحملُ المتشابهَ على المحكم في هذا الأمر، مستعينين باللّهِ سبحانه!.

أربعة أقوال في معنى «إني متوفيك ورافعك إلي»:

اختلفَ المفسِّرون في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾:

١ ـ فقالَ بعضُهم: في الآية تقديمٌ وتأخير. والتقدير: إني رافعُك إليّ، ومطهركَ من الذين كفروا، ومتوفّيك، وذلكَ بعد إنزالي إليك في آخرِ الزمان.

وعلى هذا يكون معنى «متوفّيك» مميتُك، وإماتتُه له عند نزولِه قبيل قيام الساعة. فالوفاةُ على هذا القول بمعنى الموت.

قال ابن عباس: «متوفّيك»: مميتُك.

وقال قتادة: هذا من المقدَّم والمؤخَّر. أي: إني رافعُك إليّ ومتوفّيك بعد ذلك.

٢ ـ وقال آخرون: الوفاةُ هنا بمعنى القبض. والتقدير: إنّي قابضُك ورافعُك إليّ.

فاللّهُ قبضَ عيسى عليه السلام من الأرضِ حياً، ورفعه إليه، وطهَّره من الذين كفروا.

قالَ ابنُ زيد: «إني متوفيك»: قابضُك. ولم يمتْ عيسى بعد، حتى يقاتلَ الدجال، وسيموتُ بعد ذلك. لأنَّ اللّهَ يقول: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ فرفَعه اللّهُ قبلَ أنْ يكلمَ الناسَ كهلاً، وسينزلُ كهلاً.

ورجَّحَ هذا القولَ الإمامُ ابنُ جرير الطبري.

٣ ـ وقال آخرون: الوفاةُ هنا وفاةُ موتٍ حقيقي. فالآية على ظاهرها.

فاللّهُ أنقذَ عيسى عليه السلام من اليهود عندما أَرادوا قتلَه، ثم توفّاه بعد ذلك، وقبضَ روحَه وأَماتَه، ثم رفَعَه بعدَ موته.

قالَ وهبُ بن مُنَبِّه: توفّاهُ الله ثلاثَ ساعات، ثم رفَعه إليه.

وقال وهبٌ في رواية أخرى: أَماته الله ثلاثةَ أيام، ثم بعثَه، ثم رفَعَه.

الراجح أن الوفاة هنا هي النوم:

٤ ـ وقال آخَرون: الوفاةُ هنا بمعنى النوم.

فاللّهُ أَلقى النومَ على عيسى عليه السلام، ولما نامَ رفَعَه إِليه. ومعنى الآية: إنّي مُنيمُك، ورافعُك إليَّ في نومك.

قال الحسنُ البصري: كانت الوفاةُ وفاةَ منام، رفَعَهُ الله في منامه.

ورجحَ هذا القولَ الإمامُ ابنُ كثير، وجعله قولَ معظمِ المفسرين. واستشهدَ على ترجيحِه بآياتٍ أُخرى من القرآن[1].

ونحنُ مع الإمامِ ابنِ كثير في ترجيحه أنَّ المرادَ بالوفاة هنا النوم، وأنَّ اللّهَ أَلقى على عيسى عليه السلام النوم، ثم رفَعَه إِليه وهو نائم.

ولْننظرْ في إِسنادِ التوفّي إِلى اللّهِ في القرآن.

«متوفيك»: اسمُ فاعل. فعلُه الماضي: «تَوَفّى».

تقول: تَوَفّىٰ، يَتوفّىٰ، فهو مُتَوَفّي.

والفعلُ الثلاثي «وَفىٰ».

والصيغُ التي أوردَها القرآن من مادة «وَفىٰ» هي: الرباعي «وَفّىٰ» بالتشديد وتصريفاتُها. والرباعي «أَوْفىٰ» بالهمزة وتصريفاتُها. والخماسي «تَوَفّىٰ» وتصريفاتُها. والسداسي «اسْتَوْفىٰ» وتصريفاتُها.

ويهمّنا أنْ ننظرَ في الخماسي «تَوَفّى».

جولة سريعة مع التوفي في القرآن:

التوفّي في القرآن يُسندُ أَحياناً إِلى الملائكة، ويكونُ بمعنى الموت. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ [النساء: ٩٧].

أي: تَقبضُ الملائكةُ أرواحَهم، فيموتون.

وأَحياناً يُسندُ التوفّي إِلى مَلَكِ الموت نفسِه ـ وهو من الملائكة ـ

(١) انظر: تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٨٢ ـ ٢٨٣. وتفسير ابن كثير ١:٣٤٦ ـ ٣٤٧.

ويكونُ بمعنى الموت. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١].

وأَحياناً يُسندُ التوفي إلى الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: ٤٠].

الخطابُ في الآيةِ لرسول الله ﷺ، ومعنى «نَتَوَفَّيَنَّكَ»: نقبض روحك.

وأَحياناً يُسندُ التوفي إلى الموت، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء: ١٥].

والتوفّي في هذه الآياتِ كلِّها معناه الموتُ وخروجُ الروحِ من الجسد.

والتوفّي موت، لأنَّ أساسَ معنى «وَفَى»: تَمّ.

قالَ ابنُ فارس في مقاييسه: «وَفَى: كلمة تدلُّ على إكمالٍ وإتمام. منه الوفاء: إتمامُ العهد. و: أَوفيتُك الشيء: قضيتُه لك وافياً. و: توفَّيْتُ الشيء واستوفيتُه: إذا أخذتَه كلَّه حتى لم تَترك منه شيئاً. ومنه يقال للميت: توفّاه اللّه...»[1].

فاللّهُ يتوفّى الميت: يقبضُ روحَه بعد أنْ يستوفيَ الميتُ أجلَه، ويعيشَ عمرَه الذي حدده اللّهُ له كاملاً تاماً، ولا يَبقى له من عمره لحظةٌ واحدة.

معنيان للتوفي في القرآن: الموت، والنوم:

وإسنادُ التوفّي إلى الله في القرآن أَحياناً يرادُ به الموتُ وقبضُ الروح، وهذا في موضعيْن في القرآن.

(١) مقاييس اللغة: ١٠٩٩.

الأول: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى . . . يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤].

أي: أعبدُ اللّهَ الذي يميتُكم ويقبضُ أرواحكم.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل: ٧٠].

أي: اللّهُ هو الذي خلقكم وجعلكم أحياءَ تعيشونَ حياتكم على الدنيا، ثم يتوفاكم عند انتهاءِ أعماركم، ويَقبضُ أَرواحكم ويميتكم.

وأَحياناً يرادُ به النوم، حيث وردتْ آياتٌ في القرآن تعتبرُ النومَ توفِّياً، وتسندُه إِلى الله. وهذا في موضعيْن في القرآن أيضاً.

الأول: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى. .﴾ [الأنعام: ٦٠].

والمعنى: اللّهُ الذي يجعلُكم تنامونَ في الليل، ويتوفّى أَرواحَكم أَثناءَ نومكم، ثم يُعيدُ أَرواحَكم إِلى أَجسادكم في النهار: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ. . .﴾ والضميرُ الهاءُ في «فيه» يعودُ على النهار.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

اعتبرت الآيةُ النومَ موتاً، وقَسَّمت الناسَ بعدَ النومِ إِلى قسمين:

فهناكَ أُناسٌ يَنامون ويموتون أَثناءَ النوم، ويكون اللّهُ قد قدَّرَ انتهاءَ آجالِهم عند تلك «النومة» فيتوفاهم ويقبضُ أرواحَهم أَثناءَ النوم، ويمسكُ أَرواحَهم عنده، ولا يعيدُها إِلى أَجسادهم، ويُصبحون أَمواتاً جثثاً هامدة، وهؤلاء هم الذين قالَ عنهم: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ. .﴾.

وهناك أُناسٌ ينامون، ويتوفّى اللّهُ أَرواحَهم أَثناءَ النوم، لكن تكون قد بقيتْ من أَعمارِهم بقية، فيعيدُ اللّهُ أرواحَهم إِلى أَبدانهم عند

الاستيقاظ من النوم، ويُصبحونَ أحياء يتحركون. وهؤلاء هم الذين قال عنهم: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ...﴾.

وهذان الصنفانِ من الناسِ يتوفّى اللّهُ أَرواحَهم عند نومِهم. فالنومُ موت ووفاة، لكن يعقبهُ استيقاظٌ وبعثٌ في الصباح.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾: اللّهُ يقبضُ أَرواحَ الأنفسِ حين نومها.

﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾: واللّهُ يتوفّى الأنفسَ التي لم تمتْ في منامها، فيُخرجُ أَرواحَها من أجسادِها عند نومها، ويُعيدُها إِلى الأَجسادِ عند استيقاظها.

النوم موت والاستيقاظ بعث في القرآن والحديث:

هاتان الآيتان ـ [الأنعام: ٦٠. والزمر: ٤٢] ـ صريحتان في أنَّ النومَ وفاةٌ صغرى، وأنَّ اللّهَ يتوفّى أرواحَ النائمين، ويخرجُها من أجسادِهم أثناءَ نومهم، ثم يعيدُها لمن كتبَ لهم الحياةَ عند استيقاظهم!!

وقد أَكَّدَ هذا المعنى ـ النومُ وفاةٌ والاستيقاظُ بعثٌ ـ رسولُ الله ﷺ، في أدعيةِ النومِ والاستيقاظ.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا أوى أَحدُكم إلى فراشه، فلينفضْ فراشَه بداخِلَةِ إزارِه، فإنه لا يدري ما خَلَفَهُ عليه، ثم يقول: باسمك ربّي وضعْتُ جنبي، وبكَ أَرفعُه، إنْ أَمسكْتَ نفسي فارحَمْها، وإنْ أرسلْتَها فاحفَظْها بما تحفظُ به عبادَكَ الصالحين»[(١)].

وروى البخاريُّ عن حذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه، ومسلمٌ عن البراءِ بن عازب رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أَوى إلى فراشه قال: «باسمك أحيا، وباسمك أَموت. وإذا استيقظ قال: الحمدُ لله

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٣٢٠. ومسلم برقم: ٢٧١٤.

الذي أَحيانا بعدما أماتَنا، وإليه النشور..»[1].

والشاهدُ في هذه الأذكارِ الصحيحة، أَنه توافقَ كلامُ رسول الله ﷺ مع الآيةِ الكريمة، في اعتبارِ النوم وفاةً وموتاً، والاستيقاظِ بعثاً وحياة.

فها هو عليه الصلاة والسلام يقولُ عند النوم: «إنْ أَمْسَكْتَ نفسي فارحَمْها». أي: إنْ قبضتَ روحي وأمسكْتَها ولم تُرجعها إلى بدني فارحمها. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ..﴾.

وها هو يقول: «وإنْ أرسلْتَها فاحفظها..» أي: إنْ أعدتَ روحي إلى جسدي عند الاستيقاظ فاحفَظْها. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

ودعاءُ رسول الله ﷺ عند الاستيقاظِ صريحٌ في اعتبارِ النوم موتاً والاستيقاظ بعثاً: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا..».

النصوصُ السابقة ـ الآيتان والحديثان ـ تُصرحُ بأنَّ النومَ موتٌ ووفاة، وأنَّ الاستيقاظَ بعثٌ وحياة.

وهذا معناهُ أنَّ التوفّيَ والوفاةَ في القرآن قد تَرِدُ بمعنى الموتِ الحقيقي وخروجِ الروحِ من الجسد، وقد تَعني النوم، وخروجَ الروح من الجسد أثناءَ النوم، لتعودَ عليه عند الاستيقاظ.

ولهذا قالَ الإمامُ الراغب الأصفهاني: «وقد عُبِّرَ عن الموتِ والنوم بالتوفي»[2].

توفى الله عيسى مرتين: وفاة نوم ثم وفاة موت:

بعد هذا الاستعراضِ الموجزِ لإسنادِ «التوفّي» إلى الله في القرآن،

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٣١٢. ومسلم برقم: ٢٧١١.

(٢) المفردات: ٨٧٨.

ننظرُ في حديثِ القرآنِ عن توفّي اللّهِ لعيسى عليه السلام.

وردَ هذا مرتيْن في القرآن:

الأولى: قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ [آل عمران: ٥٥].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني أَنه تحدَّثَ عن توفّي اللّهِ لعيسى مرتيْن، لأنَّ التوفّي في القرآن وردَ بمعنيين، وهما النومُ والموتُ عند انتهاء الأجل. وذلك ليشيرَ إِلى أنَّ النوعيْن تحقَّقا في توفّي اللّهِ لعيسى عليه السلام!.

إنَّ توفّي اللّهِ لعيسى المذكورَ في سورةِ آل عمران هو بالمعنى الأول من معاني التوفي في القرآن، وهو النوم. والتوفّي الثاني المذكورُ في سورةِ المائدة هو بالمعنى الثاني وهو الموت!!

توفّى الله عيسى عليه السلام مرتين:

المرة الأولى: عندما أَرادَ اليهودُ صلْبَه وقتْلَه، ومكروا به، فأَنْجاه اللّهُ منهم، وذلك بأنْ توفّاه ورفَعَه إليه، وقالَ له قبل توفّيه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ..﴾. وهو توفّي نوم. وذلكَ بأنْ أَلقى اللّهُ النومَ على عيسى عليه السلام، ولما نامَ رفعَه إليه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ..﴾.

المرة الثانية: عندما سينزلُه اللّهُ قبيلَ قيامِ الساعة، ليستكملَ باقي عمره الذي حدَّدَهُ اللّهُ له، حيث سيتوفّاه الوفاةَ الحقيقية، بقبضِ روحه وخروجها من جسدِه وموتِه، كما يموتُ الناس. وذلك التوفّي هو توفّي موت: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ..﴾ أي: لما أَمتَّني وقبضتَ روحي.

ولا يمكنُ أنْ يكونَ التوفي في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ توفّيَ موت، فلا يمكنُ أنْ يكونَ عيسى عليه السلام مات، ثم رفعَهُ اللّهُ إليه بعدَ موته لورودِ نصوصٍ صحيحةٍ صريحة في نزولِ عيسى عليه السلام في آخر الزمان ـ وسنذكرها في مبحثٍ قادم إنْ شاءَ الله ـ فلو كانَ أماتَه من قبل، فلن يُنزلَه في آخرِ الزمان، لأنَّ اللّهَ لن يجمعَ عليه موتتيْن في الدنيا[1]! وإنَّ سنةَ الله أنَّ مَنْ مات وخرجَتْ روحُه من جسده، وانتهى عمره حقاً، فلن يُحييهِ اللّهُ إلا عندَ البعثِ يوم القيامة.

ألقى الله النوم على عيسى ثم رفعه:

والخلاصةُ في معنى آيةِ سورةِ آل عمران: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟..﴾.

يا عيسى: إنّني سأتوفّاك، بأَنْ أُلقي عليكَ النومَ، عندما يأتي اليهودُ لقتلك، وسأرفعكَ إليّ في السماءِ عند نومك، وبذلك سأطهِّرُك من اليهود الذين كفروا، فلن تمتدَّ أيديهم المجرمةَ إليك، ولنْ يؤذوك.

أَخبرَ اللّهُ عيسى عليه السلام بهذا قبلَ أنْ يأتيَ إليه اليهود لقتْله، وَوَعَدَهُ بإنجائِه منهم، وذلك ليطمئِنَه ويبشِّرَه ويسلّيه، ويكونَ على يقينٍ بأنَّ اللّهَ معه.

وجاءَ الوعدُ بالنجاةِ في الآية بصيغةِ اسم الفاعل: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ..﴾، ففي الآية أربعُ كلمات كلُّها اسمُ فاعل: متوفيك، ورافعك، مطهرك، جاعل.

والتعبيرُ باسم الفاعل لتأكيدِ الوقوع وتحقيقِ الوعد.

ولهذا دخلَ عيسى عليه السلام المواجهةَ الأخيرةَ مع اليهود، وواجَهَ كيدَهم ومكرهم، وهو على يقينٍ أنَّ اللّهَ سينجيه منهم، بأنْ يتوفّاه ويُنيمَه ثم يرفعَه إليه أَثناءَ نومه.

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢: ٢٨٣.

ولما هجمَ عليه اليهودُ مع الجنود: أَنامَهُ الله، ثم رفَعَهُ إِلى السماء، رفعَ روحَه وجسده، وهو حيّ، بطريقةٍ معجزة!!

لقد علمْنا من الكتابِ والسنة أنَّ اللّهَ قد رفعَ رسولَيْن كريميْن إلى السماء، وهما حَيّان غيرَ ميتيْن، عيسى عليه السلام، ومحمدٌ ﷺ ليلةَ المعراج. فبينما لم يَدُم العروجُ بمحمدٍ ﷺ إِلى السماءِ أكثرَ من ساعات، حيثُ أعاده اللّهُ إلى مكة قبلَ بزوغِ فجرِ تلك الليلة، فإنَّ اللّهَ الحكيمَ شاءَ أنْ يُبقي عيسى عليه السلام في السماء حتى قبيلَ قيام الساعة.

وشاءَ اللّهُ الحكيمُ أنْ يرفعَ كُلاًّ منهما إِلى السماءِ أَثناءَ نومه، وليس أثناءَ يقظتِه!!

لقد تمَّ الإسراءُ والمعراجُ برسول الله ﷺ تلك الليلة وهو نائم، أَو بين النائم واليقظان!

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مالكِ بن صعصعة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بَيْنَا أَنا عندَ البيتِ بين النائم واليقظان، إِذْ سمعتُ قائلًا يقول: أَحَدُ الثلاثة بين الرجلَيْن.. فأُتيتُ، فَانْطُلِقَ بي...»[1].

والشاهدُ في الحديث قوله: «بين النائم واليقظان..». فقد كانَ عليه الصلاة والسلام عند الكعبة بيتِ اللّهِ الحرام ليلةَ الإسراء، وكان بين النائم واليقظان، أَخذَتْه سِنَةٌ من النوم، فأخذَتْه الملائكة، وبدأَتْ رحلةُ الإسراء والمعراج.

فإذا كانتْ قد بدأَتْ أحداثُ الإسراءِ والمعراج الغيبية والرسولُ ﷺ نائم، فإنَّ هذا يقربُ لنا رفْعَ عيسى عليه السلام إلى السماء، حيثُ رفعه اللّهُ وهو نائم.

وهذا كلُّه ليؤكدَ لنا أنَّ معنى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ..﴾ إِني مُميتك، سأرفعكَ إليَّ وأنت نائم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٧. ومسلم برقم: ١٦٤.

أمة محمد هم أتباع عيسى الحقيقيون:

بقيتْ في الآية مسألة، وهي وعْدُ اللّهِ أنْ يجعلَ الذين اتَّبعوا عيسى عليه السلام فوقَ الذين كفروا إلى يوم القيامة: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ..﴾.

وهذا وعْدٌ نافذٌ ناجزٌ من اللّهِ سبحانه، لأن اللّهَ لا يخلفُ الميعاد، فمن هم الذين اتَّبعوا عيسى عليه السلام المقصودون في الآية؟ هل هم النصارى الذين زَعموا دخولَهم في دينه ثم أَلَّهوه؟

النصارى أَلَّهوا عيسى عليه السلام، وبهذا لا يكونون مُتَّبعين له!!

إنَّ الذين اتبعوه هم أمةُ محمد ﷺ، حيث آمَنوا أنه عبدُ الله ورسوله، ثم آمَنوا بمحمد ﷺ لأنَّ عيسى بَشَّرَ به.

وردَ في تهذيبنا لتفسير الطبري: «الذين اتبعوا عيسى عليه السلام هم الذين اتَّبَعوه على منهاجِه وملَّتِه، وهو الإسلام، فكانوا مسلمين مؤمنين. هؤلاء المسلمونَ المؤمنون أَتباعُ عيسى عليه السلام حقيقة، وهم فوقَ الذين كفروا به من جميعِ الملل، من اليهودِ والنصارى وغيرِهم، إلى يوم القيامة...»[1].

[١٥]

«وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم»

ثلاثة إشارات قرآنية عن محاولات اليهود قتل عيسى:

قُلنا إِنَّ القرآنَ تحدثَ عن محاولةِ اليهودِ قتلَ عيسى عليه السلام في ثلاثةِ مواضعَ بثلاثِ صور:

- إِشارةٌ سريعة إِلى كفِّ بني إِسرائيل عنه لما جاءهم بالبينات، وذلك في سورةِ المائدة: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ...﴾ [المائدة: ١١٠].

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٢:٢٨٣.

ـ وحديثٌ مجملٌ في حمايةِ عيسى عليه السلام منهم، بأنْ ألقى عليه النومَ ثم رَفعه إليه، وذلك في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ..﴾ [آل عمران: ٥٥].

ـ وحديثٌ أكثرَ تفصيلاً ـ لكنه ما زالَ مجملاً ـ عن نفيِ قتلِ اليهود وصلبهم لعيسى عليه السلام، لأنَّ اللّهَ رفعَه إليه، وقيامِهم بقتلِ وصلبِ شبيهٍ له. وذلك في آيات سورة النساء، وهي التي سنتحدث عنها هنا بعون الله.

ونرى التدرجَ المتسلسلَ في حديثِ القرآن عن هذا الموضوع الشائك، الذي اختلفَ فيه اليهودُ والنصارى ـ ومعظم المسلمين ـ اختلافاً بيّناً. وعندما ننظرُ في حديثِ القرآن عنه وفقَ هذا الترتيب، فإننا نفهمُ هذا الحدثَ الخطيرَ فهماً صائباً بعون الله: آية المائدة (١١٠) أولاً، ثم آية آل عمران (٥٥) ثانياً، ثم آيات سورة النساء (١٥٥ ـ ١٥٩) بعد ذلك!

قال الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ

وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٣ ـ ١٥٩].

من مسلسل جرائم اليهود ونقضهم العهود:

تتحدثُ أولُ آيتيْن من هذه الآياتِ الثمانية عن بعضِ جرائمِ اليهود مع رسول الله ﷺ، وبعضِ مخالفاتِهم لنبيِّهم موسى عليه السلام.

يَذكُرُ اللّهُ لرسوله محمدٍ ﷺ سوءَ تعاملِ اليهود مع الأنبياء، فقد سألوه أنْ يُنزل عليهم كتاباً من السماء: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾.

ويُواسيه على ما يواجِهُ من قبائحِ هؤلاء اليهود، فقد سألَ أسلافُهم من بني إسرائيل موسى عليه السلام سؤالاً أكبرَ وأفظع، فقد طلبوا منه أنْ يروا اللّهَ جهرةً عياناً، وأنْ يقفَ أمامهم مجسَّماً، ويقول لهم: أنا الله ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ..﴾.

وعاقبهم اللّهُ على ذلك السؤالِ القبيح، فأخذَتْهم الصاعقةُ بسببِ ذلك الظلم الفاجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ..﴾.

ومن جرائمِهم مع موسى عليه السلام أيضاً أنهم اتخذوا العجل إلهاً لما غابَ عنهم وذهبَ إلى جبلِ الطور لمناجاةِ الله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

وقد أخذَ اللّهُ عليهم الميثاقَ الغليظ، لما رفعَ فوقَهم جبلَ الطور في حياة موسى عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ..﴾.

وأخذَ عليهم الميثاقَ الغليظَ بعد وفاة موسى عليه السلام، عندما أَمرهم أَن يدخلوا بابَ الأرضِ المقدسة ساجدين شاكرين لله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا..﴾.

وأخذَ عليهم الميثاقَ الغليظَ بعد ذلك عندما نهاهم عن الاعتداءِ

على حرمةِ يومِ السبت، ونهاهم عن صيد السمك فيه: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ..﴾.

فماذا فعلوا بذلك الميثاقِ الغليظ؟ لقد نَقضوه، وتركوا مَا أَوجَبَهُ اللّهُ عليهم فيه، وارتكبوا ما نهاهم عنه.

لم يلتزموا بالميثاقِ الغليظ الذي أُخِذ عليهم عند جبل الطور. ولم يدخلوا بابَ الأرضِ المقدسة ساجدين، وإنما دخلوا مُحرفين يَزحفون على أَستاههم، ولم يلتزموا بحرمةِ يوم السبت فاصطادوا السمكَ فيه، فمسخهم اللّهُ قردةً خاسئين!!

هذا هو موقفُهم من ميثاقِهم الغليظ، وهو نقضهِ وتركه.

فماذا فعلَ اللّهُ بهم؟ لقد أوقعَ بهم لعنتَه وسخطَه وغضبه، فكانوا ملعونين أَذلاء مهانين.

سجلت الآياتُ التاليةُ (١٥٥ ـ ١٥٩) جرائمَ اليهودِ التي استحقوا بها لعنةَ الله وسخطَه، ومن أفظعِ هذه الجرائم تصميمُهم على قتْلِ وصلبِ عيسى عليه السلام، ولولا أن اللّهَ رفعه إليه لقتلوه وصلبوه!!

بدأت الآياتُ بذكْرِ نقضِهم الميثاق الغليظ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾. لأنه يتناسبُ مع آخرِ الآيةِ السابقة. والتقدير: وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً، فنقضوه، فلعنّاهم بسببِ نقضِهم له.

الفاءُ في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ عاطفة، تعطفُ هذه الجملة على ما قبلَها، كما ذكرنا.

والباءُ باءُ السببية، التي تسجلُ سببَ لعنتهم، وهو نقضُهم الميثاق.

و«ما» في الجملة «فبما» لتأكيدِ حقيقةِ نقضِهم الميثاق.

وشبهُ الجملة «بما نقضهم ميثاقهم» متعلقةٌ بفعلٍ مقدَّر، مفهومٍ من السياق، وهو فعلُ «لعناهم» والتقدير: لعناهم بسبب نقضهم ميثاقهم.

وهذه الجملة المقدرة «لعناهم» مذكورةٌ في سورة المائدة. قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً..﴾ [المائدة: ١٣].

من أسباب لعنة الله لليهود:

لماذا لعنَ اللّهُ اليهود وجعلَ قلوبَهم قاسية؟ ما هي أسبابُ تلك اللعنة؟

تكفلت الآياتُ التي أمامَنا بتسجيلِ تلك الأسباب.

١ ـ «بما نقضهم ميثاقهم»: ونقضُ الميثاقِ الغليظِ يقودُ إلى لعنةِ الله.

٢ ـ ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: اليهودُ كفار، كفروا بالحقِّ لما جاءهم، وهذا الكفرُ أوقعَ بهم اللعنة.

٣ ـ ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: اليهودُ قتلةُ الأنبياء، وفعلوا ذلك بغياً وعدواناً بدون حق، ولا يمكنُ أنْ يُقتلَ نبيٌّ بحق! وهذا سببٌ في لعنتهم.

٤ ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: رفضوا قبولَ الحقِّ الذي جاءهم به محمدٌ ﷺ، وزعموا أنَّ قلوبهم عليها أغطيةٌ سميكة، فلا تفقهُ ولا تعقلُ ما يقولُه عليه الصلاة والسلام.

وقد كذَّبهم اللّهُ في قولِهم هذا، فأخبرَ أنه هو سبحانه الذي طبعَ وختمَ عليها، بسببِ كفرهم، ولذلك لا تهتدي مهما جاءَها من الهدى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

وبما أنَّ اللّهَ طبعَ على قلوبهم بسببِ كفرهم، فإنهم لم يؤمنوا الإيمانَ الصحيحَ الكاملَ الذي أوجبهُ اللّهُ عليهم، وإنما آمنوا إيماناً «قليلاً»، وهو إيمانٌ مزاجيٌّ «تجزيئي»! وهذا لا يُقبلُ في الإيمان: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وإيمانهمُ التجزيئيُّ القليلُ تمثلَ في إيمانهم ببعضِ كتبِ الله كالتوراة، لكنهم كفروا ببعضِ كتبِ الله كالإنجيل والقرآن.

كما تمثلَ ذلك الإيمانُ القليلُ المرفوضُ في إيمانهم ببعضِ رسل الله، كموسى وهارون وداود وسليمان عليهم الصلاة والسلام، لكنهم كفروا ببعضِ رسلِ الله كعيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام.

ومعلومٌ أنَّ مَنْ كفرَ ببعضِ كتبِ الله فهو كافرٌ بها كلِّها، ومَنْ كفرَ ببعضِ رسلِ الله فقد كفرَ بها كلِّها، ولا ينفع في ذلك الإيمانُ التجزيئيُّ القليل.

وهذا معناه أنَّ اليهودَ كفار كفروا بكلِّ الكتب ومنها التوراة، وكفروا بكلِّ الرسل ومنهم موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام!!

اليهود كفار ملعونون بسبب موقفهم من عيسى وأمه:

٥ ـ ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ﴾: لعنَ اللّهُ اليهودَ بسبب كفرهم.

وليس السببُ الخامس هذا: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ﴾ تكراراً للسبب الثاني ﴿وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. لأنه لا تكرارَ في العرضِ القرآني.

السببُ الثاني ذَكَرَ كفرهم مقيَّداً، وهو كفرُهم بآيات الله، ومعلومٌ أنَّ الكفرَ بآياتِ الله أو بعضِها، كفرٌ بالله، مُخرجٌ من دين الله.

أما هذا السببُ الخامس فقد أَطلقَ كفرهم ولم يقيده: «وبكفرهم»، لكن عندما نربطُه معَ ما بعده من مكرِهم بعيسى عليه السلام، فإنه يدلُّ على أنَّ المرادَ به كفرُهم برسل الله، لأنهم أَرادوا قتْلَ أحدِ رسله.

كفرُ اليهودِ بآياتِ الله سببٌ للعنتهم. وكفرُهم برسلِ الله سببٌ آخرَ خاصٌّ للعنتهم.

٦ ـ ﴿وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾: موقفُ اليهودِ المجرمين من مريمَ العفيفةِ البتول رضي الله عنها، سببٌ مستقلٌّ من أسبابِ لعنتهم، يُضافُ للأسبابِ الأخرى.

والبهتانُ العظيمُ الذي قالوه عليها هو: فريتُهم عليها، واتهامُها

بالزنا وهي الطاهرةُ العفيفة، وتصريحُهم بأنَّ ابنَها عيسى عليه السلام ابنُ زنا، عليهم لعائنُ الله المتتابعةُ حتى قيام الساعة.

تبجح اليهود بادعاء قتل عيسى:

٧ ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ..﴾: هـذا القولُ الكبيرُ الفاجرُ الذي قالوه، يسجلُ جريمتَهم الشنيعةَ التي أقدموا عليها، وهي تصميمُهم على قتْلِ عيسى عليه السلام، بل قتْلُهم شخصاً يظنونَه المسيحَ عيسى ابن مريم! وقد لعنَهم اللّهُ بسببِ هذا القول الفظيع.

وقد جَمعوا في هذا القول بين التفاخرِ فيما صَمَّمُوا عليه من قتلِ عيسى عليه السلام والتباهي به، وبين السخريةِ بعيسى عليه السلام والتهكمِ عليه.

والسخريةُ في الصفاتِ التي أَطلقوها على عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ..﴾.

لقد عَرَّفوه بالكلماتِ الأربع التي أَطلقوها عليه، ومع أَنها حقيقيةٌ في إطلاقها عليه، فهو المسيح، وهو عيسى، وهو ابنُ مريم، وهو رسولُ الله، لكنهم لم يُطلقوها عليه من بابِ الإيمانِ بها، فلو كانوا مؤمنين بها لما صَمَّموا على قتْله، إنما أَطلقوها عليه ساخرين متهكمين.

قال الإمام ابن كثير: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: أي: هذا الذي يَدَّعي لنفسِه هذا المنصبَ قتلْناه، وهذا منهم من بابِ التهكم والاستهزاء. وهذا كقولِ المشركين لرسولِ الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر: ٦][1].

اليهود ما قتلوا عيسى ولا صلبوه:

وبعدما سجلَ عليهم اللّهُ جرائمهم الفظيعةَ السبعةَ التي استحقوا بها

---

(١) تفسير ابن كثير ١:٥٤٣.

لعنتَه وغضبه وسخطه كَذِبهم في زعمهم قتْلَ عيسى عليه السلام.

فقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٩].

الواوُ في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ حرفُ استئناف، وما بعدَها كلامٌ مستأنف ليسَ معطوفاً على ما سبق، وإنما هو كلامٌ جديد لتكذيبهم في ما زعموه، ولبيانِ ما جرى في مسرحيةِ القتلِ والصلب.

و«ما»: حرف نفي. والهاء في «قتلوه» تعودُ على عيسى عليه السلام. والمعنى: اليهودُ لم يقتلوا عيسى.

والواوُ في ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ حرفُ عطف، وجملة «ما صلبوه» المنفيةُ معطوفةٌ على جملة «ما قتلوه» المنفية.

أي: اليهودُ لم يقتلوا عيسى، ولم يَصلبوه.

والواوُ في «ولكن» حرفُ عطف. وجملة ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ معطوفةٌ على ما قبلها.

أي: لم يَقتل اليهودُ عيسى، ولم يَصلبوه، ولكن قَتلوا وصَلبوا شَبَهَه.

القتلُ معناه معروف.

أمّا الصلبُ فهو تعليقُ الإنسان للقتل.

يقال: صَلَبَ جسْمَه: إذا شدَّ أطرافَه على الخشبة، وعلَّقَه عليها ليقتله.

قال الإمامُ الراغب في الصلب: «الصَّلْبُ هو تعليقُ الإنسانِ للقتل. وقيل: هو شَدُّ صُلْبِه على الخشب.

والصليب: أصْله الخشبُ الذي يُصْلَبُ عليه. والصليب: الذي يتقربُ به النصارى، وسُمي بذلك لكونِه على هيئةِ الخشبِ الذي زعموا أنه صُلبَ عليه عيسى عليه السلام»[1].

اليهود قتلوا وصلبوا الشخص الذي شبه لهم:

وإذا كان اليهودُ لم يَقتلوا عيسى ولم يصلبوه، فلماذا أكَّدوا على قتلِه وافتخروا بذلك في قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؟.

الجوابُ في الجملةِ الاستدراكية: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

إنّ «لكن» حرفُ استدراك، والجملةُ بعدها تقدمُ لنا معلومةً هامة بشأنِ ما جرى.

و«شُبِّهَ»: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول. ونائبُ الفاعل ضميرٌ مستتر، تقديره «هو» يعودُ على الشخصِ الذي قَتَلوه. و«هم» في «لهم» يعودُ على اليهودِ والرومانِ الجنودِ الذين جاءوا لقتْلِ عيسى وصلبه.

والمعنى: شُبِّهَ الشخصُ لهم بعيسى، فقَتَلوا الشَّبيهَ وصَلبوه، ظانِّين أنه عيسى.

ومادةُ التشبيهِ تقومُ على التمثيل. والتّشابُهُ هو التماثل.

يُقال: أَشبهُ الشيءُ الشيءَ. أي: ماثَلَه.

ويُقال: شَبَّهَ عليه الأمرَ. أي: أَبهمه عليه حتّى اشتبَهَ بغيرِه.

ويُقال: شَبَّهَ الشيءَ بالشيء. أي: مَثَّلَه به، وأَقامَه مقامَه لصفةٍ مشتركةٍ بينهما.

ويُقال: شُبِّهَ عليه: لُبِّسَ عليه. وشُبِّهَ له: لُبِّسَ له.

ويقال: اشتبهَ عليه الأمر: اختلطَ عليه.

---

(١) المفردات: ٤٨٩.

ويقال: تشابَهَ الشيئان: أَشبهَ كلٌّ منهما الآخرَ حتى التبسا[١].

وإذا كان «شُبِّهَ» في الجملةِ مبنياً للمجهول والفاعلُ محذوفاً، فإنَّ الذي شَبَّهَ الأمرَ لهم هو الله، من بابِ مكرِه بهم، وإبطالِه لمكائدهم.

والمعنى: شَبَّهَ اللّهُ الأَمْرَ لليهود.

والسؤال الآن: من هو الذي شُبِّهَ لهم؟ وعلى مَنْ يعودُ نائبُ الفاعل المستتر؟

لا يمكنُ أنْ يعودَ على عيسى عليه السلام ـ كما يَظُنُّ الكثيرون خطأً ـ لأنَّ عيسى عليه السلام مُشَبَّهاً به وليس مُشَبَّهاً. والتقديرُ شَبَّهَ اللّهُ الشخصَ الآخرَ بعيسى لهم.

وقفَ الإمامُ الزمخشريُّ أمامَ نائبِ فاعل «شُبِّه» وهو المشَبَّهُ في هذه الحادثة: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

قال في «الكشاف» متسائلاً: «فعْلُ «شُبِّهَ» مسندٌ إلى ماذا؟

إنْ جعلْتَه إلى المسيحِ عليه السلام، فالمسيحُ مُشَبَّهٌ به وليس مُشَبَّهاً. وإنْ أَسندْتَه إلى المقتولِ فالمقتولُ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ!

قلت: هو مسندٌ إلى الجارِّ والمجرور «لهم». وهو كقولك: خُيِّلَ إليه. كأنه قال: وَقَعَ لهم التشبيه.

ويجوزُ أنْ يُسندَ الفعلُ إلى ضميرِ المقتول، لأنَّ قولَهم السابق: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ يدل عليه. كأنه قال: ولكن شبه لهم من قتلوه..»[٢].

ومعنى كلامِ الإمامِ الزمخشري أنَّ عيسى لا يمكنُ أنْ يكونَ المشَبَّهَ لهم، فليس معنى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾؛ ولكن شُبِّهَ عيسى لهم.

---

(١) انظر المعجم الوسيط: ٤٧١.

(٢) تفسير الكشاف ١: ٥٨٧.

الذي شُبِّهَ لهم إمّا عمليةُ القتل. أي: وَقَعَ له التشبيه، فاختلطَ الأمْرُ عليهم. فظنّوا أنهم قتلوا عيسى، مع أنَّ المقتولَ غيرُه، وهذا الظنُّ بسببِ التشبيهِ الذي أَصابهم.

وإمّا الذي شُبِّهَ لهم هو الشخصُ المقتول. حيث أَلقى اللّهُ شَبَهَ عيسى عليه السلام على الشخصِ الآخر، فبدا أَمامَهم عيسى نفسه، فأَخذوه وقتلوه وهم يوقنون أَنه عيسى، مع أَنه لم يكن عيسى في الحقيقة.

والراجحُ هو القولُ الثاني الذي أَورده الزمخشري، فنائبُ الفاعل يعودُ على الشخصِ المقتول، هو المشَبَّهُ، وعيسى عليه السلام هو المشَبَّهُ به. والتقدير: شُبِّهَ المقتولُ لهم، حيثُ شَبَّهَهُ اللّهُ بعيسى، فظنّوه عيسى!!

ما الذي جرى ليلة القبض على الشبيه؟:

ما الذي جرى في تلكَ الليلةِ من أحداثٍ خطيرة؟ وكيف شُبِّهَ لهم الشخصُ الذي قتلوه؟

«إنَّ قضيةَ قتلِ عيسى عليه السلام وصلبِه، قضيةٌ يخبطُ فيها اليهودُ ـ كما يخبطُ فيها النصارى بالظنون ـ.

فاليهودُ يقولون: إِنهم قتلوه، ويَسخرون من قوله: إِنه رسولُ الله، فيقررون له هذه الصفةَ على سبيل السخرية!

والنصارى يقولون: إِنه صُلب ودُفن، ولكنه قامَ بعد ثلاثةِ أيام!

و«التاريخ» يسكتُ عن مولدِ عيسى ونهايته، كأنْ لم تكنْ له في حساب!!

وما من أحدٍ من هؤلاء أَو هؤلاء يقولُ ما يقولُ عن يقين.. فلقد تتابعت الأَحداثُ سراعاً، وتضاربت الروايات، وتداخلتْ في تلك الفترة، بحيث يصعبُ الاهتداءُ فيها إِلى يقين.. إلاّ ما يقصُّه ربُّ العالمين!

والأَناجيلُ الأربعةُ التي تَروي قصةَ القبضِ على المسيح وصلبه وموتِه ودفنِه وقيامته.. كلُّها كُتِبَتْ بعد فترةٍ من عهدِ المسيح، كانت كلُّها اضطهاداً لديانتِه ولتلاميذِه، يتعذَّرُ معه تحقيقُ الأحداث في جوّ السريةِ والخوف والتشريد...»[1].

ونحاولُ ذكْرَ خلاصةِ ما جرى في تلك الليلة، التي جاءَ اليهودُ فيها ومعهم الجنود الرومان ليلقوا القبضَ على عيسى عليه السلام..

الإمام ابن كثير يلخص أحداث تلك الليلة:

وخيْرُ مَنْ لخصَ تلك الأحداثَ الإمامُ ابن كثير، ونسجلُ قولَه فيما يلي معتمدين له.

«وكان من خبرِ اليهود ـ عليهم لعائنُ الله وسخطُه وغضبُه وعقابُه ـ أَنه لما بعثَ اللّهُ عيسى ابنَ مريم بالبيناتِ والهدى حَسَدوه على ما آتاهُ الله من النبوة، والمعجزاتِ الباهرات التي كان يُبرئُ بها الأكمهَ والأبرصَ ويحيي الموتى بإذن الله... إلى غير ذلك من المعجزات التي أَكرمه اللّهُ بها، وأَجراها على يديه..

ومع هذا خالَفوه وكَذَّبوه، وسَعوا في أَذاه بكلِّ ما أمكنهم! حتى جعلَ نبيُّ الله عيسى عليه السلام لا يساكنُهم في بلدة، بل يكثرُ السياحةَ هو وأمه...

ثم لم يُقنعهم ذلك حتى سَعوا إِلى ملكِ دمشق في ذلك الزمان ـ وكان رجلًا مشركاً من عبدةِ الكواكب، وكان يقالُ لأهل ملته اليونان ـ وأَنهوا إِليه أَنَّ في بيتِ المقدس رجلًا يفتِنُ الناسَ ويُضلُّهم، ويُفسدُ على الملك رعاياه..

فغضبَ الملكُ من هذا، وكتبَ إِلى نائبه بالقدس، أَنْ يحتاطَ على هذا المذكور، وأَنْ يَصلبه، ويضعَ الشوكَ على رأسه، ويكفَّ أَذاه عن الناس..

---

(١) في ظلال القرآن ٢:٨٠١ ـ ٨٠٢.

فلما وصلَ الكتابُ امتثل والي بيتِ المقدس ذلك..

وذهبَ هو وطائفةٌ من اليهود إِلى البيتِ الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعةٍ من أَصحابه، اثني عشر أو ثلاثة عشر، وقيل سبعة عشر نفراً، وكان ذلك يومَ الجمعة، بعدَ العصر، ليلةَ السبت.. فحصروه هنالك..

فلما أَحسَّ بهم، وأَنه لا محالةَ من دخولِهم عليه، أَو خروجِه إِليهم، قال لأصحابه: أَيُّكم يُلقىٰ عليه شَبَهي، وهو رفيقي في الجنة؟

فانتدبَ لذلك شابٌّ منهم، فكأَنه استصغَرَهُ عن ذلك! فأَعادَها ثانيةً وثالثة، وكلُّ ذلك لا يَنتدبُ إلاّ ذلك الشاب!

فقال له: أنتَ هو!

وأَلقىٰ اللّهُ عليه شَبَهَ عيسى، حتى كأَنَّه هو!!

وفُتحتْ «روزَنَةٌ» من سقفِ البيت، وأخذتْ عيسى عليه السلام سِنَةٌ من النوم، فرُفعَ إِلى السماء وهو كذلك، كما قالَ الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ..﴾.

فلما رُفعَ عيسى من سقفِ البيت، خرجَ أولئك النفرُ من البيت..

فلما رأى اليهودُ والجنودُ ذلك الشابَّ ظنّوا أَنه عيسى، فأخذوهُ في الليل، وصَلبوه، ووضعوا الشوكَ على رأسه..

وأظهرَ اليهودُ أنهم سَعوا في صلبِه، وتَبَجَّحوا بذلك..

وسَلَّمَ لهم طوائفُ من النصارى ذلك، لجهلِهم وقلةِ عقلهم، ما عدا مَنْ كانَ في البيتِ مع المسيح، فإنهم شاهَدوا رفعَه.. وأمّا الباقون فإنهم ظنوا كما ظنَّ اليهودُ أنَّ المصلوبَ هو المسيحُ ابن مريم.. حتى ذكروا أنَّ مريمَ جلست تحتَ ذلك المصلوب، وبكَتْ....

وهذا كلُّه من امتحان اللّهِ عبادَه، لما له في ذلك من الحكمةِ البالغة..

وقد أَوضحَ اللّهُ الأمرَ وجَلاّه وبَيَّنَهُ وأظهرَه في القرآنِ العظيم، الذي أنزلَه على رسولِه الكريم ﷺ. حيث بَيَّنَ أَنهم ما قتلوا عيسى عليه السلام وما صَلبوه، ولكن شُبِّه لهم، حيثُ أَلقى اللّهُ شَبَهه على ذلك الشاب، فبدا لهم عيسى، فقتلوا الشابَّ وصلبوه ظانّين أنه عيسى!

وأخبرَ اللّهُ أنَّ الذين اختلفوا في عيسى عليه السلام من اليهود الذين ادعوا قتْلَه، والنصارى الجهالِ الذين سَلَّموا لهم بذلك، كلهم في شكٍّ وحيرةٍ وضلالٍ من ذلك.

وأخبرَ اللّهُ أَنهم ما قَتلوه متيقِّنين أَنه هو، وإِنما كانوا شاكّين متوهِّمين. أمّا عيسى عليه السلام فقد رفَعَهُ اللّهُ إليه، واللّهُ هو العزيز الحكيم..

رواية ابن عباس عن تلك الليلة:

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: «لما أرادَ اللّهُ أنْ يرفعَ عيسى إلى السماء، خرجَ على أَصحابِه، وفي البيتِ اثنا عشر رجلاً من الحواريين، خرجَ عليهم من عينٍ في البيت، ورأسُهُ يقطُرُ ماء! فقال: إنَّ منكم مَنْ يكفرُ بي اثنتي عشرة مرة بعد أنْ آمَنَ بي..

ثم قال: أيُّكم يُلقىٰ عليه شبهي، فيُقْتَلُ مكاني، ويكونُ معي في درجتي؟

فقامَ شابٌّ من أَحدثهم سناً. فقال له: اجلس! ثم أَعادَ عليهم، فقامَ ذلك الشاب، فقال له: اجلس!! ثم أَعادَ عليهم، فقام ذلك الشاب، فقال: أنا!!

فقالَ عيسى عليه السلام: هو أَنت!

فأُلقيَ عليه شَبَهُ عيسى.. ورُفِعَ عيسى من روزنةٍ في البيتِ إِلى السماء!!...

وجاءَ الطلبُ من اليهود، فأَخذوا الشَّبَهَ، فقتلوه، ثم صَلَبوه..

فكفرَ بعيسى بعضُهم اثنتي عشرةَ مرة، كما قالَ لهم!!

وافترقَ النصارى في عيسى ثلاثَ فرق:

فقالَتْ فرقةٌ منهم: كان اللّهُ فينا ما شاء، ثم صعَدَ إلى السماء! وهؤلاء هم اليعقوبية.

وقالت فرقةٌ أُخرى: كان ابنُ اللّهِ فينا ما شاء، ثم رفعهُ اللّهُ إليه! وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقةٌ أُخرى: كان فينا عبدُ الله ورسولُه ما شاء الله، ثم رفعه اللّهُ إليه! وهؤلاءِ هم المسلمون.

فتظاهرت الفرقتانِ الكافرتان على الفرقةِ المسلمة فقتلوها.. فلم يزل الإسلامُ طامِساً، حتى بعثَ اللّهُ محمداً ﷺ..

وهذا إِسنادٌ صحيحٌ إلى ابنِ عباس...»[1].

ومع تحفُّظِنا على بعضِ التفصيلاتِ الجزئيةِ اليسيرةِ في كلامِ ابن كثير، وتوقُّفِنا في القولِ بها، إلاَّ أَننا نقبلُ كلامَه عن أحداثِ تلك الليلةِ المعجزة، ونعتمده، وبالذاتِ الكلامُ الذي أَسنده لابنِ عباس رضي الله عنهما، وحكمَ عليه بأنهُ صحيحُ الإسناد!.

ترتيب أحداث مسلسل تلك الليلة:

ومن خلالِ النظر في ما سبق، لِنحاولُ تَصَوُّرَ ما جرى في تلكَ الليلة، وترتيبَ أَحداثها بإيجاز:

١ ـ نجحَ اليهودُ في إِقناعِ الحاكم الروماني في إِلقاءِ القبضِ على عيسى وقتْلِه، حيث أَمَرَ الحاكمُ بتنفيذ ذلك.

٢ ـ توجهتْ مجموعةٌ من الجنودِ الرومان واليهود إلى المكانِ الذي يوجَدُ فيه عيسى عليه السلام لتنفيذِ أمر الحاكم.

---

(١) تفسير ابن كثير ١:٥٤٣ ـ ٥٤٤ بتصرف يسير للتوضيح.

٣ ـ المكانُ الذي كان يقيمُ فيه عيسى كان في بيتِ المقدس، حسب سياقِ أحداثِ القتلِ والصلبِ ودرب الآلام بعد ذلك.

٤ ـ كان عيسى عليه السلام في أَحَدِ بيوت القدسِ في تلك الليلة، مع اثني عشر رجلاً من الحواريين ـ كما قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما ـ.

٥ ـ علمَ عيسى عليه السلام بقدوم الجنودِ واليهودِ لاعتقالِه وقتلِه وصلبِه، فلم يَخَفْ ولم يَحْزن ولَم يَقْلق، لأنه يوقنُ أَنَّ اللّهَ معه، يحفظُه ويحميه.

٦ ـ أخبرَ اللّهُ عيسى عليه السلام أَنهم لنْ يَصلوا إِليه ولَن يؤذوه، وأنه سيُلقي شَبَهه على أحدِ تلاميذِه الحواريين، وأَنه سيرفعُه إِليه، وطلبَ منه أنْ ينتدبَهم ليتبرعَ أحدُهم ليكونَ المصلوبَ الشهيد.

٧ ـ أَخبرَ عيسى عليه السلام الحواريين أنَّ اللّهَ سيحميه من الجنودِ واليهود، وأَنه سيرفعُه إِليه، وذلك ليطمئنَهم عليه.

٨ ـ عرضَ عيسى عليه السلام على الحواريين الاثني عشر أَن يتبرعَ أحدهم ليفديَه بنفسه، بأنْ يُلقىٰ شبهُه عليه، فيؤخَذ ويُقتل ويُصلب ويموت شهيداً، وضَمن لذلك الفدائيِّ الشهيدِ أنْ يكونَ معه في الجنة.

٩ ـ استجابَ لعرضِ عيسى عليه السلام شاب، لعلَّه كان من أَصغرِ الموجودين سناً، فاستصْغَره عيسى عليه السلام، وأرادَ مَنْ هو أكبرُ منه، ولكنْ لم يستجبْ له في المراتِ الثلاث التي انتدبَهم فيها إلاّ هو، فقالَ له عيسى عليه السلام: هو أنت!

١٠ ـ لم يُذكر اسمُ ذلك الشابِّ المتطوعِ العظيم، الذي بَذَلَ نفسَه وحياتَه وعمرَه للّهِ، فهو من مبهماتِ أَحداثِ القصة.

١١ ـ أَجرى اللّهُ على ذلك الشابِّ أَمْرَه، وأَوقَعَ عليه آيتَه الخارقة، حيث حَوَّلَه اللّهُ من ملامحِه الشخصية التي خلَقُه عليها، إلى ملامحِ

عيسى عليه السلام. فما هي إلاّ لحظاتٌ حتى تَحَوَّلَ ذلك الشخصُ إلى عيسى، وكلُّ مَنْ رآه لا يشكُّ أنه عيسى، ولا نعرفُ كيفَ فعلَ اللّهُ ذلك، لأننا لا نعرفُ كيفياتِ أفعالِ الله!!

١٢ ـ نظرَ الحواريون الذين في البيتِ إلى ذلك الشخص فإذا هو عيسى، لأنه أشبهه شَبَهاً كاملاً وهم يعلمونَ أنَّ اللّهَ ألقى شَبَهَ عيسى عليه.

١٣ ـ لما وصلَ اليهودُ والجنودُ إلى ذلك البيت كانَ فيه شخصان، كلٌّ منهما عيسى! عيسى الحقيقي النبيُّ الكريمُ عليه الصلاة والسلام، وعيسى الآخرُ المتقمِّصُ لشخصيته، الذي ألقى اللّهُ شَبَهَ عيسى عليه، والحواريون يرونَ الشخصيْن.

١٤ ـ لما أرادَ اليهودُ والجنودُ دخولَ البيت، أجرى الله آيةً أُخرى باهرة، حيث فَتَحَ سقفَ البيت فتحةً معجزة، بأمرِه سبحانه وتعالى.

١٥ ـ أَلقى اللّهُ على عيسى عليه السلام سِنَةً من النوم، وهو بينَ تلاميذه وحوارييه، تمهيداً لرفعِه إلى السماء.

١٦ ـ رفعَ اللّهُ عيسى النبيَّ عليه السلام إلى السماء من الفتحةِ التي في سقْفِ البيت، والحواريون الذين في المنزلِ ينظرون إليه، ويُلاحظون هذه الآيةَ الباهرةَ من آياتِ الله. وقد اطمأنّوا على نجاةِ نبيهم وحبيبهم عيسى عليه السلام.

١٧ ـ دخلَ اليهودُ والجنودُ البيت، ورأَوا أَمامهم «عيسى»، وهو في الحقيقةِ عيسى الثاني، عيسى المتحوِّلُ شبيهُ عيسى النبيِّ الذي رُفِعَ إلى السماء، ونظروا إليه وهم لا يشكّون لحظةً أنه عيسى.

١٨ ـ أخذَ الجنودُ عيسى الشَّبَهَ المتحوِّلَ لقتْلِه وصلْبِه. ويبدو أنه لم يكلِّمْهم كلمةً واحدة، ولم ينفِ أنه عيسى، ولم يُخبرهم أنَّ عيسى الحقيقيَّ النبيَّ في السماء، وأنهم فَشلوا في القبضِ عليه وقتله، فإنه استعدَّ للقتل والاستشهاد!

١٩ ـ لا نعرفُ ماذا جرى للحواريين الأحدَ عشر الآخرين الذين كانوا في المنزل، هل اعْتُقلوا أَمْ هربوا أم قُتِلَ بعضُهم وأَفرجَ عن الآخرين!! فهذا من مبهماتِ القصة.

٢٠ ـ أَخَذَ الجنودُ واليهودُ عيسى الثاني الشَّبَهَ، وصَلَبوه على الخشبة، وقتلوه على الصليب، وخرجَتْ روحُ هذا الفدائيِّ المؤمنِ وهو على الصليب، ولقيَ اللّهَ شهيداً، بينما كان عيسى النبيُّ في السماء عليه الصلاة والسلام.

٢١ ـ كان الناسُ يأتونَ إلى الشابِّ المصلوبِ الشهيد، ينظرونَ إليه، فإذا به عيسى، ولا يشكُّون لحظةً أنه عيسى، لأن اللّهَ أَلقى شَبَهَ عيسى عليه، وهم لا يَعرفون المعجزةَ التي أجراها الله، وكانوا بين فَرِحٍ شامِتٍ وبين حزينٍ متألم. وبعدَ حين أَنزلوا الشهيدَ المصلوبَ، ودَفنوا جثته.

٢٢ ـ كان اليهودُ فَرِحين شامِتين لأنهم قَتَلوا عيسى وصَلَبوه ـ وهو في الحقيقةِ عيسى الشَّبَهَ ـ وأَذاعوا في الناس، وقالوا ساخِرين: إنّا قتلْنا المسيحَ عيسى ابنَ مريم رسول الله.

٢٣ ـ لم يَعلم النصارى ماذا جرى من معجزاتٍ ربانية في تلك الليلة، فأَيْقَنوا أنَّ الذي شاهَدوه ميتاً على الصليب هو نبيُّهم عيسى ابنُ مريم، فصدَّقوا اليهودَ في تبجحِهم بقتْلِه، وقالوا: قتلوا وصلبوا نبيَّنا عيسى!

٢٤ ـ صبَّ اليهودُ والرومانُ العذابَ على الحواريين، وعلى كلِّ مَنْ آمَنَ بعيسى عليه السلام، وقَتَلوا منهم وصَلَبوا وسجنوا وشَرَّدوا. ولم يلتقط النصارى أنفاسَهم ليفكِّروا بتأَنٍّ وتمهُّلٍ فيما جرى في تلك الليلة.

ووقعَ اختلافٌ شديدٌ بين النصارى في أحداثِ الليلة المذكورة، فصدَّقوا اليهودَ في ادعائِهم أَنهم قتلوا عيسى عليه السلام، ودخلَ

الشركُ على النصرانية، فاختلفوا في عيسى عليه السلام، فمنهم مَنْ آمَنَ أنه عبدُ الله ورسوله، ومنهم مَنْ اعتبره إلهاً، ومنهم مَنْ اعتبره ابناً لله.

٢٥ ـ بقيتْ أَحداثُ تلك الليلةِ الحقيقيةُ خافيةً على اليهودِ والنصارى، وكلُّ ظنِّهم أن المقتولَ المصلوبَ هو عيسى ابنُ مريم رسولَ الله، حتى بعثَ اللّهُ محمداً رسولاً ﷺ، وأنزلَ عليه القرآن، وذكرَ في آياتِه حقيقةَ ما جرى.

نظرة في الآية التي تحدثت عن قتل الشبيه:

بعدَ تلخيصِ تلك الأحداثِ في النقاطِ السابقة المتسلسلة، نفهمُ معنى قولِ الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٩].

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾: لم يقتل اليهودُ عيسى عليه السلام، ولم يصلُبوه على الصليب.

﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾: أَلقى اللّهُ شَبهَ عيسى ابنِ مريم على تلميذِه الفدائي، فصارَ ذلك التلميذُ المشبَّهُ أمامَ الناس عيسى المشبَّهَ به تماماً.

وأخذَ اليهودُ والجنودُ عيسى الثاني الشَّبَه، وقَتَلوه وصلبوه، لكن عيسى ابنَ مريم الحقيقي رسول الله لم يقتلوه ولم يصلبوه.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾:

الهاء في «فيه» ضميرٌ يعودُ على القتلِ والصلب. والهاءُ في «منه» ضميرٌ يعودُ على القتلِ والصلب أيضاً.

فهناكَ شخصٌ مقتولٌ مصلوب، يشبهُ عيسى تماماً، لكن مَنْ هو؟ أَهو عيسى الحقيقي أم عيسى الشبه؟

اختلَفوا في ذلك القتلِ والصلب على مَنْ وقع!!

و﴿ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ﴾ ينطبقُ على الطائفتين: اليهودِ الذين قالوا: إنا قتلنا المسيحَ عيسى ابنَ مريم رسول الله. والنصارى الذين قالوا: رسولُنا عيسى قتلَه وصلَبه اليهود.

كانت الطائفتان في شكٍّ من هويةِ المقتولِ المصلوب.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾: ليس عندَ اليهودِ والنصارى علمٌ جازمٌ يقينيٌّ في المقتولِ المصلوب، هل هو عيسى أم غيره.

﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾: بعدما نفى عن اليهودِ والنصارى العلمَ بهويةِ المقتول، أَثبتَ لهم الظنَّ فيه، وأَنكرَ عليه اتباعَ ذلك الظن، الذي لا يقودُ إلى يقين.

و«اتباعَ» منصوبٌ على الاستثناء. والراجحُ عند الجمهور أنَّ هذا الاستثناءَ منقطع. ومعلومٌ أنَّ الاستثناءَ في الاستثناءِ المنقطع لا يكونُ من جنس المستثنى منه.

وهذا معناهُ أنَّ الجملةَ السابقة ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ نَفَتْ عنهم العلمَ بهويةِ المقتول، والمستثنى «إلاّ اتباعَ الظن» سَجَّلَ عليهم اتباعَ الظنِّ والوهم، وهذا الظنُّ يقودُ إلى الحيرة والشك.

وكأنَّ جملةَ «إلاّ اتباع الظن» تعليلٌ لسببِ الشكِّ الذي حلَّ بهم في الجملةِ السابقة: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ﴾.

والمعنى: شاهدَ اليهودُ والنصارى شخصاً مقتولاً مصلوباً يُشبهُ عيسى شَبَهاً تامّاً كاملاً، فاختلَفوا في تحديدِ هويته، أَهو عيسى أَمْ غيرُه، ولم يُحققوا في ذلك علماً، وصاروا في شكٍّ وحيرة، لأَنهم اتبعوا الظن، واتباعُ الظنِّ يقودُ للشك، ولا يوصِلُ صاحبه إلى علم.

معنى قوله: «وما قتلوه يقيناً»:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾: بعدما نفى عنهم العلمَ بهويةِ المقتول، نفى عن اليهودِ القتلَ اليقينيَّ لعيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾.

وجمهورُ المفسرين على أنَّ الضميرَ الهاءَ في «ما قتلوه» يعودُ على عيسى عليه السلام. أي: ما قتلوا عيسى متيقِّنين أنه عيسى، بل كانوا في ذلك شاكّين متوهِّمين.

وذهبَ بعضُ علماءِ التفسير إلى أنَّ الضميرَ الهاءَ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ يعودُ على الظن، المذكورِ في الجملة السابقة: ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾!!

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾: لم يقتلوا ظَنَّهم يقيناً.

وقال السّدّي: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾: وما قتلوا أَمْرَه، يقيناً أنَّ الرجلَ المقتول هو عيسى عليه السلام.

والتقديرُ على قولِ ابن عباس والسدي: ما قتلَ اليهودُ ظنهم في المقتولِ يقيناً!

أي أنَّ اليهودَ ما قتلوا ظنهم في المقتولِ يقيناً، فلم يتيقَّنوا أنَّ هذا المقتول عيسى، كما لم يتيقَّنوا أَنه غيرُ عيسى، وظلَّ الظنُّ والشكُّ مسيطراً عليهم، لأن المقتولَ يشبهُ عيسى، مع أَنه في الحقيقة شخصٌ آخر غيرُ عيسى![1].

ولا نَرى تعارضاً ولا تناقضاً بين قولِ الجمهور في عودةِ الهاء ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ على عيسى عليه السلام، وبين قولِ ابنِ عباس والسُّدِّيّ ومَنْ معهما في عودتِه على الظن، فالقولُ الأول يوصلُ إلى القولِ الثاني وينتهي إليه!

فاليهودُ قَتلوا شخصاً يُشبه عيسى في الظاهر، ولكن ما قَتلوا عيسى ابنَ مريم رسولَ الله يقيناً، وما كانوا عالِمين بذلك متيقِّنين منه، فأَحياناً كانوا يقولون: إِنه عيسى، وأَحياناً كانوا يقولون: إِنه شخص آخرَ يُشبهه، وبقوا ظانّين في ذلك المقتول، شاكّين في هويته.

---

(١) تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣:٨٢.

وحاولوا أنْ يُزيلوا الظن، ويَخرجوا منه إلى علم ويقين، فلم يستطيعوا، وبقوا ظانّين شاكّين، وبذلك لم يقتلوا ظنَّهم يقيناً.

تقول: قتلْتُ هذا الأمْرَ علماً ويَقيناً. أي: تحققتُ منه.

فلما قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ كأنه قال: ما صحَّ ظنُّهم عندَهم أنَّ المقتولَ عيسى، وما تحقَّقوا ظنَّهم يقيناً، وما قطعوا الظَّنَّ باليقين..[1].

نفى اللّهُ عن اليهودِ اليقينَ في قتلِ عيسى عليه السلام، لأنَّ اليقينَ هو نقيضُ الشكِّ والظن، وبما أنهم شاكّون ظانّون في الأمر فأَنّى يأتيهم اليقين؟

قالَ الإمامُ الراغبُ عن اليقين: «اليقينُ: من صفةِ العلم، فوقَ المعرفةِ والدراية وأَخَواتها.

يقال: علمُ يقين، ولا يُقال: معرفةُ يقين.

واليقين هو: سكونُ الفهمِ مع ثَباتِ الحكم.

وقولُه عز وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: ما قَتلوه قَتْلاً تَيَقَّنوه، بل إنما حَكَموا حكماً تخميناً ووهماً..»[2].

لقد قَتَلوا شخصاً ظَنّوه عيسى، لكنهم ما قَتَلوا عيسى يقيناً.

ما قتلوا عيسى لأن الله رفعه إليه:

وإذا كانوا ما قتلوا عيسى ابنَ مريم رسولَ الله فأينَ عيسى إذن؟ وماذا كانتْ نهايتُه؟ وماذا جرى له في تلكَ الليلة؟

الجوابُ في قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

و«بل» حرفُ إِضرابٍ وإِبطال.

---

(١) الدر المصون ٤:١٤٨.

(٢) المفردات: ٨٩٢ ـ ٨٩٣.

تَمَّ فيها الإِضرابُ عن الكلامِ السابق وإِبطالُه وإِلغاؤه، وهو مزاعمُ اليهودِ بقتل عيسى.

إنَّ قولَه: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ إبطالٌ وإِلغاءٌ لقول اليهود: ﴿إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

وهو صريحٌ في أنَّ اللّهَ رفعَه بروحِه وبدنِه حياً، من سقْفِ البيتِ إلى السماء.

لقد وعدَ اللّهُ عيسى قبلَ تلك الحادثة أنْ يتوفّاه ويرفَعَه إليه، وذلك في قوله له: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إنّي سأُلقي عليك النوم، ثم أَرفعُك إليّ، وبذلك أُطهِّرُك من الذين كفروا!

ولما صارَ عيسى في الخطر، وجاءَ اليهودُ والجنودُ لقتْلِه وصلْبِه، حقَّقَ اللّهُ له وعدَه، وتوفّاه وأَلقى عليه النوم، ثم جعلَ فتحةً في سقف البيت، ورفَعَه إليه في السماء، وكان رفعُه بروحِه وبدنِه، رفْعاً ربانياً خاصاً، هو آيةٌ بينة، ومعجزةٌ باهرة.

وعَقبت الآيةُ على رفع عيسى إلى السماءِ بالإشارة إلى عزة الله وحكمته: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. وهذا تعقيبٌ يتناسبُ مع ما قبله.

فاللّهُ عزيزٌ قويٌّ قادرٌ قاهر، ينصرُ أولياءَه بعزَّته، ويحفظُهم ويفرجُ عنهم بعزته، ويَحميهم من أَعدائِهم بعزته، ولذلك رفعَ عيسى عليه السلام إليه وأَنجاه من مكرِ اليهود بعزته.

واللّهُ حكيمٌ في تدبيرِه وتقديرِه وقضائِه وتصريفِ أُمورِ خلقه، ومن حكمته إنجاءُ رسوله عليه السلام بتلكَ الطريقةِ الباهرة، وإِيقاعُ أَعدائِه في الحيرةِ والظَّنّ والشّكّ والوهم.

تأكيد القرآن على تكذيب اليهود بشأن قتل عيسى:

وعندما ننظرُ في حديثِ القرآنِ عن أحداثِ تلك الليلة فإننا نرى تأكيدَ اليهودِ على قتل عيسى، ذلك التأكيدُ الذي ظهرَ في قولهم: ﴿إِنَّا

﴿قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ حيثُ جمعوا بين اسمِه ووصفِه ولقبِه، للتأكيدِ على جزمهم بقتلِه.

ونرى أيضاً تأكيدَ القرآنِ على تكذيبِهِم في تأكيدِهم، باستخدامِ ثلاثِ جملٍ منفية: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

نفىٰ قتْلَهم له، ثم أكَّدَ ذلك بنفيِ صلْبِهم له، والنفيانِ متلازمان، فبما أَنهم لم يَقْتُلوه، فإنهم لم يَصْلُبوه.

والنفيُ الثالث: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ يشيرُ إلى المقتولِ في قوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، حيثُ عرفْنا أَنهما شخصان، كلٌّ منهما يحملُ شكلَ عيسى الخارجي، عيسى الأولُ الحقيقيُّ رسولُ الله، الذي أرادَ اليهودُ قتْلَه، وعيسى الثاني المتحوِّلُ الذي فدى عيسى الرسولَ بنفسه.

اليهودُ قَتَلوا عيسى الثانيَ المتحوِّلَ وصَلَبوه، جازمين أَنه عيسى الحقيقيُّ الرسول، وتبجَّحوا بقولهم: إنّا قتلْنا المسيحَ عيسى ابنَ مريم رسولَ الله، إنهم ما قتلوا عيسى رسول الله يقيناً، لأَنَّهم في الحقيقة قتلوا عيسى الثانيَ المتحوِّلَ.

لماذا وقعوا في هذا الاضطراب؟

لأنَّ اللّهَ رفعَ عيسى الأَوَّلَ رسولَه إليه، ولم يُشاهد اليهودُ رفْعَه، وأَلقى شبهَه على الفدائيِّ الشهيد، الذي قتلوه وصلبوه.. وبذلك كانوا في شكٍّ ووهم وظنٍّ في الحقيقة بهويةِ القتيل، وليس عندهم علمٌ ولا يقين ولا جزم!

وبما أنَّ اليهودَ لم يقتلوا عيسى رسول الله، وإنما رفعَهُ اللّهُ إليه، فهو حيٌّ عندَه في السماء، لم يَمُتْ، وسينزلُ في آخرِ الزمان بأمرِ الله، ويعيشُ باقي عمرِه الذي قدَّرَهُ اللّهُ له، وسيؤمنُ به أهلُ الكتاب الذين يكونون أحياءَ عند نزولِه على أنه عبدُ الله ورسولُه. وقد أَشارَ إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

وبما أنَّ هذه الآيةَ تتعلقُ بالمبحثِ القادم، لهذا نرجئُ الحديثَ عنها إلى أن نتكلمَ عن نزولِ عيسى عليه السلام في آخرِ الزمان، بعون الله.

اضطراب الأناجيل في أحداث تلك الليلة، وأقربها إنجيل برنابا:

وقبلَ أنْ نغادرَ هذا المبحثَ عن رفعِ عيسى إلى السماء، وإلقاءِ شبهه على أحدِ تلاميذه، وقتْلِ اليهود وصلبِهم له لأنه شُبِّهَ لهم، وعدم قتلِ المسيح عيسى عليه السلام لأنَّ اللّهَ رفعَهُ إليه، نشيرُ إلى أنَّ الأناجيلَ الأربعة: متى، لوقا، مرقس، يوحنا، وهي المعتمدةُ عند النصارى اضطربَتْ في حديثها عن أحداث الليلةِ الأخيرة من حياةِ عيسى عليه السلام على الأرض اضطراباً كبيراً، واختلفَتْ اختلافاً بيناً، وتناقضَتْ تناقُضاً واضحاً، صَيَّرَ النصارى المؤمنين بهذه الأناجيل، وجَعَلَهم في شكٍّ واضطراب، لا يَعرفونَ ماذا جرى في تلك الليلة.

وأَقربُ ما سُجِّلَ في تلكَ الأناجيل من الحقيقةِ القرآنية التي عَرَضْناها، هو ما وردَ في إنجيل «برنابا»، وهو الإنجيلُ الذي لا يؤمنُ به النصارى، ولا يعتمدونَه.

يرى «برنابا» ـ وهو أحدُ حواريّي عيسى عليه السلام ـ أنَّ أحدَ الحواريّين وهو «يهوذا الإسخريوطي» هو الذي وشى بعيسى وتآمَرَ عليه وخانَه، واتفقَ مع اليهودِ للمجيء إليه واعتقالِه، ولما جاءَ بهم أَلقى اللّهُ شَبَهَ عيسى عليه، فأَخَذوا «يهوذا» وصَلبوه على أنه عيسى.

ويختلفُ برنابا في هذه النقطةِ مع ما سبقَ ذكْرُه من قولِ ابن عباس وجمهورِ العلماء، من أنَّ المشَبَّهَ الفدائيَّ هو أحدُ الحواريين الصالحين، تبرعَ وتطوَّعَ ليُقتلَ ويَنجوَ عيسى عليه السلام، واللّهُ أعلم بالذي حصل.

وردَ في الفصلِ الحادي عشر بعد المئتين من إنجيل برنابا أنَّ عيسى عليه السلام أَخبرهم قبلَ أيامٍ من الحادثة، أَنه حانَ وقْتُ مغادرتِه

لهذا العالم: «ولما كانَ يسوعُ في بيتِ «نيقوديموس» وراءَ جدول «قَدْرون» عَزّى تلاميذَه قائلاً: لقد دنت الساعةُ التي أَنطلقُ فيها من هذا العالم، (!!) تَعَزَّوْا، ولا تحزنوا، لأنني حيثُ أَمضي لا أَشْعُرُ بمحنة. .»[1].

ووردَ في الفصلِ الثالث عشر بعدَ المئتين من إِنجيل برنابا حوارٌ بينَ عيسى عليه السلام وبين الحواريّين ومنهم يهوذا الإسخريوطي: «وقال يسوع أيضاً: الحقُّ أَقولُ لكم: إنَّ واحداً منكم سيسلِّمُني، فأُباعُ كخروف، ولكن ويْلٌ له، لأنه سيتمُّ كلُّ ما قالَ داودُ أَبونا عنه أنه «سيسقطُ في الهوةِ التي أَعَدَّها للآخرين».

فنظرَ من ثَمَّ التلاميذُ بعضُهم إِلى بعضٍ قائلين بحزن: مَنْ سيكونُ الخائن؟

فقال حينئذ يهوذا: أَأَنا هو يا معلم؟

أَجابَ يسوع: لقد قلتَ أَنتَ لي من الذي سيسلمني. .»[2].

رواية برنابا للأحداث:

وخصَّصَ الفصلَ الخامس عشر والسادس عشر بعد المئتين في الإنجيلِ للحديثِ عن ليلةِ رفعِ عيسى والقبضِ على الخائن.

قال: «ولما دَنت الجنودُ معَ يهوذا من المحلِّ الذي كان فيه يسوع، سمعَ يسوعُ دنوَّ جمعٍ غفير، فلذلك انسحبَ إِلى البيتِ خائفاً (!!) وكان الأحدَ عشر نياماً.

فلما رأى اللّهُ الخطرَ على عبدِه أَمَرَ جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءَهُ أَنْ يأخذوا يسوعَ من العالم، فجاءَ الملائكةُ الأطهار، وأَخذوا يسوعَ من النافذةِ المشرفةِ على الجنوب، فحملوه، ووَضَعوه في السماءِ الثالثة، في صحبةِ الملائكةِ التي تسبِّحُ اللّهَ إِلى الأَبَد.

---

(1) إنجيل برنابا. تحقيق سيف الله فاضل: ٢٨٤.

(2) المرجع السابق: ٢٨٧.

ودخلَ يهوذا بعنفٍ إلى الغرفةِ التي أُصعدَ منها يسوع، وكان التلاميذُ كلُّهم نياماً.

فأتى اللّهُ العجيبُ بأمرٍ عجيب، فتغيَّرَ يهوذا في النطقِ وفي الوجه، فصارَ شَبَهاً بيسوع، حتى اعتقَدْنا أنه يسوع!!

أَما هو فبعدَ أنْ أيقَظَنا أخذَ يفتش، لينظرَ أين كان المعلِّم، لذلك تعجَّبْنا وأَجَبْنا: أنتَ يا سيّد هو معلِّمُنا، أنسيتَنا الآن؟

أَمّا هو فقد قالَ مبتسماً: هل أَنتم أغبياء حتى لا تعرفوا يهوذا الإسخريوطي.

وبينما كان يقولُ هذا، دخلت الجنود، وأَلقوا أَيديهم على يهوذا، لأنه كانَ شبيهاً بيسوعَ من كلِّ وجه.

أما نحنُ فلما سمعْنا قولَ يهوذا ورأَيْنا جمهورَ الجنود هَرَبْنا كالمجانين، ويوحَنّا الذي كان ملْتَفّاً بملحفةٍ من الكِتّان استيقظ وهرب، ولما أَمسكه جندي بملحفةِ الكتّان تركَ ملحفةَ الكتّان وهربَ عرياناً.. لأنَّ اللّهَ سمعَ دعاءَ يسوع، وخلص الأحدَ عشرَ من الشر!!..

فأخذَ الجنودُ يهوذا، وأَوثقوه، ساخِرين منه، لأنه أَنكرَ وهو صادق أَنه يسوع.

فقالَ الجنودُ مستهزئين به: يا سيدي: لا تخفْ لأَنّنا قد أَتينا لنجعلَكَ مَلِكاً على إسرائيل، وإِنما أَوْثَقْناك لأننا نعلمُ أَنك ترفضُ المملكة!

أَجابَ يهوذا: لعلكم جُننتم: إِنكم أَتيتُم بسلاحٍ ومصابيح لتأخذوا يسوعَ الناصريَّ كأنه لصّ، أفتوثقونني، أَنا الذيَ أرشدْتُكم؟.... إلخ»[1].

---

(١) إنجيل برنابا. المرجع السابق: ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

ويكملُ برنابا سردَ القصةِ إلى أَنْ صُلبَ يهوذا الإسخريوطي ودُفن، على أنه عيسى لأنَّ اللّهَ أَلقى شبهَ عيسى عليه[1].

وهذا العرضُ من برنابا وهو شاهدُ عيان يتوافقُ مع قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ...﴾.

[١٦]

القرآن يقيم الحجة على النصارى

عيسى عبد الله ورسوله ودعوته إلى توحيد الله:

عيسى ابنُ مريم عبدُ الله ورسولُه، عليه الصلاة والسلام، بعثَهُ اللّهُ نبياً رسولاً إلى بني إسرائيل.

وتقومُ رسالتُه على توحيدِ الله، وإفرادِه بالألوهية والربوبية، ودعوةِ بني إسرائيل إلى عبادةِ الله وحده، ومطالبتِهم بالإيمانِ بأنّه عبدُ الله ورسولُه، وأنه ابنُ مريم، فهو رسولٌ بشرٌ عليه الصلاة والسلام.

هذه هي خلاصةُ دعوةِ عيسى عليه السلام ورسالتِه، وهذه هي «النصرانية» الموحِّدَة، التي دعا إليها عيسى عليه السلام، وعلى هذا الأساسِ آمنَ به الحواريون واتَّبعه النصارى الموحِّدون.

فها هو عيسى عليه السلام، يصرحُ بأنّه عبدُ الله، عندما أنطقه اللّهُ وهو على حضْنِ أُمه. قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣١].

ولما أنزلَ اللّهُ على عيسى عليه السلام الوحيَ، وكلَّفه دعوةَ بني إسرائيل كان جوهرُ دعوتِه توحيدَ الله، ومطالبتَهم بعبادةِ اللّهِ وحده، ربِّه وربِّهم، ووردَ هذا صريحاً في القرآن. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ

(١) انظر إنجيل برنابا. الفصل السابع عشر والثامن عشر بعد المئتين: ٢٨٩ ـ ٢٩٣.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

إنَّ عيسى يصرحُ بأنه عبدٌ لله، ويطالب بني إسرائيل بعبادةِ الله وحده، ويقررُ حقيقةً إيمانيةً قاطعة، وهي أنَّ اللّهَ ربُّه هو، وربُّ بني إسرائيل، وربُّ العالمين أجمعين، ويُبينُ أنَّ كلَّ مَنْ أشركَ بالله فهو كافرٌ به، وهو مخلدٌ في نارِ جهنم.

هذا ما كانَ يبينُه عيسى عليه السلام بوضوحٍ وتحديد، ألوهيةُ اللّهِ وحده، وعبوديةُ كلِّ مَنْ سواه له. وما ادّعى عليه السلام يوماً أنه إله، أَو أنه ابنٌ لله، أو أنَّ اللّهَ أبٌ له، وما دعا يوماً إلى تأليهِهِ وعبادته.

وعندما يسألهُ اللّهُ يومَ القيامة عن تأليهِ كفار النصارى له، يتبرأُ منهم، ويصرحُ أنهم كَذَبوا عليه، ونسبوا له ما لم يقلْه، وأنه ما دَعاهم إلاّ إلى عبادةِ الله وحده، ربّه وربهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

ما قالَه لهم هو ما أَمره اللّهُ به، وما دعاهم إليه هو ما كلَّفه اللّهُ به، هذه هي النصرانيةُ الصحيحة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ..﴾.

وقررَ اللّهُ عبوديةَ عيسى عليه السلام له. قال تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٥٩].

عيسى ابنُ مريم عليه السلام هو عبدٌ من عبادِ الله الصالحين، عبدُ الله ورسولُه، جعلَ اللّهُ خلقَه بدون أب آيةً ومَثَلاً لبني إسرائيل، وأَحاطَ مولده بعددٍ من الآياتِ والمعجزات، ولما بعثَه نبياً رسولاً أَجرى على يديه عدداً من الآياتِ والمعجزات، وكان عيسى عليه السلام يصرحُ بعبوديتِه لله، ويطلبُ من المدعوّين عبادةَ الله وحده. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٤].

النصرانية من التوحيد إلى التثليث:

وكان أَتباعُه على هذه العقيدة، موحِّدين لله، مؤمنين أنّ عيسى عبدُ الله ورسولُه، وأن اللّهَ ليس له صاحبةٌ ولا ولدٌ، وما جالَ بخاطِرهم لحظةً أنْ يكون عيسى إلهاً أو ابناً لله!

وبقيت النصرانيةُ موحِّدة، على صفاءِ التوحيد ونقائِه، بعد فترةٍ من رفعِ عيسى إلى السماء، إلى أنْ دخلتْ عواملُ خارجيةٌ طارئة عليها، فتسربَ الشركُ إليها، وبدأ هذا على يدِ اليهوديِّ «شاول» الذي ادَّعى النصرانية، وتسمّى باسم «القديس بولس»، وصارَ يدعو إلى تأليهِ عيسى، ويقدمُ أَفكاراً غريبةً على النصرانيةِ الصحيحةِ الصافية!

وبدأَ الشركُ يَغزو النصرانية، وصارَ النصارى يعتنقون أَفكارَ اليهودي «شاول» ـ أو القدّيس بولس فيما بعد ـ وانتشرَ القولُ «بالتثليث» فيما بينهم، وحوربَ النصارى الموحِّدون لله، المؤمنون ببشريةِ عيسى عليه السلام، واعْتُمِدَ مذهبُ بولس وأَتْباعُه، المؤلِّهين لعيسى(١).

ولقد مَرَّ معنا قولُ ابن عباس عن اختلافِ النصارى بشأنِ عيسى عليه السلام: «وافترقوا ثلاثَ فرق:

---

(١) انظر كتاب «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» للدكتور محمد الحاج.

فقالتْ فرقة: كان اللّهُ فينا ما شاء، ثم صعدَ إلى السماء، وهؤلاء هم اليعقوبية.

وقالتْ فرقة: كان فينا ابنُ الله ما شاء، ثم رفعه اللّهُ إليه، وهؤلاء النسطورية.

وقالتْ فرقة: كان فينا عبدُ الله ورسولُه ما شاء الله، ثم رفعه اللّهُ إليه، وهؤلاء هم المسلمون.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقَتَلوها، فلم يزل الإسلامُ طامساً، حتى بعثَ اللّهُ محمداً ﷺ..»[1].

واختلافُ النصارى في عيسى عليه السلام، وتأليهِ معظمِ طوائفِهم له انحرافٌ بالنصرانية عن أصلِها الصحيح، وتركٌ لما جاءهم به نبيُّهم عيسى عليه السلام، وقد عاقبهم اللّهُ بأنْ أوقعَ بينهم العداوةَ والبغضاء. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ...﴾ [المائدة: ١٤].

الرهبانية المبتدعة الباطلة:

وقد أخبرَنا اللّهُ أنَّ النصارى حَرَّفوا دينهم بعدَ رفعِ عيسى عليه السلام إلى السماء، واتبعوا الباطل. قال تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

فاللّهُ بعثَ عيسى ابنَ مريم عليه السلام رسولاً، وأنزلَ عليه الإنجيل، وآمَنَ به صالحون من بني إسرائيل وغيرهم.

﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾. هذا ثناءٌ من الله

---

(١) تفسير ابن كثير ١: ٥٤٤.

على المؤمنين السابقين الصالحين من النصارى، وهم الموحِّدون الذين آمنوا أنَّ عيسى هو عبدُ الله ورسولُه.

فاللّهُ أَوجدَ في قلوبهم رأفةً ورحمة، والرأفةُ أَخَصُّ من الرحمة، صفةٌ قلبية وخُلُقية رفيعةٌ عالية.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ..﴾: الواوُ هنا استئنافيةٌ وليست عاطفةً على الراجح.

و﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوبةٌ على «الاشتغال». ويكون العاملُ في نصبها فعْلاً مقدَّراً، يفسِّره ما بعده «ابتدعوها». والتقدير: وابتدعوا رهبانيةً مبتَدَعَة، ما كتبناها عليهم، ولا أَوجبناها عليهم، لكنهم هم الذين ابتدعوها وأَحدثوها، ثم التزموها.

و﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾: مصدرٌ صناعي من «الرهبان». رجالِ الدين النصراني.

و﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾: في محلِّ نصبِ صفةٍ للرهبانية: رهبانيةً مبتدعةً.

و﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾: في محلِّ نصبِ صفةٍ أُخرى لها: رهبانيةً مبتدعةً غيرَ مكتوبة عليهم.

وهاتان الصفتان لذمِّ الرهبانية، وذمِّ أهلها الرهبان، فهم الذين أَحدثوها وابتَدعوها، واللّهُ لم يكتبْها ولم يفرضْها عليهم.

و﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء.

و﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾: استثناءٌ منقطع، على الراجح، وهو ليس من جنس المستثنى منه، ويكون هذا الاستثناءُ لتأكيدِ ابتداعِهم لها، وتأكيدِ أنَّ اللّهَ لم يكتبها عليهم.

والتقدير: تلك الرهبانيةُ المبتدعةُ ما كتبناها عليهم، ولكنهم ابتدعوها طالبين بذلك رضوانَ الله كما زعموا.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾: هذا ذمٌّ آخرَ للرهبان، فرغم أَنهم

ابتدعوا الرهبانية، وزَعموا أَنهم مبتغونَ وجْهَ اللّهِ فيها، وهي مبتدعةٌ محدثة، إلاّ أَنهم لم يلتزموها، ولم يرعوْها حقَّ رعايتها، بل حَرَّفوها وبَدَّلوها[١].

وخلاصةُ موضوعِ الآية أن اللّهَ جعلَ في قلوب النصارى السابقين الموحِّدين رأفةً ورحمة، ولكن جاءَ أناسٌ آخرون بعدهم خالَفوا الإنجيل، وابتدعوا رهبانية، لم يكتبْها اللّهُ عليهم ولم يأمرهم بها، لكنّهم زَعموا أَنهم يلتزمونها ابتغاءَ رضوانِ الله، ومع ذلك خَرجوا عليها، وما رَعوها حقَّ رعايتها!!

وقَبِلَ اللّهُ عبادةَ المؤمنين الصالحين الموحِّدين منهم، وآتاهم أَجرهم، وهم قلائل، لكنَّ كثيراً من النصارى فاسقون كافرون، أَلّهوا عيسى عليه السلام، فاستحقوا بذلك العقابَ من الله.

قالَ قتادة: الرهبانيةُ ابتدَعَها قومٌ من عندِ أنفسهم، ولم تُكتبْ عليهم، ولكنهم ابتغَوْا بذلك رضوانَ الله، فما رعَوْها حقَّ رعايتها، حيثُ رفضوا النساء، واتخذوا الصوامع.

وقال ابن زيد: ابتدعوا الرهبانيةَ رضوانَ الله تطوُّعاً، فما رعوها حقَّ رعايتها.

وقال الضحاك: اعتزلوا الناس، وصاروا في الصوامع، فلم يزالوا كذلك حتى غيَّرتْ طائفةٌ منهم، فتركوا دينَ الله وأمْرَه وعهدَه الذي عَهِدَ به إِليهم، وأخذوا بالبدع، فابتدعوا اليهوديةَ والنصرانية[٢].

ذم النصارى لغلوهم في عيسى ودعوتهم إلى توحيد الله:

ذمَّ اللّهُ النصارى لغلوِّهم في عيسى عليه السلام وتأليهِهم له،

---

(١) في إعراب هذه الآية إشكال وأقوال عديدة، وما ذكرناه هو الراجح المتفق مع السياق والله أعلم. انظر في إعرابها: الدر المصون للسمين الحلبي ١٠:٢٥٤ ـ ٢٥٨.

(٢) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٧:٢٣٩ ـ ٢٤٠.

ودَعاهم إلى الإيمانِ بأنه عبدُ الله ورسولُه، واليقينِ بأنَّ اللّهَ وحدَه ربُّ العالمين، لا شريكَ ولا ولدَ له. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧١ ـ ١٧٣].

تبينُ هذه الآياتُ أساسَ الانحرافِ عند النصارى، الذي دَفعهم إلى تأليهِ عيسى عليه السلام، ألا هو الغُلُوّ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ..﴾.

غالى النصارى في النظرِ إلى عيسى عليه السلام، وبالَغوا في إطرائه، والكلامِ عنه، وخَرجوا عن الصوابِ في النظرِ إلى خلْقِه ومعجزاتِه وآياته، وما تصوروا أنْ يكونَ مخلوقاً بشراً، وتصدرَ عنه تلك المعجزات والآيات، ولهذا قالوا بأنه ابنٌ لله!!

وقد دَعانا رسولُنا محمد ﷺ إلى عدمِ المبالغةِ في إطرائه ومدحه، وعلومِ الغلُوّ في النظرةِ إليه، لئلا نفعلَ كَما فعلَ النصارى مع عيسى عليه السلام.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه سمعَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تَطْروني كما أَطْرَت النصارى عيسى ابنَ

مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبدُ الله ورسولُه»[1].

كفر النصارى القائلين بأن الله هو عيسى ابن مريم:

وكانت آياتُ القرآن صريحةً في تكفيرِ النصارى الذين قالوا: إن اللّهَ هو المسيحُ ابن مريم. وقد فَنَّدَتْ كفرهم، وبينتْ أنَّ عيسى وأمَّه عاجزان عن دفعِ أمرِ الله، إذا شاءَ إنزالَه بهما. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧].

كان النصارى بالنسبةِ إلى تأليهِ عيسى عليه السلام ثلاثَ فرق، وقد نصَّ القرآنُ على كفرِ كلِّ فرقةٍ أَلَّهَتْه.

الفرقةُ الأولى: قالَتْ: إنَّ اللّهَ هو المسيحُ ابنُ مريم، وهم كفار، ومخالِفونَ لدينِ عيسى عليه السلام ودعوتِه. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

فالآيتان: ١٧ و٧٢ من سورةِ المائدة تنصّان على كفرِ هؤلاء النصارى الذين قالوا إن اللّهَ هو المسيحُ ابنُ مريم..

كفرِ النصارى القائلين بإلهين اثنين:

الفرقةُ الثانية: قالت: إنَّ المسيحَ ابنُ الله، وأنه إلهٌ مع الله، وأنهما إلهان اثنان: الآبُ إله، والابنُ إله آخر.

وقد ردَّ القرآنُ عليهم في أكثرَ من موضع:

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٨٢٩. ومسلم برقم: ٢٣٦٨. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٩١.

منها قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

لماذا يكونُ له ولد، وهو لا يَحتاجُ إلى مَنْ يساعده، فله كلُّ ما في السموات، وكلُّ ما في الأرض، وهو وحده الوكيلُ على كلِّ شيء، وكفى به وكيلاً..

ومنها قولُه تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠١ ـ ١٠٢].

من أين يكونُ له سبحان ولد؟ وهو ليستْ له صاحبة، وهو لا يحتاجُ إلى ولد لأنه خلَقَ كلَّ شيء.

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣].

إنها فريةٌ عظيمة، ومنكرٌ فظيع، تكادُ السمواتُ يتفطرن من فظاعتها، والأرضُ تكادُ تنشق، والجبالُ تكادُ تَخِرُّ هداً، ولا ينبغي للّهِ الرحمن أنْ يتخذ ولداً، وهو المالكُ لكلِّ شيء، وكلُّ الأحياء في السموات والأرض يأتونه عبيداً يومَ القيامة.

ومن أَجمعِ الآيات في الردّ على الكفار النصارى وغيرِهم في نسبةِ الولد إلى الله، آياتُ سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

وذمَّ اللّهُ النصارى الذين عبدوا إلهيْن اثنيْن، الذين جعلوا اللّهَ الأبَ إلهاً، وجعلوا يسوعَ الابنَ إلهاً، أو الذين جعلوا عيسى إلهاً، وجعلوا أُمَّه إلهاً آخر. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٥١].

وبَيَّنَ كفرَ هؤلاء من خلالِ براءةِ نبيِّ اللّهِ عيسى منهم يومَ القيامة. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

كفر النصارى القائلين بالتثليث:

الفرقةُ الثالثة: الذين قالوا: إنَّ اللّهَ ثالثُ ثلاثة، وهم دعاةُ التثليث، الذين قالوا: بالأقانيمِ الثلاثة: الآب، والابن، والروح القدس.

نهاهم اللّهُ عن القولِ بالتثليث في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا..﴾ [النساء: ١٧١].

فإنْ لم يَنتهوا عن القولِ بالتثليث، فهم كفارٌ بالله. قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣].

ونلاحظُ أَنه في كلِّ آيةٍ من الآياتِ السابقة التي كانت تبين كفرَ النصارى بطوائفهم الثلاثة، كان النصُّ على وحدانيةِ الله.

اللّهُ ليس له ولد، لأنه إله واحد: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [النساء: ١٧١].

وهو إله واحد، وليس معه إله آخر: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

وليس هناك آلهةٌ ثلاثة، لأنه إله واحد: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

والنتيجةُ أنَّ اللّهَ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَد لم يلدْ ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، كما نصتْ سورةُ الإخلاص.

وبَيَّنَ القرآنُ أنَّ النصارى الذين قالوا بأنَّ اللّهَ معه إله أو إلهان أو ثلاثة، إنما كانوا مقلِّدين ومتابعين للكفارِ الذين سبقوهم، وهذا الكفرُ لم يأمرهم به عيسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣١].

ودحضَ القرآنُ فكرةَ ألوهيةِ عيسى وأمِّه، بتركيزِه على بشريتِهما. قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٥ ـ ٧٧].

عيسى بَشَرٌ رسول، وأُمُّه مريم صدّيقة صالحة، وهما ليسا إلهين،

لأنهما بَشَران ضعيفان مخلوقان، يحتاجان إلى أكلِ الطعام، وإلى تصريفِ فضلاته، وإنْ مُنِعَ ذلك عنهما ماتا، وهما لا يملكانِ لأنفسهما ولا لغيرهما ضَراً ولا نفعاً. فكيف يكونان إلهين وهما بهذه الصفات البشرية العاجزة؟

آيات سورة آل عمران في جدال نصارى نجران:

وأنزلَ اللّهُ هذه الآيات من سورةِ آل عمران في محاجَّةِ نصارى نجران لَما جاءوا إلى رسولِ الله ﷺ في المدينة، يجادلون بشأنِ عيسى عليه السلام، ويزعمونَ ربوبيتَه وألوهيتَه.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ [آل عمران: ٥٨ - ٦٨].

نقدمُ هذه الآيات الكريمةِ في جدالِ النصارى وإقامةِ الحجة عليهم، وإبطالِ ألوهيةِ عيسى عليه السلام، ولا نتكلمُ عن تفسيرِها

واستخلاصِ بعض حقائقها، فالمجالُ لا يسمحُ بهذا، ونَدعو الإخوةَ القراءَ إِلى العودةِ إِلى كتب التفسير لتحقيقِ ذلك.

الثناء على النصارى الموحدين الداخلين في الإسلام:

وبينما ذمَّ القرآنُ النصارى الكفار، الذين زَعموا أنَّ عيسى عليه السلام إلهاً أو ابناً لله، فقد أَثنى القرآنُ على النصارى الموحِّدين، المؤمنين أنَّ عيسى عليه السلام هو عبدُ الله ورسولُه، والذين آمَنوا بعد ذلك أن محمداً هو رسولُ الله ﷺ، فأَسلموا واتَّبعوه.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٦].

هذه الآياتُ نزلتْ في الثناءِ على موقفِ النجاشي ومَنْ معه، الذين تأثَّروا لما سمعوا آياتِ القرآن، وعَرَفوا أنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ وتنطبقُ هذه الآياتُ على أيِّ نصارى في أيِّ زمانٍ ومكان، يَقفون هذا الموقف، فيؤمنون أنَّ عيسى عبدُ الله ورسوله عليه السلام، ثم يؤمنون أنَّ محمداً هو عبدُ الله ورسولُه ﷺ، ويَدخلون في الإسلام، ويكونون مسلمين صادقين.

وهكذا عَرَفْنا أنَّ القرآن أقامَ الحجةَ على النصارى، ونقضَ مزاعمِهم حولَ كونِ عيسى إلهاً أو ابناً لله أو ثالثَ ثلاثة، وأَثبتَ أنه عبدُ الله ورسولُه عليه الصلاة والسلام!!

[١٧]

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان

عَرَفْنا أنَّ اللّهَ رفعَ عيسى عليه السلام إِليه، وأَنه الآنَ حيٌّ في السماء، حياةً خاصةً غيبية.

رسولنا يلتقي عيسى في السماء الثانية:

وقد التقى به رسولُنا ﷺ في رحلةِ الإسراءِ والمعراج، التقى به أَوّلاً في المسجدِ الأقصى، عندما صلّى رسولُ الله ﷺ بالأنبياءِ إِماماً، وكان عيسى عليه السلام مأموماً خلفه.

ثم التقى به ثانياً لَمّا عُرجَ به إِلى السماء، حيثُ أَخبرنا أَنه قابلَ عيسى عليه السلام في السماءِ الثانية.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مالكِ بن صَعْصَعَة رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج: «... فأتينا السماءَ الثانية، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيل: مَنْ معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: أُرسلَ إِليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعمَ المجيء جاء.

فأَتيتُ على عيسى ويحيى. فقالا: مرحباً بك من أخٍ ونبي...»[١].

رسولنا يصف لنا عيسى ابن مريم:

وأَخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن بعضِ صفاتِ عيسى عليه السلام الخَلْقية، وهيئتِه الخارجية.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «ليلةَ أُسريَ بي رأيتُ موسى، فإذا هو رجلٌ ضَرْب، كأنه من رجالِ شَنوءَة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٧. ومسلم برقم: ١٦٤. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٦٢.

ورأيتُ عيسى، فإذا هو رَجُلٌ رَبْعَةٌ، أَحمر، كأنما خرجَ من ديماس...»[1].

الرَّبْعَة: المتوسطُ الطول، لا هو طويلٌ ولا هو قصير.

والأحمر: لونُه أحمر إلى البياض.

والدّيماس: الحَمّام.

ومعنى: كأنما خرجَ من ديماس: أنه كان مُتَدَفِّقاً حيويةً وبهاءً ونضرة، فكأنَّه خرج من حَمّام!

وروى مسلمٌ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «... ورأيت عيسى ابنَ مريم مربوعَ الخِلْقَة، إلى الحمرةِ والبياض، سَبْطَ الرأس...»[2].

وروى البخاريُّ عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «رأيتُ عيسى وموسى وإبراهيم، فأمّا عيسى فأحمرُ، جَعْدٌ، عَريضُ الصدر....»[3].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «وأراني الليلةَ عندَ الكعبة في المنام، فإذا رَجُلٌ آدم، كأحسنِ ما يُرى من أُدْمِ الرِّجال، تَضربُ لِمَّتُهُ بين مَنْكِبَيْه، رَجِلُ الشَّعر، يقطرُ رأسُه ماء، واضعاً يديْه على مَنْكِبَيْ رَجُلين، وهو يطوفُ بالبيت.

فقلت: مَنْ هذا؟

فقالوا: هذا المسيحُ ابن مريم..»[4].

ومن خلالِ النظرِ في هذه الأحاديثِ فإننا نستطيعُ أنْ نشكِّلَ هذه

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٩٤. ومسلم برقم: ١٦٨. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨١.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٦٥. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ١٨٢.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٣٨. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٨٦.
(٤) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٤٠. ومسلم برقم: ١٦٩. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٨٧.

الصورةَ لعيسى عليه السلام: قامَتُه معتدلة، ولونُه أَبيض مُشربٌ بالحمرة، وشعْرُ رأسِه سَبْطٌ ممتدٌ إلى منكبيه، ولونُه أسود، كأنه يقطرُ ماءَ ولم يُصبهُ بلل، وذلك من بهائِه، وهو متدفِّقٌ حيويةً ونضارة وبهاءً.

وبما أَننا في معرضِ الحديث عن صفاتِه الخَلْقية، فلْنذكُرْ حديثاً في صفاته الخُلُقِية، دلَّ على شدةِ إيمانِه بالله، وخوفِه منه.

فقد روى البخاريُّ ومسلم عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «رأى عيسى ابنُ مريم رجلاً يَسرق. فقال له: أَسرقْتَ؟ قال: كلّا، والذي لا إله إلا هو!!

فقال عيسى: آمنتُ بالله، وكَذَّبْتُ عيني...»[1].

عيسى عليه السلام رأى رجلاً يَسرق، ولم يشكَّ في رؤيته، وجاءَ إليه ناصحاً، وسأَلَه لينصَحه: أَسرقْتَ؟

وأَنكرَ الرجلُ السرقة، التي لا ينفعُ معها إِنكار، ولجَّ في إنكاره، وتجرأَ على الله، فأقسمَ بالله أَنه ما سرقَ!

فاستغربَ عيسى عليه السلام مِن كذبِه ومِن جرأَتِه على الله، فكيفَ يُقسمُ بالله كاذباً؟ وخافَ عيسى من القسم واليمين، وملأَ قلْبَه تعظيماً لله، فقالَ للرجلِ السارقِ الحالفِ الكاذب: آمنتُ بالله، وكذَّبْتُ عيني!!

عيسى رفع حياً وينزل في آخر الزمان:

وقد أَخبرَنا اللّهُ في القرآن، وأَخبرَنا رسولُ الله ﷺ في الحديثِ الصحيحِ ـ بإِعلامِ من الله له ـ أَنَّ عيسى عليه السلام سينزلُه اللّهُ في آخرِ الزمان.

وهذا معناهُ أَنَّ عيسى حيٌّ لم يَمت، لأنه لو ماتَ فإنه لا يُبعث

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٤٤. ومسلم برقم: ٢٣٦٨. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٩٠.

إلا عندَ قيامِ الساعة، وهذا يؤكّدُ ما قلناه سابقاً من أنَّ اللّهَ رفَعَهُ إليه بروحِه وجسمِه، وهذه خصوصيةٌ له، وهي معجزةٌ من الله سبحانه.

وأنَّ اللّهَ أَبقاه حياً في السماءِ الثانية، طيلةَ القرونِ التي مضَتْ حتى الآن ـ عشرون قرناً ـ والقرونِ التي ستأتي، إلى أنْ يأذن اللّهُ بنزوله، وحياتُه في السماء حياةٌ غيبية، وليست حياةً كحياتنا، فلا نعرفُ كيفيتَها، لكننا نسلِّمُ بها.

وسينزلُه اللّهُ في آخرِ الزمان، وهذه آيةٌ عظمى من آيات الله، ومعجزةٌ باهرة من معجزاته.

وقد أَشارَ القرآنُ إشارةً موجزة في أكثر من موضع إلى نزولِه عليه السلام، بينما فصَّلَ رسولُ الله ﷺ ذلك في عدةِ أحاديثَ صحيحة.

إخبار القرآن أنه سيكلم الناس كَهلاً في آخر الزمان:

مواضعُ الإشارةِ إلى نزوله في القرآن هي:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا. . .﴾ [المائدة: ١١٠].

والشاهدُ في الآيتين ذكْرُ كلامِ عيسى عليه السلام للناس في المهد، وهو كهل.

ووجْهُ الاستشهاد أَنَّهُ ذَكَرَ كلامَه للناس في كهولته: «وكهلاً».

وقد كلمَ الناسَ وهو في المهد، أي: وهو على حضْنِ أمه، حيث بَرَّأَ أُمَّه من الشبهةِ والتهمة، وقَدَّمَ نفسَه إلى أهلها. وكان كلامُه وهو صغيرٌ في المهد آيةً من آيات الله.

وسيكلمُ الناسَ وهو كهل، حيث سينزلُه اللّهُ في آخرِ الزمان، فيراه الناسُ ويَسمعون كلامَه.

وذكَرَ كلامَه في حالتَيْه: في طفولتِه في المهد، وفي كهولتِه، لأنَّ هذا الكلامَ معجزةٌ خارقةٌ من معجزاتِ الله. فليس من مألوفِ البشر وعاداتهم أنْ يتكلمَ طفلٌ لم يمضِ على ولادتِه إلاّ ساعاتٌ أو أيام، كما أنه ليسَ من مألوفِ الناس أنْ يبقى إنسانٌ حياً عشراتِ القرون من السنين، ثم كلامُ الناسِ بعد هذه القرون المتطاولة.

قالَ ابنُ زيد في معنى الآية: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾: قد كلَّمهم عليه السلام في المهد. وسيكلِّمهم إذا قتلَ الدجالَ وهو يومئذٍ كَهل..[1].

وإخبار القرآن أنه «علم للساعة» من علاماتها الكبرى:

الثانية: قولُه تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦٢].

والشاهدُ في الآياتِ قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا..﴾.

والهاءُ في «إنه» تعودُ على عيسى عليه السلام، لأنَّ الآياتِ تتحدثُ عنه.

والمعنى: إنَّ عيسى عليه السلام عِلْمٌ تُعلمُ به الساعة. أي أنَّ نزولَه في آخرِ الزمان سيكون علامةً من علاماتِ الساعة، دالةً على قُربِ قيامِها.

---

(١) تفسير الطبري ٣: ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: هو خروجُ عيسى ابنِ مريم قبلَ يومِ القيامة.

وقالَ مجاهد: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: آيةٌ للساعة خروجُ عيسى عليه السلام قبلَ يومِ القيامة.

وهذا هو قولُ أَبي هريرة وأبي العالية وعكرمة وقتادة والحسن البصري وآخرين[1].

وهذا هو ما نرجِّحُه، لورودِ الأحاديثِ الصحيحةِ الشاهدةِ له، التي تدلُّ على نزولِه عليه الصلاة والسلام في آخرِ الزمان.

وإخبار القرآن أن النصارى سيؤمنون به قبل موته:

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

«إنْ»: حرفُ نفي بمعنى: ما. واجتماعُ «إنْ» و«إلا» يدلُّ على الحصر. والمعنى: ما مِن أهلِ الكتاب مِن أحدٍ إلاّ ليؤمنَنَّ بعيسى عليه السلام قبلَ موته.

والهاءُ في «به»: تعودُ على عيسى بالاتفاق.

أمّا الهاءُ في «موته» ففي ما عادَتْ عليه قولان:

القولُ الأول: تعودُ على عيسى عليه السلام. والمعنى: كلُّ واحدٍ من أهلِ الكتاب سيؤمنُ بعيسى عليه السلام، أَنه عبدُ الله ورسوله. وهذا يكونُ عند نزوله في آخرِ الزمان، حيث يقتلُ الدجال ويكسرُ الصليب، ولا يَقبلُ من الناس إلاّ الإسلام.

قالَ ابنَ عباس: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾: قبلَ موتِ عيسى ابن مريم.

وقالَ الحسنُ البصري: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾: قبلَ موت عيسى. واللّهِ إنه الآنَ لحيٌّ عند الله، ولكن إذا نزلَ آمنوا به أجمعون.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤:١٣٤ ـ ١٣٥.

القولُ الثاني: تعودُ على الكتابي. والمعنى إذا احتضرَ الكتابيُّ ودنتْ وفاتُه عاينَ الحقَّ من الباطل بشأنِ عيسى عليه السلام، فلا يموتُ الكتابيُّ إلاّ بعدَ أن يؤمنَ أنّ عيسى عبدُ الله ورسولُه. ولكن لا ينفعُه ذلك الإيمان.

وهذا قولُ مجاهد.

والراجحُ هو القولُ الأول. لأنَّ السياق في الحديثِ عن عيسى عليه السلام، فكان الحديثُ قبلَ الآية عن تكذيبِ اليهود في مزاعمِهم بقتلِ عيسى عليه السلام وصلبه، حيث قررَ أنهم ما قتلوه وما صلبوه يقيناً، وإنما قتلوا شَبَهه، أمّا عيسى فقد رفعَه اللّهُ إليه، وسيُنزلُه في آخرِ الزمان، وكلُّ كتابي يكونُ حياً وقتَ نزوله فلا بدَّ أن يؤمنَ أنه عبدُ الله ورسوله، وإلاّ يقتلُه عيسى عليه السلام.

وباقي الآية يدلُّ على ذلك، حيثُ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

والمعنى: أهلُ الكتابِ يؤمنون بعيسى عند نزولِه في آخر الزمان. ويومَ القيامة يكونُ عيسى عليهم شهيداً. يشهدُ على مَنْ كَذَّبه بالكفر، ويشهدُ لمن صَدَّقَه بالإيمان.

وعلى هذا القولِ الراجح تكونُ الآيةُ خبراً عن نزولِ عيسى عليه السلام في آخرِ الزمان..[١].

أمّا الأَحاديثُ الصحيحةُ التي تحدثَتْ عن نزوله فهي كثيرة، بحيث خصَّصَ لها الإمامُ محمد أنور شاه الكشميري كتاباً خاصاً سماه «التصريح بما تواتر في المسيح».

وقد اعتنى بالكتابِ وعلَّقَ عليه وأَشرفَ على طبعه الأستاذُ المحققُ الشيخُ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله.

وسنوردُ فيما يلي أهمَّ وأشهرَ الأحاديث:

---

(١) انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب ٣: ٨٣ ـ ٨٥.

حديث النواس بن سمعان عند مسلم وغيره بنزوله:

روى مسلمٌ وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد عن النّوّاسِ بنِ سَمْعان رضي الله عنه قال: «ذكَرَ رسولُ الله ﷺ الدجَّالَ ذاتَ غدة، فَخَفَّضَ فيه ورَفَّعَ، حتّى ظنَنّاه في طائفةِ النخل.

فانصرفْنا من عندِ رسول الله ﷺ، ثم رُحْنا إليه، فعرفَ ذلك فينا، فقال: ما شأنُكم؟

فقلنا: يا رسولَ الله: ذكرتَ الدجالَ غداة، فخفَّضْتَ فيه ورفَّعْتَ، حتى ظنناه في طائفة النخل.

فقال: غيرَ الدجال أَخوفني عليكم، إنْ يَخرجْ وأَنا فيكم فأنا حَجيجُه دونَكم، وإنْ يَخرجْ ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيجُ نفسِه، واللّهُ خليفتي على كل مسلم.

إِنه شابّ، قَطَط، عينُه طافئة، كأنّي أَشبهه بعبدِ العُزّى بنُ قَطَن. فمَنْ أَدركَه منكم فليقرأْ عليه فواتحَ سورةِ الكهف.

إِنه خارجٌ خُلَّةً بين الشام والعراق، فعاثَ يَميناً وعاثَ شِمالاً، يا عبادَ الله فاثْبَتُوا.

قلنا: يا رسولَ الله: وما لبثُه في الأرض؟

قال: أَربعون يوماً: يومٌ كسنة، ويومٌ كشهر، ويومٌ كجمعة، وسائرُ أيامِه كأيامكم.

قلنا: يا رسولَ الله: فذلك اليومُ الذي كسنة، أَتكفينا فيه صلاةُ يوم؟

قال: لا. اقْدُروا له قدْرَه.

قلنا: يا رسولَ الله: وما إسراعُه في الأرض؟

قال: كالغيثِ استدبرَتْهُ الريح. فيأتي على القوم، فيَدْعوهم، فيؤمنون به، ويَستجيبون له. فيأمرُ السماءَ فتمطر، والأرضَ فتنبت،

فتروحُ عليهم سارحتُهم أطولَ ما كانت ذُرىٰ، وأَسْبَغَه ضُروعاً، وأَمَدَّهُ خواصر.

ثم يأتي القومَ، فيدعوهم، فيردّوا عليه قولَه، فينصرفُ عنهم، فيصبحون مُمْحِلين، ليسَ بأيديهم شيءٌ من أموالهم.

ويمرُّ بالخربة، فيقولُ لها: أَخرجي كنوزَك، فتتبعُه كنوزُها كيعاسيبِ النحل.

ثم يَدعو رجلاً شابّاً، ممتلئاً شباباً، فيضربُه بالسيف، فيقطعُه جزلَتَيْن رميةَ الغَرَض، ثم يدعوه، فيُقبل، ويتهلَّلُ وجهه يضحك..

فبينما هو كذلك، إِذ بعثَ اللّهُ المسيحَ ابنَ مريم، فينزلُ عند المنارةِ البيضاء شرقيَّ دمشق، بين مهرودتَيْن، واضعاً كفَّيه على أجنحةِ مَلَكين، إِذا طأطأَ رأسَه قطر، وإِذا رفَعَه تحدَّرَ منه، جمانٌ كاللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافرٍ يجدُ ريحَ نَفَسِه إلا مات، ونَفَسُه يَنتهي حيثُ ينتهي طَرْفُه.

فيطلبُه حتى يدركَه بباب لُدّ، فيقتله!

ثم يأتي عيسى قومٌ قد عصمَهم اللّهُ منه، فيمسحُ عن وجوههم، ويحدثُهم بدرجاتِهم في الجنة.

فبينما هو كذلك، إِذ أَوحى اللّهُ إِلى عيسى عليه السلام: أَني قد أَخرجْتُ عباداً لي، لا يَدانِ لأحدٍ بقتالهم، فَحَرِّزْ عبادي إِلى الطور.

ويبعثُ اللّهُ يأجوجَ ومأجوج، وهم مِن كلِّ حَدَبٍ ينسلون، فيمرُّ أوائلُهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماءٌ.

ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأَصحابُه، حتى يكونَ رأسُ الثور لأحدِهم خيراً من مائةِ دينار لأحدكم اليوم. فيرغبُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأَصحابُه إِلى الله تعالى، فيرسِلُ اللّهُ عليهم النغفَ في رقابهم، فيصبحون فَرْسىٰ، كموتِ نَفْسٍ واحدة.

ثم يَهبطُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأَصحابُه إلى الأرض، فلا يَجدون في الأرض موضعَ شبرٍ إلاَّ ملأَهُ زَهَمُهُم ونَتَنُهُم! فيرغبُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأَصحابُه إلى الله، فيرسلُ اللّهُ طيراً كأعناقِ البُخْت، فتحملُهم فتطرحُهم حيثُ شاء الله.

ثم يرسلُ اللّهُ مَطَراً، لا يَكُنُّ منه بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، فيغسلُ الأرضَ حتى يتركها كالزَّلَقَة.

ثم يُقال للأرض: أَنبتي ثمرتَك، وردّي بركتَك. فيومئذ تأكُلُ العصابةُ من الرمانة، ويَستظِلّون بقَحْفِها! ويبارَكُ في الرِّسْلِ، حتى إنَّ اللِّقحةَ من الإبلِ لتكفي الفئامَ من الناس، واللِّقحةَ من البقرِ لتكفي القبيلةَ من الناس، واللِّقحةَ من الغنم لتكفي الفخذَ من الناس.

فبينما هم كذلك، إذْ بعثَ اللّهُ ريحاً طيبة، فتأخذُهم تحتَ آباطهم، فتَقبضُ روحَ كلِّ مؤمن وكلِّ مسلم، ويبقى شِرارُ الناس يتهارَجون فيها تَهارُجَ الحُمُر، فعليهم تقومُ الساعة..»[1].

وقفة مع حقائق ذلك الحديث الصحيح:

أَوردْنا هذا الحديثَ الصحيحَ بطوله ليقفَ القارئُ على الجوِّ الذي ينزلُ فيه عيسى عليه السلام. ونَدعو القارئَ إلى الوقوفِ على شرحِ النووي له[2]، وشرحِ الشيخ عبد الفتاح أبي غدة له[3].

ويهمُّنا فيه الجزءُ المتعلقُ بنزولِ عيسى عليه السلام. حيث ينزلُه اللّهُ في عنفوانِ قوةِ وطغيانِ المسيح الدجال.

ويكونُ نزولُه من السماء عند المنارةِ البيضاء، شرقيَّ مدينة دمشق المعروفة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٩٣٧. وأبو داود برقم: ٤٢٩٩. والترمذي برقم: ٢٣٤١. وابن ماجة برقم: ٤٠٧٥. وأحمد في المسند ٤: ١٨١ ـ ١٨٢. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣١٣.

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٨: ٦٣ ـ ٧٠.

(٣) انظر التصريح بما تواتر في نزول المسيح للكشميري: ١٠٢ ـ ١٢٦.

وعندما يَنزلُ يكونُ لابساً «مهرودَتَين» وهما حُلَّتان جميلتان، فيهما لونٌ أصفرُ خفيفٌ جميل. فيجمعُ بين جَمالِ الخِلْقَة والهيئة، وجمالِ اللباس والزينة.

ويصاحبُه في النزولِ اثنان من الملائكة، ينزلان معه من السماء، حيث يكونُ بينهما، واضعاً كفَّيْه على أجنحتِهما.

ويكون رأسُه يقطرُ ماءً، وهذا الماءُ عليه من السماء، فإذا طأطأَ عليه السلام رأسَه وخَفَضَه نحو الأسفل، نزلَ منه الماءُ على شكل قطراتٍ كثيرةٍ متتابعة. وإذا رفعَ رأسَه إلى أَعلى نزلَ منه الماء بطيئاً، وتكون قطراتُه كبيرةً كحبات اللؤلؤ.

ونزولُه والماءُ يقطر من رأسِه ليوافقَ الحالةَ التي رفعه اللّهُ فيها إلى السماء، حيث مَرَّ مَعَنا كلامُ ابنِ عباس رضي الله عنهما أَنه عليه السلام قبلَ أنْ يرفعه اللّهُ إلى السماء، كان رأسُه يقطرُ ماء. فينزلُ ورأسُه يقطر ماء، ليكونَ نزولُه على نفسِ الحالة التي رفعه اللّهُ عليها.

وعندما يَنزلُ عيسى عليه السلام يُقَوِّي اللّهُ نَفَسَه، ويَزيدُ اللّهُ في مدى تأثيره، فيصلُ مفعولُ أَنفاسه إلى نهايةِ بصره. وأيُّ كافرٍ يشمُّ نَفَسَه يموتُ مباشرة، قبلَ أنْ يصلَه عيسى عليه السلام، وهذه معجزةٌ لعيسى عليه السلام، يُجريها الله على يديه.

واللطيفُ أنَّ نَفَسَ عيسى عليه السلام جعلَ اللّهُ فيه معجزةً باهرة، فلما كان نبياً في بني إسرائيل كان ينفخُ في التمثال الذي على هيئةِ الطير، فيجعله اللّهُ طيراً حياً، أي أنَّ نَفَسَه كان سبباً مباشراً في إحياءِ التمثال الجماد، وعند نزولِه في آخرِ الزمان يكون نَفَسُه سبباً في موتِ الكفار الأحياءِ! واللّهُ هو المحيي في الأُولى، وهو المميتُ في الثانية.

ويلحقُ عيسى عليه السلام المسيحَ الدجال، فيهربُ الدجالُ منه، ويتوجَّهُ إلى فلسطين، فيدركُه عيسى عليه السلام في مدينة «اللد» فيقتُلُه فيها، وهي مدينةٌ فلسطينية بجانب الرملة، وقريبةٌ من بيت المقدس.

وبقتْلِه للمسيح الدجال يُنهي فتنتَه الكبرى، ويُريحُ الناسَ من شره.

ويتجمعُ حولَ عيسى ابن مريم عليه السلام المؤمنون الصالحون، الذين عصمهم اللّهُ من فتنةِ المسيح الدجال، ويَفرحون بالتخلصِ منه، ويَسعدون بالحياةِ مع عيسى عليه السلام. فيمسحُ على وجوههم ويبشرُهم بالفوز، ويخبرُهم بدرجاتِهم في الجنة.

وبينما هم كذلك في غايةِ السعادةِ والسرور، يُخرجُ اللّهُ قومَ يأجوج ومأجوج من جهةِ الشرق، ويتوجَّهون نحو فلسطين..

ويخبر اللّهُ عيسى عليه السلام أنه لا قدرةَ لأحدٍ على قتال يأجوج ومأجوج، لأَنهم أَقوى قوةٍ بشرية على وجْهِ الأرض! ويأمُرُ اللّهُ عيسى عليه السلام أنْ يتحصَّنَ مع أَتْباعِه المؤمنين في جبل الطور، وهو الجبلُ الذي في سيناء، الذي ناجى موسى عليه السلام ربَّه عليه. فإنَّ الله سيحميهم من يأجوج ومأجوج.

ويتحصَّنُ عيسى عليه السلام مع أَتْباعه المؤمنين على جبلِ الطور، ويغزو يأجوجُ ومأجوج البلاد، وهم كثيرون كثرةً عجيبة، يملأونَ السهول والجبال، ويَنسِلون ويَسيرون مسرعين في جميعِ البلدان.

ومما يدلُّ على كثرتهم أنَّ أَوَّلَهم يمرُّ على بحيرةِ طبرية المعروفة، الواقعة في الجولان، والتي يخرجُ منها نهرُ الأردن ليصبَّ في البحرِ الميت، فيشربون ماءَها، وما أنْ يأتيَ آخرُهم عليها حتى يروها جافةً لا ماءَ فيها، لأنَّ مَن سَبقوهم استنزفوها وشربوها! فيقولون: عَلِمْنا أنه كان هنا بحيرة، وأنه كان فيها ماء! فأين ذهبَ ماؤُها؟!

ويحاصِرُ يأجوجُ ومأجوج عيسى عليه السلام وأَتْباعَه على جبل الطور، حيث يكونُ المؤمنون محصورين على الجبل، وتكونُ جموعُ يأجوج ومأجوج محيطةً به.

ويشتدُّ الحصارُ على المؤمنين، وتَضيقُ عليهم الأمور، ولا يَجدونَ ما يأكلون، حتى يكونَ رأسُ الثور خيراً من مائةِ دينار، لأَنهم لا يجدونه!

ويُقبلُ عيسى عليه السلام ومَنْ معه على الدعاء، فيدعون اللّهَ ويتضرعون إليه، ويطلبونَ منه إهلاكَ يأجوج ومأجوج.

ويستجيبُ اللّهُ دعاءَ نبيِّه وأوليائِه المحصورين، ويُرسلُ على يأجوج ومأجوجِ المرضَ والوباء، ويكونُ على شكلِ «النَّغَفِ» في رقابهم، والنَّغَفُ دودٌ يكون في أُنوفِ الإبلِ والغنم، ويكون هذا وباءً عاماً يَقضي عليهم في ليلةٍ واحدة. وإهلاكُهم بالدودِ الصغير لهوانِهم على الله، ومكْرِه سبحانه بهم، حيثُ يَقضي عليهم ويهلكهم بأهونِ شيءٍ وأحقره.

وفي الصباح يُصبحون جميعاً أمواتاً، ليس فيهم إنسانٌ حي!

ويَنزلُ عيسى عليه السلام والمؤمنون عن جبلِ الطور، فيجدون أرضَ سيناءَ حول الجبل مغطاةً بجثثِ يأجوجِ ومأجوج، ويتأذَّون بروائحِ جيفِ الهالكين الكفار. ويَطلبون من الله أَنْ يُريحهم من هذه الجيفِ المنتنة.

ويَستجيبُ اللّهُ دعاءَهم بآيةٍ واضحةٍ من آياته، فيرسلُ طيوراً من عنده، هذه الطيورُ كبيرةٌ ضخمة، الواحدُ منها بحجمِ الجملِ الكبير! فتحملُ الطيورُ تلك الجيفَ وتطرحُها بعيداً.

ويُتِمُّ اللّهُ إنعامَه على المؤمنين فيرسلُ مطراً شديداً قوياً يعمُّ المنطقة، ويَصلُ كلَّ مدنِها وقراها وبيوتها وخيامها، ويغسلُ هذا المطرُ الأرضَ من آثارِ ونتنِ الكفار ويطهِّرُها ويعقمُها، فتصبحُ نظيفةً نقية معقمة!

ويُقيمُ عيسى عليه السلام والمؤمنون في الأرض المقدسة، ويَحمدون اللّهَ على الخلاصِ من الدجال وجيشه، والخلاصِ من يأجوج ومأجوج. ويَعيشون حياةً هي أسعدُ الحياةِ على وجه الأرض في تاريخِ الأرض كلِّه، منذ آدمَ عليه السلام.

ويأمرُ اللّهُ الأرضَ أنْ تُنبتَ ثمرتَها، وأنْ تُعِمَّ بركَتَها، فقد زالَ

الكفرُ الذي كان يمحقُ البركة، ويهلكُ الثمرة. ويُكرمُ اللّهُ المؤمنين بالخصْبِ والرفاه والبركة.

وتكبرُ ثمارُ الأشجارِ كثيراً، ويباركُ الله فيها، فإنَّ حبةَ الرمانِ الواحدةَ تكفي الجماعةَ من الناس، بحيثُ يَشبعون منها، وإذا قشَّروها وأَكلوها، فإنهم يستظلّون بقشْرِها لكبَرِ حجمه، وكأنه خيمةٌ كبيرة! أي أنَّ حجمَ الرمانة الواحدة يكون بحجمِ الخيمة.

وتَدُرُّ الأنعامُ من الإبل والبقر والغنم، ويباركُ الله في حليبها، فيزيدُه زيادةً كبيرة، بحيثُ إذا حلبوا الناقةَ فإنَّ حليبَها يكفي المجموعةَ الكبيرة من الناس، الذين هم أكثرُ من القبيلة. وإذا حلبوا البقرةَ فإنَّ حليبَها يكفي القبيلةَ ويُشبعها، وإذا حلبوا الشاةَ فإن حليبَها يكفي الفخذَ من القبيلة ويشبعهم.

ويَسعدُ المؤمنون مع عيسى عليه السلام بهذه الحياةِ الإيمانية السعيدة، وهذا الخصبِ والرخاء الاقتصادي.

ويموتُ عيسى عليه السلام موتاً طبيعياً، ويَدفنُه المؤمنون، وبعد فترةٍ يُنهي اللّهُ أَعمارهم، ويَأتيهم بآجالِهم، فيرسلُ عليهم ريحاً طيبة، تأخذُهم تحتَ أباطهم، فيموتون جميعاً بهدوءٍ ويسر!

ولا يبقى إلاّ شرارُ الناس وسفهاؤُهم، ويستحوذُ عليهم الشيطان، ويكونون عبيدَ الشهوات والفواحش، ويتهارَجون كما تتهارَجُ الحمير، بحيث يسيرُ الرجالُ والنساء عراة، ويُجامعُ الرجلُ المرأةَ ويزني فيها علانية، على مرأى من الآخرين!!

وعلى هؤلاءِ السفهاءِ السفلةِ تقومُ الساعة.

هذا معنى الجزءِ المتعلق بعيسى عليه السلام عند نزولِه في آخر الزمان، من حديثِ النواس بن سمعان رضي الله عنه.

ونقتطفُ من الأحاديثِ الصحيحة الأُخرى الجزءَ المتعلقَ بنزولِ عيسى عليه السلام، وأَعمالِه.

وحديث أبي أمامة الباهلي عند أبي داود وغيره:

روى أَبو داود وابنُ ماجة والحاكمُ عن أَبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ، فكانَ أكثَرُ خطبتِه حديثاً حَدَّثَناهُ عن الدجال، وحَذَّرَناه، وكان مما قال: «.... العربُ يومئذ قليل.. وإِمامُهم رجلٌ صالح، فبينما إمامهم قد تقدَّمَ يصلي بهم الصبح، إِذْ نزلَ عليهم عيسى ابنُ مريم الصبح، فرجعَ ذلك الإمامُ ينكص، يَمشي القهقهرى، ليقدِّم عيسى يُصلي، فيضعُ عيسى عليه السلام يَدَه بين كتفيه، ثم يقولُ له: تَقَدَّمْ فَصَلِّ، فإنها لك أُقيمت. فيصلّي بهم إِمامُهم..

فإِذا انصرفَ قالَ عيسى عليه السلام: افتحوا الباب.

فيُفْتَح، ووراءَه الدجال، ومعه سبعونَ ألفَ يهودي، كلُّهم ذو سيفٍ مُحَلّى، وساج!

فإِذا نظرَ إِليه الدجالُ ذاب، كما يذوبُ الملحُ في الماء، وينطلقُ هارباً..

فيدركُه عند بابِ لُدِّ الشرقي فيقتلُه، فيَهزمُ اللّهُ اليهود، فلا يبقى شيءٌ مما خلقَ اللّهُ يَتوارى به يهوديٌّ إلاَّ أَنطقَ اللّهُ ذلك الشيء، لا حجرٌ ولا شجرٌ ولا حائطٌ ولا دابة ـ إلاّ الغَرْقَدَةُ فإِنها من شجرِهم لا تنطق ـ إلاّ قال: يا عبدَ الله المسلم: هذا يهوديٌّ فتعالَ اقتله!

.....

فيكونُ عيسى ابنُ مريم في أُمَّتي حكماً عادلاً، وإِماماً مقسطاً. يَدُقُّ الصليب، ويَذبحُ الخنزير، ويضعُ الجزية، ويتركُ الصدقة، فلا يُسعىٰ على شاةٍ ولا بعير، وتُرفَعُ الشحناءُ والتباغض، وتُنزعُ حُمَةُ كلِّ ذاتِ حُمَة، حتى يُدخلُ الوليدُ ـ أي الطفلُ الصغير ـ يَدَه في «في» الحَيّة ـ أي: في فمها ـ فلا تضرُّه، وتَعِزُّ الوليدةُ الأَسَدَ فلا يضرُّها، ويكونُ الذئبُ في الغنم كأنه كلبُها، وتُملأُ الأرضُ من السِّلْمِ كما يُملأُ الإناءُ من

الماء. وتكون الكلمةُ واحدةً، فلا يُعْبَدُ إلاّ الله، وتَضَعُ الحربُ أوزارَها، وتَسْلُبُ قريشٌ مُلْكَها.

وتكونُ الأرضُ كَفاثورِ الفضة، تُنبتُ نباتَها بعهدِ آدم، حتى يجتمعَ النفرُ على القُطْفِ من العنب فيُشبعُهم، ويَجتمعُ النفرُ على الرمانة فتُشبعُهم، ويكون الثورُ بكذا وكذا من المال، وتكونُ الفرسُ بالدُّرَيْهِمات....»[1].

وقفة مع معاني حديث أبي أمامة:

ونَدعو إلى النظرِ في حديثِ أَبي أمامةَ الباهليِّ كلِّه في المراجعِ التي أَحَلْنا عليها، كما ندعو إلى الوقوفِ على شرحه في «التصريح بما تواتر في نزول المسيح»[2].

أَخْبَرَنا رسولُ الله ﷺ في الحديث أنَّ اللّهَ يُنزلُ عيسى عليه السلام عندما تُقامُ صلاةُ الفجر، ويكون المجاهدون المواجهون لجيشِ المسيحِ الدجال مستعدّين للصلاة، فعندما يحسُّ إمامُهم بحركةِ عيسى نازلاً عليه السلام، يتراجعُ إلى الخلف، ليصلّي عيسى إماماً.

فيتقدَّمُ إليه عيسى عليه السلام، ويطلبُ منه أنْ يكونَ هو الإمام، لأنها أُقيمتْ له، ويصلي عيسى عليه السلام مأموماً خلْفَه.

وبعدَ صلاةِ الفجر يتسلَّمُ عيسى عليه السلام قيادةَ الجيشِ المجاهد. ويقومُ بمواجهةِ المسيح الدجال وجيشِه من اليهود وغيرهم.

ويكونُ مع الدجال سبعونَ ألفاً من اليهود، مسلَّحين بالسيوفِ المحلاّة بالذهب والفضة، ويَلبسون الملابسَ الفاخرة.

وعندما يرى المسيحُ الدجالُ عيسى عليه السلام يهربُ منه،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٣٢٢. وابن ماجة برقم: ٤٠٧٧. والحاكم في المستدرك ٤: ٥٣٦. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣١٤. والتصريح رقم: ١٣.

(٢) انظر شرح الحديث في «التصريح»: ١٤٢ ـ ١٥٨.

ويذوبُ كما يذوب الملحُ في الماء، ويَختفي، وتزولُ عنه مظاهرُ القوة التي كان يَدّعيها، ويعلمُ أنَّ نزولَ عيسى عليه السلام معناه انتهاءُ فتنته والقضاءُ عليه.

ويَقتلُ عيسى عليه السلام الدجالَ عند باب اللّدّ الشرقي، ويهزمُ اللّهُ اليهود، ويلاحقُ المجاهدون فُلولَ المنهزمين اليهودِ ويَقضون عليهم، ويُظهرُ اللّهُ آيةً من آياتِه الباهرة. فيُنطقُ سبحانه كلَّ شيء يختفي خلْفَه يهودي، سواء كانَ شجراً أو حجراً أو جداراً أو دابة، فإذا رأى ذلك الشيءُ مسلماً مجاهداً، فإنه يدلُّه على اليهوديِّ المختفي خلْفَه، ويقولُ له: يا عبدَ الله المسلم، هذا يهودي، فتعالَ اقتُلْه.

ولا يتسترُ على اليهودِ إلاّ شجرٌ كريهٌ مُؤذٍ، هو شجرُ «الغَرْقَد» أَوراقُه صغيرة، وأشواكُه كثيرة، و«يُسَوِّرُ» به اليهودُ الآن مزارعَهم التي يقيمونها على أرضِ فلسطين التي اغتصبوها في هذا الزمان.

وهكذا يُبادُ اليهود إبادةً كاملة عند نزولِ عيسى عليه السلام!

وقد أَخْبَرَنا رسولُ الله ﷺ عن مظاهرِ حكمِ عيسى عليه السلام، وبعضِ الأعمال التي سَيقومُ بها:

سيكونُ حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً: وهذا معناه أَنه سينزل حاكماً بالشريعةِ الإسلامية، ويُظهرُ العدلَ بين الناس، ويُطبقُ فيهم حكمَ الله.

وسيدقُّ الصليبَ ويَكسره: لأنَّ النصارى يعتقدون أنَّ «يسوع» قد قتلَه اليهودُ وصَلَبوه على الصليب، والصليبُ جزءٌ أَصيلٌ في الديانةِ النصرانية.

فعندما ينزلُ عيسى عليه السلام سَيُكَذِّبُ النصارى في مزاعمهم الصليبية، وسيُعلنُ براءَتَه من الصليب، عندما يقومُ بكسره ودقِّه، وهذا إِبطالٌ منه للنصرانية، وإلغاءٌ لها!

وسيقتلُ الخنزير: وهذا تكذيبٌ منه آخر للنصارى، فالنصارى يتلَذَّذون بأكلِ لحمِ الخنزير، ويزعمونَ أن عيسى أَباحه لهم، ولهذا

سيكونُ قتْلُه للخنزيرِ تكذيباً لهم، وتأكيداً على حرمتِه ونجاسته!

وسيضعُ الجزية: أي يُبطلُها ويُلغيها، وقد كانَ يدفعُها أهلُ الكتاب من اليهودِ والنصارى للمسلمين، مقابلَ حمايتهم لهم وبقائِهم على ديانتهم.

وعندما يَنزلُ عليه السلام سيُلغي اليهوديةَ والنصرانية، فلا يَقبلُ من اليهودِ والنصارى إلا الإسلام، ومَنْ لم يسلم يقتلُه.

وسيتركُ عيسى عليه السلام الصدقة وجمعَ الزكاة، فلا يُرسلُ عمالَه لجمع الزكاة من الإبل والبقر والغنم، ولا يأخذُ زكاةَ الأموال، وذلكَ لأنَّ الناسَ جميعاً يكونون أَغنياء، ليس بينهم فقيرٌ واحد، فلمن يَجمعونَ الزكاة؟ ولمن يُعطونها؟ والناسُ جميعاً أغنياء!!

ويكونُ الناس جميعاً في عهد عيسى القادم عليه السلام مسلمين صالحين، وإِخواناً متحابين، ليس بينهم شحناءَ ولا بغضاءَ، وإِنما بينهم مودةٌ ومحبة، ورأفةٌ ورحمة!!

ويعيشونَ حياةً مثالية، هي الذروةُ في السعادة والرفاهية، ويرفعُ اللّهُ عنهم كلَّ أنواع الأَذى، حتى الخطرَ الذي كانت تمثلُه الحشراتُ والزواحفُ والحيواناتُ يزيلُه الله!

حتى الحشراتِ والزواحفِ السامة كالأَفاعي والعقارب والزنابير سينزَعُ اللّهُ «حُمَتَها» التي كانت تُفرزُ السم، وتَلدغُ أو تلسعُ بها، فلا تُؤذي بها أحداً.

وسيلعبُ الناسُ بالزواحف والحيوانات، وهم آمِنون مطمئنون، فالطفلُ الصغيرُ سيضعُ يَدَه في فم الحية ملاعِباً لها، وهو آمِن. والطفلةُ الصغيرةُ ستأتي للأَسَد، وتفتحُ فَمَه وتكشفُ عن أسنانِه، وتلاعبه، وهو فَرِحٌ بها لا يؤذيها!!

وسيكونُ الذئبُ مع الغنم، لا يُؤذيها ولا يفترسها، وإنما كأَنَّه كلْبُ حراسةٍ لها يحرسُها.

وسيعمُّ السِّلْمُ والسَّلامُ والأمنُ والأمانُ حياةَ الناس، لأنهم يعيشون في ظلالِ حكمِ الإسلام، الذي يطبقُه عليهم عيسى عليه السلام.

ولا يكونُ في الأرض إلاّ الإسلام، ولا يُعْبَدُ إلا الله، وستضعُ الحربُ أوزارها، وتَنتهي المعاركُ والاشتباكات، لعدمِ وجودِ كفارٍ يقاتلُهم المسلمون.

وسيكونُ الأمْرُ والحكمُ والملكُ لقريش، وسيعيدُ اللّهُ لها ملكها الذي سَلَبَهُ الآخرون منها، وسيكونُ القرشيون مساعدين في الحكمِ لعيسى عليه السلام.

وسيأمرُ اللّهُ الأرضَ بالإِنبات والإِثمار، ويباركُ لها في ثمارها، إكراماً لهؤلاء المسلمين السعداء.

ستكونُ الأرض «كَفاثورِ الفضة»، والفَاثورُ هو الخِوانُ أو المائدة، أي ستؤتي الأرضُ ثمارَها وخيراتِها على أحسنِ صورة.

ستكونُ الثمارُ كبيرةً مباركة كما كانت في عهدِ آدم عليه السلام، قبلَ أنْ يَظهرَ الكفرُ ويَمحقُ البركةَ.

ومن مظاهرِ ذلك أنْ يكونَ قطفُ العنب كبيراً يُشْبِعُ المجموعةَ الكبيرة من الناس، كما تكونُ الرمانة الواحدة كبيرة تُشبع المجموعةَ من الناس أيضاً.

وسيُقبلُ المسلمون على الزراعةِ بسعادةٍ ودأب ونشاط، لانتهاءِ الحربِ والقتال، وانتشارِ السلام والإسلام، وسترخصُ الخيول جداً لعدم الحاجةِ لها في حرب، بينما سترتفعُ أَثمانُ البقرِ والثيران، بحيث يكونُ الثورُ بكذا وكذا من المال، لكثرةِ الطلبِ عليه في الحراثةِ والزراعة!!..

أحاديث أخرى صحيحة في نزوله وأعماله:

ومن الأحاديثِ الصحيحةِ في نزول عيسى عليه السلام ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ:

«والذي نفسي بيدِه، ليوشِكَنَّ أنْ ينزلَ فيكم ابنُ مريم حَكَماً عدلاً، فيكسرُ الصليب، ويَقتلُ الخنزير، ويَضعُ الحرب، ويَفيضُ المالُ حتى لا يقبلَه أَحد، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها.

ثم يقولُ أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾[١].

والملاحَظُ أنَّ الرسولَ ﷺ يُقسمُ باللّهِ على نزولِ عيسى عليه السلام، ويذكُرُ من أَعمالِهِ، حكْمَه بالقسط والعدل، وكسْرَ الصليب، وقتْلَ الخنزير، وإنهاءَ الحرب ووضْعَها، وسيتمتعُ المؤمنونَ بالغنى وكثرةِ المال، بحيث لا يكونُ بينهم فقير.

والملاحَظُ أنّ أبا هريرة رضي الله عنه استشهدَ بالآية، وهو يَروي الحديث، وهذا من علْمِه وفقهه رضي الله عنه، فالآيةُ تخبرُ عن نزولِ عيسى عليه السلام، وعن إيمانِ أهلِ الكتاب الأَحياءِ به عند نزوله، أنه عبدُ الله ورسولُه ـ كما ذكرنا هذا من قبل ـ والحديثُ جاءَ مؤكِّداً لما قررتْه الآية.

ومنها ما رواه مسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «واللّهِ! لينزلَنَّ ابنُ مريم حَكَماً عادلاً. فَلَيْكِسَرنَّ الصليب، وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزير، وَلَيَضَعْنَّ الجزية، وَلَتُتْرَكَنَّ القِلاصُ فلا يُسعى عليها، وَلَتَذْهَبَنَّ الشحناءُ والتباغضُ والتحاسد، وَلَيُدْعَوَنَّ إِلى المالِ فلا يقبلُه أَحد..»[٢].

إنَّ رسولَ الله ﷺ يقسمُ باللّهِ على نزولِ عيسى عليه السلام، ويؤكِّدُ على كلِّ فعلٍ من أَفعالِه بعدةِ أدواتِ التوكيد: «لَيَنزلَنَّ، لَيَكْسرَنَّ، لَيَقتلَنَّ، ليضعَنَّ، لَتتركَنَّ، لتذهَبَنَّ، ليدعَوَنَّ..» وذلك لينفي أيَّ شكٍّ في نزوله.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٢٢٢. ومسلم برقم: ١٥٥. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٢٧.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٥٥. وهي رواية أخرى للحديث السابق عند مسلم.

والقِلاصُ التي تُتركُ هي خيارُ الإبل، وأَفضلُها عند أصحابها، يتركُها أَهلُها لزهدِهم في الدنيا، ورغبتِهم في الدار الآخرة، والقِلاصُ هي أَشرفُ الأموال وأفضلُها.

ومن فضْلِ الله على المسلمين في ذلك الزمان أنْ تذهبَ الشحناءُ والبغضاء من بينهم، وأنْ يزولَ التحاسدُ والتهاجرُ عنهم. وهي من أشدِّ وأخطرِ أمراضِ القلوب والنفوس، وسببُها هو التهالكُ على الدنيا والتقاتلُ عليها، ذلك التهالكُ الذي يؤدي إلى العداواتِ بين الناس.

فالناسُ في زمانِ نزول عيسى عليه السلام يكونون زاهدين في الدنيا، مُقبلين على العبادة، راغبين في الآخرة، فَعلى ماذا يَتحاسدون؟ ولماذا يتباغضون؟

وقد أَخْبَرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ نزولَ عيسى عليه السلام من علاماتِ الساعة الكبرى.

روى مسلمٌ والترمذي عن حذيفةَ بن أُسَيْدٍ رضي الله عنه قال: اطلعَ النبيُّ ﷺ علَينا، ونحن نتذاكَرُ الساعة. فقال: ما تذاكرون؟.

قالوا: نذكُرُ الساعة.

قال: إنها لن تقومَ حتى تروا عَشْرَ آيات: الدخانَ، والدجالَ، والدابةَ، وطلوعَ الشمسِ من مغربها، ونزولَ عيسى ابن مريم، ويأجوجَ ومأجوج، وثلاثَ خسوف: خسفٍ بالمشرق، وخسفٍ بالمغرب، وخسفٍ بجزيرة العرب، وآخرُ ذلك نارٌ تَخرجُ من قِبَلِ المشرق، تطردُ الناسَ إلى محشرهم...»[1].

وبما أنَّ عيسى عليه السلام سيحكمُ بشريعةِ الإسلام عندما ينزل، فسوفَ يُصلّي بالمسلمين إماماً في الصلوات، وسيذهبُ إلى الحج، وسيؤدّي المناسك!

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٩٠١. والترمذي: ٢١٨٣. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٢٩٩.

روى مسلمٌ وأحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لَيُهِلَّنَّ ابنُ مريم بِفَجِّ الرَّوْحاء حاجّاً أو مُعتمراً، أو لَيُثَنِّيَنَّهُما..».

ولفظُ أحمد في المسند: «يَنزلُ عيسى ابنُ مريم، فيقتلُ الخنزير، ويمحو الصليب، وتُجمعُ له الصلاة، ويُعطىٰ المال حتى لا يُقبل، ويَضعُ الخراج، وينزل الروحاء، فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما..

وتلا أَبو هريرة رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[1].

إِنّ عيسى عليه السلام سيذهبُ للحجِّ أَو العمرة، وسيُحرمُ من «فَجِّ الروحاء» بالتحديد. وهو على بُعْدِ ستةِ أميال من المدينةِ في الطريق إلى مكة.

سيكونُ إِحرامُه بالحجِّ أو بالعمرة، أو بهما معاً.

سينزل عيسى على مؤمنين مجاهدين:

ومن البُشرياتِ التي نأخُذُها من أَحاديثِ رسول الله ﷺ، أَنه عندما يَنزلُ عيسى عليه السلام يَنزلُ على مسلمين مجاهِدين، حيث تكونُ طائفةُ الحق قوية، تجاهدُ أَعداءها، لها أميرٌ يقودُها في الجهاد.

روى مسلمٌ وأحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي يقاتلون على الحقِّ ظاهرين إلى يومِ القيامة. فينزلُ عيسى ابنُ مريم عليه السلام.

فيقولُ أميرهم: تعالَ صَلِّ لنا!

فيقول: لا. إِنَّ بعضَكم على بعضٍ أُمراء، تكرمةَ اللّهِ هذه الأمة»[2].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ وأحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٢٥٢. وأحمد ٢:٢٤٠. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٢٨.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٥٦. وأحمد ٣:٣٤٥. وانظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٢٣.

«كيف أَنتم إِذا نزلَ ابنُ مريم فيكم، وإِمامُكم منكم..»[1].

وهذه البشرىٰ تُخبرُنا أنَّ الحقَ أصيلٌ في هذه الأمة، وأنَّ الخيرَ كامِنٌ مستقرٌ فيها، وأنَّ الطائفةَ الثابتةَ على الحق موجودةٌ باقيةٌ فيها، وأنَّ الجهادَ مستمرٌ موصولُ الحلقات.

وآخرُ تلك الحلقات ما كانت عندَ نزولِ عيسى عليه السلام، حيث سينزلُ والمجاهدون موجودون أَقوياء، لهم إِمامٌ يؤمُّهم، وأَميرٌ يقودُهم في الجهاد.

وعندما ينزلُ عيسى عليه السلام تكونُ صلاة الفجر قد أُقيمت، فيرفضُ أنْ يُصليَ بهم إماماً، لأنَّ الصلاةَ أُقيمتْ لأميرهم، فيصلي النبيُّ مأموماً خلفَ الإمام المجاهد، ثم يستلمُ القيادةَ بعد ذلك.

ولا يجوزُ القعودُ والتواكلُ والتكاسلُ، وتركُ الإصلاحِ والدعوةِ والجهاد، بحجةِ تأجيلِ الإصلاح والجهاد بانتظارِ نزولِ عيسى عليه السلام[2].

وهؤلاء المجاهدونَ مع عيسى عليه السلام سيعصمهم اللّهُ من النار.

روى النسائيُّ وأحمدُ عن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «عِصابتان من أُمتي أَحرزهما اللهُ من النار: عصابةٌ تَغزو الهند، وعصابةٌ تكونُ مع عيسى ابن مريم عليه السلام..»[3].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٤٩. ومسلم برقم: ١٥٥. وأحمد ٢:٣٣٦. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٢٤.

(٢) انظر المقدمة الجيدة للشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله لكتاب التصريح فيما تواتر في نزول المسيح: «كلمة إلى المتواكلين...».

(٣) أخرجه أبو داود برقم: ٤٣٢٤. وأحمد ٢:٤٠٦. انظر الأحاديث الصحيحة رقم: ٣٣٠.

ومعنى العصابة المجموعةُ القويةُ المتماسكة، والتعبير عن المجاهدين بالعصابة يدلُّ على شدتِهم وقوتِهم وبأسِهم وتماسكِهم.

شهدَ الرسولُ ﷺ لمجموعتيْن من مجموعاتِ المجاهدين على مدارِ التاريخ الإسلامي، وليسَ هذا للحصرِ بل للتمثيل، فكلُّ مجموعاتِ المجاهدين الصادقين على الحق، وسيتقبلُ اللّهُ جهادَها، ويُحرزُها ويَعصمُها من النار.

للمجاهدين الذين يفتتحون بلادَ الهندِ أجرٌ عظيمٌ عند الله، وحصلَ هذا في الفتوحات الإسلامية، التي ابتدأَتْ على يد «محمدِ بن القاسم الثقفي» رحمه الله، زمنَ الأمويين، ثم تتابعَتْ بعد ذلك في العهودِ الإسلاميةِ اللاحقة.

وللمجاهدينَ مع عيسى عليه السلام أجْرٌ عظيم، يعصمهمُ اللّهُ به من النار، لأنهم يَقضون على فتنةِ المسيح الدجال، ويُبيدون مَنْ معه من الكفار.

سيموت عيسى ويدفن بعد أربعين سنة من نزوله:

وقد أَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ المسلمينَ الصالحين سيَسْعدونَ بالحياةِ مع عيسى عليه السلام بعد نزولِه أربعين سنة، ونصَّ على أن عيسى سيعيشُ أربعين سنة، يقومُ فيها بالأعمالِ العظيمة.

وبعدَ ذلك سَيُنهي اللّهُ أَجَله، فيموتُ موتاً طبيعياً، ويدفنُه المسلمون بعدَ أنْ يصلّوا عليه.

روى أَبو داود وأحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: «ليس بيني وبينَ عيسى نبي، وإنه نازل، فإذا رأيْتُموه فاعْرِفوه: رجلٌ مربوع، إلى الحمرةِ والبياض، ينزلُ بين مُحَصَّرتَيْن، كأنَّ رأسَه يقطر، وإنْ لم يُصبه بَلَل، فيقاتلُ الناسَ على الإسلام، فيدقُّ الصليب، ويكسرُ الخنزير، ويضعُ الجزية، ويُهلكُ في زمانه المللَ كلَّها إلاّ الإسلام، ويُهلكُ المسيحَ الدجال، فيمكثُ في الأرض أَربعين سنة،

ثم يُتَوَفّى، فيصلي عليه المسلمون...»[١].

ولقد مَرَّت بنا صفاتُ وأفعالُ عيسى عليه السلام بعد نزولِه في أحاديثَ سابقة.

والجديدُ في هذا الحديث تحديدُه المدةَ التي سيعيشُها عيسى عليه السلام بعد نزوله، حيث سيعيشُ أَربعين سنة.

ولا يَتعارضُ هذا التحديدُ مع بعضِ الروايات التي فيها تحديدُ المدةِ بسبع سنين، ومنها روايةٌ في صحيح مسلم.

روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال من جملةِ حديثٍ عن ظهورِ الدجال ونزولِ عيسى عليه السلام ومجيء أشراط الساعة: «.... فيبعثُ اللّهُ عيسى ابنَ مريم، كأَنه عروةُ بن مسعود فيطلُبُه، فيهلكه..

ثم يمكثُ الناسُ سبعَ سنين، ليسَ بين اثنين عداوة.

ثم يُرسلُ اللّهُ ريحاً باردةً من قِبَلِ الشام، فلا يَبقى على وجْهِ الأرض أَحَدٌ في قلبه مثقالُ ذرةٍ من خيرٍ أَو إِيمانٍ إلا قبضَتْه، حتى لو أَنَّ أحدَكم دخلَ في كَبِدِ جَبَلٍ لدخلَتْه عليه، حتى تقبضَه...»[٢].

وعروةُ بن مسعود الذي شبهَ رسولُ الله ﷺ عيسى به، صحابيٌّ ثقفيٌّ كان سيدَ ثقيف رضي الله عنه.

والسبعُ سنين المذكورةُ في الحديث ليس لمدةِ لبثِ عيسى في الأرض، فإنه سيلبثُ أَربعين سنة، كما في الحديثِ الصحيح السابق، وإنما هو لمدةِ حياةِ الناس بدونِ شحناء ولا بغضاء ولا عداوة: «ثم يمكث الناس سبع سنين...» و«الناس» فاعل. فالحديثُ عن الناسِ وليسَ عن عيسى عليه السلام!

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٩٤٠.

والراجحُ أنَّ السبعَ سنين في حديثِ ابن عمرو للتكثير.

والدليلُ على أنها للتكثير وليستْ للحصر، مجيئُها في بعضِ آياتِ للتكثير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ..﴾ [لقمان: ٢٧][1].

هذه أهمُّ وأصحُّ الأحاديثِ التي أَخْبَرَنا فيها رسولُ الله ﷺ عن نزولِ عيسى عليه السلام في آخر الزمان، ويجبُ علينا أنْ نقولَ بما قالَتْ هذه الأحاديث، وأنْ نعتقدَ نزولَه عليه الصلاة والسلام.

وقد لاحَظْنا من تلك الأحاديث أَنه ينزلُ بالإسلام، ويطبقُ رسالةَ محمدٍ رسولِ الله ﷺ، ولا ينزلُ برسالةٍ جديدة، بل يتبرأُ من النصارى، ويُلزمُهم بالدخولِ في الإسلام، ويَقضي على اليهود، ويُهلكُ المسيحَ الدجال.

أربع حكم لنزول عيسى عليه السلام:

وذكرَ العلماءُ بعضَ الحِكَمِ من نزولِه عليه الصلاة والسلام.

من هذه الحِكَم:

الأولى: الردُّ على اليهود في زعمِهم أَنهم قتلوه وصلبوه، وتَبَجُّحِهم بذلك: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ...﴾. فنزولُه في آخرِ الزمان تكذيبٌ من الله لهم.

وسيقومُ هو بقتلهم، وقتْلِ ملكِهم المسيح الدجال، فهو الذي يقتلُهم، وليسوا هم الذين قتلوه..

الثانية: يُنزلُهُ الله في آخر الزمان ليستكملَ باقي عمرِه الذي قَدَّرَهُ له، ثم يموت، ويُدفنُ في الأرض.

---

(١) انظر توجيه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة للسبع وللأربعين في تعليقه على الحديث في «التصريح فيما تواتر في نزول المسيح»: ١٢٧ ـ ١٢٩ حاشية.

إنَّ عيسى عليه السلام مخلوق، وهو حيٌّ في السماء حياةً غيبيةً خاصة، طيلةَ هذه القرون، ولا بدَّ أنْ يموت، لأنَّ البقاءَ لله الباقي وحده.

ولا يموتُ في السماء، ولا يُدْفَنُ في السماء، لأنَّ السماءَ ليست مكاناً لموت البشر، ولا مقبرةً لهم. فاللّهُ خلَقَ الناسَ من تراب الأرض، ودفَنَهم في ترابِ الأرض، ويبعثُهم من ترابِ الأرض: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾..﴾ [طه: ٥٥].

يُنزلُ اللّهُ عيسى عليه السلام إلى الأرض، ليموتَ على الأرض، ويُدفَنُ فيها، فالسماءُ ليست قبراً له..

الثالثة: تكذيبُه للنصارى في ادعاءاتِهم حولَه، وغُلُوِّهم فيه، فَيَدْعوهم إلى عبادةِ الله وحده، ويرفضُ ما قامَتْ عليه النصرانيةُ من أباطيل وأكاذيب، بكسرِه الصليب، وقتْلِه الخنزير.

ونزولُه حياً في آخرِ الزمان ردٌّ لأباطيلِ النصارى في أَنه قُتِل وصُلِب ومات، وخرجَتْ روحُه على الصليب[1].

الرابعة: شهادتُه العمليةُ لخاتمِ النبيين محمدٍ ﷺ، وللإسلام بأنه الشريعةُ الخاتمة، وإلغاؤه لما قبلَه من الديانات المنسوخة، كاليهودية والنصرانية.

وهذا تكذيبٌ آخرُ منه لليهودِ وللنصارى، الذين لم يعترفوا بنبوةِ ورسالةِ محمد ﷺ، فيشهدُ بأعمالِه وجهاده أنَّ محمداً ﷺ هو خاتمُ الأنبياء والمرسلين، وأنَّ رسالتَه هي خاتمةُ الرسالات.

خلاصة لأهم أحوال عيسى وأعماله وأحوال الناس عند نزوله:

ونختمُ كلامَنا عن نزولِ عيسى عليه السلام في آخرِ الزمان بذكْرِ خلاصةٍ لأَعمالِه وصفاتِه عند نزوله.

---

(١) انظر هذه الحكم في «التصريح فيما تواتر في نزول المسيح»: ٩٣ ـ ٩٤ حاشية.

نأخذُ هذه الخلاصةَ من الجدولِ الموجزِ النافعِ الذي أَعَدَّهُ الشيخُ محمد شفيع، مفتي باكستان، وتلميذُ الشيخ محمد أنور شاه الكشميري مؤلف كتابِ «التصريح فيما تواتر في نزول المسيح». وقد نشرَ الشيخُ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله هذا الجدول، وجعلَه ملحقاً لكتاب التصريح.

بعضُ أحوالِه عليه السلام وقتَ نزوله:

يلبسُ ثوبيْن أصفريْن. وينزلُ واضعاً يدَه على أجنحة مَلَكين. ولا يشمُّ كافرٌ أنفاسَه إلا مات. وتبلغُ أنفاسُه إلى نهاية طَرْفِه.

مكان وزمان نزوله:

ينزلُ عند المنارةِ البيضاء، في الجانبِ الشرقي من دمشق، في الشام، وعندَ إقامةِ صلاة الفجر.

بعضُ أحواله بعدَ نزوله:

يدعو إِمامَ المسلمين للإمامة في صلاة الفجر، ويصلّي هو خلْفَه مأموماً. ويقودُ المسلمين بعد ذلك، ويؤمُّهم في صلواتِهم، ويتولّى قيادتَهم في جهادِ الكفار، ويعيشُ بينَهم أربعين سنة.

أهمُّ أعماله بعد نزوله:

يكسرُ الصليب ويستأصلُ عبادته. ويقتلُ الخنزير. ويفتحُ باب المسجدِ بعد نزوله مباشرةً فيرى وراءَه الدجالَ ومجموعةً من اليهود. ويقاتلُ الدجالَ ومَنْ معه من اليهود. ويَقتلُ الدجال عند بابِ اللد. ويقتلُ كلَّ اليهودِ ويُبيدهم نهائياً. ويَشهدُ على اليهود كلُّ شيء من شجرٍ أَو حجر أو جدار. ويُبيدُ الكفارَ جميعاً. وينتهي الجهادُ بإبادةِ الكفار. ويضعُ الجزية. ويكثرُ المالُ بين الناس. ولا يوجَدُ فقراء يأخذونَ زكاةً أو صدقة. ويقومُ بأداءِ الحج والعمرة. ويُهِلُّ بهما من «فَجِّ الروحاء» قربَ المدينة. ويقاتلُ يأجوج ومأجوج.

أهمُّ مظاهر البركة بعد نزوله:

زوالُ التحاسدِ والتباغضِ والشحناء من قلوب الناس. ومضاعفةُ حجم الثمار، بحيث تكفي الرمانةُ الواحدةُ المجموعةَ من الناس، وكذلك عنقودُ العنب. البركةُ في اللبن بحيث يكفي لبنُ الناقة الجماعةَ الكبيرة. ويكفي لبنُ الشاة القبيلة. وزوالُ العداوة بين الإنسانِ والحيوانات. وزوالُ الآفاتِ والأخطار. وزوالُ العداوةِ بين الحيوانات بحيثُ يَمشي الذئبُ مع الغنم. وانتشارُ السلمِ والأمنِ بين الناس. وانتشارُ الغنى بينهم[1].

وبهذا ننهي كلامَنا عن قصةِ عيسى ابنِ مريم، عبدِ الله ورسولِه، صلى الله عليه وسلم.



(١) انظر الجدول المشار إليه كاملاً في كتاب التصريح: ٢٩٨ ـ ٣٠٨.

الخَاتِـــمَة

قمنا باستعراضِ موكبِ الأنبياءِ الكرامِ عليهم الصلاة والسلام، في هذه الدراسةِ القرآنيةِ الموسَّعة، ولِلّهِ الحَمدُ والشكر، على إِحسانِه وإنعامِه وإعانتِه وتوفيقِه.

وسِرْنا مع الأنبياءِ الكرام عليهم الصلاة والسلام على أساسِ التسلسلِ التاريخي، على المقطوعِ به عند بعضهم، وعلى ما رجَّحْناهُ عند آخرين، والتزَمْنا أنْ نبقى مع آياتِ القرآن، وما صَحَّ من حديثِ رسولِ الله ﷺ، ولم نخرجْ عن هذيْن المصدريْن الإسلامييْن اليقينييْن مطلقاً، ولِلّهِ الحمد، ولم نُثبتْ للأنبياء أيَّ خبرٍ أو حَدَثٍ أو قولٍ أو فعل، إلاّ ذكَرْنا على هذا دليلَنا من صريحِ القرآن وصحيح الحديث. ووفَّيْنا بعهدِنا في بدايةِ هذه الدراسة القرآنية في عدمِ الذهابِ إلى الإسرائيلياتِ والخرافاتِ والأساطير، وعدمِ إثباتِ أيِّ شيء إلاّ بإقامةِ الدليلِ عليه، ولله الحمد.

ولهذا نستطيعُ أنْ نقول: لقد جاءت هذه الدراسةُ «القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث» خاليةً من الإسرائيليات والخرافات، والأخبارِ التي لا دليلَ عليها، ولله الحمدُ والشكرُ والمنّة.

وعندما كنا نتحدثُ عن قصةِ النبي ـ أيِّ نبيٍّ عليه الصلاة والسلام ـ كنا نجمعُ الآياتِ من السور المختلفة، والأحاديثَ الصحيحة، ثم نرتبُ أحداثَ القصةِ حسبَ التسلسلِ التاريخي، على ما وفَّقَنا اللّهُ إلى ترجيحه.

بدأنا الحديثَ عن آدمَ أولِ الأنبياء عليه السلام، وختمناهُ بالحديث عن عيسى ابنِ مريم عليه السلام، آخرِ أنبياءِ بني إسرائيل، ولَمّا تحدَّثْنا عن حياةِ عيسى عليه السلام ختَمْنا حديثَنا عنه بالحديثِ عن نزولِه في آخرِ الزمان.

أما حياةُ حبيبنا ورسولِنا محمدٍ ﷺ، من خلالِ آياتِ القرآن، وصحيحِ السيرة، فإنها تَحتاجُ إِلى دراسةٍ خاصةٍ مستقلة، نسألُ اللّهَ أنْ يُعينَنا علَى القيام بها في أَقرب وقت، إن شاء الله.

وهناك بعضُ القصص القرآني تمثَّلَ في إشاراتٍ قرآنيةٍ سريعة لبعضِ قصصِ السابقين من غيرِ الأنبياء، لم نتحدثْ عنها في هذه الدراسةِ عن القصص القرآني، لأَنّا تحدَّثْنا عنها بالتفصيلِ في دراستِنا السابقة، التي صدرتْ قبلَ حوالي عشر سنوات، وهي «مع قصص السابقين في القرآن» بأَقسامِها الثلاثة.

من تلك القصص: قصةُ هاروت وماروت، وقصةُ الذي مر على القرية، في سورة البقرة، وقصةُ أصحاب السبت، وقصةُ الذي انسلخ من آيات الله، في سورة الأعراف، وقصةُ أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وقصةُ ذي القرنين في سورة الكهف، وقصةُ لقمان في سورة لقمان، وقصةُ سبأ في سورة سبأ، وقصةُ أصحاب القرية في سورة يّس، وقصةُ أصحاب الأخدود في سورة البروج.

فبما أَنّنا تحدَّثْنا عن هذه القصص في دراساتنا «مع قصص السابقين في القرآن» وبما أَنها قصصُ غيرِ أنبياءَ، على ما هو الراجح، فلذلك لم نجعلْ لها مكاناً في حديثِنا عن الأنبياء في هذه الدراسة.

ونُحيلُ الإخوةَ على كتابِنا السابق «مع قصص السابقين في القرآن» بأقسامِه الثلاثة، للوقوفِ على تلك القصص «القصيرة»!!.

ونقدمُ هذه الدراسةَ القرآنيةَ الموسعة «القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث» إِلى الإخوة الكرام، لعلَّهم يجدون فيها فائدةً أو نفعاً أو إضافة.

ونتقدمُ بهذه الدراسةِ القرآنية إلى اللّهِ تعالى، حامدين شاكرين له فضْلَه وإِنعامَه وتوفيقه، راجين منه سبحانه القبول والثواب.

ونسألُ اللّهَ أنْ يجعلَ القرآنَ الكريم ربيعَ قلوبنا، ونورَ صدورنا، وذهابَ همومنا، وجلاء أحزاننا، وأنْ يرزقَنا تلاوتَه آناءَ الليل وآناءَ النهار، وأنْ يعلِّمَنا منه ما جهلْنا، وأنْ يذكِّرَنا منه ما نسينا، وأنْ يجعلَه حجةً لنا يوم القيامة.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي
مساء الثلاثاء ٣٠/٤/١٤١٨هـ
٢/٩/١٩٩٧م



قائمة المراجع

١ ـ إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: أحمد بن محمد البنا، تحقيق الدكتور شعبان محمد إسماعيل، مكتبة الكليات الأزهرية وعالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢ ـ الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء: إبراهيم العلي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٣ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٤ ـ الاشتقاق: محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٥ ـ إنجيل برنابا: تحقيق سيف الله أحمد فاضل، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٦ ـ إنجيل متى: الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

٧ ـ البداية والنهاية: إسماعيل بن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٤م.

٨ ـ البيان في إعجاز القرآن: د. صلاح الخالدي، دار عمار، عمان، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٩ ـ التصريح بما تواتر في نزول المسيح: محمد أنور شاه الكشميري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١٠ ـ التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بدون تاريخ.

١١ ـ تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ.

١٢ ـ تفسير الطبري تقريب وتهذيب: الدكتور صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٣ ـ تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، مصورة بالأوفست.

١٤ ـ تفسير القرآن العظيم «تفسير ابن كثير»: إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الحديث، القاهرة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٥ ـ التفسير الكبير «تفسير الرازي»: محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

١٦ ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: الخطابي والرماني والجرجاني، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، بمصر، الطبعة الثانية ١٩٦٨م.

١٧ ـ الجامع لأحكام القرآن «تفسير القرطبي»: محمد بن أحمد الأنصاري، القرطبي، مؤسسة مناهل العرفان، دمشق، مصورة عن الطبعة المصرية.

١٨ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن «تفسير الطبري»: محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٩ ـ جامع العلوم والحكم: عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٢٠ ـ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه «صحيح البخاري»: محمد بن إسماعيل البخاري، بعناية محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم، دار الأرقم، بيروت ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢١ ـ الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: محمود صافي، دار الرشيد، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٢٢ ـ حجة القراءات: عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢٣ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد: د.صلاح الخالدي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٤ ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف «السمين الحلبي»، تحقيق الدكتور أحمد الخراط، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٥ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٢٦ ـ الرؤية: علي بن عمر الدارقطني، تحقيق إبراهيم العلي، وأحمد فخري الرفاعي، مكتبة المنار، الزرقاء، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.
٢٧ ـ الرسول المبلغ ﷺ: د.صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
٢٨ ـ سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، مصورة عن الطبعة المصرية.
٢٩ ـ سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، بعناية محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، مصورة عن الطبعة المصرية.
٣٠ ـ سنن الترمذي: أبو عيسى، محمد بن عيسى الترمذي، بعناية أحمد محمد شاكر، شركة مصطفى الحلبي، مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
٣١ ـ سنن النسائي: أحمد بن شعيب النسائي، بعناية عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٣٢ ـ السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق مصطفى السقا ورفيقاه، طبعة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م.
٣٣ ـ صحيح السيرة النبوية: إبراهيم العلي، دار النفائس، عمان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
٣٤ ـ صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٣٥ ـ عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أحمد بن يوسف «السمين الحلبي»، تحقيق د.محمد التونجي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
٣٦ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، مصورة عن الطبعة السلفية.
٣٧ ـ في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الحادية والعشرون ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
٣٨ ـ قاموس الكتاب المقدس: د.بطرس عبد الملك ورفيقاه، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة العاشرة ١٩٩٥م.

٣٩ ـ القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزابادي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٤٠ ـ قصص الأنبياء: إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق علي عبد الحميد بلطه جي ورفيقاه، دار الخير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
٤١ ـ قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار، دار إحياء التراث العربي، مصورة عن الطبعة المصرية.
٤٢ ـ الكتاب المقدس: العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
٤٣ ـ الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة: موريس بوكاي، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.
٤٤ ـ الكشاف «تفسير الزمخشري»: محمود بن عمر الزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، دار الريان، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٤٥ ـ الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية أبو البقاء: أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق د.عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
٤٦ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل «تفسير النسفي»: عبد الله بن أحمد النسفي، تحقيق مروان الشعار، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٤٧ ـ مسند أحمد بن حنبل: تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
٤٨ ـ معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
٤٩ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة مناهل العرفان، مصورة عن الطبعة المصرية.
٥٠ ـ معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
٥١ ـ المعجم الوسيط: أحمد حسن الزيات ورفاقه، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة، تركيا ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.
٥٢ ـ مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٥٣ ـ مع قصص السابقين في القرآن: د.صلاح الخالدي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٥٤ ـ ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق د.محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٥٥ ـ المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج: يحيى بن شرف النووي، مؤسسة مناهل العرفان، مصورة عن الطبعة المصرية.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

كُتب صدرت للمؤلف
مرتبة حسب صدور طبعاتها الأولى

١ ـ سيد قطب الشهيد الحي.
٢ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب.
٣ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب.
٤ ـ مدخل إلى «في ظلال القرآن».
٥ ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن.
٦ ـ في ظلال القرآن في الميزان.
٧ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن.
٨ ـ في ظلال الإيمان.
٩ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن.
١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات.
١١ ـ مع قصص السابقين في القرآن: ١ ـ ٣.
١٢ ـ البيان في إعجاز القرآن.
١٣ ـ ثواب للمسلم المعاصر.
١٤ ـ إسرائيليات معاصرة.
١٥ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد.
١٦ ـ لطائف قرآنية.
١٧ ـ هذا القرآن.
١٨ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية.
١٩ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد.
٢٠ ـ التفسير والتأويل في القرآن.
٢١ ـ الأتباع والمتبوعون في القرآن.
٢٢ ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق.
٢٣ ـ الخطة البراقة لذي النفس التواقة.
٢٤ ـ تفسير الطبري تقريب وتهذيب: ١ ـ ٧.
٢٥ ـ الرسول المبلغ ﷺ.
٢٦ ـ القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث: ١ ـ ٤.